

تفسير الثعالبی

المسحی

بالجواهر الحسان فی تفسیر القرآن

للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زهير الثعالبي المالكي

(٧٨٦ - ٨٧٥ هـ)

مقتضى أمثوله على أربع نسخ خطية وعشر عليه وفتح أمارته

الشيخ علي محمد معوض

والشيخ عادل أحمد عبد الموجود

ومشارك في تحقيقه

الأستاذ الدكتور عبد الفلاح أبو سنة

خبير التحقيق بمجمع البحوث الإسلامية

ومفتي الديار المصرية للأهل والشؤون الإسلامية

ومفتي الديار المصرية بالأزهر الشريف

الجزء الرابع

دار إحياء التراث العربي مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

دار إحياء التراث العربي

بيروت حارة حريك شارع دكاش بناية كليوباترا - بملكه

هاتف: 836551 - 836696 - 836766

تلكس: 23644 ص. ب: 11/7957 بيروت - لبنان

فاكس: 2124783422 001

تفسير الثعالبي
الجزء الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ مَزِيمٍ

هذه السورة مكية بإجماع إلا السجدة منها، فقيل: مكية.
وقيل: مدنيّة.

﴿كَهَيْعَصَ﴾ (١) ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) بَنَزَكْرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَدًى وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١).

قوله عز وجل: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ قد تقدّم الكلام في فوائح السور.
وقوله: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ مرتفع بقوله: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ في قول فرقة.
وقيل: إنه ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر، وحكى أبو عمرو الداني عن ابن يعمر^(١) أنه قرأ: ﴿ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾: بفتح الدال، وكسر الكاف المشددة، ونصب الرحمة.

وقوله ﴿نَادَى﴾: معناه بالدعاء والرغبة؛ قاله ابن العربي في «أحكامه»^(٢).
وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾: يناسب قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. [الأعراف: ٥٥].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي»^(٣)

(١) ينظر «مختصر الشواذ» ص (٨٦)، و«المحرر الوجيز» (١٤/٤)، و«البحر المحيط» (١٦٣/٦)، و«الدر المصون» (٤٩٠/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٥٠/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

وذلك؛ لَأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ الرِّياءِ، فَأَمَّا دُعَاءُ زَكْرِيَاءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّمَا كَانَ خَفِيًّا لَوْجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ لَيْلًا.

والثاني: أَنَّهُ ذَكَرَ فِي دُعَائِهِ أَحْوَالًا تَفْتَقِرُ إِلَى الْإِخْفَاءِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وِرَائِي﴾. وهذا مما يُكْتَمُ. انتهى.

و﴿وَمَنْ الْعَظَمُ﴾ معناه ضَعْفٌ، و﴿اشْتَعَلَ﴾ مُسْتَعَارٌ لِلشَّيْبِ مِنْ اشْتِعَالَ النَّارِ.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ شُكْرٌ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى سَالِفِ أَيْدِيهِ عِنْدَهُ، معناه: قَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ فِيمَا سَلَفَ، وَسَعَدْتُ بِدُعَائِي إِيَّاكَ؛ فَالْإِنْعَامُ يَقْتَضِي أَنَّ يَشْفَعَ أَوَّلُهُ آخِرَهُ.

ت: وكذا فَسَّرَ الدَّأُوْدِيُّ، وَلَفْظُهُ: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»، يَقُولُ: كُنْتُ تَعْرِفُنِي الْإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، وَقَالَه قَتَادَةُ: انتهى.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي...﴾ الآية، قِيلَ: معناه خَافَ أَنْ يَرِثَ الْمَوَالِي مَالَهُ، وَالْمَوَالِي: بَنُو الْعَمِّ، وَالْقَرَابَةُ.

وقوله ﴿مَنْ وِرَائِي﴾ أَيُّ: مِنْ بَعْدِي.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِنَّمَا كَانَ مَوَالِيَهُ مَهْمَلِينَ لِلدِّينِ؛ فَخَافَ بِمَوْتِهِ أَنْ يُضَيَعَ الدِّينُ؛ فَطَلَبَ وَلِيًّا يَقُومُ بِالدِّينِ بَعْدَهُ؛ حَكَى هَذَا الْقَوْلَ: الزَّجَّاجُ، وَفِيهِ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ زَكْرِيَاءُ مِنْ يَرِثُ مَالَهُ؛ إِذِ الْأَنْبِيَاءُ لَا تُورَثُ.

قال: *ع^(١)*: وهذا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ^(٢) ﷺ: «إِنَّا مَغْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ» ^(٣). وَالْأَظْهَرُ الْأَلْبَقُ بِزَكْرِيَاءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرِيدَ وَرَاثَةَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، فَتَكُونُ الْوَارِثَةُ

(١) ينظر: «المحور الوجيز» (٤/ ٤ - ٥).

(٢) في ج: قول النبي.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٧-٢٢٨) كتاب «فرض الخمس»: باب فرض الخمس، حديث (٣٠٩٤)، (٧/ ٣٨٩) كتاب المغازي باب حديث لبني النضير، حديث (٤٠٣٣)، (٩/ ٤١٢-٤١٣) كتاب «النفقات»: باب حبس الرجل قوت سنة على أهله، حديث (٥٣٥٨)، (١٣/ ٢٩١-٢٩٠) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»: باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع، حديث (٧٣٠٥)، ومسلم (٣/ ١٣٧٧-١٣٧٩) كتاب «الجهاد»: باب حكم الفبيء، حديث (١٧٥٧/٤٩)، وأبو داود (٢/ ١٥٤-١٥٦) كتاب «الخراج»: باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال، حديث (٢٩٦٣)، والترمذي (٤/ ١٥٨) كتاب «السير»: باب ما جاء في تركة رسول الله ﷺ، حديث (١٦١٠)، وفي «الشمائل» (٢١٦)، =

مستعارة، وقد بلغه الله أمله.

قال ابن هشام: «مِنْ وراءِي» متعلّق بِـ «الموالي»، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من^(١) الموالي، أو مُضَافٌ إِلَيْهِمْ، أي: كائِنَ مِنْ وَرَائِي، أو فعل الموالي مِنْ وَرَائِي، ولا يصحّ تعلقه بِـ «خِفْتُ»؛ لفساد المعنى. انتهى من «المغني».

و«خِفْتُ الْمَوَالِي» هي قراءة الجمهور^(٢)، وعليها هو هذا التفسير.

وقرأ عثمانُ بْنُ عَمَّانٍ، وزيدُ بْنُ ثابتٍ، وابنُ عباسٍ^(٣)، وجماعةٌ «خَفْتُ» بفتح الخاء، وفتح الفاء وشدها، وكسّر التاء، والمعنى على هذا: قد انقَطَعَ أَوْلِيائِي، وماتُوا، وعلى هذه القراءة، فإنما طلب وَلِيًّا يقوم بالدين.

قال ابنُ العربي^(٤) في «أحكامه»: ولم يخف زكرياء وارثَ المالِ، وإنما أراد إِرْثَ

= وعبد الرزاق (٩٧٧٢)، وأبو يعلى (١٢/١، ١٣) رقم: (٢، ٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٨/ ٢٠٧- الإحسان) حديث (٦٥٧٤)، والبيهقي (٢٩٧/٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٦٣١، ٦٣٢- بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب به، وفيه قصة طويلة.

وأخرجه مالك (٩٩٣/٢) كتاب الكلام: باب ما جاء في تركة النبي ﷺ، حديث (٢٧)، والبخاري (٧/١٢، ٨) كتاب «الفرائض»: باب قول النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» حديث (٦٧٢٧، ٦٧٣٠)، ومسلم (٣/١٣٧٩) كتاب «الجهاد والسير»: باب قول النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة» حديث (٥١/١٧٥٨)، وأبو داود (٢/١٦٠، ١٦١) كتاب «الخراج والفيء والإمارة»: باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال، حديث (٢٩٧٦، ٢٩٧٧)، والنسائي (٧/١٣٢) كتاب «قسم الفيء»، وأحمد (٦/١٤٥، ٢٦٢)، وعبد الرزاق (٩٧٧٤)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (١٠٩٨)، وابن حبان (٨/ ٢٠٩- الإحسان) رقم (٦٥٧٧)، «والبيهقي» (٦/٢٩٧، ٢٩٨) كلهم من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ، قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»؟! وفي بعض طرق الحديث أن راوي هذا الحديث هو أبو بكر.

(١) لأنه في الأصل صفة للنكرة، فقدّم عليها.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٥)، «والبحر المحيط» (٦/١٦٥)، «والدر المصون» (٤/٤٩١).

(٣) قرأ بها محمد بن علي، وعلي بن الحسن، وسعيد بن العاص، وابن يعمر، وسعيد بن جبير، وشبيل بن عزة.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص (٨٦)، «والمحتسب» (٢/٣٧)، «والكشاف» (٣/٤)، «والمحرر الوجيز» (٤/٥)، «والبحر المحيط» (٦/١٦٥)، وزاد نسبتها إلى الوليد بن مسلم عن ابن عامر.

وهي في «الدر المصون» (٤/٤٩١).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٥٠).

النبوة، وعليها خاف أن تخرج عن عَقْبِهِ، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّا - مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ - لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»^(١) انتهى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهما - رضي الله عنهم - «يَرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»^(٢).

***: وقوله: «فهب لي» قال ابن مالك في «شرح الكافية» اللام هنا: هي لام التعديّة؛ وقاله ولده في «شرح الخلاصة».

قال ابن هشام: والأوّلَى عندي أن يمثل للتعديّة بنحو: ما أكرم زيداً لعمرو، وما أحبه لبكر، انتهى.

١٢ وقوله: «من آل يعقوب» يريد يرث منهم الحكمة / والعلم، والنبوة، و«رضياً» معناه: مرضياً، والعافر من النساء التي لا تلد من غير كبرة، وكذلك العافر من الرجال.

وقوله: «لم نجعل له من قبل سمياً» معناه في اللغة: لم نجعل له مُشَارِكاً في هذا الاسم، أي: لم يسم به قبل يحيى، وهذا قول ابن عباس^(٣) وغيره.

وقال مجاهد^(٤) وغيره: «سمياً» معناه: مثيلاً، ونظيراً، وفي هذا بعد: لأنه لا

(١) ينظر الحديث السابق.

(٢) وبها قرأ عاصم الجحدري، وابن يعمر، وأبو حرب بن أبي الأسود، والحسن، وقتادة، وأبو نهيك، وجعفر بن محمد.

قال أبو الفتح: هذا ضرب من العربية غريب، ومعناه التجريد، وذلك أنك تريد: فهب لي من لدنك ولياً يرثني منه أو به وارث من آل يعقوب.

وهو الوارث نفسه، فكأنه جرد منه وارثاً. ومثله قول الله تعالى: «لهم فيها دار الخلد» [فصلت: ٢٨]،

فهي نفسها دار الخلد، فكأنه جرد من الدار داراً، وعليه قول الأخطل: [الطويل]

بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لا يُفْلَى ولا هو يَفْمَلُ

ومصعب نفسه هو الأشعث، فكأنه استخلص منه أشعث. ١. هـ.

ينظر: «المحتسب» (٣٨/٢)، «ومختصر الشواذ» (٨٦)، «والكشاف» (٥/٣)، «والمحرر الوجيز» (٤/

٥)، «والبحر المحيط» (١٦٥/٦)، «والبر المصون» (٤٩٢/٤)،

(٣) ذكره ابن عطية (٦/٤)، والسيوطي (٤٦٨/٤) وعزاه إلى الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد،

وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٣٠٩/٨) برقم: (٢٣٥٠٥)، وذكره ابن عطية (٦/٤)، وابن كثير (١١٢/٣)،

والسيوطي (٤٦٨/٤).

يفضل على إبراهيم وموسى عليهما السلام إلا أن يفضل في خاص؛ كالسودد^(١)،
والحصر.

والعتي، والعسي: المبالغة في الكبر، أو يُنس العود، أو شيب الرأس، أو عقيدة ما،
وزكرياء: هو من ذرية هارون - عليهما السلام - ومعنى قوله: ﴿سَوِيًّا﴾ فيما قال الجمهور،
صحيحاً من غير علة، ولا خرس.

وقال ابن عباس: ذلك عائذ على الليالي، أراد: كاملات مستويات^(٢).

وقوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ قال قتادة^(٣)، وغيره: كان ذلك بإشارة.

وقال مجاهد^(٤): بل بكتابة في التراب.

قال *ع^(٥): *وَكَلَّا الْوَجْهَيْنِ وَخِي.

وقوله: ﴿أَنْ سَبَحُوا﴾ قال قتادة: معناه صلوا السُّبُحَةَ، والسُّبُحَةُ: الصلاة^(٦)، وقالت
فرقة: بل أمرهم بذكر الله، وقول: سُبْحَانَ اللَّهِ.

﴿يَخِيحُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَمَا تَنْتَهُ الْكُفْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾

وقوله - عز وجل - : [﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ المعنى: قال الله له: يَا يَحْيَى^(٧)
خذ الكتاب، وهو التوراة، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: العلم به، والحفظ له، والعمل به،
والالتزام للوازمه.

(١) السُّودْدُ: الشرف، وقد يهمز وتضم الدال.

ينظر: «لسان العرب» (٢١٤٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٣١٤/٨) رقم (٢٣٥٣٩)، وذكره ابن عطية (٧/٤)، والبغوي (٣/١٩٠)، وابن كثير (١١٣/٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٧) سقط في ج.

وقوله: ﴿صَبِيًّا﴾ يريد: شاباً لم يبلغ حد الكهولة، ففي لفظ صبي على هذا، تجوز، واستصحاب حال.

وروى مَعْمَرُ أَنَّ الصَّبِيَّانَ دَعَا يَخْيَى إِلَى اللَّعْبِ، وَهُوَ طِفْلٌ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِلْعَبِّ، فَتِلْكَ الْحِكْمَةُ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ صَبِيٌّ^(١)، وقال ابن عباس: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكمة صَبِيًّا^(٢). «والحنان»: الرحمة، والشفقة، والمحبة؛ قاله جمهور المفسرين، وهو تَفْسِيرُ اللغة؛ ومن الشواهد في «الْحَنَانِ» قول النابغة: [الطويل]

أَبَا مُنْذِرٍ، أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَغْضَنَا حَنَانِيكَ بَغْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَغْضِ^(٣)
وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ بمعنى تعظيماً مِنْ لَدُنَّا^(٤).

قال *ع^(٥)*: وهو أيضاً ما عظم من الأمر لأجل الله عز وجل ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال: واللّه، لَئِنْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْعَبْدَ لَأَتَّخِذَنَّ قَبْرَهُ حَنَانًا^(٦).

قال *ص^(٧)*: قال أبو عبيدة: وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ مَثْنَى. انتهى، والزكاة التنمية، والتطهير في وجوه الخير.

قال مجاهد: كان طعامُ يَخْيَى العُشْبَ، وكان للدمع في حده مجارٍ ثابتة، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا^(٧)، روي أن يحيى عليه السلام لم يواقع معصية قط صغيرة ولا كبيرة، والبر كثير البر، والجبار: المتكبر، كأنه يجبر الناس على أخلاقه.

(١) أخرجه الطبري (٣١٥/٨) برقم: (٢٣٥٤٨)، وذكره ابن عطية (٧/٤)، وابن كثير (١١٣/٣)، والسيوطي (٤٧٠/٤)، وعزاه لأحمد في «الزهد»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي، وابن عساكر عن معمر بن راشد.

(٢) ذكره ابن عطية (٧/٤)، والبغوي (١٩٠/٣) والسيوطي (٤٧٠/٤)، وعزاه لابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً.

(٣) البيت لطرفة بن العبد في «ديوانه» ص (٦٦)، و«الدور» (٦٧/٣)، و«الكتاب» (٣٤٨/١)، و«ولسان العرب» (١٣٠/١٣) (حنن)، و«همع الهوامع» (١٩٠/١)، وبلا نسبة في «جمهرة اللغة» ص (١٢٧٣)، و«شرح المفصل» (١١٨/١)، و«المقتضب» (٢٢٤/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٣١٦/٨) رقم (٢٣٥٥٩)، وذكره ابن عطية (١١٣/٣).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٧/٤).

(٧) ذكره ابن عطية (٨/٤).

وقوله: ﴿وسلام عليه﴾ قال الطبري^(١)، وغيره: معناه وأمان عليه.

قال *ع^(٢): ﴿والأظهر عندي: أنها التَّحِيَّةُ المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصِّل له بنفي العُضَيَّان عنه، وهو أَقْلُ درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه، وحيَّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضَّغْفِ، والحاجة، وقَلَّةِ الحيلة.﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، الكتاب: هو الْقُرْآنُ، والانتِباد: التنجِي.

قال السُّدِّي: انتبذت لتطهر من حيض^(٣)، وقال غيره: لتعبد الله عز وجل.

قال *ع^(٤): ﴿وهذا أحسن.﴾

وقوله: ﴿شَرْقِيًّا﴾ يريد: في جهة الشرق من مساكن أهلها، وكانوا يعظمون جهة المَشْرِق؛ قاله الطبري.

وقال بعضُ المفسرين: اتخذت المكانَ شرقي المحراب.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾، أي: لتستتر به عن الناس؛ لعبادتها. «والروح»: جبريل عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾، المعنى: قالت مريمُ للملك الذي تمثَّل لها بشراً، لما رآته قد خرق الحِجَابَ / الذي اتخذته؛ فأساءت به الظن: ٢ ب أعوذُ بالرحمن منك إن كنت ذا تُقَى، فقال لها جبريلُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

(١) ينظر «الطبري» (٣١٨/٨).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٨/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٩/٨) برقم (٢٣٥٧٢)، وذكره ابن عطية (٩/٤)، وابن كثير (١١٤/٣) بمعناه.

(٤) ينظر «المحرر الوجيز» (٩/٤).

وقرأ أبو عمرو^(١) ونافع بخلاف عنه «لِيَهَبَ»^(٢).

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بِغَيًّا﴾ (٢٥) ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً﴾ (٢٦) ﴿لَتَنَالَيْنَ رَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٢٦) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٧) ﴿فَلَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (٢٨).

﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾، والبغي: الزانية، وروي: أن جبريل - عليه السلام - حين قاولها هذه المقالة، نفخ في جيب درعها؛ فسرت النفخة بإذن الله تعالى حتى حملت منها؛ قاله وهب بن مئب، وغيره^(٣).

وقال أبي بن كعب^(٤): دخل الروح المنفوخ من فمها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فحملته﴾ أي: فحملت الغلام، ويذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة، فلما أحست بذلك، وخافت تعنيف الناس، وأن يُظنَّ بها الشرُّ ﴿انتبذت﴾ أي: تحت مكاناً بعيداً؛ حياءً وفراراً على وجهها، و﴿أجاءها﴾ معناه: اضطرها، وهو تعدية [جاء] بالهمزة.

و﴿المخاض﴾: الطلق، وشدة الولادة، وأوجاعها، وروي: أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة بال يابس، في أضله مذود بقرة، على جرية ماء، فاشتدَّ بها الأمرُ هنالك، واحتضنت الجذع؛ لشدة الوجع، وولدت عيسى عليه السلام فقالت عند ولادتها؛ لما رأت من صعوبة الحال من غير ما وجه: ﴿يا ليتني مت قبل هذا﴾ فتمنت الموت من جهة الدين؛ أن يُظنَّ بها الشر، وخوف أن تُفتن بتغيير قومها، وهذا مباح؛ وعلى هذا الحد تمناه عمر - رضي الله عنه -.

(١) وأما قراءتهما، فإنهما أسندا الفعل إلى ضمير «ربك»، فكانه قال: «ليهب الله «أو ربك» لك»، ولم يكن جبريل الذي يهب بل الله سبحانه.

وأما قراءة الباقرين، فقد أسندا الفعل للمتكلم، والهة لله سبحانه، ومنه أمر الرسول والوكيل قد يسندان هذا النحو إلى أنفسهم وإن كان الفعل للمرسل والموكل.

ينظر: «السبعة» (٤٠٨)، و«الحجة» (١٩٥/٥)، و«أعراب القراءات» (١٤/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٣٢)، و«حجة القراءات» (٤٤٠) و«شرح الطيبة» (٣٠/٥)، و«العنوان» (١٢٦)، و«شرح شعلة» (٤٨٥)، و«إتحاف» (٢/٢٣٤).

(٢) في ج: لأهب.

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٢/٨) برقم (٢٣٥٩١)، وذكره ابن عطية (١٠/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (١٠/٤)، والبغوي (١٩٢/٣).

﴿وَكُنْتَ نَسِيًّا﴾ أي: شَيْئًا مَثْرُوكًا مُحْتَقَرًا، وَالنَّسِيُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ يُنْسَى، فَلَا يَتَأَلَّمُ لِفَقْدِهِ؛ كَالْوَتْدِ، وَالْحَبْلِ لِلْمَسَافِرِ، وَنَحْوِهِ.

وهذه القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عُزْفِ الْبَشَرِ، وَاسْتَحْيَتْ مِنْ ذَلِكَ؛ وَمَرَّتْ بِسَبَبِهِ، وَهِيَ حَامِلٌ، وَهُوَ قَوْلُ جَمْهُورِ الْمُتَأَوِّلِينَ.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ليس إلا أن حملت، فوضعت في ساعة واحدة؛ والله أعلم^(١).

وظاهر قوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أنها كانت على عُزْفِ النِّسَاءِ.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكَ بِمِخْنٍ أَنْخَلَوْ شَقِيقَ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٥) فَكَلِمًا وَأَشْرَى وَفَرَى عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَبْرَأَتُ لَكُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِنِيًّا﴾ (٢٨).

وقوله سبحانه: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم^(٢): «فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتِهَا» على أن «مَنْ» فاعل بنادي، والمراد بـ «مَنْ» عيسى؛ قاله مجاهد، والحسن، وابن جبير، وأبي بن كعب^(٣).

(١) أخرجه الطبري (٣٢٥/٨) برقم (٢٣٦٠٥)، وذكره ابن عطية (١١/٤)، والبغوي (١٩٢/٣)، وابن كثير (١١٦/٣).

(٢) إنما قرأها عاصم هكذا من رواية أبي بكر، وإلا فهي من رواية حفص المشهورة مثل الباقيين «من تحتها». وحجة هؤلاء أنه روي عن أبي قال: الذي خاطبها هو الذي حملته في جوفها. وحجة الباقيين ما روي عن ابن عباس أنه قال: «من تحتها»: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

ينظر: «السبعة» (٤٠٨ - ٤٠٩)، و«الحجة» (١٩٧/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦/٢)، و«معاني القراءات» (١٣٣/٢)، و«شرح الطيبة» (٣٢/٥)، و«العنوان» (١٢٦)، و«شرح شعلة» (٤٨٥)، و«حجة القراءات» (٤٤١)، و«إتحاف» (٢٣٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٧/٨) عن مجاهد برقم (٢٣٦٢٦)، والحسن برقم (٢٣٦٣١)، وابن جبير برقم (٢٣٦٣٣)، وأبي بن كعب (٢٣٦٣٥)، وذكره ابن عطية (١١/٤)، والبغوي (١٩٢/٣) عن مجاهد والحسن، وابن كثير (١١٧/٣) عن مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، والسيوطي (٤٨٢/٤) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

والثاني: عزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن. والثالث: عزاه لابن المنذر عن أبي بن كعب.

وقال ابن عباس: المراد بـ «مَنْ» جَبْرِيلُ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها^(١).
والقول الأول أظهر وأبين، وبه يتبين عُذر مريم، ولا تبقى بها استرابة.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحَفْصٌ عن عَاصِمٍ: «مِنْ تَخْتِهَا» بكسر الميم،
واختلفوا أيضاً فقالت فرقة: المرادُ عِيسَى، وقالت فرقة: المرادُ جَبْرِيلُ المحاور لها قَبْلُ.
قالوا: وكان في بُقْعة أخفَضَ من البُقْعة التي كانت هي عليها؛ والأول أظهر.
وقرأ ابن عباس^(٢): «فَتَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَخْتِهَا».

والسري: من الرجال العظيم السيد، والسري: أيضاً الجدول من الماء؛ وبحسب هذا
اختلف الناس في هذه الآية.

فقال قتادة، وابن زيد: أراد جعل تحتك عَظِيماً من الرجال، له شأن^(٣).
وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول، ثم أمرها بهز الجذع اليابس؛ لترى آية
أخرى.

وقالت فرقة: بل كانت النخلة مطعمة رطباً، وقال السدي: كان الجذع مقطوعاً،
وأجري تحتها النهر لحينه^(٤).

قال ع^(٥): «الظاهر من الآية: أن عيسى هو المكلم لها، وأن الجذع كان يابساً؛
فهي آيات تسليها، وتسكن إليها».

قال ع^(٥): قوله: «وَهْزِي إِلَيْكَ» تقرر في علم النحو أن الفعل لا يتعدى إلى
ضمير متصل، وقد رفع المتصل، وهما لمدلول واحد، وإذا^(٦) تقرر هذا؛ فـ «إِلَيْكَ» لا
يتعلق بـ «هْزِي»، ولكن يمكن أن يكون «إِلَيْكَ» حالاً من جذع النخلة؛ فيتعلق بمحذوف؛
أي: هزي بجذع النخلة مُنْتَهياً إِلَيْكَ. انتهى.

(١) أخرجه الطبري (٣٢٧/٨) برقم (٢٣٦٢٥)، وذكره ابن عطية (١١/٤)، والبغوي (١٩٢/٣)، وابن كثير

(١١٧/٣)، والسيوطي (٤٨٢/٤)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١/٤)، «والبحر المحيط» (١٧٣/٦).

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٠/٨) عن قتادة برقم (٢٣٦٥٦)، وابن زيد برقم (٢٣٦٥٧)، وذكره ابن عطية (٤/

١١)، وابن كثير (١١٧/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٠/٤) برقم (٢٣٦٦٢)، وابن عطية (١١/٤).

(٥) ينظر «المحرر الوجيز» (٤/ ١١-١٢).

(٦) في ج: تقدر.

والباء في قوله: ﴿بِجُذَعٍ﴾: زائدة مؤكدة، ﴿وَجَنِيَّتًا﴾: معناه: قد طابت / وصلحت ١٣ للاجتناء، وهو من جَنَيْتِ الثمرة.

وقال عَمْرُو بْنُ مَيْمُون^(١): ليس شيءٌ لِلْفَسَاءِ خيراً من الثمر، والرُّطْب.

وقرء العَيْنُ مأخوذة من القُر؛ وذلك، أَنَّهُ يحكى: أن دمع الفرح باردُ المس، ودمع الحُزن سخن المس^(٢)، وقيل: غير هذا.

قال *ص*: ﴿وقري عينا﴾ أي: طيبي نفساً. أبو البقاء: «عينا»: تمييز. اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا...﴾ الآية، المعنى: أن الله عز وجل أمرها على لسان جِبْرِيلَ عليه السلام أو ابنها؛ على الخلاف المتقدم: بأن تُمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك؛ ليرتفع عنها خجلها، وتبين الآية؛ فيقوم عذرها.

وظاهر الآية: أنها أُبِيحَ لها أن تقولَ مضمن هذه الألفاظ التي في الآية؛ وهو قول الجمهور.

وقالت فرقة: معنى ﴿قولي﴾ بالإشارة، لا بالكلام.

قال *ص*: وقوله: ﴿فقولي﴾ جوابُ الشرط، وبينهما جملةٌ محذوفةٌ يدل عليها المعنى؛ أي فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا، وسألك أو حاورك الكلام، فقولي. انتهى.

﴿وصوما﴾ معناه عن الكلام؛ إذ أصلُ الصوم الإمساك.

وقرأت فرقة: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَمْتًا» ولا يجوز في شَرْعِنَا نَذَرُ الصمِّ؛ فروي: أن مريم عليها السلام لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرَها، أتت به تحمله مدلة من المكان القصي الذي كانت مُتنبذة به، والفري: العظيم الشنيع؛ قاله مجاهد^(٣)، والسُدِّي، وأكثر استعماله في السوء.

(١) ذكره ابن عطية (١٢/٤).

(٢) في ج: الملمس.

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٥/٨) عن مجاهد برقم (٢٣٦٨٢)، وعن السدي برقم (٢٣٦٨٥)، وذكره ابن عطية (١٣/٤)، والبخاري (١٩٣/٢)، وابن كثير (١١٨/٣)، والسيوطي (٤٨٦/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

واختُلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، ف قيل: كان لها أخ اسمه هارون؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل.

وروى المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ أرسله إلى أهل نَجْرَانَ في أمر من الأمور، فقالت له النصارى: إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون، وبينهما في المدة ست مائة سنة.

قال المغيرة: فلم أدر ما أقول، فلما قدمت على النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: أَلَمْ يَعْلَمُوا أنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين^(١).

قال ع^(٢): * : فالمعنى أنه اسم وافق اسماً.

وقيل: نسبوها إلى هَارُونَ أَخِي مُوسَى؛ لأنها من نسله؛ ومنه قوله ﷺ: «إِنْ أَخَا ضَدَاءٍ أَذَّنَ، وَمَنْ أَذَّنَ، فَهُوَ يُقِيمُ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٦٨٥/٣) كتاب الآداب: باب النهي عن التكني بأبي القاسم، حديث (٢١٣٥/٩)، والترمذي (٣١٥/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة مريم، حديث (٣١٥٥)، والنسائي في التفسير (٢/٢٩) رقم (٣٣٥)، وأحمد (٢٥٢/٤)، وابن أبي شيبة (٥٥١/١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٦/٧٧-٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤١١/٢٠) رقم (٩٨٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/٣٩٢)، وابن حبان (٦٢٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/١٩٤) كلهم من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة به.

وقال الترمذي: حديث صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن إدريس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٦/٤)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (١٣/٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩/٤)، وأبو داود (٣٥٢/١): كتاب الصلاة: باب في الرجل يؤذن، ويقيم آخر، الحديث (٥١٤)، والترمذي (١/٣٨٤): كتاب الصلاة: باب ما جاء أن من أذن فهو يقيم، الحديث (١٩٩)، وابن ماجه (٢٣٧/١): كتاب الأذان: باب السنة في الأذان، الحديث (٧١٧)، والبيهقي (١/٣٩٩): كتاب الصلاة: باب الرجل يؤذن ويقيم غيره، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥٠٣/٧)، وأبو نعيم (٢٦٦/١) في «التاريخ»، من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفرقي، عن زياد بن نعيم الحضرمي، عن زياد بن الحارث الصدائي به، وقال الترمذي: (إنما يعرف من حديث الأفرقي. . . وقد ضعفه القطان وغيره. . . قال: ورأيت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - يقوي أمره، ويقول: هو مقارب الحديث).

وللحديث شاهد من حديث ابن عمر:

قال: أبطأ بلال يوماً بالأذان، فأذن رجل، فجاء بلال فأراد أن يقيم، فقال رسول الله ﷺ: «يقيم من أذن» . =

وقال قتادة: نسبوها إلى هَارُونَ اسم رَجُلٍ صَالِحٍ في ذلك الزمان^(١).

وقالت فرقة: بل كان في ذلك الزمان رجلٌ فَاجِرٌ اسمه هَارُونَ نسبوها إليه؛ على جهة التَّغْيِيرِ.

ت: واللَّهُ أعلمُ بصحة هذا، وما رواه المُغِيرَةُ إِنَّ ثَبِتَ هو المَعُولُ عليه، وقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ المعنى: ما كان أَبُوكَ، ولا أَمَلُكَ أَهْلًا لهذه الفِغْلَةِ، فكيف جِئْتَ أنت بها؟ والبَغْيُ: الَّتِي تَبْغِي الزَّنا، أي: تطلبه.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ يقوي قول مَنْ قال: إِنَّ أَمْرَهَا بِـ ﴿قُولِي﴾، إنما أريد به الإشارة.

وقوله: ﴿آتَانِي الكتاب﴾ يعني الإنجيل، ويحتمل أن يريد التوراة والإنجيل، و«آتَانِي» معناه: قضى بذلك - سُبْحَانَهُ - وأَنفَذَهُ في سَابِقِ حُكْمِهِ، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿آتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ قيل: هما المشروعتان في البدن، والمال.

وقيل: الصلاة: الدعاء، والزكاة: التطهُُّرُ من كُلِّ غَيْبٍ، ونَقْصٍ، ومعصية. والجبار: المتعَظُّمُ؛ وهي خلق مقرونة بالشقاء؛ لأنَّها مناقضة لجميع الناس، فلا يلقى صاحبها من كل أحد إلا مكروهًا، وكان عيسى عليه السلام في غاية التَّوَاضُعِ؛ يأكلُ الشجر، ويلبَسُ الشَّعْرَ، ويجلس على الأرض، ويَأْوِي حيث جَنَّهُ الليل. لَا مَسْكَنَ لَهُ.

= أخرجه عبد بن حميد في «المتخَب من المسند» (ص - ٢٥٨)، رقم (٨١١)، والبيهقي (٣٩٩/١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٠٥/٢) من طريق سعيد بن راشد السماك، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر به، وقال البيهقي: تفرد به سعيد بن راشد، وهو ضعيف. وأخرج العقيلي (١٠٥/٢) بسنده عن يحيى بن معين، قال: سعيد بن راشد السماك يروي «من أذن فهو يقيم»، ليس حديثه بشيء.

(١) أخرجه الطبري (٣٣٥/٨) برقم (٢٣٦٨٧)، وذكره ابن عطية (١٤/٤)، والبغوي (١٩٣/٣)، وابن كثير (١١٩/٣).

قال قتادة: وكان يقول: سَلُونِي؛ فَإِنِّي لَتِنَ الْقَلْبِ، صَغِيرٌ فِي نَفْسِي^(١).

وقالت فرقة: إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَهُوَ فِي سِنِّ الطُّفُولِيَّةِ، وَكَانَ يَصُومُ، وَيُصَلِّي.

٣ ب قال *ع^(٢): / وهذا في غاية الضَّعْف.

ت: وضعفه مِنْ جِهَةٍ سَنَدِهِ؛ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ لَا يَجِيلُهُ؛ لَا سِيَّما وَأَمْرُهُ كُلَّهُ خَرَقَ عَادَةً، وَفِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، وَغَيْرِهِ: أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ عِيسَى أَدْعَنُوا وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ عَظِيمٌ.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فُتِنَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ المعنى: قل يا محمد، لمعاصريك من اليهود والنصارى ذلك الذي هذه قِصَّتُهُ؛ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ.

وقرأ نافع، وعامة الناس^(٣): «قَوْلُ الْحَقِّ» برفع القول؛ على معنى هذا هو قول الحق.

وقرأ عاصم، وابن عامر: «قَوْلُ الْحَقِّ» بنصب اللام^(٤)؛ على المصدر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ...﴾ الآية، هذا من تمام القول الذي أمر به محمد ﷺ: أَنْ يَقُولَهُ، ويحتمل أَنْ يكون من قول عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويكون قوله: «أَنَّ» بفتح الهمزة، عطفاً على قوله: «الكتاب».

وقد قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: عهد عيسى إليهم: أَنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣٣٩/٨) برقم (٢٣٧١٣)، وذكره ابن عطية (١٥/٤).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (١٥/٤).

(٣) ينظر: «السبعة» (٤٠٩)، و«الحجة» (٢٠١/٥)، و«إعراب القراءات» (١٨/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٣٥)، و«شرح الطيبة» (٣٤، ٣٣/٥)، و«العنوان» (١٢٧)، و«شرح شعلة» (٤٨٦)، و«حجة القراءات» (٤٤٣)، و«إتحاف» (٢٣٦/٢).

(٤) في ج: القول.

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٢/٨) رقم (٢٣٧٢١) بنحوه، وذكره ابن عطية (١٥/٤).

ت*: وما ذكره وَهَبُ [مصرح به في القرآن، ففي آخر المائدة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾ الآية. [المائدة: ١١٧]. وامترواؤهم^(١) في عيسى هو اختلافهم؛ فيقول بعضهم: لَزَيْتُهُ، وهم اليهود، ويقول بعضهم: هو الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فهذا هو امتراؤهم، وسيأتي شرح ذلك بإثر هذا.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ هذا ابتداء خبر من الله تعالى لمحمد ﷺ بأن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً، أي: فرقاً.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ بمعنى: من تلقائهم، ومن أنفسهم ثار شرهم، وإن الاختلاف لم يخرج عنهم؛ بل كانوا هم المختلفين.

وروي في هذا عن قتادة: أَنَّ بني إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعة أحبار غاية في المَكَانَةِ والْجَلَالَةِ عندهم وطلبوهم أن يبينوا لهم أَمْرَ عيسى فقال أحدهم: عيسى هو الله؛ تعالى الله عن قولهم.

وقال له الثلاثة: كذبت، واتبعه اليعقوبية، ثم قيل للثلاثة؛ فقال أحدهم: عيسى ابنُ الله، [تعالى الله عن قولهم]^(٢) فقال له الاثنان: كذبت، واتبعه السُطُورِيَّةُ، ثم قيل للثنتين؛ فقال أحدهما: عيسى أحد ثلاثة: الله إله، ومريم إله، وعيسى إله؛ [تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً]^(٣) فقال له الرابع: كذبت، واتبَعْتُهُ الإِسْرَائِيلِيَّةُ، فَقِيلَ للرابع؛ فقال: عيسى عبدُ الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، فاتَّبَعَ كُلُّ واحد فريق من بني إسرائيل، ثم اقْتَتَلُوا فَعُلِبَ المؤمنون، وَقُتِلُوا، وَظَهَرَتِ الِيعْقُوبِيَّةُ عَلَى الْجَمِيعِ^(٤).

و«الويل»: الحزن، والثبور، وقيل: «الويل»: وادٍ في جهنم، و«مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ»: هو يوم القيامة.

(١) سقط في ج.

(٢) سقط في ب، ج.

(٣) في ب، ج سقط.

(٤) أخرجه الطبري (٣٤٣/٨) برقم (٢٣٧٢٤)، وذكره ابن عطية (١٦/٤)، وابن كثير (١٢١/٣)، والسيوطي (٤٨٨/٤، ٤٨٩)، وعزه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه.

وقوله سبحانه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أَسْمَعَهُمْ، وأبصرهم يوم يرجعون إلينا، ويَزُونَ ما نصنع بهم، ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أي: في الدنيا في ﴿ضلال مبين﴾ أي بين، ﴿وأنذرهم يومَ الحسرة﴾ وهو يوم ذنح الموت؛ قاله الجمهور.

وفي هذا حديث صحيح أخرجه البخاري وغيره عن النبي ﷺ: أَنَّ الْمَوْتَ يُجَاءُ بِهِ فِي صُورَةٍ كَبِشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ عَلَى الصُّرَاطِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُنَادَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ لَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ...﴾^(١) [الآية]^(٢).

قال *ع^(٣)*: [وعند ذلك تُصِيبُ أَهْلَ النَّارِ حَسْرَةٌ لَا حَسْرَةَ مِثْلَهَا.

وقال ابنُ زيد، وغيره: يَوْمَ الْحَسْرَةِ]^(٤): هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ^(٥).

قال *ع^(٦)*: ويحتمل أن يكونَ يومَ الحسرة اسمُ جنسٍ شاملٌ لحسراتٍ كثيرة؛ بحسب مواطن الآخرة: منها يومَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ، وأخذ الكتاب بالشُّمال، وغير ذلك، ﴿وهم في عَفْلَةٍ﴾ يريد: في الدنيا.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢/٨) كتاب التفسير: باب ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ حديث (٤٧٣٠)، ومسلم (٤/٢١٨٨-٢١٨٩) كتاب الجنة والنار: باب النار يدخلها الجبارون، حديث (٤٠)، (٢٨٤٩/٤١)، والترمذي (٥/٣١٥-٣١٦) كتاب التفسير: باب ومن سورة مريم، حديث (٣١٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٣٩٣) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾، حديث (١١٣١٦)، وأحمد (٣/٩)، وأبو يعلى (٢/٣٦٤) رقم (١١٢٠)، والطبري في «تفسيره» (٨/٣٤٥) رقم (٢٣٧٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٨٩)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/٣٩٣-٣٩٤) كتاب التفسير: باب قوله تعالى ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ حديث (١١٣١٧)، والطبري في «تفسيره» (٨/٣٤٥) رقم (٢٣٧٣٤) كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة به.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٤٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) سقط في ب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٧).

(٤) سقط في ب.

(٥) أخرجه الطبري (٨/٣٤٥) برقم (٢٣٧٣٧)، وذكره ابن عطية (٤/١٧)، وابن كثير (٣/١٢٢).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٧).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِكَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤١) ﴿يَأْتِ بِكَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاَتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٢) ﴿يَأْتِ بِكَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٣) ﴿يَأْتِ بِكَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٤) ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٤٥).

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ...﴾ الآية، عبارة عن بقائه - جل وعلا - بعد فناء مخلوقاته، لا إله غيره.

وقوله: - عز وجل -: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا / نَبِيًّا...﴾ (٤١) الآية، قوله: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ بمعنى أتْلُو وشهر؛ لأن الله تعالى هو الذاكر؛ ﴿والكتاب﴾: هو القرآن، والصديق: بناءً مبالغةً فكان إبراهيم عليه السلام [يُوصَفُ] ^(١) بالصدق في أفعاله وأقواله.

وقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ...﴾ الآية، قال الطبري ^(٢): «أخاف» بمعنى أعلم.

قال *ع^(٣): «والظاهرُ عندي أنه خوفٌ على بابه؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام في وقت هذه المقالة لم يكن آيساً من إيمان أبيه.

*ت: «ونحو هذا عبارة المهدوي ^(٤)، قال: قيل: «أخاف» معناه: أعلم، أي: إنني أعلم إن متَّ على ما أنت عليه.

ويجوز أن يكون «أخاف» على بابه، ويكون المعنى: إنني أخاف أن تموت على كفرك؛ فيمسك العذاب. انتهى.

وقوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قال الضحاك ^(٥)، وغيره: معناه بالقول، أي: لأشتمك.

وقال الحسن: معناه: لأرجمك بالحجارة ^(٦).

(١) سقط في ب.

(٢) ينظر: «الطبري» (٣٤٧/٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨/٤).

(٤) ذكره البغوي (١٩٧/٣)، ولم يعزه لأحد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٤٧/٨) برقم (٢٣٧٤١)، وذكره ابن عطية (١٨/٤)، والبغوي (١٩٧/٣)، وابن كثير (١٢٣/٣).

(٦) ذكره ابن عطية (١٨/٤)، والبغوي (١٩٧/٣).

وقالت فرقة: معناه لأَقْتُلَنَّكَ، وهذان القولان بمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ على هذا التأويل إنما يترتب بأنه أمرٌ على حياله؛ كأنه قال: إن لم تَنْتَه قتلُكَ بالرجم، ثم قال له: واهْجُرْنِي، أي: مع أنتهائِكَ، و﴿مَلِيًّا﴾ معناه: دهرًا طويلًا مأخوذٌ من المَلَوْنِ؛ وهما اللَّيْلُ والنَّهَارُ؛ هذا قول الجمهور.

﴿قَالَ سَلِمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَيْفٍ﴾ (٤٧) ﴿وَأَعْتَزَلَكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨) ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ (٤٩).

وقوله: ﴿قال سلام عليك﴾ اختُلف في معنى تسليمه على أبيه، فقال بعضهم: هي تحية مفارقة، وجوزوا تحية الكافر وأن يُبَدَأَ بها.

وقال الجمهور: ذلك السلام بمعنى المُسَالمة، لا بمعنى التَّحِيَّة.

وقال الطبري^(١): معناه أَمَنَةٌ مِنِّي لك؛ وهذا قول الجمهور؛ وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام.

وقال النقاش: حليمٌ خاطب سفيهاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٢) [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي﴾ معناه: سأَدْعُو اللَّهَ تعالى في أن يَهْدِيكَ، فيَغْفِرَ لك بإيمانك، ولَمَّا تَبَيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تَبَرَّأَ منه.

والحفي: المهتل المتلطف، وهذا شكرٌ من إبراهيمَ لنعم الله تعالى عليه، ثم أخبر إبراهيمَ عليه السلام بأنه يعتزلهم، أي: يصير عنهم بمغزل، ويروى: أنهم كانوا بأرض كوثى، فرحل عليه السلام حتَّى نزل الشام، وفي سفرته تلك لقي الجبار الذي أخدم هاجر... الحديث الصحيح بطوله^(٣)، و﴿تدعون﴾ معناه: تعبدون.

وقوله: ﴿عَسَىٰ﴾: تَرَجُّ في ضمنه خَوْفٌ شديد.

وقوله سبحانه: ﴿فلما أعتزلهم...﴾ إلى آخر الآية: إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه لما رحل إبراهيم عن بلد أبيه وقومه، عوضه الله تعالى من ذلك ابنه إسحاق، وابن أبيه

(١) ينظر: «الطبري» (٣٤٩/٨).

(٢) ذكره ابن عطية (١٩/٤).

(٣) تقدم هذا الحديث في «تفسير سورة إبراهيم».

يَغْفُوبَ - على جميعهم السلام - وجعل الولد له تَسْلِيَةً، وشَدًّا لِعَضْدِهِ.

وإِسْحَاقُ أصغر من إسماعيل، ولما حملت هاجرُ بِإِسْمَاعِيلَ، غَارَتْ سَارَةُ؛ فحملت بِإِسْحَاقَ، هكذا فيما روي.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يريد: العِلْمَ، والمنزلةَ، والشَّرَفَ في الدنيا، والثَّعْمَ في الآخرة؛ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عز وجل، وَلِسَانُ الصَّدَقِ: هو الثَّنَاءُ الْبَاقِي عَلَيْهِمْ آخر الأبد؛ قاله ابنُ عباس^(١) وإبراهيمُ الخليل عليه السلام وذريته مُعْظَمَةٌ في جميع الأمم والمِلَلِ.

قال *ص*: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا [نَبِيًّا]^(٢)﴾ أبو البقاء: هو منصوبٌ بـ ﴿جَعَلْنَا﴾. انتهى.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَتَدَيَّنَتْ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقرَّبَتْهُ حَيْثُ ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾.

وقوله (عز وجل): ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾، أي: على جهة التَّشْرِيفِ له، ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ هو تَكْلِيمُ اللَّهِ له، والأَيْمَنُ: صفةٌ لَجَانِبِ، وكان على يَمِينِ مُوسَى، وإِلَّا فالجبل نفسه لَا يَمْنَةً له ولا يَسْرَةَ، ويحتمل أن يكون الأَمْنُ مأخوذاً من الأَيْمَنِ، ﴿وقربناه﴾ أي: تقرب تشريف، والتَّجِيُّ: من المُنَاجَاةِ.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِنْ تَأْتِنِ شَيْئًا فَاعْلَمْ أَنَّ الذِّكْرَ خَرُؤًا سَجْدًا وَبِكَيْفٍ ٥٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ هو أيضاً من لسانِ الصَّدَقِ المضمون بقاؤه على إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام: هو أبو العرب اليوم؛ وذلك أنَّ الْيَمَنِيَّةَ والمُضَرِّيَّةَ ترجع إلى ولد إسماعيل، وهو الذَّبِيحُ في قول الجمهور.

وهو الرَّاجِحُ؛ من وجوه: / منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَغْفُوبُ﴾ ٥٩

[هرد: ٧١].

(١) أخرجه الطبري (٣٥٠/٨) برقم (٢٣٧٥٨)، وذكره ابن عطية (١٩/٤)، وابن كثير (١٢٤/٣)، والسيوطي (٤٩١/٤) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) سقط في د، ح.

قَوْلُ بَشْرٍ أَبَوَاهُ بَأْنِ سَيَكُونُ مِنْهُ وَلَدٌ كَيْفَ يُؤْمَرُ بِذَبْحِهِ؟!

ومنها أَنْ أَمَرَ الذَّبِيحَ كَانَ بِمَنْىَ بِلَا خِلَافٍ، وما روي قَطُّ أَنَّ إِسْحَاقَ دَخَلَ تِلْكَ الْبِلَادَ، وَإِسْمَاعِيلُ بِهَا نَشَأَ، وَكَانَ أَبُوهُ يَزُورُهُ مِرَاراً كَثِيراً يَأْتِي مِنَ الشَّامِ، وَيَرْجِعُ مِنْ يَوْمِهِ عَلَى الْبَرَاقِ؛ وَهُوَ مَرْكَبُ الْأَنْبِيَاءِ.

ومنها قَوْلُهُ ﷺ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»^(١) وَهُوَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَالذَّبِيحُ الثَّانِي هُوَ إِسْمَاعِيلُ.

ومنها [تَرْتِيبُ]^(٢) آيَاتِ سُورَةِ «الضَّافَاتِ» يَكَادُ يَنْصُ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ غَيْرُ إِسْحَاقَ، وَوَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصِدْقِ الْوَعْدِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُبَالِغاً فِي ذَلِكَ؛ وَرَوَى أَنَّهُ وَعَدَ رَجُلًا أَنْ يَلْقَاهُ فِي مَوْضِعٍ، فَبَقِيَ فِي أَنْتِظَارِهِ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ جَاءَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ: مَا زِلْتُ هُنَا فِي أَنْتِظَارِكَ مِنْذُ أَمْسٍ، وَقَدْ فَعَلَ مِثْلَهُ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ مَبْعَاثِهِ، خَرَّجَهُ التَّوَمِيزِيُّ وَغَيْرُهُ.

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ^(٣): أَسْوَأُ الْكَذِبِ إِخْلَافُ الْمِيعَادِ، وَرَمَى الْأَبْرِيَاءَ بِالتُّهْمِ.

و﴿أَهْلُهُ﴾ الْمَرَادُ بِهِمْ قَوْمُهُ، وَأُمَّتُهُ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ^(٤).

وَفِي مُضَحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «وَكَانَ يَأْمُرُ قَوْمَهُ».

وَإِذْرِسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَجْدَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِكْيَا﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ: جَمَعَ^(٦) بَالِكٌ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْبُكَاءِ؛ التَّقْدِيرُ: وَبُكَوْا بُكْيَاً.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره ابن عطية (٢١/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢١/٤)، والبيهقي (١٩٩/٣).

(٥) ذكره ابن عطية (٢١/٤).

(٦) في د، ج: هو جمع.

واحتجَّ الطَّبْرِيُّ^(١)، ومَكِّي لهذا القول؛ بأن عُمَرَ رضي الله عنه قرأ سورة مريم، فسجد ثم قال: هذا السُّجُودُ، فَأَيْنَ الْبُكْيُ^(٢)؟ يَغْنِي: الْبُكَاءُ.

قال ع^(٣)*: ويحتمل أن يريد عُمَرَ رضي الله عنه فأين الباكُون؟ وهذا الذي ذكره عن عُمَرَ، ذكره أَبُو حَاتِمٍ، عن النَبِيِّ ﷺ.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ جَنَّاتٌ عِدْنُ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُومًا ۝٦١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ إِنْشَاءٍ وَلَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ رِزْقِهِمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا ۝٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف...﴾ الآية، الخلف، - [بسكون] ^(٤) اللام - مُستعمل إذا كان الآتي مذمومًا؛ هذا مشهورُ كلام العرب، والمراد بالخلف: مَنْ كفر وعصى بعدُ من بني إسرائيل، ثم يتناول معنى الآية مَنْ سَوَّاهُمْ إِلَى يوم القيامة، وإضاعة الصلاة بتركها وبإضاعتها.

وروى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسي في «مسنده» بسنده عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ الرَّجُلُ الصَّلَاةَ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا، وَسُجُودَهَا، قَالَتِ الصَّلَاةُ: حَفِظَكَ اللَّهُ؛ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَتَرَفَّعَ، وَإِذَا أَسَاءَ الصَّلَاةَ؛ فَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا، وَلَا سُجُودَهَا، قَالَتِ الصَّلَاةُ: ضَيَّعَكَ اللَّهُ؛ كَمَا ضَيَّعْتَنِي، وَتَلَفْتُ كَمَا يُلْفُ الثُّوبُ الْخَلْقُ، فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُهُ». انتهى ^(٥) من «التذكيرة»، والشَّهَوَاتُ: عُومٌ، والعَيُّ: الخُسْرَانُ؛ قاله ابنُ زيد ^(٦).

(١) ينظر: «الطبري» (٣٥٤/٨) برقم: (٢٣٧٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٤/٨) برقم: (٢٣٧٧٧)، وذكره ابن عطية (٢٢/٤)، وابن كثير (١٢٧/٣)، والسيوطي (٤٩٨/٤)، وعزاه لابن أبي الدنيا في «البكاء»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عمر بن الخطاب.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢/٤).

(٤) في ب سقط.

(٥) أخرجه أبو داود الطيالسي (٦٦/١، ٦٧-منحة) برقم: (٢٥٤) من طريق خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت به. وذكره الهندي في «كنز العمال» (١٩٠٥٤)، وعزاه للطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٦) أخرجه الطبري (٣٥٧/٨) برقم: (٢٣٧٩٨)، وذكره ابن عطية (٢٣/٤).

وقد يَكُونُ [الغي بمعنى الضلال، والتقدير: يلقون جزاء الغي].

وقال عبد الله بن عمرو، وابن مسعود: الغي: وإد في^(١) جهنم، وبه وقع التوعّد في هذه الآية^(٢).

وقال *ص*: الغي عندهم كل شر؛ كما أن الرشاد كل خير. [انتهى]^(٣).

و﴿جنات عدن﴾: بدل من الجنة في قوله ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

وقوله ﴿بالغيب﴾، أي أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وبنارهم إذ لم يعانوا، و﴿مأتيًا﴾ مفعول على بابه.

وقال جماعة من المفسرين: هو مفعول في اللفظ؛ بمعنى فاعل؛ ف ﴿مأتيًا﴾ بمعنى أت، وهذا بعيد.

ت: بل هو الظاهر، وعليه اعتمد *ص*.

واللغو: السقط من القول.

وقوله ﴿بكرة وعشيا﴾ يريد في التقدير.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَمِيًا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًا ﴿٦٥﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك...﴾ / الآية، قال ابن عباس، وغيره: سبب هذه الآية: أن النبي ﷺ أبطأ عنه جبريل عليه السلام مدة فلما جاءه قال: «يا جبريل، قد أشتقت إليك، أفلا تزورنا أكثر مما نزورنا» فنزلت هذه الآية^(٤).

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الطبري (٣٥٦/٨) برقم: (٢٣٧٩٣)، بلفظ «نهر في النار يعذب فيه الذين اتبعوا الشهوات»، وذكره ابن عطية (٢٣/٤)، وابن كثير (١٢٨/٣)، وعزاه لعبد الله بن مسعود، والسيوطي (٥٠٠/٤)، وعزاه للفرجاني، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبري، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث» عن ابن مسعود.

(٣) في ب، ج سقط.

(٤) أخرجه الطبري (٣٥٩/٨) برقم (٢٣٨٠٦)، وذكره البغوي (٢٠٢/٣)، وابن عطية (٢٤/٤)، وابن كثير (١٣٠/٣)، والسيوطي (٥٠٢/٤)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.

وقال الضُّحَّاكُ، ومجاهدٌ: سببها أن جبريلَ تأخَّرَ عن النبي ﷺ عند قَوْلِهِ في السُّؤَالَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ في سُورَةِ الْكَهْفِ: «عَدَا أُخْبِرُكُمْ»^(١).

وقال الدَّأُوْدِيُّ عن مجاهدٍ: أَبْطَأَتِ الرِّسْلُ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ ثم أتى جبريلُ عليه السلام قال: مَا حَبَسَكَ؟ قال: وَكَيْفَ تَأْتِيكُمْ. وَأَنْتُمْ لَا تَقْضُونَ أَطْفَارَكُمْ. وَلَا تَأْخُذُونَ شَوَارِبَكُمْ وَلَا تَسْتَاكُونَ، وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ. انتهى^(٢).

وقد جاءت في فَضْلِ السَّوَاكِ آثارٌ كثيرة، فمنها: ما رواه البزارُ في «مسنده» عن النبي ﷺ أنه قال: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَامَ الْمَلِكُ خَلْفَهُ، فَيَسْمَعُ لِقَاءَهُ، فَيَذْنُو مِنْهُ حَتَّى يَضَعَ قَاهُ عَلَى فِيهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلِكِ^(٣). انتهى من «الكوكب الدرّي».

وفيه: عن ابنِ أَبِي شَيْبَةَ، عن النبي ﷺ أنه قال: «صَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ سِوَالِكٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ صَلَاةً بِغَيْرِ سِوَالِكٍ»^(٤) انتهى.

(١) ذكره البغوي (٢٠٢/٣)، وابن عطية (٢٤/٤).

(٢) ذكره ابن كثير (١٣٠/٣) وعزاه لمجاهد، والسيوطي (٥٠٢/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه البزار (١/٢٤٢ - كشف) رقم (٤٩٦) من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً. وقال البزار: لا نعلمه عن علي بأحسن من هذا الإسناد، وقد رواه بعضهم عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي موقوفاً.

وقال المنذري في «الترغيب» (٣٣٥): رواه البزار، بإسناد جيد لا بأس به. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠٢/٢): رواه البزار، ورجاله ثقات. هـ. أما الموقوف الذي أشار إليه البزار، فأخرجه البيهقي (٣٨/١) من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن علي موقوفاً. (٤) أخرجه البزار (١/٢٤٥ - كشف) رقم (٥٠٢)، وابن حبان في «المجروحين» (٥/٣)، وابن عدي في «الكامل» (٦/٢٣٩٥)، وابن الجوزي في «الواحيات» (١/٣٣٦) من طريق معاوية بن يحيى الصدفي عن الزهري عن عروة عن عائشة.

وقال البزار: لا نعلم رواه إلا معاوية.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، ومعاوية بن يحيى ضعيف. قاله الدارقطني. وللحديث طريق آخر: أخرجه ابن خزيمة (٧١/١) رقم (١٣٧)، والحاكم (١/١٤٦)، وأحمد (٦/١٤٦)، والبزار (١/٢٤٤) رقم (٥٠١) من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة به. وقال ابن خزيمة: أنا استثنت صحة هذا الخبر، لأنني خائف أن يكون محمد بن إسحاق لم يسمع من محمد بن مسلم، وإنما دُلَّسه عنه.

أما الحاكم فقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وضعه النووي في «المجموع» (١/٣٢٥) وقال: ذكره الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح على شرط =

وفي «البخاري»: أَنَّ السَّوَاكَ مَظْهَرَةٌ لِلْقَمِّ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ^(١). اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا...﴾ الآية، المقصودُ بهذه الآية الإشعارُ بملك الله تعالى لملائكته، وَأَنْ قَلِيلٌ تَصْرِفُهُمْ، وَكَثِيرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِأَمْرِهِ وَانْتِقَالِهِمْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ إِنَّمَا [هو]^(٢) بحد منه.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ممن يلحقه نسيانٌ لبعثنا إليك، فـ ﴿نَسِيًّا﴾. فَعِيلٌ مِنَ النِّسْيَانِ، وهو الذُّهُولُ عن الأمور.

وقرأ ابنُ منعوْدٍ^(٣): «وَمَا نَسِيكَ رَبُّكَ».

وقوله ﴿سَمِيًّا﴾ قال قوم: معناه مُوَافَقًا فِي الْإِسْمِ.

قال *ع^(٤): وهذا يحسنُ فيه أن يريد بالإسم ما تقدم من قوله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: [هل]^(٥) تعلم من يسمى بهذا، أو يوصف بهذه الصفة؛ وذلك أن الأمم والفِرَق لا يسمون بهذا الإسم وتناً، ولا شيئاً سِوَى اللَّهِ تعالى.

= مسلم، وأنكروا ذلك على الحاكم، وهو معروف عندهم بالتساهل في التصحيح، وسبب ضعفه أن مداره على محمد بن إسحاق، وهو مدلس، ولم يذكر سماعه، والمدلس إذا لم يذكر سماعه لا يحتج به بلا خلاف كما هو مقرر لأهل هذا الفن. وقوله: «إنه على شرط مسلم» ليس كذلك، فإن محمد بن إسحاق لم يرو له مسلم شيئاً محتجاً به، وإنما روى له متابعة، وقد علم من عادة مسلم وغيره من أهل الحديث أنهم يذكرون في المتابعات من لا يحتج به للتقوية لا للاحتجاج، ويكون اعتمادهم على الإسناد الأول، وذلك مشهور عندهم.

(١) أخرجه النسائي (١٠/١) كتاب الطهارة: باب الترغيب في السواك، حديث (٥)، وأحمد (٦/١٢٤)، وأبو يعلى (٨/٣١٥) رقم (٤٩١٦)، وابن حبان (١٤٣- موارد)، والحميدي (١٦٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٥٩)، والبيهقي (١/٣٤)، وابن خزيمة رقم (١٣٥) من حديث عائشة.

وعلقه البخاري (٤/١٥٨) باب سواك الرطب واليابس للصائم، بصفة الجزم، فهو صحيح عنده. وصححه أيضاً ابن خزيمة، وابن حبان.

وقال البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٩٤- بتحقيقنا): هذا حديث حسن.

وقال النووي في «المجموع» (١/٣٢٤): حديث صحيح.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة.

(٢) سقط في جـ.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٥).

(٥) سقط في بـ.

قال القُشَيْرِيُّ في «التحبير»: قوله تعالى: ﴿واصطبر لعبادته﴾: الاضطبارُ: نهاية الصبر، ومن صبرَ ظَفَرَ، ومن لَازَمَ وَصَلَ؛ وفي مَغْنَاه أَنشَدُوا: [البسيط].

[لَا تَيْئَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ إِذَا اسْتَعْنَيْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجًا] ^(١)
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَخْطِئَ بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا
وَأَنشَدُوا: [البسيط]

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَخْمُودَةَ الْأَثَرِ
وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ يُحَاوِلُهُ ^(٢) وَأَسْتَضْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا قَارَ بِالظُّفْرِ
انتهى.

وقال ابنُ عباسٍ، وغيره: ﴿سَمِيًّا﴾ معناه: مَثِيلاً، أو شَبِيهاً، ونحو ذلك ^(٣)؛ وهذا قولٌ حَسَنٌ، وكان السَّمي بمعنى: المَسامي، والمضاهي؛ فهو من السُّمُو.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ۖ ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ۖ ﴿٦٧﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ۖ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا شَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۖ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَعْلَمَنَّ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا ۖ ﴿٧٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويقول الإنسان إذا ما مِثٌ لسوف أخرج حياً﴾، الإنسان: اسمُ جنس يرادُّ به الكافرون ^(٤)، وروي أنَّ سَبَبَ نَزُولِ هذه الآية هو: أنَّ رجلاً من قريشٍ كانوا يقولون هذا ونحوه، وذكر: أنَّ القائل هو أَبِي بَنْ خَلْفٍ.

وروي ^(٥) أنَّ القائل هو العاصي بن وائل، وفي قوله تعالى: ﴿ولم يك شيئاً﴾ دليلٌ على أنَّ المعدوم لا يسمى شيئاً.

وقال أبو علي الفارسي: أراد شيئاً موجوداً.

(١) سقط من ج.

(٢) في ب، ج: يطالبه.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٣٦١، ٣٦٢) برقم (٢٣٨٢١، ٢٣٨٢٢)، وذكره البغوي (٣/ ٦٥)، وابن عطية (٤/

٢٥)، وابن كثير (٣/ ١٣١)، والسيوطي (٤/ ٥٠٣)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم

عن ابن عباس.

(٤) في ج: النافرين.

(٥) في ب، ج: وقيل.

قال *ع^(١): وهذه من أبي علي نزعة أعتزالية؛ [فتأملها]^(٢)، والضمير في «لنحشرنهم» عائذ على الكفار القائلين ما تقدم، ثم أخبر تعالى: أنه يقرن بهم الشياطين المغوين لهم، و«جثيًا» جمع جاث، فأخبر سبحانه: أنه يحضر هؤلاء المُنكرين البعث مع ب الشياطين [المغوين]^(٣)، فيجثون / حول جهنم؛ وهو^(٤) قعود الخائف الدليل على رُكْبَتِهِ كالأسير، ونحوه.

قال ابن زيد^(٥): الجثي: شُرُّ الجلوس، و«الشيعة»: الفرقة المرتبطة بمذهب واحد، المتعاونة فيه، فأخبر سبحانه أنه ينزع من كل شيعة أغتاها وأولاها بالعذاب، فتكون مقدمتها إلى النار.

قال أبو الأخوص: المعنى: نبدأ بالأكابر^(٦) جرماً^(٧)، وأبي: هنا بُنِيَتْ لِمَا حُذِفَ الضمير العائد عليها من صدر صلتها، وكان التقدير: أيهم هو أشد، و«صلياً»: مصدر صلي يَصْلِي إذا باشره.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ﴾ (٧٧) وَإِذَا نُنَجِّيهِمْ ؕ إِنَّا لَنَنُوحِي قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ؕ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ﴾ (٧٣) وَكَرَّ أَهْلُكَا بَيْنَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَدًّا ۖ﴾ (٧٤).

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قَسَمَ، والواو تَفْتِضِيهِ، ويفسرهُ قوله ﷻ: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ أَوْلَادٍ، لَمْ تَمْسَهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»^(٨). وقرأ ابن

- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٠/٤).
- (٢) سقط في ج.
- (٣) سقط في ب، ج.
- (٤) في ج: ويعني.
- (٥) أخرجه الطبري (٣٧٠/٨) رقم (٢٣٨٧٢)، وذكره ابن عطية (٢٦/٤).
- (٦) في ح: بالأكابر فالأكابر.
- (٧) أخرجه الطبري (٣٦٣/٧) برقم (٢٣٨٢٧)، وذكره ابن عطية (٢٦/٤)، وابن كثير (١٣١/٣)، والسيوطي (٥٠٤/٤) وعزاه لهناد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي الأخوص.
- (٨) أخرجه البخاري (١٤٢/٣) كتاب الجنائز: باب فضل من مات له ولد فاحتسبه، حديث (١٢٥١)، ومسلم (٢٠٢٨/٤) كتاب البر والصلة: باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، حديث (٢٦٣٢/١٥٠)، والترمذي (٣٦٥/٣) كتاب الجنائز: باب ما جاء في ثواب من قدم ولداً، حديث (١٠٦٠)، والنسائي (٢٥/٤) كتاب الجنائز: باب من يتوفى له ثلاثة، حديث (١٨٧٥)، وابن ماجه (٥١٢/١) كتاب الجنائز: باب ما جاء في ثواب من أصيب بولده، حديث (١٦٠٣)، وأحمد (٢/٢٣٩-٢٤٠)، والحميدي (٢/٢) =

عباس^(١)، وجماعة: «وإن منهن» بالهاء على إرادة الكفار.

قال ع^(٢): * ولا شغب في هذه القراءة، وقالت فرقة من الجمهور القارئين «منكم»، المعنى: قل لهم يا محمد، فالخطاب بـ «منكم» للكفرة، وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول. وقال الأكثر: المخاطب العالم كله، ولا بد من ورود الجميع، ثم اختلفوا في كيفية ورود المؤمنين، فقال ابن عباس، وابن مسعود، وخالد بن معدان، وابن جريج^(٣)، وغيرهم: هو ورود دخول، لكنها لا تعدو عليهم، ثم يخرجهم الله عز وجل منها بعد معرفتهم حقيقة ما نجوا منه.

وروي^(٤) جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «الورود في هذه الآية هو الدخول»^(٥)، وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق^(٦) الورود مع الجهل بالصدر - جعلنا الله تعالى من الناجين بفضلهم ورحمته -، وقالت فرقة: بل هو ورود إشراق، وإطلاع، وقزب، كما تقول: وردت الماء؛ إذا جثته، وليس يلزم أن تدخل فيه، قالوا:

= (٤٤٤) رقم (١٠٢٠)، ومالك (٢٣٥/١) كتاب الجنائز: باب الحسبة في المصيبة، حديث (٣٨)، وأبو يعلى (٢٨٥/١٠) رقم (٥٨٨٢)، والبيهقي (٦٧/٤) كتاب الجنائز: باب ما يرجى في المصيبة بالأولاد إذا احتسبهم، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٩٥ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. (١) وقرأ بها عكرمة.

ينظر: «الكشاف» (٣/ ٣٤)، «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧)، «البحر المحيط» (٦/ ١٩٧)، «والدر المصون» (٤/ ٥١٩).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٧).

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٤/٨) برقم (٢٣٨٣٣) عن ابن عباس، وبرقم (٢٣٨٣٤) عن ابن جريج، وبرقم (٢٣٨٣٦) عن خالد بن معدان، وذكره البغوي (٣/ ٢٠٤) عن ابن عباس، وخالد بن معدان، وعن ابن مسعود بلفظ: «القيامة والكنية راجعة إليها»، وابن عطية (٤/ ٢٧)، والسيوطي (٤/ ٥٠٥)، وعزاه لعبد، الرزاق، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس فقال ابن عباس. (٤) في ج: قال.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٩)، والحاكم (٤/ ٥٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٣٦) رقم (٣٧٠) من حديث جابر مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٨) وقال: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٠٥)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث».

(٦) في ج: تحقيق.

وَحَسِبُ الْمُؤْمِنَ بِهَذَا هَوَلًا؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذِينٌ﴾ [القصص: الآية ٢٣].

وروت فرقة أثرًا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَامِدَةً الْأَعْلَى كَأَنَّهَا إِهَالَةٌ فَيَأْتِي الْخَلْقُ كُلُّهُمْ؛ بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ، فَيَقِفُونَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَسُوخُ بِأَهْلِهَا، وَيُخْرِجُ الْمُؤْمِنُونَ الْفَائِزُونَ، لَمْ يَنْلَهُمْ ضَرْ، قَالُوا: فَهَذَا هُوَ الْوَرُودُ.

قال المهدوي^(١): وعن قتادة قال: يرد النَّاسُ جَهَنَّمَ وَهِيَ سَوْدَاءٌ مَظْلِمَةٌ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَأَصْبَاءٌ لَهُمْ حَسَنَاتُهُمْ، فَتَنَجَّوْا مِنْهَا، وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَأَوْبِقَتْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ، وَأَحْتَبَسُوا بِذُنُوبِهِمْ. [انتهى]^(٢).

وروت حَفْصَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَذَرٍ وَالْحُدَيْبِيَّةِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فَقَالَ ﷺ: «فَمَهْ»^(٣)، «ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا»^(٤) وَرَجَعَ الزَّجَاجُ^(٥) هَذَا الْقَوْلُ؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ت: وحديث حفصة هذا أخرجه مُسْلِمٌ، وفيه: «أَفَلَمْ تَسْمِعِيهِ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾»^(٦).

وروى ابنُ المبارك في «وقائقه»: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ذَهَبَ ابْنُ رَوَاحَةَ إِلَى بَيْتِهِ فَبَكَى [فَجَاءَتْ أَمْرَأَتُهُ، فَبَكَتْ]،^(٧) وَجَاءَتْ الْخَادِمُ فَبَكَتْ، وَجَاءَ

(١) أخرجه الطبري (٣٦٥/٨).

(٢) سقط في جـ.

(٣) في جـ: مه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٨٥/٦)، وابن ماجه (١٤٣١/٢) كتاب «الزهد»: باب ذكر البعث، حديث (٤٢٨١)، وهناد في «الزهد» (١٦٥/١) رقم (٢٣٠) كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة به.

قال البوصيري في «الزوائد» (٣/٣١٥): هذا إسناد صحيح إن كان أبو سفيان سمع من جابر بن عبد الله اهـ. وأخرجه أيضاً من طريق الأعمش - أبو يعلى (٤٧٣/١٢) رقم (٧٠٤٤).

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٢٨٢)، وزاد نسبه إلى ابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأباري، والطبراني، وابن مردويه.

(٥) ينظر: «معاني القرآن» (٣/٣٤٠، ٣٤١).

(٦) أخرجه مسلم (١٩٤٢/٤) كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان، حديث (٢٤٩٦/١٦٣)، وأحمد (٤٢٠/٦) كلاهما من طريق حجاج بن محمد: أخبرنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة... فذكر الحديث.

(٧) سقط في جـ.

أَهْلُ الْبَيْتِ فَجَعَلُوا يَبْكُونَ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عَزْرَتُهُ، قَالَ: يَا أَهْلَاهُ، مَا يُبْكِيكُمْ، قَالُوا: لَا نَذَرِي، وَلَكِنْ رَأَيْنَاكَ بَكَيتَ فَبَكَيْنَا، فَقَالَ: آيَةٌ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُنْشِئُ فِيهَا رَبِّي أَنِّي وَارِدُ النَّارِ، وَلَمْ يُنْشِئْ أَنِّي صَادِرٌ عَنْهَا، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي^(١). انتهى.

وقال ابن مسعود: ورودهم / هو جَوازهم على الصراط^(٢)، وذلك أن الحديث ١٦ الصحيح تضمن أن الصراط مضروب على متن جهنم. والحثم: الأمر المنفذ المجزوم، والذين اتقوا: معناه اتقوا الكفر ونذروا دالة على أنهم كانوا فيها.

قال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» بعد أن ذكر رواية جابر، وابن مسعود في الورود: وروي عن كعب أنه تلا: ﴿وإن منكم إلا واردة﴾ فقال: أتدرون ما ورودها؟ إنه يجاء بجهنم فتمسك للناس كأنها مثل إهالة: يعني: الودك الذي يجمد على القدر من المرقية، حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلائق: برهم وقاجرهم، نادى مناد: أن خذي أصحابك، وذري أصحابي، فيخسف بكل ولي لها، فلهي أعلم بهم من الوليدة بولدها، وينجو المؤمنون ندية ثيابهم^(٣).

وروي هذا المعنى عن أبي نضرة، وزاد: وهو معنى قوله تعالى: ﴿فاستبقوا الصراط فأنتي يَصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦]. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وإذا تئلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً...﴾ الآية، هذا افتخار من كفار قريش؛ وأنه إنما أنعم الله عليهم؛ لأجل أنهم على الحق بزعمهم. والتدي، والتادي: المجلس، ثم رد الله تعالى حجتهم وحق أمرهم؛ فقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورغياً﴾ أي: فلم يُغن ذلك عنهم شيئاً^(٤)، والأثاث: المال العين، والعرض^(٥) والحيوان.

وقرأ نافع^(٦) وغيره: «ورءيا» بهمزة بعدها ياء؛ من رؤية العين.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٢/٤)، وعزاه إلى أحمد، وابن المبارك، كلاهما في «الزهد»، وابن عساكر.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٧/٤)، وابن كثير (١٣٢/٣).

(٣) أخرجه الطبري (٣٦٥/٨) رقم (٢٣٨٣٨)، وذكره ابن كثير (١٣٣/٣).

(٤) سقط في ج، وفي ب شيئاً.

(٥) في ج: العروض.

(٦) ينظر: «السبعة» (٤١١، ٤١٢)، و«الحجة» (٢٠٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٢٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢)، و«المعاني» (١٣٨)، و«العنوان» (١٢٧)، و«حجة القراءات» (٤٤٦)، و«شرح شملة» (٤٨٧)، و«إتحاف» (٢٣٩/٢).

قال البخاري^(١): ورءياً: منظرأ.

وقرأ نافع أيضاً، وأهل المدينة: «وَرِيّاً» بياء مشددة، ف قيل: هي بمعنى القِرَاءَةِ الأولى، وقيل: هي بمعنى الرِّيِّ في السُّقْيَا؛ إِذْ أَكْثَرَ النِّعْمَةَ مِنَ الرِّيِّ والمطر.

وقرأ ابنُ جُبَيْرٍ، وابنُ عباسٍ، ويزيدُ البربري: «وَرِيّاً» بالزاي المعجمة؛ بمعنى: المَلْبَسِ. [وأما]^(٢):

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ هَدَىٰ وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ حَتَّىٰ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، فيحتمل أن يكون بمعنى الدُّعَاءِ والِإِنْتِهَالِ؛ كأنه يقول: الْأَضْلُ مِنَّا وَمِنْكُمْ مَدَّ اللَّهُ لَهُ، أَيُّ: أَمْلَى لَهُ؛ حَتَّى يُوَوِّلَ ذَلِكَ إِلَى عَذَابِهِ، ويحتمل أن يكون بمعنى الخبر؛ أنه سبحانه هذه عَادَتُهُ: الْإِمْلَاءُ لِلضَّالِّينَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾، أَيُّ: فِي الدُّنْيَا بِنَصْرِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِم، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ فيصيرون إلى النَّارِ، والجندُ الثَّاصِرُونَ: الْقَائِمُونَ بِأَمْرِ الْحَرْبِ، و﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بِإِزَاءِ قَوْلِهِمْ ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ و﴿أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ بِإِزَاءِ قَوْلِهِمْ: ﴿أَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ولما ذكر سبحانه ضَلَالَةَ الْكَافِرَةِ وافتخارَهُمْ بِنِعَمِ الدُّنْيَا عَقَّبَ^(٣) ذلك بِذِكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنَّهُ يَزِيدُهُمْ هُدًى فِي الْإِزْتِبَاطِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، والمعرفة بالدلائل الواضحة، وقد تقدَّم تَفْسِيرُ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَأَنْهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» وقد قال ﷺ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: «خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يَحَالَ بِبَيْتِكَ، وَيَبْنِيَهُنَّ؛ فَهِنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ^(٤)»، وعنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قَالَ: مِنَ النَّارِ، قَالُوا: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَهِنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ^(٥)».

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٠/٨) كتاب التفسير: باب كهيعص.

(٢) سقط في ج.

(٣) في ب، ج: عَقَّبَ اللَّهُ.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩١/١٦)، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٤٣٦٦٤)، وعزاه للطبراني عن أبي الدرداء.

(٥) أخرجه الحاكم (٥٤١/١)، والطبراني في «الصغير» (١٤٥/١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/١٧) =

وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ إِذَا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ: لَا هَلْلَنَ، وَلَا كُبْرَنَ اللَّهَ، وَلَا سَبْحَنَهُ حَتَّى إِذَا رَأَى الْجَاهِلُ ظَنِّي مَجْنُونًا^(١).

ت: ولو ذكرنا ما ورد من صحيح الأحاديث في هذا الباب، لخرجنا بالإطالة عن مقصود الكتاب.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَكَتَنُكَ مَا يَقُولُ وَوَلَدٌ لَّهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا ﴿٧٩﴾﴾.

وقوله/ سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ^(٢)﴾ الذي كفر بآياتنا﴾ هو العاصي بْنُ وَائِل السَّهْمِيُّ؛ قاله ٦ ب جمهور المفسرين، وكان خبره أَنَّ حَبَّابَ بْنَ الْأَرْثَ كان قَيْنًا في الجاهلية، فعمل له عملاً، واجتمع له عنده ذنن؛ فجاءه يَتَقَاضَا، فقال له العاصي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقال حَبَّابٌ: لا أكفر بمحمد حتى يُمِيتَكَ اللَّهُ، ثم يبعثك؛ فقال العاصي: أَوْ مَبْعُوثٌ أَنَا بعد الموت؟! فقال: نعم، فقال: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ، فسيكونُ لي مَالٌ، وولَدٌ، وعند ذلك أقضيكَ دَيْنَكَ؛ فنزلت الآية في ذلك.

وقال^(٣) الحسنُ: نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال: *ع*^(٤): وقد كانت للوليد أيضاً، أقوالٌ تشبه هذا الغرض.

ت: إلا أَنَّ المسند الصحيح في «البخاري» هو الأول.

= (١٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢٠٨٥/٦) كلهم من طريق محمد بن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة به.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٢/١٠) وقال: رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله ثقات.

وقد طعن أبو حاتم كما في «العلل» (١٠٠/٢) رقم (١٧٩٣) في هذا الحديث. وله طريق آخر عند الخطيب: فأخرجه في «تاريخه» (٣٣٦/٩) من طريق صلة بن سليمان العطار عن أشعث عن ابن سيرين عن أبي هريرة به.

ونقل الخطيب عن أبي حاتم قوله في صلة: متروك الحديث، أحاديثه عن أشعث منكرة.

(١) أخرجه الطبري (٣٧٤/٨) رقم (٢٣٨٩٨)، وذكره ابن عطية (٣٠/٤)، وابن كثير (١٣٥/٣).

(٢) في ج: يعني أفرأيت.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٠/٤).

(٤) ينظر: «المحور الوجيز» (٣٠/٤).

وقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ معناه بالآيمان، والأعمال الصالحات^(١).

و﴿كَلَّا﴾ زَجْرٌ، وردُّ، وهذا المعنى لَزِمَ لـ «كَلَّا»، ثم أخبر سبحانه: أن قول هذا الكافر سَيُكْتَبُ عَلَى مَعْنَى حِفْظِهِ عَلَيْهِ، ومعاقبته^(٢) به، ومدَّ العذاب: هو إطالته وتَعْظِيمُهُ.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٥) وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨٦) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمَهُمْ آثًا (٨٨).

وقوله سبحانه: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: هذه الأشياء التي سَمَى أَنَّهُ يُؤْتَاهَا فِي الْآخِرَةِ، يرث الله ماله منها [في الدنيا؛ بإهلاكه، وتزكُّه لها، فالوراثة^(٣) مستعارة]^(٤).

وقال النحاس^(٥): ﴿نَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ معناه: نحفظه عليه؛ لنعاقبه به؛ ومنه قوله ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» أي: حفظه ما قالوا.

قال ع^(٦): * فكَأَنَّ هَذَا الْمَجْرُمَ يورث هذه المقالة.

وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ معناه: يجدونهم خِلَافَ ما كانوا أَمَلُوهُ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ؛ فَيَقُولُ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى ذِلَّةٍ، وَضِدًّا ما أَمَلُوهُ مِنَ الْعِزِّ، وَغَيْرِهِ، وهذه صفة عامة.

و﴿تَوَسُّمَهُمْ﴾ معناه: تُقْلِقُهُمْ وتحركهم إلى الكفر والضلال.

قال قتادة^(٧): تَزَعِجُهُمْ إِزْعَاجًا، وقال ابن زيد^(٨): تُشْلِيهِمْ إِشْلَاءً، ومنه: أَرِيزُ الْقَدْرُ، وَهُوَ عَلَيَّانُهُ وَحَرَكَتُهُ؛ ومنه الحديث: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، وَهُوَ يَبْكِي، وَلِصَدْرِهِ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الْمِرْجَلِ»^(٩).

(١) في ب، ج: الصالحة.

(٢) في ب: ومعاقبته إياه.

(٣) في ج: الوراثة.

(٤) سقط في ب.

(٥) ذكره ابن عطية (٣١/٤).

(٦) ينظر: «المحرم الوجيز» (٣١/٤).

(٧) أخرجه الطبري (٣٧٩/٨) رقم (٢٣٩٢٦)، وذكره البغوي (٢٠٨/٣)، وابن عطية (٣٢/٤)، وابن كثير

(١٣٦/٣)، والسيوطي (٥٠٧/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم

عن قتادة.

(٨) أخرجه الطبري (٣٧٩/٨) رقم (٢٣٩٢٧)، وذكره ابن عطية (٣٢/٤).

(٩) أخرجه أبو داود (٣٠٠/١) كتاب الصلاة: باب البكاء في الصلاة، حديث (٩٠٤)، والنسائي (١٣/٣) =

ت: هذا الحديث خرّجه مسلم، وأبو داود عن مُطَرِّف عن أبيه.

وقال العِراقِي: ﴿تؤزهم﴾ أي: تدفعهم: انتهى.

﴿فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٥) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: لا تستبطن عذابهم.

وقوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾.

قال *ع^(١)*: وظاهر هذه الوفادة^(٢) أنها بعد انقضاء الحساب، وإنما هي النهوض إلى الجنة، وكذلك سوق المجرمين إنما هو لدخول النار.

و﴿وفداً﴾ قال المفسرون: معناه رُكباناً، وهي^(٣) عادة الوفود؛ لأنهم سراءُ الناس، وأحسنهم شكلاً، وإنما شُبِّهَهم بالوفدِ هيئةً، وكرامة.

وروي عن عليّ - رضي الله عنه - أنهم يجيئون رُكباناً على الثوق المحلاة بجِلْيَةِ الجنة: خطمها من ياقوت، وزبرجد^(٤)، ونحو هذا.

وروى عمرو بن قيس الملائي: أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة، وهي

= كتاب السهو: باب البكاء في الصلاة، حديث (١٢١٤)، والترمذي في «الشمايل» رقم (٣٢٣)، وأحمد (٢٥/٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» رقم (٩٠٠)، وابن خزيمة (٩٠٠)، وأبو يعلى (٣/ ٧٥١٧٤) رقم (١٥٩٩)، وابن حبان (٥٢٢- موارد)، والحاكم (٢٦٤/١)، والبيهقي (٢٥١/٢) كتاب الصلاة، كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه به. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وصححه ابن خزيمة، وابن حبان.

تنبيه: عزا المؤلف هذا الحديث لمسلم، وقد وهم في ذلك.

وينظر: «تحفة الأشراف» (٣٥٩/٤).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢/٤).

(٢) في ب: الرفادة.

(٣) في ج: وهو.

(٤) أخرجه الطبري (٣٨٠/٨) رقم (٢٣٩٢٩)، وذكره البغوي (٢٠٩/٣)، وابن عطية (٣٢/٤)، وابن كثير (٣٧/٣)، والسيوطي (٥٠٨/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في «البعث» عن علي.

في غَايَةِ الْحُسْنِ^(١).

وروي: أنه يركب كُلُّ واحدٍ منهم ما أَحَبَّ؛ فمنهم: مَنْ يركبُ الإِبِلَ، ومنهم: مَنْ يركبُ الْخَيْلَ، ومنهم مَنْ يركبُ السُّفْنَ، فتجيءُ عَائِمَةٌ بهم، وقد ورد في «الضَّحَايَا»: أنها مَطَايَاكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ^(٢)؛ وأكثر هذه فيها ضَعْفٌ مِنْ جِهَةِ الْإِسْنَادِ، والسُّوقُ: يتضمن هَوَانًا، والوردُ: العطاش؛ قاله^(٣) ابن عباس، وأبو هريرة، والحسن^(٤).

١٧ واختُلِفَ في الضَّمِيرِ في قوله: ﴿[لَا] يَمْلِكُونَ^(٥)﴾ فقالت / فِرْقَةٌ: هو عائد على «المُجْرِمِينَ» أي: لا يملكون أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ؛ وعلى هذا فالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، أي: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يشفع له.

والعهدُ عَلَى هذا الأَيْمَانِ، وقال ابنُ عباس: العهدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٦)، وفي الحديث: يقول الله تعالى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدِي عَهْدٌ، فَلْيَقُمْ».

قال *ع^(٧)*: ويحتمل: أَنْ يكون المجرمون يعلمُ الْكَفَرَةَ والعُصَاةَ، أي: إِلَّا من اتخذ عند الرحمن عَهْدًا من عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فإنه يشفع لهم، ويكون الاستثناء مُتَّصِلًا.

(١) أخرجه الطبري (٣٨٠/٨) رقم (٢٣٩٣٢) نحوه، وذكره ابن عطية (٣٢/٤)، وابن كثير (١٣٧/٣) نحوه.
(٢) قال السخاوي في المقاصد ص (٥٨): أسنده الديلمي من طريق ابن المبارك عن يحيى بن عبيد الله عن أبيه عن أبي هريرة رفعه بهذا، ويحيى ضعيف جداً، ووقع في «النهاية» لإمام الحرمين، ثم في «الوسيط» ثم في «العزیز»: «عظموا ضحاياكم، فإنها على الصراط مطاياكم»، وقال الأول: معناه: إنها تكون مراكب للمضحين، وقيل: إنها تسهل الجواز على الصراط، لكن قد قال ابن الصلاح: إن هذا الحديث غير معروف ولا ثابت فيما علمناه. وقال ابن العربي في «شرح الترمذي»: ليس في فضل الأضحية حديث صحيح، ومنها: قوله: «إنها مطاياكم إلى الجنة».

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الطبري (٣٨١/٨) عن ابن عباس برقم (٢٣٩٣٦)، وعن أبي هريرة برقم (٢٣٩٣٧) وعن الحسن برقم (٢٣٩٣٨)، وذكره البغوي (٢٠٩/٣)، وابن عطية (٣٢/٤)، وابن كثير (١٣٨/٣)، والسيوطي (٥٠٩/٤، ٥١٠)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لابن المنذر عن أبي هريرة، ولهناد عن الحسن.

(٥) في ب، ج: يملكون.

(٦) أخرجه الطبري (٣٨١/٨) برقم (٢٣٩٤٣)، وذكره البغوي (٢٠٩/٣) ولم يعزه لأحد، وابن عطية (٤/٣٢)، وابن كثير (١٣٨/٣)، والسيوطي (٥١٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس.

(٧) ينظر «المحرر الوجيز» (٣٢/٤).

وقالت فِرْقَةٌ: الضميرُ في ^(١) ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ للمتقين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ...﴾ الآية أي: إلا من كان له عملٌ صالحٌ مبرورٌ؛ [فيشفع] فيشفع ^(٢)، وتحتملُ الآية أن يُرادَ بـ «مَنْ» النبي ﷺ، وبالشَّفَاعَةِ الخاصَّةِ له العامة في أهل الموقف، ويكون الضميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ^(٣) لجميع أهل الموقف؛ ألا تَرَى أَنَّ سَائِرَ الأنبياء يتدافعون الشفاعةَ إذ ذاك، حَتَّى تصيرَ إليه ﷺ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾.

قال الباجي في «سنن الصالحين» له: رُوِيَ عن ابن مسعود، أنه قال: إِنَّ الجبلَ ليقولُ للجبل: يا فلان، هل مرَّ بِكَ اليومَ ذاكِرُ الله تعالى؟ فإن قال: نعم، سُرَّ بِهِ ^(٤)، ثُمَّ قرأ عبدُ الله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً﴾ إلى قوله: ﴿وتخر الجبال هذا أن دعوا للرحمن ولدا﴾ قال: أترونها تسمع الزور، ولا تسمع الخير ^(٥). انتهى.

وهكذا رواه ابنُ المبارك في «رقائقه» وما ذكره ابنُ مسعودٍ لا يقالُ من جهة الرأي، وقد رُوِيَ عن أنسٍ، وغيره نحوه.

قال الباجي بإثر الكلام المتقدم: وروى جعفر بن زَيْد، عن أنس بن مالك أنه قال: مَا مِنْ صَبَاحٍ وَلَا رَوَاحٍ إِلَّا وَتُنَادِي بِقَاعِ الْأَرْضِ بَعْضُهَا بَعْضًا: أَيُّ جَارَةٍ، هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ عَبْدٌ يُصَلِّي أَوْ يَذْكُرُ اللَّهَ؟ فَمِنْ قَائِلَةٍ: لَا، وَمِنْ قَائِلَةٍ: نَعَمْ، فَإِذَا قَالَتْ: نَعَمْ، رَأَتْ لَهَا فَضْلًا بِذَلِكَ. انتهى.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ^(٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ^(٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ^(٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ^(٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ^(٩٣) لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ^(٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ^(٩٥)

(١) في ج، ب: في قوله.

(٢) في ب: ليشفع.

(٣) في ج: في يملكون.

(٤) ذكره السيوطي (٥١١/٤) وعزاه لابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «المعظمة»، والطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن طريق عون عن ابن مسعود.

(٥) ذكره السيوطي (٥١١/٤)، وعزاه لعون.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ الآية، الإِذُّ: الأمرُ الشَّيْخُ الصَّغْبُ.

ت*: وقال العِرَاقِي: «إِذَا»، أَي: عَظِيمًا، انتهى.

والانْفِطَارُ: الانْشِقَاقُ، والهِدُّ: الإِنْهَادُ، قال محمدُ بْنُ كَعْبٍ^(١): كَادَ أعداءُ اللَّهِ أَنْ يُقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ.

وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ...﴾ الآية، إِنْ نَافِيَةٌ بمعنى مَا.

وقوله: ﴿فَرْدًا﴾ يتضمَّنُ عَدَمَ النَصِيرِ، وَالْحَوْلِ والقُوَّةِ، أَي: لَا مُجِيرَ لَهُ مِمَّا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ.

وعبارة الثَّغَلْبِي: «فَرْدًا» أَي: وَحِيدًا بِعَمَلِهِ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ. اهـ.

ت*: وهذه الآية تُنْظَرُ إِلَى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى...﴾ الآية.

[الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ذهب أكثرُ المفسرين إلى: أَنَّ هذا الْوُدَّ هو الْقَبُولُ الَّذِي يَضَعُهُ اللَّهُ لِمَنْ يَحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ؛ حَسْبَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمَأْثُورِ، وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ أَسْرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا»^(٢).

ت*: وَالْحَدِيثُ الْمَتَقَدِّمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ أَصْلُهُ فِي «الْمَوْطِئِ» وَلَفْظُهُ: مَالِكٌ، عَنْ سَهِيلِ بْنِ أَبِي صَالِحِ السَّمَانِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: يَا جِبْرِيلُ قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ^(٣): إِنَّ اللَّهَ أَحَبَّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ».

وَإِذَا أَبْغَضَ الْعَبْدَ، قَالَ مَالِكٌ: لَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَالَ فِي [البُغْضِ]^(٤) مِثْلَ ذَلِكَ^(٥).

(١) ذكره ابن عطية (٣٤/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٤/٤).

(٣) في ج: السموات.

(٤) سقط في ب.

(٥) أخرجه مالك (٩٥٣/٢) كتاب الشعر: باب ما جاء في المتحابين في الله، حديث (١٥)، ومسلم (٤/٢٠٣٠) كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبداً، حديث (٢٦٣٧/١٥٧)، والترمذي (٣١٧/٥) =

قال أَبُو عُمَرَ [بن عبد البر^(١)] في «التمهيد»^(٢) / ، وممن رَوَى هذا الحديث عن ٧ ب سُهَيْل، بإسناده هذا^(٣) فذكر البُغْضَ من غير شكٍّ معمرٌ وعبدُ العزيز بن المختار، وحماد بن سَلَمَة، قالوا في آخره: وَإِذَا أَبْغَضَ بِمِثْلِ^(٤) ذلك، ولم يشكوا.

قال أَبُو عُمَرَ: وقد قال المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى النَّاسِ، وقاله مُجَاهِدٌ، وابنُ عباس^(٥)، ثم أسند أَبُو عُمَرَ عن كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ مَا اسْتَقَرَّ لِعَبْدٍ ثَنَاءٌ فِي أَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَقَرَّ لَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ.

قال كَعْبٌ: وقرأتُ^(٦) في التوراة أنه لم تكن مَحَبَّةٌ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا كَانَ بَدَأَهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَنْزِلُهَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ، فَوَجَدْتُ فِيهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وَأَسْنَدَ أَبُو عُمَرَ، عَنْ قَتَادَةَ [قَالَ]^(٧): قَالَ هَرَمٌ بْنُ حَيَّانَ: مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بَقْلَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ. انتهى^(٨).

قال ابنُ المُبَارَكِ في «رقائقه»: أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «مَنْ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ [اللَّهُ]^(٩) سَمْعَهُ^(١٠) مِمَّا

= (٣١٨) كتاب «التفسير»: باب «ومن سورة مريم»، حديث (٣١٦١)، وأحمد (٢٦٧/٢، ٣٤١)، وعبد الرزاق (١٩٦٧٣)، وابن جبان (٣٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٦/١٠) كلهم من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه البخاري (٤٦٩/١٣) كتاب التوحيد: باب كلام الرب عز وجل مع جبريل، حديث (٧٤٨٥) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(١) سقط في ب، ج.

(٢) ينظر: «التمهيد» (٢١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) في ج: هذه.

(٤) في ج، ب: مثل.

(٥) أخرجه الطبري (٣٨٥/٨) عن مجاهد برقم (٢٣٩٦١)، وعن ابن عباس برقم (٢٣٩٦٥)، وذكره البغوي (٢١٠/٣)، وعزه عن مجاهد، والسيوطي (٥١٢/٤)، وعزه لعبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس بلفظ: «محبة في الناس في الدنيا».

(٦) في ج: قوله.

(٧) سقط في ج.

(٨) أخرجه الطبري (٣٨٦/٨) رقم (٢٣٩٦٧).

(٩) سقط في ب، ج.

(١٠) في ج: مسامعه.

يُحِبُّ» قال: فقيل^(١): يا رسول الله، مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قال: «مَنْ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ اللَّهُ سَمْعَهُ مِمَّا يَكْرَهُ». انتهى.

قال *ع^(٢): * وفي حديث أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ فِي السَّمَاءِ صَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا، وَضِعَ فِي الْأَرْضِ حَسَنًا، وَإِنْ كَانَ سَيِّئًا وَضِعَ فِي الْأَرْضِ سَيِّئًا»^(٣).

ت: وهذا الحديث خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ «الزهد».

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: القرآن ﴿لتبشر به المتقين﴾ أي: بالجنة، والنعيم الدائم، والعز في الدنيا.

و﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ هم: قريش، ومعناه: مُجَادِلِينَ مُخَاصِمِينَ، والألدُّ: المُخَاصِمُ المبالغ في ذلك، ثم مثل لهم بإهلاك مَنْ قَبْلَهُمْ إِذْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ، وألدُّ وأعظم قذراً، و«الركز»: الصَّوْتُ الخَفِيّ.

(١) في ج: قيل.

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٣٤/٤).

(٣) أخرجه البزار (٣٣٠٦. كشف) من حديث أبي هريرة.

وذكره الهندي في «كنز العمال» (٤٣٠٣٨)، وعزاه للبزار عن أبي هريرة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قوله سبحانه وتعالى: ﴿طه﴾ (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِلَّا نَزْكَرَةً لِمَن يَخْشَى (٢) تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأُولَى (٣) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٤) لَمْ يَلَمْسْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٥) وَإِن يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٧) ﴿طه﴾ قوله سبحانه وتعالى: ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿قيل: طه: أنسم من أسماء نبينا محمد ﷺ وقيل: معناه: يا رجل؛ بالسريانية، وقيل: بغيرها من لغات العجم.

قال البخاري: قال ابن جبير: ﴿طه﴾: يا رجل، بالنبطية^(١). انتهى.

وقيل^(٢): إنها لغة يمانية في «عك»؛ وأنشد الطبري^(٣) في ذلك: [الطويل]

دَعَوْتُ بِـ «طه» فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ فَخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُوَائِلًا^(٤)
وقال آخر: [البسيط]

إِنَّ السَّفَاهَةَ^(٥) - طه - مِنْ خَلَائِقِكُمْ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ^(٦)
وقالت فِرْقَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ قَرِشًا لَمَّا نَظَرَتْ إِلَى عَيْشِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَظْفِهِ وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ؛ قَالَتْ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَعَ رَبِّهِ فِي شِقَاءٍ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ رَأْدَةً عَلَيْهِمْ^(٧).

(١) أخرجه الطبري (٣٨٩/٨) برقم (٢٣٩٨٨) بلفظ: «يا رجل كلمة بالنبطية»، وذكره ابن كثير (١٤١/٣).

(٢) في ب، ج: وحكى.

(٣) ينظر: «الطبري» (١٣٦/١٦).

(٤) البيت لمتمم بن نورية، و«الموئل»؛ الملجأ، وموائل منه: طالب النجاة، وهو اسم فاعل «وإل» أي: بادر، والشاهد في قوله: «طه» على أنها بمعنى «يا رجل». ينظر البيت في: «تفسير الطبري» (١٦/١٣٦)، وفيه «صفت بطه»، و«روح المعاني» (١٤٨/١٦).

(٥) في ج، ب: الشفاعة.

(٦) والاستشهاد به كالأستشهاد بالبيت السابق - ينظر البيت في «حاشية الشهاب» (١٧٨/٦)، و«الطبري»

(٨/٣٩٠)، و«مجمع البيان» (٢/٤)، و«الفخر الرازي» (٤/٢٢)، و«البحر المحيط» (٦/٢١٢)،

و«الدر المصون» (٣/٥).

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٥١٦/٤) عن الربيع بن أنس، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

وأَسَدٌ عِيَاضٌ فِي «الشفا»^(١) مِنْ طَرِيقِ أَبِي ذَرٍّ الْهَرَوِيِّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ ١٨ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى /، قَامَ عَلَى رِجْلٍ وَرَفَعَ الْأُخْرَى، فَأَنْزَلَ اللَّهَ؛ ﴿طه﴾ يَعْنِي: طَاهِرَ الْأَرْضِ يَا مُحَمَّدُ، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي هَذَا كُلِّهِ مِنَ الْإِكْرَامِ لَهُ (ﷺ) وَحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ. انْتَهَى.

[قال *ص*: ﴿لِتَشْقَى﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً ﴿عَلَّانٍ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾. انْتَهَى] ^(٢).

وقد تقدم القول في مسألة الاستواء، وباقي الآية بين.

قال ابن هشام: قوله تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول﴾ أي: فاعلم أنه غيبي عن جهرك؛ ﴿فإنه يعلم السر وأخفى﴾، فالجواب محذوف. انتهى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٣ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ١٤﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إذ رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا إني آنستُ ناراً لعلِّي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى ﴿هذا الاستفهام توقيفٌ مضمّن: تنبيه النفس إلى استماع ما يورد عليها، وهذا كما تبدأ الرجل إذا أردت إخباره بأمرٍ غريب؛ فتقول: أعلمت كذا، وكذا، ثم تبدأ تخبره.

وكان من قصة موسى - عليه السلام - أنه رحل من مدين بأهله بنت شعيب - عليه السلام - وهو يريد أرض مضر، وقد طال مدة جنّيته هنالك، فرجاً خفاءً أمره، وكان فيما يزعمون رجلاً غيوراً، فكان يسيّر الليل بأهله، ولا يسيّر بالنهار مخافة كشفه^(٣) الناس، فضّل عن طريقه في ليلة مظلمة، فبينما هو كذلك، وقد قدح بزنده، فلم يور شيئاً ﴿إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا﴾، أي: أقيموا، وذهب هو إلى النار، فإذا هي مضطربة في شجرة خضراء يابنة، قيل: كانت من عئاب، وقيل: من عوسج^(٤)، وقيل: من عُليق^(٥)، فكلّمها

(١) في ب: عبارة من.

(٢) سقط في ب.

(٣) في ج: كشف.

(٤) القوسج: شجر من شجر الشوك، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق. واحدته: عوسجة.

ينظر: «المعجم الوسيط» (٦٠٦).

(٥) في ج، ب: عليقة.

دَنَا مِنْهَا، تَبَاعَدَتْ مِنْهُ، وَمَشَتْ فَإِذَا رَجَعَ عَنْهَا اتَّبَعَتْهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَيقِنَ أَنَّ هَذَا مِنْ أُمُورِ اللَّهِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، وَتُودِي، وَأَنْقَضَى أَمْرُهُ كُلُّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ؛ هَذَا^(١) قول الجُمهُورِ، وهو الحقُّ، وما حَكِيَّ عن ابنِ عباسٍ: أَنَّهُ قَالَ: أَقَامَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ حَوْلًا، فَغَيَّرَ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢).

﴿أَنْسَتْ﴾: معناه: أَحْسَنْتُ، وَالْقَبَسُ: الْجَذْوَةُ مِنَ النَّارِ، تَكُونُ عَلَى رَأْسِ الْعُودِ.

وَالهُدَى: أَرَادَ هُدَى الطَّرِيقِ، أَيُّ: لِعَلِي أَجِدُ مَرشَدًا لِي، أَوْ دَلِيلًا.

وَفِي قِصَّةِ مُوسَى بِأَسْرَها فِي هَذِهِ السُّورَةِ تَسْلِيَّةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَمَّا لَقِيَ فِي تَبْلِيغِهِ مِنَ الْمَشَقَّاتِ ﷺ وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَاها﴾: عَائِدٌ عَلَى النَّارِ.

وقوله: «تُودِي»: كَنَايَةٌ عَنْ تَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ (عَلَيْهِ السَّلَام).

وَقَرَأَ نَافِعُ^(٣) وَغَيْرُهُ: إِنِّي - بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ - عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو، وَأَبْنُ كَثِيرٍ: «أَنِّي» - بَفَتْحِهَا - عَلَى مَعْنَى: لِأَجْلِ أَنِّي أَنَا رَبُّكَ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ.

وَاخْتَلَفَ فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أُمِرَ بِخَلْعِ النِّعْلَيْنِ: فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَتَا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ، فَأُمِرَ بِطَرْجِ النَّجَاسَةِ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ كَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ جِلْدِ بَقَرَةٍ ذَكِيٍّ؛ لَكِنْ أُمِرَ بِخَلْعِهِمَا لِيَنَالَ بَرَكَתَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ، وَتَمَسَّ قَدَمَاهُ تُرْبَةَ الْوَادِي.

قَالَ *ع^(٤): وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ مَعْنَى آخَرَ، هُوَ الْأَلِيقُ بِهَا عِنْدِي؛ وَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَتَأَذَّبَ، وَيَتَوَاضَعَ؛ لِعَظَمِ الْحَالِ الَّتِي حَصَلَ فِيهَا، وَالْعُرْفُ عِنْدَ الْمُلُوكِ: أَنْ تُخْلَعَ

(١) فِي ج: هَذَا هُوَ.

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٨/٤).

(٣) وَكَذَلِكَ قَرَأَ عَاصِمٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَمْزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، غَيْرَ أَنْ نَافِعًا فَتَحَ الْبَاءَ، وَأَسْكَنَهَا الْبَاقُونَ. يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٤١٧)، وَ«الْحَجَّةُ» (٢١٨/٥)، وَ«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢٨/٢)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/١٤٣)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيعَةِ» (٣٩/٥)، وَ«حِجَةُ الْقُرْآنِ» (٤٥١)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٤٩٠)، وَ«إِتِحَافٌ» (٢/٢٤٤).

(٤) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٣٩/٤).

النَّعْلَانِ، ويبلغ الإنسان إِلَى غاية تَوَاضُعِهِ، فَكَأَنَّ مُوسَى - عليه السلام - أُمِرَ بِذَلِكَ عَلَى هذا الوجه، وَلَا بُدَّالِي كَيْفَ كَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ مِيتَةٍ أَوْ غَيْرِهَا.

و﴿المقدس﴾: معناه المَطْهُرُ، و﴿طوى﴾: [معناه] ^(١) مَرَّتَيْنِ.

فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: معناه قُدُسَ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: معناه طُوِيَثَ لَكَ الْأَرْضُ مَرَّتَيْنِ مِنْ ظَنِّكَ.

قَالَ الْفَخْرُ: وَقِيلَ: إِنَّ طَوَى أَسْمَ وَادٍ بِالشَّامِ، وَهُوَ عِنْدَ الطُّورِ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ.

ب ٨ وقيل / : إِنَّ ﴿طَوَى﴾ بِمعنى: يَا رَجُلُ، بِالْعَبْرَانِيَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا رَجُلَ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ. انتهى «من تفسيره لسورة والنازعات».

قال *ع* ^(٢): وحدثني أَبِي - رحمه الله - قال: سمعت أبا الفضل بْنَ الجوهري - رحمه الله تعالى - يقول: لما قِيلَ لموسى: استمع لما يُوحَى، وَقَفَ عَلَى حَجَرٍ، وَاسْتَدَّ إِلَى حَجَرٍ، وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ وَأَلْقَى دَقَّتُهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَوَقَفَ يَسْتَمِعُ، وَكَانَ كُلُّ لِبَاسِهِ صُوفًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: لِتَذَكُّرْنِي فِيهَا، أَوْ يَرِيدُ: لِأَذْكُرَكَ فِي عِلَّتَيْنِ بِهَا، فَالْمَصْدَرُ مُحْتَمِلُ الْإِضَافَةِ إِلَى الْفَاعِلِ، أَوْ الْمَفْعُولِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: معنى قوله ﴿لِذِكْرِي﴾ أُنِي: عِنْدَ ذِكْرِي، أُنِي: إِذَا ذَكَرْتَنِي، وَأَمْرِي لَكَ بِهَا.

ت وفي الحديث عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً، فَلْيَصَلَّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَقْتُهَا» ^(٣)؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. انتهى.

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٩/٣)، والبخاري (٧٠/٢) «كتاب مواقيت الصلاة» باب من نسي صلاة، الحديث (٥٩٧)، ومسلم (٤٧٧/١) «كتاب المساجد» باب قضاء الصلاة الفائتة، الحديث (٦٨٤/٣١٤)، والترمذي (٣٣٦.٣٣٥ / ١) «كتاب الصلاة» باب ما جاء في الرجل ينسى، الحديث (١٧٨)، وابن ماجه (٢٢٧/١) «كتاب الصلاة» باب من نام عن الصلاة أو نسيها، حديث (٦٩٦)، والنسائي (٢٩٣/١)، كتاب المواقيت باب فيمن نسي صلاة (٦١٣)، وأبو داود (١٧٤/١) «كتاب الصلاة» باب من نام عن =

فقد بين لك ﷺ ما تحتمله الآية، والله الموفق بفضلته؛ وهكذا استدل ابن العربي هنا بالحديث^(١)، ولفظه: وقد روى مالك وغيره: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»^(٢). انتهى من «الأحكام». وقرأت فرقة: «لِلذِّكْرِى»، وقرأت^(٣) فرقة: «لِلذِّكْرِى»، وقرأت فرقة: «لِلذِّكْرِى»^(٤) بغير تعريف.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَبِيعُكَ يَتْمُوْسُ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبَ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَتْمُوْسُ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبِطَةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَفْتَنَنَّ سَيْدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِزَيْكٍ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَازِلُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِؤْسًا زُرِّي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَتْمُوْسُ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾: يريد^(٥): القيامة آتية، فيه تحذيرٌ ووَعِيدٌ.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: «أكاد أخفيها» - بفتح الهمزة - بمعنى: أظهرها، أي: إنها من تيقن وقوعها تكاد تظهر، لكن تنحجب إلى الأجل المعلوم، والعرب تقول: خفيت الشيء بمعنى: أظهرته.

= صلاة أو نسيها (٤٤٢)، وأبو عوانة (٣٨٥/١)، والدارمي (٢٨٠/١)، وابن خزيمة (٩٧/٢) رقم (٩٩٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤٦٥/١)، وفي «المشكل» (١٨٧/١)، والبيهقي (٢/٢١٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٧٠/٦)، من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك».

وأخرجه مسلم (٤٧٧/١) «كتاب المساجد» باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١٦)، وأحمد (٣٦٩/٣)، وأبو نعيم (٥٢/٩)، بلفظ: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾».

(١) ينظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١٣٥٨/٣).

(٢) ينظر الحديث السابق.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٩/٤)، «البحر المحيط» (٢١٨/٦)، و«الدر المصون» (١١/٥).

(٤) في ج: لذكر.

(٥) في ج: يوم.

وقرأ الجمهور^(١): «أَخْفِيهَا» - بضم الهمزة - فقليل: معناه: أظهرها، وزعموا: أَنَّ «أَخْفَيْتُ» من الْأَضْدَادِ.

وقالت فرقة: «أكادُ» بمعنى أريدُ، أي: أريدُ إخفاءها عنكم؛ لتجزي كل نفس بما تسعى، واستشهدوا بقول الشاعر: [الكامل]

كَادَتْ وَكَذَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ إِزَادَةٍ (٢)

وقالت فرقة: أكاد: على بابها بمعنى: أنها مقاربة ما لم يَقَعْ لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب، ومجازها، فلما كانت الآية عبارة عن شِدَّةِ خَفَاءِ أَمْرِ الْقِيَامَةِ ووقتها، وكان القَطْعُ بِإِتْيَانِهَا مع جَهْلِ الْوَقْتِ أَهْيَبَ على النفوس؛ بالغ - سُبْحَانَهُ - في إِنْهَامِ وَقْتِهَا، فقال: «أكاد أخفيها»؛ حَتَّى لَا تَظْهَرُ أَلْبَتَّةَ، ولكن ذلك لا يَقَعُ، ولا بُدَّ مِنْ ظُهُورِهَا، وهذا التَّأْوِيلُ هو الأقْوَى عندي.

وقوله سبحانه: «فلا يصدنك عنها»: أي: عن الإيمان بالسَّاعَةِ، ويحتمل عود الضمير على الصَّلَاةِ.

وقوله: «فتردّي»: معناه فَتَهْلِكْ، والرَّدْيُ: الهلاكُ، وهذا الخطابُ كله لموسى عليه السلام، وكذلك ما بعده.

وقال النقاش: الخطابُ بـ «لَا يصدنك»: لنبيينا محمد ﷺ وهذا بعيد^(٣).

وقوله سبحانه: «وما تلك بيمينك يا موسى» تقريرٌ مضمّنهُ التَّنْبِيهُ، وجمعُ النفسِ؛ لتلقى ما يورد عليها، وإِلَّا فَقَدْ علم سُبْحَانَهُ مَا هِيَ فِي الْأَزَلِ.

(١) ينظر: «المحتسب» (٢/ ٤٧-٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٠)، و«الدر المصون» (٥/ ١١).

(٢) صدر بيت للأخفش، وعجزه:

لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

ينظر «الصحيح» (كود)، و«اللسان» (كود) و (كيد)، و«التاج» (كود).

وقال الزبيدي: وقال الأخفش في تفسير الآية: معناه: أخفيها. وفي «تذكرة أبي علي» أن بعض أهل التأويل قالوا: «أكادُ أخفيها» مَعْنَاهُ أَظْهَرُهَا، قَالَ شَيْخُنَا: وَالْأَكْثَرُ عَلَى بَقَائِهَا عَلَى أَصْلِهَا، كَمَا فِي «البحر» و«النهر» و«إغراب أبي البقاء» و«السفاسي»، فلا حاجة إلى الخروج عن الظاهر، والله أعلم، قال السيوطي: وعكسه كقوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ» أي يكاد. قلت: وفي «اللسان»: قال بعضهم في قوله تعالى «أكاد أخفيها» أريد أخفيها، فكما جاز أن توضع أريد موضع أكاد في قوله «جداراً يريد أن يَنْفَضَّ» [الكهف: ٧٧]. فكَذَلِكَ أَكَادُ، فَتَأَمَّلْ.

(٣) ذكره ابن عطية (٤/ ٤٠).

قال ابنُ العَرَبِيِّ في «أحكامه»: وأجاب مُوسَى عليه السلام بقوله: ﴿هي عصاي...﴾ الآية، بِأَكْثَرِ مما وَقَعَ السُّؤالُ عنه؛ وهذا كقوله ﷺ: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاءُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»^(١) / ١٩ لمن سَأَلَهُ عن طَهْوَرِيَّةِ ماءِ الْبَحْرِ. انتهى.

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ (٢٢/١) كِتَابَ الطَّهَارَةِ: بَابُ الطَّهْوَرِ لِلْوُضوءِ، الْحَدِيثُ (١٢)، وَالشَّافِعِيُّ فِي (١٦/١): كِتَابُ الطَّهَارَةِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ فِي «المَوْطَأِ» (٤٣) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ الْوُضوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، الْحَدِيثُ (٤٦)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٣١/١) كِتَابُ الطَّهَارَاتِ: بَابُ مَنْ رَخَصَ فِي الْوُضوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، وَأَحْمَدُ (٢/٣٦١)، وَالدَّارِمِيُّ (١٨٦/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ الْوُضوءِ مِنْ بَابِ الْبَحْرِ، وَالبَخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ الْكَبِيرِ» (٤٧٨/٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٦٤/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ الْوُضوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، الْحَدِيثُ (٨٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١/١٠٠-١٠١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ مَا جَاءَ فِي مَاءِ الْبَحْرِ أَنَّهُ طَهُورٌ، الْحَدِيثُ (٦٩)، وَالتَّنَائِي (١/١٧٦) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ الْوُضوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٦/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ الْوُضوءِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، الْحَدِيثُ (٣٨٦)، وَابْنُ خُزَيْمَةَ (٥٩/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ الرِّخْصَةِ فِي الْغَسْلِ وَالْوُضوءِ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ، الْحَدِيثُ (١١١)، وَابْنُ حَبَانَ فِي «مَوَارِدِ الظُّمآنِ إِلَى زَوَائِدِ ابْنِ حَبَانَ» كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَاءِ، الْحَدِيثُ (١١٩)، وَابْنُ الْجَارُودِ ص: (٢٥) بَابُ فِي طَهَارَةِ الْمَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي يَنْجَسُ الْمَاءُ وَالَّذِي لَا يَنْجَسُ، وَالدَّارِقُطْنِيُّ (٣٦/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ فِي مَاءِ الْبَحْرِ، الْحَدِيثُ (١٣)، وَالْحَاكِمُ (١/١٤٠-١٤١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي (٣/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ التَّطْهِيرِ بِمَاءِ الْبَحْرِ، وَفِي «مَعْرِفَةِ السَّنَنِ وَالْأَثَارِ» (١٥٠/١ - ١٥١)، وَالْخَطِيبُ فِي «تَارِيخِ بَغْدَادَ» (١٣٩/٧)، وَابْنُ بَشْكُوَالٍ فِي «الْغَوَامِضِ» (ص - ٥٥٥)، وَالجَوْزْقَانِيُّ فِي «الْأَبَاطِيلِ» رَقْمَ (٣٣١)، مِنْ رِوَايَةِ مَالِكٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلَمَةَ مِنْ آلِ ابْنِ الْأَزْرَقِ، عَنْ الْمَغِيرَةِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأَ بِهِ عَطَشْنَا. أَفْتَوْضَأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاءُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ تَوَبَّعَ مَالِكٌ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ فَتَابِعَهُ أَبُو أُوَيْسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. فَمَتَابِعَةُ الْأَوَّلِ رَوَاهَا أَحْمَدُ (٢/٣٩٢-٣٩٣)، وَمَتَابِعَةُ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ، أَخْرَجَهَا الْحَاكِمُ (١/١٤١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «مَعْرِفَةِ السَّنَنِ وَالْأَثَارِ» (١/١٥٣-١٥٤) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ مَا تَكُونُ بِهِ الطَّهَارَةُ مِنَ الْمَاءِ.

وَقَدْ تَابِعَهُ أَيْضًا الْجَلَالُ أَبُو كَثِيرٍ، فَرَوَاهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلَمَةَ. أَيْضًا أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ الْكَبِيرِ» (٤٧٨/٣)، وَالْحَاكِمُ (١/١٤١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ، وَالبَيْهَقِيُّ (٣/١) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ التَّطْهِيرِ بِمَاءِ الْبَحْرِ. وَ«مَعْرِفَةُ السَّنَنِ وَالْأَثَارِ» (١/١٥٤) كِتَابُ الطَّهَارَةِ: بَابُ مَا تَكُونُ بِهِ الطَّهَارَةُ مِنَ الْمَاءِ. وَمِمَّنْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ غَيْرَ الْمَغِيرَةِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ. أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ (١/٣٧) رَقْمَ (١٥) وَالْحَاكِمُ (١/١٤٢) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَدَامِيِّ ثَنَا إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ.

وَسَكَتَ عَنْهُ الْحَاكِمُ وَالدَّهْبِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَدَامِيُّ ضَعِيفٌ. قَالَ ابْنُ عَدِي (٤/٢٥٨): عَامَّةُ أَحَادِيثِهِ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ عَلَى مَا تَبَيَّنَ لِي مِنْ رِوَايَاتِهِ وَاضْطِرَابِهِ فِيهَا وَلَمْ أَرِ لِمُتَقَدِّمِيهِ فِيهِ كَلَامًا فَأَذْكُرُهُ. أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْهُ:

= أخرجه الحاكم (١٤٢/١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٣٢/٢) من طريق سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ثنا محمد بن غزوان قال: ثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به. ومحمد بن غزوان قال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار ويسند الموقوف. ينظر «المجروحين» (٢٩٩/٢)، «المغني» (٦٢٣/٢) رقم (٥٨٩٢) وقد صحَّح هذا الحديث جمع من الأئمة والحفاظ منهم:

- ١- البخاري فقال: هو حديث صحيح كما نقل عنه الترمذي في «العلل الكبير» (٤١/١) رقم (٣٣).
- ٢- الترمذي فقال: حسن صحيح.
- ٣- ابن خزيمة: بإخراجه في صحيحه وسكوته عليه.
- ٤- ابن حبان: بإخراجه في صحيحه وسكوته عليه، وقال في «المجروحين» (٢٩٩/٢): حديث أبي هريرة صحيح.
- ٥- الحاكم.

٦- البيهقي في «معركة السنن والآثار» (١٥٢/١) ونقل قول البخاري في تصحيح الحديث.

٧- الجوزقاني في «الأبطل» فقال: هذا حديث حسن وغيرهم كثير.

وفي الباب عن علي، وجابر، وعبد الله بن عمرو، وأبي بكر، وابن عباس، وأنس، والفريسي، وابن عمر، وعبد الله المدلجي، وسليمان بن موسى، ويحيى بن أبي كثير مرسلًا.

أما حديث علي: رواه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٦)، والحاكم (١٤٣-١٤٢/١) كتاب الطهارة كلاهما من رواية ابن عقدة الحافظ، ثنا أحمد بن الحسين بن عبد الملك، ثنا معاذ بن موسى، ثنا محمد بن الحسين، حدثني أبي عن أبيه، عن جده، عن علي قال: سئل رسول الله ﷺ عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

قال الحافظ في «التلخيص» (١٢/١): وفيه من لا يعرف.

وحديث جابر: رواه أحمد (٣٧٣/٣)، وابن ماجه (١٣٧/١) كتاب الطهارة باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٣٨٨)، والدارقطني (٣٤/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٣)، وابن خزيمة (٥٩/١)، وابن حبان (١٢٠- موارد)، وابن الجارود (٨٧٩)، والدارقطني (٣٤/١)، والبيهقي (١/٢٥٣-٢٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٢٩/٩) من طريق إسحاق بن حازم عن عبيد الله بن مقسم عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال: «الحل ميتته، الطهور ماؤه».

قال الحافظ في «تلخيص الحبير» (١١/١): قال أبو علي بن السكن: حديث جابر أصح ما روي في هذا الباب.

وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠٣/٢). الحديث (١٧٥٩)، والدارقطني (٤٣/١)، والحاكم (١٤٣/١) كتاب الطهارة، من وجه آخر من رواية المعافي بن عمران، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر به.

قال الحافظ في «التلخيص» (١١/١) إسناده حسن ليس فيه إلا ما يخشى من التدليس، ورواه الدارقطني (٣٤/١) أيضًا من طريق مبارك بن فضالة، عن أبي الزبير.

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص: - أخرجه الحاكم (١٤٣/١) كتاب الطهارة، من طريق الحكم بن موسى، ثنا معقل بن زياد، عن الأوزاعي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أن =

= رسول الله ﷺ قال: «ميتة البحر حلال وماؤه طهور»، وقد رواه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٧)، من هذا الوجه أيضاً، من رواية الحكم بن موسى، عن معقل فقال عن المثنى، عن عمرو بن شعيب ومن طريق المثنى أيضاً أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٤١٨/٦) والمثنى بن الصباح ضعفه ابن معين وغيره وقال النسائي: متروك. ينظر «المغني» (٥٤١/٢) رقم (٥١٧٥).

قال الحافظ في «التلخيص» (١٢/١): ووقع من عند الحاكم الأوزاعي بدل المثنى وهو غير محفوظ. وحديث أبي بكر: أخرجه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٤) من طريق عبد العزيز بن أبي ثابت، عن إسحاق بن حازم الزيات، عن وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله، عن أبي بكر الصديق أن رسول الله ﷺ سئل عن البحر، الحديث. وقال الدارقطني: عبد العزيز ليس بالقوي، ورواه ابن حبان في «المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين» (٣٥٥/١)، من وجه آخر عن أبي بكر مرفوعاً، لكنه من رواية السري بن عاصم، قال ابن حبان: يسرق الحديث، ويرفع الموقوف، وأخرجه الدارقطني (٣٥/١)، والبيهقي (٤/١) كتاب الطهارة باب التطهير بماء البحر، عن أبي بكر موقوفاً، وصحح وقفه الدارقطني، وابن حبان في «الضعفاء».

وحديث ابن عباس: أخرجه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (١٠)، والحاكم (١٤٠/١) كتاب الطهارة، كلاهما من رواية سريج بن النعمان، عن حماد بن سلمة، عن أبي التياح، عن موسى بن سلمة، عن ابن عباس، قال: سئل رسول الله ﷺ، عن ماء البحر فقال: «ماء البحر طهور». قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي، لكن الدارقطني قال: الصواب أنه موقوف قال الحافظ في «التلخيص» (١١/١): رواه ثقات لكن صحح الدارقطني وقفه، والموقوف أخرجه أحمد (٢٧٩/١) في مسند ابن عباس رضى الله عنه من طريق عفان، عن حماد بن سلمة به، وفيه: وسألته يعني ابن عباس عن ماء البحر، فقال: ماء البحر طهور.

وحديث أنس: أخرجه عبد الرزاق (٩٤/١) كتاب الطهارة باب الوضوء من ماء البحر، الحديث (٣٢٠)، عن الثوري، عن أبان بن أبي عياش، عن أنس، عن النبي ﷺ في ماء البحر قال: «الحلال ميتة الطهور ماؤه» وأخرجه الدارقطني (٣٥/١) كتاب الطهارة باب في ماء البحر، الحديث (٨) من طريق محمد بن يزيد، عن أبان به وقال: أبان متروك.

وحديث الفَرَّاسي أو ابن الفراسي: أخرجه ابن ماجه (١٣٦-١٣٧) كتاب الطهارة باب الوضوء بماء البحر، الحديث (٣٨٧) عن سهل بن أبي سهل عن يحيى بن بكير، عن الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن بكر بن سوادة، عن مسلم بن مخشي عن ابن الفراسي قال: كنت أصيد وكانت لي قربة أجعل فيها ماءً، وإني توضأت بماء البحر فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» هكذا قال ابن ماجه: عن ابن الفراسي.

وأخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢٠/١٦)، من طريق أبي الزيناع روح بن الفرج القطان، عن يحيى بن بكير، وفيه عن مسلم بن مخشي، أنه حدثه أن الفراسي قال: كنت أصيد في البحر الأخضر على أرمات وكنت أحمل قربة لي فيها ماء، فذكره.

قال الترمذي في «علله» (ص: ٤١) رقم (٣٤)، قال: سألت البخاري عن حديث ابن الفراسي في ماء البحر فقال: حديث مرسل، لم يدرك ابن الفراسي النبي ﷺ. والفراسي له صحبة.

ت: والمُسْتَحْسَنُ من الجواب: أَنْ يكون مُطَابِقاً للسؤال، أو أَعَمُّ منه؛ كما في الآية، والحديث، أمَّا كونه أخصَّ منه، فلا. انتهى.

﴿وَأَهْشَ﴾: معناه: أَخِيطُ بِهَا الشَّجَرُ؛ حَتَّى يَنْتَثِرَ الْوَرَقُ لِلْغَنَمِ، وَعَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ الَّتِي كَانَ أَخَذَهَا مِنْ بَيْتِ عِصَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ عِنْدَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ اتَّفَقَا عَلَى الرُّغْيِ^(١)، وَكَانَتْ عَصَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هَبَطَ بِهَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَانَتْ مِنَ الْعِيزِ الَّذِي فِي وَرَقِ الرِّيحَانِ، وَهُوَ الْجِسْمُ الْمُسْتَطِيلُ فِي وَسْطِهَا، وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَذْرِيبَ مُوسَى فِي تَلْقِي النُّبُوَّةِ، وَتَكَايُفِهَا، أَمَرَهُ بِالْقَاءِ الْعَصَا، فَأَلْقَاهَا، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، أَيْ تَنْتَقِلُ، وَتَمْشِي، وَكَانَتْ عَصَا دَاثَ شُعْبَتَيْنِ، فَصَارَتِ الشُّعْبَتَانِ فَمَا^(٢) يَلْتَقِمُ الْحِجَارَةَ، فَلَمَّا رَأَاهَا مُوسَى رَأَى عِزَّةً؛ فَوَلَّى مُذْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ، فَصَارَتْ عَصَاً كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ وَهِيَ سَيَّرْتُهَا الْأَوَّلَى، ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، أَيْ: جَنِّبِكَ.

قال *ع*^(٣): وَكُلُّ مَرْغُوبٍ مِنْ ظُلْمَةٍ وَنَحْوِهَا فَإِنَّهُ إِذَا ضَمَّ يَدَهُ إِلَى جَنَاحِهِ، فَتَرَ

= قال الحافظ البوصيري في «الزوائد» (١/١٦١): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن مسلماً لم يسمع من الفراسي إنما سمع من ابن الفراسي، وابن الفراسي لا صحبة له وإنما روى هذا الحديث عن أبيه فالظاهر أنه سقط من هذا الطريق.

وحديث ابن عمر: رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ (٤/٢٦٧) بَابُ الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَالْأَطْعَمَةِ، الْحَدِيثُ (٢) طَرِيقُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: أَكَلْتُ مَا طَفَا عَلَى الْمَاءِ، قَالَ: إِنْ طَافَ بِهِ مَيْتَةٌ، وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مَاءٌ طَهَّرَ وَمَيْتَةٌ حَلٌّ». وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ هُوَ الْخُوزِيُّ، قَالَ النَّسَائِيُّ وَالدَّارِقُطْنِيُّ: مَتْرُوكٌ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الضَعْفَاءِ»، وَقَالَ الْحَافِظُ: مَتْرُوكٌ، يَنْظُرُ «الضَعْفَاءُ» لِلنَّسَائِيِّ رَقْمَ (١٤) وَالدَّارِقُطْنِيِّ (١٣) وَالبُخَارِيِّ (١٤) وَ«التَّقْرِيبُ» (١/٤٦).

وحديث عبد الله المدلجي: أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» كَمَا فِي «الْمَجْمَعِ» (١/٢١٨)، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ: وَفِيهِ عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ عَمْرِو بْنِ ضَعْفَةَ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَوَقَّعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ. أَمَّا مَرْسَلُ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى وَيَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: فَأَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّازِقِ فِي «الْمَصْنَفِ» (١/٩٣) رَقْمَ (٣١٩).

وهذا الحديث من الأحاديث التي عدها بعض الحفاظ متواترة كالحافظ السيوطي ص (٢٣) رَقْمَ (١١) «الْأَزْهَارُ الْمُتَنَاهِتَةُ».

(١) فِي ب/ ج: الرعية.

(٢) فِي ج: مما.

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ» (٤/٤٢).

رُغْبُهُ، وربط جأشه^(١)، فجمع الله سبحانه لموسى عليه السلام تَفْتِيرِ الرُّغْبِ مع الآية في اليد.

وروي أنَّ يدَ موسى خرجت بَيْضَاءَ تَشْفٍ وَتُضِيءُ؛ كأنَّها شَمْسٌ من غيرِ سُوءٍ، أي: من غيرِ بَرَصٍ، ولا مثله، بل هو أمر ينحسر، وَيَعُودُ بِحُكْمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، ولما أَمَرَهُ اللَّهُ تعالى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ، علم أنها الرسالة، وفهم قدر التَّكْلِيفِ؛ فدعا الله في المَعُونَةِ؛ إِذْ لَا حَوْلَ لَهُ إِلَّا بِهِ.

﴿اشرح لي صدري﴾ معناه: لفهم ما يرد عَلَيَّ مِنَ الْأُمُورِ، والعُقْدَةُ التي دَعَا فِي حُلِّهَا هي التي أَعْتَرَتْهُ بِالْجَمْرَةِ فِي فِيهِ، حين جَرَّبَهُ فرعون، وروي في ذلك: أَنَّ فِرْعَوْنَ أَرَادَ قَتْلَ مُوسَى، وهو طِفْلٌ حينَ مَدَّ يَدُهُ عَلَيْهِ السَّلامَ إِلَى لِحْيَةِ فرعون، فقالت له أَمْرَاتُهُ: إِنَّهُ لَا يَغِقُّ، فقال: بل هو يَغِقُّ، وهو عَدُوِّي، فقالت له: نَجِّبُهُ، فقال لها: أَفْعَلْ، فدعا بِجَمْرَاتٍ مِنَ النَّارِ، ويطبق في يَاقُوتٍ، فقالا: إِنْ أَخَذَ الْيَاقُوتَ، عَلِمْنَا أَنَّهُ يَغِقُّ، وَإِنْ أَخَذَ النَّارَ، عَذَّرْنَا، فمَدَّ مُوسَى يَدَهُ إِلَى جَمْرَةٍ^(٢) فَأَخَذَهَا، فلم تعد على يده، فجعلها فِي فِيهِ، فَأَخْرَقَتْهُ، وَأَوْرَثَتْ لِسَانَهُ عُقْدَةً، وموسى عليه السلام إِنَّمَا طَلَبَ مِنْ حَلِّ الْعُقْدَةِ قَدْرًا يُفْقَهُ مَعَهُ قَوْلُهُ، فجائز أَنَّ تَكُونَ تِلْكَ الْعُقْدَةُ قَدْ زَالَتْ كُلُّهَا، وجائزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا الْقَلِيلُ، فيجتمع أَنْ يُوْتَى هو سُؤْلُهُ، وَأَنْ يَقُولَ فِرْعَوْنُ: ﴿وَلَا يَكَاذُ يَبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

ولو فرضنا زوالَ الْعُقْدَةِ جملة، لَكَانَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ سَبًّا لِمُوسَى بِحَالَتِهِ الْقَدِيمَةِ.

وَالْوَزِيرُ: الْمُعِينُ الْقَائِمُ بِوُزْرِ الْأُمُورِ، وهو ثَقْلُهَا، فيحتمل الْكَلَامَ أَنَّ طَلَبَ الْوَزِيرِ مِنْ أَهْلِهِ عَلَى الْجُمْلَةِ، ثُمَّ أَبْدَلَ هَرُونَ مِنَ الْوَزِيرِ الْمَطْلُوبِ، ويحتمل أَنْ يَرِيدَ: وَأَجْعَلْ هَرُونََ وَزِيرًا، فيكون مفعولاً أولاً لـ ﴿أَجْعَلْ﴾، وكان هَرُونََ عَلَيْهِ السَّلامَ أَكْبَرَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامَ بِأَرْبَعِ سِنِينَ، وَالْأَزْرُ: الظَّهْرُ^(٣)؛ قاله أَبُو عُبَيْدَةَ^(٤).

وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أي: تسبيحاً كثيراً.

(١) فلان قوي الجأش أي القلب.

ينظر: «لسان العرب» (٥٢٩).

(٢) في ج: الجمرات.

(٣) في ب، ج: بمعنى الظهر.

(٤) ذكره ابن عطية (٤٣/٤).

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَرْحَبْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَلَوْلَا صَنِيعِي (٣٩) إِذْ تَسْتَوِي أَوْتَانُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ (٤٠) وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَمَّ بَنِي سِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسَّىٰ (٤١) وَأَصْلَحْنَاهُ لِنَفْسِي (٤٢) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا لَبِيتُنِي وَلَآ نَبِيًّا فِي ذِكْرِي (٤٣) أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٤) فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لِمَ يُدْكَرُكَ أَوْ يُخْشَىٰ (٤٥) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٦) قَالَ لَآ خَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٧)﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ قيل: هو وحي إلهام، وقيل: بملك، وقيل: برؤيا رأتها، وكان من قصة موسى عليه السلام فيما روي أن فرعون ذكر له أنَّ خراب ملكه يكون على يد غلام من بني إسرائيل؛ فأمر بقتل كل / مولود يولد لبني إسرائيل، ثم إنه رأى مع أهل مملكته: أنَّ فناء بني إسرائيل يعود على القبط بالضرر؛ إذ هم كانوا عملة الأرض، والصناع، ونحو هذا؛ فعزم على أن يقتل الولدان سنة، ويستحييهم سنة، فولد هرون عليه السلام في سنة الاستحياء، ثم ولد موسى عليه السلام في العام الرابع سنة القتل، فخافت عليه أمه؛ فأوحى الله إليها: ﴿أن أقذفيه في التابوت﴾ فأخذت^(١) تابوتاً فدفنت فيه موسى راقدًا في فراش، ثم قذفته في يَم النيل، وكان فرعون جالساً في موضع يشرف منه على النيل إذ رأى التابوت فأمر به، فسيق إليه، وأمراته معه، ففتح فراؤه فرجته^(٢) أمراته؛ وطلبته لتتخذهُ ابناً، فأباح لها ذلك، ثم إنَّها عرضته للرضاع، فلم يقبل^(٣) امرأة فجعلت تُنادي عليه في المدينة، ويطفأ به يُعرض للمراضع، فكلما عرِضَتْ عليه امرأة أباهَا، وكانت أمه قالت لأختها: ﴿قصيه فبصرت به﴾ [القصص: ١١] وفهمت أمره، فقالت لهم: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، وهم له ناصحون، فتعلَّقُوا بِهَا، وقالوا: أَنْتِ تَعْرِفِينَ هَذَا الصَّبِيَّ، فَأَنْكَرَتْ، وقالت: لَآ، غَيْرَ أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْجِرَاصَ عَلَى التَّقَرُّبِ إِلَى الْمَمْلَكَةِ، وَالْجَدَّ فِي خِدْمَتِهَا، وَرِضَاهَا، فَتَرَكُوهَا وَسَلَّوْهُهَا الدَّلَالَةَ، فجاءت بِأُمِّ مُوسَى، فلما قُرْبَتْهُ، شَرِبَ ثَدْيُهَا، فَسَرَتْ بِذَلِكَ أَسِيَّةُ أُمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ (رضي الله عنها) وقالت لها: كُونِي مَعِي فِي الْقَصْرِ، فقالت لها: مَا كُنْتُ لَأَدْعَ بَيْتِي وَوَلَدِي، ولكنه يَكُونُ عِنْدِي، فقالت: نعم، فأحسنَتْ إِلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ،

(١) في ب: فاتخذت.

(٢) في ج: ورحمته.

(٣) في ج: فلم يقبل للرضاع.

واعتَزَّ بنو إِسْرَائِيلَ بهذا الرُّضَاعِ، والسبب من المَمْلَكَةِ، وأقام موسى عليه السلام حتى كَمَلَ رضاعه، فأرسلت إليها آسية: أَنْ جِئِنِي بولدي لِيُؤْمِ كذا، وأمرت خَدَمَهَا، وَمَنْ مَعَهَا أَنْ يلقينه بالتَحْفِ، والهِدَايَا، واللباس؛ فوصل إليها على ذلك، وهو بخير حالٍ وأَجْمَل ثياب، فسُرت به، ودخلت به على فِرْعَوْنَ؟ ليراه وَيَهَبَ لَهُ^(١) فرآه وأعجبه، وقربته فأخذ موسى عليه السلام بِلَحْيَةِ فرعون، وجَبَذَهَا، فاستشاطَ فرعون، وقال: هذا عدُو لي، وأمر بذبحه، فَنَاشَدَتْهُ فيه امرأته، وقالت: إِنَّهُ لَا يَغْقِلُ، فقال فِرْعَوْنُ: بَلْ يَغْقِلُ، فَاتَّقَا عَلَى تَجْرِبِهِ بِالْجُمُرَةِ^(٢) والياقوتِ؛ حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ، فنجاه الله من فرعون وَرَجَعَ إِلَى أُمِّهِ، فَسَبَّ عِنْدَهَا، فَأَعْتَزَّ به بنو إِسْرَائِيلَ^(٣) إِلَى أَنْ تَرَعَرَغَ، وكان فَتَى جَلْدًا^(٤) فَاضِلًا كَامِلًا، فاعتزت به بنو إِسْرَائِيلَ بظاهر ذلك الرُّضَاعِ، وكان يحميمهم، ويكون ضِلْعُهُ مَعَهُمْ، وهو يَغْلُمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَمِنْ صَمِيمِهِمْ، فكانت بصيرته في حمايتهم أكيدة، وكان يَغْرِفُ ذلك أعيان بني إِسْرَائِيلَ، ثم وقعت له قِصَّةُ الْقَبْطِيِّ المتقاتل مع الإسرائيليين على ما سيأتي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وعدد الله سبحانه عَلَى موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القِصَّة: مِنْ لُطْفِهِ سُبْحَانَهُ به في كُلِّ فَضْلٍ، وتخليصه من قِصَّةٍ إِلَى أُخْرَى، وهذه القُتُون التي فتته بها، أي: اختبره بها، وخلصه حتى صلح لِلنَّبَوَّةِ، وسلم لها.

وقوله ﴿مَا يُوْحَى﴾ / إِيَّاهُمْ يَتَضَمَّنُ عِظَمَ الْأَمْرِ وَجَلَالَتَهُ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ ١٠ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦] ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠]. وهو كثير في القرآن، والكلام الفصيح.

وقوله: ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمَّ بِالسَّاحِلِ﴾ خبرٌ خرج في صِيغَةِ الْأَمْرِ^(٥) [مُبَالِغَةً؛ ومنه قوله ﷺ «قَوْمُوا فَلَأُصَلَّ لَكُمْ» فأخرج الخبر في صِيغَةِ الْأَمْرِ لِنَفْسِهِ، مُبَالِغَةً^(٦)]، وهذا كَثِيرٌ، والمرادُ بِالْعَدُوِّ في الآية: فرعونُ ثم أخبر تعالى مُوسَى عليه السلام أَنَّهُ أَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً مِنْهُ.

(١) في ج: ويهبه.

(٢) في ج: بالجمرات.

(٣) في ج: بنو إِسْرَائِيلَ بظاهر هذا الرضاع.

(٤) الْجَلْدُ: الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ، وَجَلَّدَ الرَّجُلَ فَهُوَ جَلَّدَ جَلِيدًا.

ينظر: «اللسان العرب» (٦٥٤).

(٥) في ج: الأمر لنفسه.

(٦) سقط في ج.

قالت فرقة: أَرَادَ الْقَبُولَ الذي يضعه الله في الأرض لِحَيَارِ عِبَادِهِ، وكان حَظُّ مُوسَى منه في غاية الوفْرِ؛ وهذا أَقْوَى ما قِيلَ هنا مِنَ الأقوال.

وقرأ الجمهور^(١): «وَلِتُضْنَعْ» بكسر اللام، وضم التاء؛ على مَعْنَى: وَلِتُغْذَى، وتُطْعَم، وتربى.

وقوله: ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ معناه: بمرأى مِنِّي.

وقوله: ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ أي: لميقاتٍ محدودٍ للنبوّة التي قد أَرادها الله تعالى، «واصطنعتك»: معناه جعلتك مَوْضِعَ الصَّنِيعَةِ ومقر الإجمال والإحسان.

وقوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ إضافة تَشْرِيفٍ؛ وهذا كما تقول: بيتُ الله، ونحوه: «وَالصِّيَامُ لِي»^(٢) وعبر بالنفس عن شِدَّةِ الْقُرْبِ، وقوة الاختصاص.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِينَا فِي ذِكْرِي﴾ معناه: لَا تُبْطِئْنَا وتضعفَا؛ تقول: وَنَى فلانٌ في كذا، إِذَا تَبَاطَأَ فيه عن ضَعْفٍ، والوْنَى: الْكَلَالُ، وَالْفَسْلُ فِي الْبَهَائِمِ وَالْإِنْسِ.

وفي مُضَحَفِ ابن مسعود^(٣): «وَلَا تَهِنَا فِي ذِكْرِي» معناه: لَا تَلِينَا؛ مِنْ قَوْلِكَ: هَيْنٌ لَيْنٌ. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾ أي: حَسَنًا لَهُ الكلمة مع إِكْمَالِ الدَّعْوَةِ.

قال أَبْنُ الْعَرَبِيِّ^(٤) في «أَحْكَامِهِ»: وفي الآية دَلِيلٌ على جواز الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر باللين لمن معه القوة، وفي الإسرائيليات: أَنَّ مُوسَى عليه السلام أَقَامَ بِيَابَ فِرْعَوْنَ سنةً لَا يجد مَنْ يبلغُ كَلَامَهُ حَتَّى لقيه جِبْنَ خَرَجَ، فجرى له ما قَصَّ الله تعالى عَلَيْنَا من خَبْرِهِ؛ وكان ذلك تَسْلِيَةً لمن جاء بعده مِنَ الْمُؤْمِنِينَ في سِيرَتِهِمْ مع الظَّالِمِينَ. انتهى.

وقولهما: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ﴾ معناه: يعجل، ويتسرع إلينا بمكروه.

وقوله عز وجل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي بالنَّصْرِ والمُعُونَةِ.

﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ فَدَحِشْتَكَ بِإِخَائِهِ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ أَهْلَكَ﴾ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَكَ وَقَوْلُكَ (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهُ يَوْمَئِذٍ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٤)، و«البحر المحيط» (٦/٢٢٧)، و«الدر المصون» (٥/٢٠).

(٢) تقدم تخريجه في سورة البقرة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٤٥)، و«البحر المحيط» (٦/٢٣٠).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٦٠).

﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَاتِيَاه فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ...﴾ الآية جُمْلَةً ما دُعي إليه فرعون الإيمان، وإرسال بني إسرائيل، وأما تعذيبه بني إسرائيل، فبذبح أولادهم، وتسخيرهم وإذلالهم.

وقولهما: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ يحتمل أن يكون آخر كلام؛ فيقوى أن يكون السلام بمعنى التَّحِيَّة؛ كأنهما رَغِبَا بها عنه، وَجَرَيَا على العُزْف في التسليم عند الفَرَاغ مِنَ القول.

ويحتمل أن يكون في دَزَج القول، فيكون خبراً بأن السلامة للمهتدين، وبهذين المعنيين قالت كل فرقة من العلماء.

وقوله سبحانه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قالت فرقة: المعنى أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته، وصورته، أي: أكمل ذلك له، وأتقنه ﴿ثم هدى﴾، أي: يَسِّرْ كُلَّ شَيْءٍ لِمَنافِعِهِ؛ وهذا أحسن ما قيل هنا، وأشرف معنى وأعم في الموجودات.

وقول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد ما بال القرون الأولى لم تبعث لها، ولم يوجَدْ أَمْرُك عندها؟ ويحتمل أن يريد فرعون قطع الكلام، والرجوع إلى ١٠ ب سؤال موسى عن حالة مَنْ سلف من الأمم؛ روغاناً في الحجة، وَحَيْدَةً.

وقيل: البالُ: الحالُ، فكأنه سأله عن حالهم، وقولُ موسى [عليه السلام]: ﴿علمها عند ربي في كتاب﴾ يريد في اللُّوحِ المحفوظ، و﴿لا يضل﴾: معناه لا يتتلف ويعمه، «والأزواج» هنا: بمعنى الأنواع.

وقوله: ﴿شَتَّى﴾ نعتٌ للأزواج، أي: مختلفة.

وقوله ﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾ بمعنى هي صالحة للأكل والرعي، فأخرج العبارة في صيغة الأمر؛ لأنه أوجب الأفعال، وأهزها للنفوس. و﴿النهي﴾ جمع نُهْيَةٍ، والنُّهْيَةُ: الْعَقْلُ النَّاهِي عن القبائح.

﴿مِنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلِّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْنَا بِبَشَرٍ مِّنْ آرْضٍ نَّسُخِرُكَ بِمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفْهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسَ

صَحَّى ﴿٥٩﴾ فَنَوَلَّ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَكتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَجِرَانِ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ النَّثْلَ ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا بِمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِلَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنِ أُلْقِيَ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا لَسَعَىٰ ﴿٦٦﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿منها خلقناكم﴾ يريد من الأرض ﴿وفيها نعيدكم﴾ أي: بالموت، والدفن. ﴿ومننا نخرجكم﴾ أي: بالبعث ليوم القيامة.

وقوله: ﴿ولقد أريناه آياتنا﴾ إخبار لنبينا محمد ﷺ.

وقوله ﴿كلها﴾ عائد على الآيات التي رآها فرعون، لا أنه رأى كل آية لله عز وجل وإنما المعنى: أن الله أراه آيات ما؛ كاليد، والعصا، والطمس، وغير ذلك. وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة يرى الآيات كلها كاملة. ومعنى ﴿سوى﴾ أي: عدلاً ونصفةً، أي: حالنا فيه مستوية.

وقالت فرقة: معناه مستويًا من الأرض؛ لا وهدة فيه، ولا نشز، فقال موسى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ وروي أن يوم الزينة كان عيداً لهم، ويوماً مشهوراً.

وقيل: هو يوم كسر الخليج الباقي إلى اليوم.

وقوله: ﴿وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسَ﴾ عطفًا على ﴿الزينة﴾؛ فهو في موضع خفض.

﴿فتولى فرعون فجمع كيدة﴾ أي: جمع السحرة، وأمرهم بالاستعداد لموسى، فهذا هو كيده.

﴿ثم أتى﴾ فرعون بجمعه، فقال موسى للسحرة: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾ وهذه مخاطبة مُحذَرٌ^(١)، وندبهم في هذه الآية إلى قول الحق إذا رآوه، وألاً يباهتوا بكذب؛ ﴿فيسحتكم﴾ أي: فيهلككم، ويذهبكم، فلما سمع السحرة هذه المقالة، هالهم هذا المنزع، ووقع في نفوسهم من هيئته شديد الموقع. و﴿تنازعوا أمرهم﴾ والتنازع يقتضي اختلافًا كان بينهم في السر؛ فقاتل منهم يقول: هو محق، وقاتل يقول: هو مبطل، ومعلوم أن جميع تناجيهم إنما كان في أمر موسى عليه السلام و﴿النجوى﴾ المسارة، أي: كل واحد يناجي من يليه سرّاً؛ مخافةً من فرعون أن يتبين له فيهم ضعف.

(١) في ج: محذور.

وقالت فرقة: إنما كان تناجيهم بالآية التي بعد هذا.

﴿إن هذان لساحران﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة والكسائي^(١): «إن هذان لساحران» فقالت فرقة: قوله: «إن» بمعنى: نعم؛ كما قال ﷺ: «إن الحمد لله، برفع الحمد.

وقالت فرقة: إن هذه القراءة على لغة بلخارث بن كعب، وهي إبقاء ألف التثنية في حال النصب، والخفض، وتغزى هذه اللغة لكثانته، وتغزى لخنعم.

وقال الزجاج^(٢): في الكلام ضمير تقديره: إنه هذان لساحران

وقرأ أبو عمرو وخذه: «إن هذين لساحران».

وقرأ ابن كثير: «إن هذان لساحران» بتخفيف إن، وتشديد نون هذان لساحران. [٣].

وقرأ حفص عن عاصم: «إن» بالتخفيف «هذان» خفيفة أيضاً «لساحران».

وعبر كثير من المفسرين عن الطريقة بالسادة أهل العقل والحجبا؛ وحكوا / أن ١١ العرب تقول: فلان طريقة قومه، أي: سيدهم، والأظهر في الطريقة هنا أنها السيرة، والمملكة، والحال التي كانوا عليها.

و﴿المثلي﴾ تأنيث أمثل، أي: الفاضلة الحسنة.

وقرأ جمهور^(٤) القراء: «فأجمعوا»: بقطع الهمزة، وكسر الميم؛ على معنى: أنفذوا^(٥)، وأعزموا.

(١) ينظر: «السبعة» (٤١٩)، و«الحجة» (٢٢٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٣٦/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٤٩)، و«شرح الطيبة» (٤٤/٥)، و«العنوان» (١٢٩)، و«حجة القراءات» (٤٥٤)، و«شرح شعلة» (٤٩٢)، و«إتحاف» (٢/٢٤٨-٢٤٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (٣/٣٦١).

(٣) سقط في ج.

(٤) ينظر «المحور الوجيز» (٥١/٤)، و«البحر المحيط» (٢٣٩/٦)، و«الدر المصون» (٣٧/٥)، و«السبعة» (٤١٩، ٤٢٠)، و«الحجة» (٢٣٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٠/٢)، و«معاني القراءات» (١٥١/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٥/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«حجة القراءات» (٤٥٦)، و«شرح شعلة» (٤٩٣)، و«إتحاف» (٢/٢٥٠).

(٥) في ج: انفروا.

وقرأ أبو عمرو وَخَذَهُ «فَأَجْمَعُوا» من جمع، أي: ضموا سحرهم بعضه إلى بعض.

وقوله ﴿صَفَا﴾ أي: مصطفين، وتداعوا إلى هذا؛ لأنه أهيب، وأظهر لهم، و﴿أَفْلَحَ﴾ معناه: ظفر بِبُعَيْتِهِ، وباقي الآية يبين مما تقدم.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (١٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٢٠﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٢١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْفِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٢﴾ إِنَّمَا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ أَبْقَى ﴿٢٣﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عما يعترى نفس الإنسان إذا وقع ظنه في أمر على شيء يسوؤه، وعبر المفسرون عن أَوْجَسَ بأَضْمَر؛ وهذه العبارة أعم من الوجيس بكثير.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أي الغالب، وروي في قصص هذه الآية: أن فرعون (لعنه الله) جلس في علية له طولها ثمانون ذراعاً، والناس تحته في بسيط، وجاء سَبْعُونَ ألف ساحر، فألقوا من حبالهم وعصيتهم ما فيه وقرئ ثلاث مائة بعير، فهال الأمر، ثم إن موسى عليه السلام ألقى عصاه من يده، فأستحالت ثعباناً، وجعلت تنمو حتى روي أنها عبرت النهر بذنبها، وقيل: البحر، وفرعون في هذا كله يضحك؛ ويرى أن الاستواء حاصل، ثم أقبلت تأكل الجبال والعصي حتى أفتتها، ثم فَعَرَتْ فَاها نحو فرعون؛ ففرع عند ذلك؛ وأستغاث بموسى، فمد موسى يده إليها، فرجعت عصاً كما كانت، فنظر السحرة، وعلموا الحق، ورأوا عدم الحبال والعصي؛ فأيقنوا أن الأمر من الله عز وجل فأمنوا رضي الله عنهم.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قال آمنتهم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل.

قال *ص* : «في» على بابها، وقيل: بمعنى على.

ت : والأول أضوب.

﴿ولتعلمن أننا﴾ قوله: إِنَّمَا؛ يريد نفسه، ورب موسى عليه السلام.

وقال الطَّبْرِيُّ^(١): يريد نفسه، وموسى، والأول أذهب مع مخرفة فرعون، وباقي الآية بَيْنٌ، ثم قال السحرة لفرعون: ﴿لَنْ نُؤْيِرَكَ﴾ أي: لن نفضلك، ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حُجَّةِ الله تعالى، وآياته، وعلى الذي قَطَرْنَا، هذا على قول جماعة: أَنَّ الواو في قوله ﴿وَالَّذِي﴾: عاطفة.

وقالت فرقة: هي واو القسم، ﴿وَقَطَرْنَا﴾ أي: خلقنا، واخترعنا، فافعل يا فرعون ما شئت؛ وإنما قضاؤك في هذه الحياة الدنيا، والآخرة من وراء ذلك لنا بالنعيم، ولك بالعذاب الأليم.

وهؤلاء السحرة اختلف الناس: هل نفذ فيهم وعيد فرعون، أم لا؟ والأمر في ذلك محتمل.

وقولهم: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ رد لقول فرعون: ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ آوَحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجُنُوبٍ فَنَفْثْنَاهُمْ مِمَّنْ أَلَيْمَ مَا عَشِينَا (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩).

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى...﴾ الآية.

قالت فرقة: هذه الآية بجملتها من كلام السحرة لفرعون على جهة الموعظة له، والبيان فيما فعلوه.

وقالت فرقة: بل هي من كلام الله عز وجل لنبيِّنا محمد ﷺ تنبيهاً على قُبْح ما فعل فرعون، وحُسْن ما فعل السحرة، وموعظة، وتحذيراً قد تضمنت القصة المذكورة مثاله.

وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ مختص بالكافر؛ فإنه مُعَذَّب عذاباً ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجْهَز عليه فيستريح / ، بل يُعاد جلده، ويجدد عذابه.

وأما مَنْ يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي، فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة في غمرة

قد قاربوا الموت، إلا أنهم لا يُجهز عليهم، ولا يجدد عذابهم؛ فهذا فرق ما بينهم وبين الكفار، وفي الحديث الصحيح: «أَنْتُمْ يُمَاتُونَ فِيهَا إِمَاتَةً»، وهذا هو معناها؛ لأنه لا مَوْت في الآخرة: ﴿وَتَزَكَّى﴾ معناه: أطاع الله، وأخذ بأزكى الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ هذا استئناف إخبار عن شيء من أمر موسى، وباقي الآية بين، وقد تقدم ذكر ما يخصها من القصص.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافْ ذَرَاكَ﴾ أي: من فرعون، وجنوده، ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ غرقاً من البحر.

وقوله ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ إبهام أهول من النص؛ وهذا كقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾. [النجم: ١٦].

﴿وَأَضَلُّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ﴾ يريد: من أول أمره إلى هذه النهاية، ﴿وَمَا هَدَى﴾ مقابل لقوله: ﴿وَمَا أَهْدَيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾ (٨٦) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ (٨٧) ﴿وَإِنِّي لَفَعَّارٌ لَّيِّنٌ تَابَ وَمَأْمَنٌ وَغَمَلٌ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ (٨٨).

وقوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ...﴾ الآية، ظاهر هذه الآية: أن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذٍ عند حلول النعم التي عددها الله عليهم، ويحتمل أن تكون هذه المقالة خوطب بها معاصرو النبي ﷺ، والمعنى: هذا فعلنا بأسلافكم؛ وتكون الآية على هذا اعتراضاً في أثناء قصة موسى، والقصد به توبيخ هؤلاء الحضور إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله تعالى، والمعنى الأول أظهر وأبين.

وقوله سبحانه: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ...﴾ الآية، وقصص هذه الآية: أن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل، وغرق فرعون، وعد بني إسرائيل أن يسيروا إلى جانب طور سيناء؛ ليكلم فيه موسى، ويناجيه بما فيه صلاحهم، فلما أخذوا في السير، تعجل موسى عليه السلام؛ أبتغاء مَرْضَاةَ رَبِّهِ، حَسْبَمَا يَأْتِي بعد.

وقرأ جمهور الناس^(١): «فَيَحِلُّ» بكسر الحاء، «وَيَحِلُّ» بكسر اللام.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٦/٤)، و«البحر المحيط» (٢٤٦/٦)، و«الدر المصون» (٤٥/٥)، و«السبعة» (٤٢٢)، و«الحجة» (٢٤٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٦/٢)، و«شرح

وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَخَدَهُ بَظْمُهُمَا، وَمَعْنَى الْأَوَّلِ: فَيَجِبُ، وَيَحَقُّ، وَمَعْنَى الثَّانِي: فَيَقَعُ وَيَنْزِلُ، وَ﴿هَوَى﴾ مَعْنَاهُ: سَقَطَ أَيُّ: هَوَى فِي جَهَنَّمَ، وَفِي سَخَطِ اللَّهِ - عَافَانَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ -، ثُمَّ رَجَى سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ . .﴾ الْآيَةِ، وَالتَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ تَصِحُّ مَعَ الْإِقَامَةِ عَلَى غَيْرِهِ، وَهِيَ تَوْبَةٌ مُقَيَّدَةٌ، وَإِذَا تَابَ الْعَبْدُ، ثُمَّ عَاوَدَ الذَّنْبَ بَعِينَهُ بَعْدَ مُدَّةٍ؛ فَيَحْتَمِلُ عِنْدَ خُذَّاقِ أَهْلِ السَّنَةِ: أَلَّا يُعِيدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الذَّنْبَ الْأَوَّلَ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ قَدْ كَانَتْ مُحْتَمَلَةً، وَيُحْتَمَلُ: أَنْ يُعِيدَهُ؛ لِأَنَّهَا تَوْبَةٌ لَمْ يَوْفِ بِهَا، وَأَضْطَرَبَ النَّاسُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ مِنْ حَيْثُ وَجَدُوا الْهُدَى ضَمِنَ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ؛ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: ثُمَّ لَزِمَ الْإِسْلَامَ حَتَّى يَمُوتَ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: غَيْرَ هَذَا، وَالَّذِي يَقْوِي فِي مَعْنَى: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أَنْ يَكُونَ: ثُمَّ حَفِظَ مَعْتَقِدَاتِهِ مِنْ أَنْ تَخَالَفَ الْحَقَّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَإِنَّ الْإِهْتِدَاءَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ غَيْرُ الْإِيمَانِ، وَغَيْرُ الْعَمَلِ؛ وَزُبُّ مُؤْمِنٍ عَمَلٌ صَالِحًا قَدْ أَوْبَقَهُ عَدَمُ الْإِهْتِدَاءِ؛ كَالْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِيَّةِ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْبِدْعِ، فَمَعْنَى: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾: ثُمَّ مَشَى فِي عَقَائِدِ الشَّرْعِ عَلَى طَرِيقِ قَوِيمٍ - جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنَّهُ - وَفِي حِفْظِ الْمَعْتَقَدَاتِ يَنْحَصِرُ مَعْظَمُ أَمْرِ الشَّرْعِ.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتَرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَالْيَعُونِي وَاطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَتَّبِعَ عَلَيْكَ عِدْكَيْنِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمَرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨).

وقوله سبحانه: / ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ الآية، وقصص هذه الآية: أن موسى عليه السلام لما شرع في النهوض ببني إسرائيل إلى جانب الطور؛ حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما لهم فيه شرف العاجل والآجل - رأى موسى عليه السلام على جهة الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادراً لأمر الله سبحانه؛ طلباً لرضائه، وحرصاً على القرب منه، وشوقاً إلى مناجاته، وأستخلف عليهم هارون، وقال لهم موسى: تسيرون إلى جانب الطور، فلما أنتهى موسى ﷺ وناجى ربه، زاده الله في الأجل عشراً، وحينئذ وقفه على معنى أستعجاله دون القوم؛ ليخبره موسى أنهم على الأثر، فيقع الإعلام له بما صنعوا، وأعلمه موسى أنه إنما أستعجل طلب الرضى، فأعلمه الله سبحانه: أنه قد فتن بني إسرائيل، أي: أختبرهم بما صنع السامري، ويحتمل أن يريد: ألقيناهم في فتنة، فلما أخبر الله تعالى موسى بما وقع، رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، وباقي الآية بين، وقد تقدم قصصها مستوفى؛ وسمى العذاب غضباً من حيث هو عن الغضب.

وقرأ نافع^(١)، وعاصم: «بِمَلِكِنَا» بفتح الميم، وقرأ حمزة، والكسائي: «بِمَلِكِنَا» بضممة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبْنُ غَامِرٍ: «بِمَلِكِنَا» بكسرة؛ فأما فتح الميم، فهو مصدر من ملك، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأننا ملكنا الصواب، ولا وفقنا له، بل غلبتنا أنفسنا.

وأما كسر الميم، فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأمور التي يُبرمها الإنسان، ومعناها كمعنى التي قبلها، والمصدر مضاف في الوجهين إلى الفاعل. وقولهم: ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا...﴾ الآية؛ سموها أوزاراً من حيث هي ثِقيلة الأجرام، أو من حيث تأثموا في قذفها، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «حَمَلْنَا» بفتح^(٢) الحاء، والميم.

وقولهم: ﴿فَكَذَلِكُ﴾ أي: فكما قذفنا نحن، فكذلك أيضاً ألقى السامري.

قال ع^(٣): * وهذه الألفاظ تقتضي أن العجل لم يَصْغُهُ السامري، ثم أخبر^(٤) تعالى

(١) ينظر: «السبعة» (٤٢٢، ٤٢٣)، و«الحجة» (٢٤٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٤٩/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٦/٢)، و«شرح الطيبة» (٤٩/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٦)، و«إتحاف» (٢٥٤/٢).

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٢٣)، و«الحجة» (٢٤٦/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٠/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٥٧)، و«شرح شعلة» (٤٩)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٦)، و«إتحاف» (٢٥٥/٢).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥٩/٤).

(٤) في ج: أخبر الله.

عن فِعْل السامري بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ ومعنى قوله ﴿جَسَدًا﴾ أي شخصاً لا رُوح فيه، وقيل: معناه جسدًا لا يتغذى، «والخَوَاز»: صوت البقر.

قالت فرقةٌ منهم ابن عباس: كان هذا العجلُ يُخَوِّزُ ويمشي، وقيل غير هذا^(١).

وقوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا﴾ يعني: بني إسرائيل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ موسى إلهه، وذهب يطلبه في غير موضعه، ويحتمل أن يكون قوله ﴿فَنَسِيَ﴾ إخباراً من الله تعالى عن السامري؛ أي: فنسي السامري دينه، وطريق الحق، فالتَّسْيَانُ في التأويل الأول بمعنى الذَّهْوُل، وفي الثاني بمعنى الترك.

ت: وعلى التأويل الأول عَوَّلَ البخاري^(٢): وهو الظاهر.

ولقولهم أيضاً قبل ذلك: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقول هَارُونَ: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فيما ذكرته لكم؛ فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هَارُونُ، وندبهم إلى الحق: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَابِدِينَ لِهَذَا إِلَهٍ عَاكِفِينَ عَلَيْهِ، أَي: مُلَازِمِينَ لَهُ.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أي: ببني إسرائيل نحو جبل الطور، ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أي: ألا تسير بسيري، وعلى طريقي في الإصلاح والتَّسَدِيد.

/ وقوله: ﴿يَبْنُومُ﴾ قالت فرقة: إِنَّ هَارُونَ لم يكن أخا موسى إلا مِنْ أُمِّهِ. ١٢ ب

قال *ع*^(٣): وهذا ضَعِيفٌ. وقالت فرقة: كان شَقِيقَهُ؛ وإنما دعاه بالأم أستعطافاً برحم الأم، وقول موسى: ﴿مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ هو كما تقول: ما شأنك، وما أمرك، لكن لفظه الخطب تقتضي أنتهاراً؛ لأن الخطب مستعمل في المكاره، و﴿بَصُرْتُ﴾ بضم الصاد: من البصيرة، وقرأت فرقة بكسرها^(٤)، فيحتمل أن يراد من البصيرة، ويحتمل من البصر.

(١) ذكره ابن عطية (٥٩/٤).

(٢) ينظر: «البخاري» (٢٨٥/٨) كتاب التفسير: باب سورة طه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٠/٤).

(٤) قرأ بها أبو السَّمَال والأعمش مع فتح صاد «يصبروا».

كما في «مختصر الشواذ» ص ٩٢.

وينظر: «المحرر الوجيز» (٦١/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٤/٦)، و«الدر المصون» (٤٩/٥)،

و«التخريجات النحوية» ص ٢٩٢.

وقرأ حمزة، والكسائي^(١): «بما لم تُبصروا» بالتاء من فوق، يريد موسى مع بني إسرائيل، والرسول هنا: هو جبريل عليه السلام والأثر: هو تراب تحت حافر فرسه.

وقوله: «فَتَبَذْتُهَا» أي: على الحلي، فكان منها ما ترى، «وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي» أي: وكما وقع وحدث قربت لي نفسي، وجعلت^(٢) لي سؤلاً وإرباً حتى فعلته، وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في حد أو بوخي، فعاقبه بأجتهاد نفسه؛ بأن أبعدته ونحاه عن الناس، وأمر بني إسرائيل بأجتنابه، وأجتناب قبيلته وألاً يؤاكلوا ولا يُناكحوا، ونحو هذا، وجعل له أن يقول مدة حياته: لا مِسَاسَ، أي: لا مِمَاسَةً، ولا إذابة.

وقرأ الجمهور^(٣): «لَنْ تُخْلَفَهُ» بفتح اللام، أي: لن يقع فيه خلف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «تخلفه» بكسر اللام، على معنى لن تستطيع الرِّوْعَانِ، والحيدة عن موعد العذاب، ثم وبَّخه عليه السلام بقوله: «وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهَكَ...» الآية، و«ظَلَّتْ» وظل معناه: أقام يفعل الشيء نهاراً، ولكنها قد تُستعمل في الدائب ليلاً ونهاراً، بمثابة طَفِقَ.

وقرأ ابن عباس^(٤) وغيره: «لَنُحْرِقَنَّهُ» بضم الراء وفتح النون؛ بمعنى لنبردنه بالمبرد، وقرأ نافع وغيره: «لَنُحْرِقَنَّهُ» وهي قراءة تحتل الحرق بالنار، وتحتل بالمبرد. وفي مصحف ابن مسعود^(٥): «لنذبحنه ثم لنحرقنه ثم لننسفنه» وهذه القراءة هي مع رواية من روى أن العجل صار لحماً ودماً، وعلى هذه الرواية يتركب أن يكون هناك حرق بنار، وإلا فإذا كان جماداً من ذهب ونحوه، فإنما هو حرق بمبرد، اللهم إلا أن تكون إذابة، ويكون النسف مُستعاراً، لتفريقه في اليم مذاباً.

(١) ينظر: «السبعة» (٤٢٤)، و«الحجة» (٢٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٢/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٥٨)، و«شرح الطيبة» (٥٠/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«إتحاف» (٢٥٥/٢).

(٢) في ج: جعلته.

(٣) يُنظر: «المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٦/٦)، و«الدر المصون» (٥١/٥)، و«السبعة» (٤٢٤)، و«الحجة» (٢٤٩/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٣/٢)، و«معاني القراءات» (١٥٨/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٠/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٦)، و«إتحاف» (٢٥٦).

(٤) قرأ بها علي وعمرو بن فائد.

ينظر: «المحتسب» (٥٨/٢)، و«الكشاف» (٨٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٦)، وزاد نسبتها إلى حميد، وأبي جعفر في رواية.

وهي في «الدر» (٥٢/٥).

(٥) قرأ بها أبي.

ينظر: «الكشاف» (٨٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٦).

وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ: «لَتَنْسِفَنَّهُ» بكسر السين^(١)، وقرأت فرقةً بضمها، والتَّسْفُ: تفريقُ الريح الغبار، وكل ما هو مثله؛ كتفريق الغربال ونحوه، فهو تَسْفٌ، و﴿الْيَم﴾: غمرُ الماءِ من بحرٍ أو نهرٍ، وكل ما غمر الإنسان من الماء فهو يَمٌ، واللام في قوله ﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾ لام قسم، وقال مكي (رحمه الله تعالى): وأسند أن موسى عليه السلام كان مع السبعين في المُنَاجَاتِ، وحينئذٍ وقع أمر العجل، وأن الله تعالى أعلم موسى بذلك، فكتمه موسى عنهم، وجاء بهم حتى سمعوا لَغَطَ بني إسرائيل حول العجل، فحينئذٍ أعلمهم.

قال *ع^(٢): وهذه رواية ضعيفة، والجمهورُ على خلافها، وإنما تعجل موسى عليه السلام وحده فوق أمر العجل، ثم جاء موسى، وصنع ما صنع بالعجل، ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل، وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجات، فكان لموسى عليه السلام نهضتان، والله أعلم.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ (١٠٠) خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ مخاطبة / لنبينا محمد ﷺ أي كما قصصنا عليك نأى بني إسرائيل، كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق مُدَّتِكَ، والذِّكْرُ: القرآن.

وقوله: ﴿مَن أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يريد بالكُفْرَ بِهِ، و﴿زُرْقًا﴾ قالت فرقةٌ معناه: يُخْشَرُونَ أول قيامهم سودَ الألوانِ، زُرْقُ العيونِ، فهو تشويه، ثم يعمون بعد ذلك، وهي مواطن.

وقالت فرقة: أراد زرق الألوان، وهي غاية في التشويه، لأنهم يَجِثُونَ كلون الرماد، ومهيع في كلام العرب أن يسمى هذا اللون أزرق: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: يتخافت المجرمون بينهم، أي: يتسارون، والمعنى: أنهم لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم، قد عذب عنهم قَدْرُ مُدَّةٍ لبثهم.

واختلف الناس فيما ذا، فقالت فرقة: في دار الدنيا، ومُدَّةُ العمر، وقالت فرقة: في الأرضِ مدةَ البَرَزَخِ.

(١) أما الكسر فهو قراءة السبعة. وأما ضم السين، فقرأ بها عيسى بن عمر، كما في «مختصر الشواذ» ص ٩٢. وينظر: «المحرر الوجيز» (٦٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٧/٦)، و«الدر المصون» (٥٢/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٦٢/٤).

﴿وَأَمْلَأْنَهُمْ طَرِيقَةً﴾ معناه: أثبتهم نفساً يقول: إن لبثتم إلا يوماً، أي: فهم في هذه المقالة يظنون أن هذا قَدَرٌ لبثهم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٥٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٥٧﴾ يَوْمَيزِلُ بِتَضِعَاتِ الدَّاعِي لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٥٨﴾ يَوْمَيزِلُ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٥٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١٦٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ...﴾ الآية، السائل: قيل: رجلٌ من ثقيف، وقيل: السائل: جماعة من المؤمنين، ورؤي: أن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً، فتدكدكها حتى تكون كالعين المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تُعيدّها كالهباء المُنْبَثِّ، فذلك هو النسف.

والقاع: هو المستوي من الأرض، والصَّفْصَف: نحوه في المعنى. والأمت: ما يعترى الأرض من ارتفاع وانخفاض.

وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ يحتمل: أن يُريدَ الإخبار به، أي: لا شك فيه، ولا يخالف وجوده خبره، ويحتمل: أن يريد لا مَحِيدَ لأحدٍ عن آتِباع الدَّاعي، والمشي نحو صَوْتِهِ، والخشوع: التَّطَامُّنُ، والتواضع، وهو في الأصوات أَسْتِعَارَةٌ بمعنى الخفاء.

والهَمْسُ: الصَّوْتُ الخَفِيُّ الخَافِئُ، وهو تخافتهم بينهم، وكَلَامُهُم السِّرُّ، ويحتمل أن يريد صوت الأقدام؛ وفي «البخاري»^(١): ﴿هَمْسًا﴾: صوت الأقدام، انتهى. ومن في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يحتمل أن تكون للشافع، ويحتمل أن تكون للمشفوع فيه.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٦١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ معناه: ذَلَّتْ، وخضعت، والعاني: الأسير؛ ومنه قوله ﷺ في أمر النساء: «هن عوان عندكم» وهذه حالة النَّاسِ يومَ القيامة.

قال *ص*: وَعَنَتِ: من عَنَّا يَعْنُو: ذَلَّ، وخَضَعَ؛ قال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

[الطويل]

مَلِكٌ عَلَى عَرْشٍ السَّمَاءِ مُهَيَّمٍ لِعِزَّتِهِ تَغْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ^(١) انتهى .

ت: وأحاديث الشفاعة قد استفاضت، وبلغت حد التواتر، ومن أعظمها شفاعه أرحم الراحمين سبحانه وتعالى ففي «صحيح مسلم»، من حديث أبي سعيد الخدري قال: فيقول الله عز وجل: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيُفَضُّ قَبْضَةٌ مِنَ النَّارِ، فَيُخْرَجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَقْوَاهِ الْجَنَّةِ» وفيه: «فَيُخْرَجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ، فِي رِقَابِهِمُ الْحَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمَلُوهُ، وَلَا خَيْرَ قَدَمُوهُ...»^(٢) الحديث، وخرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الختلي بسنده عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا فَرَغَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ؛ أَنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، قَالَ: فَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مِثْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ قَالَ: مِثْلِي أَهْلُ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ: مِثْلِي أَهْلُ الْجَنَّةِ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ: عَتَقَاءُ اللَّهِ.»^(٣) انتهى من «التذكرة».

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، معنى خاب: لم ينجح، ولا ظفر بمطلوبه، والظلم يعمُّ الشُّركَ والمعاصي، وخيبة كلِّ حاملٍ بقدر ما حمل من الظلم.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ معادل لقوله: ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ والظلم والهضم: هما متقاربان في المعنى، ولكن من حيث تناسقاً في هذه الآية؛ ذهب قومٌ إلى تخصيص كل واحدٍ منهما بمعنى، فقالوا: الظلم: أن تعظم عليه سيئاته، وتكثر أكثر مما يجب.

والهضم: أن ينقص من حسناته، ويبخسها.

وكلهم قرأ: «فَلَا يَخَافُ» على^(٤) الخبر غير ابن كثير؛ فإنه قرأ: «فَلَا يَخَفُ» على النهي.

(١) ينظر: «ديوانه» (٢٩)، وهو من شواهد «البحر» (٥٠١/٣)، و«الدر المصون» (٥٣٧/٢)، (٥٧/٥).

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) ينظر: «السبعة» (٤٢٤)، و«الحجة» (٢٥١/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٧/٢)، ولكنه أثبتتها بالتاء

الفوقية، و«معاني القراءات» (١٥٩/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٢/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعبة»

(٤٩٦)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢٥٧/٢).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾
فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي
عِلْمًا ۝١١٤﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب توقع البشر،
وترجيهم ﴿يَتَّقُونَ﴾ الله، ويخشون عقابه؛ فيؤمنون ويتذكرون نعمه عندهم، وما حذرهم
من أليم عقابه هذا تأويل فرقة في قوله: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

وقالت فرقة: معناه أَوْ يُكْسِبُهُمْ شَرَفًا، ويبقى عليهم إيمانهم ذكراً صالحاً في الغابرين.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ...﴾ الآية، قالت فرقة: سببها: أن النبي ﷺ كان
يخاف وقت تكليم جبريل له أن ينسى أول القرآن، فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه
السلام الوحي؛ فنزلت في ذلك، وهي على هذا في معنى قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ
لِتَعْجَلْ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦]. وقيل غير هذا.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا تُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْفَىٰ ۝١١٧﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى...﴾ الآية، العهد هنا بمعنى
الوصية، والشيء الذي عهد إلى آدم عليه السلام هو ألا يقرب الشجرة.

ت: قال عياض: وأما قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] أي:
جهل، فإن الله تعالى أخبر بعذره بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ
عَزْمًا﴾ قيل: نسي، ولم ينو المخالفة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أي:
قصداً للمخالفة.

ت: وقيل: غير هذا مما لا أرى ذكره هنا، ولله دُرُّ أبن العربي حيث قال^(١):
يجب تنزيه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عما نسب إليهم الجهال. ولكن الباري سبحانه
بحكمه النافذ، وقضائه السابق أسلم آدم إلى الأكل من الشجرة متممداً للأكل، ناسياً للعهد،
فقال في تعمله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمَ﴾ وقال في بيان عذره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾
فَمَتَعَلَّقَ العهد غير متعلق النسيان، وجاز للمولى أن يقول في عبده لحقه: عَصَى تَثْرِيبًا،

ويعود عليه بفضلله فيقول: نَسِيَ تَقْرِيباً، ولا يجوز لأحد مِنَّا أن يطلق ذلك على آدم، أو يذكره إلا في تلاوة القرآن أو قول النبي ﷺ. انتهى من «الأحكام».

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ المعنى: إِنَّ لَكَ يا آدم في الجنة نعمة تامة، لا يصيبك جوع، ولا عري، ولا ظمأ / ، ولا بروز للشمس يؤذيكَ، وهو ١١٤ الضحاء.

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنَادِمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَن أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ﴾ *ص*: عَدي هنا بـ «إلى» على معنى أنهى الوسوسة إليه، وفي «الأعراف» باللام، فقال أبو البقاء: لأنه بمعنى ذكر لهما. انتهى.

ثم أعلمهم سبحانه: أن من اتبع هُداه فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وأن من أعرض عن ذكر الله، وكفر به؛ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، و«الضنك»: النكد الشاق من العيش والمنازل، ونحو ذلك.

وهل هذه المعيشة الضنك تكون في الدنيا، أو في البرزخ، أو في الآخرة؟ أقوال.

ت: وَيُحْتَمَلُ في الجميع، قال القرطبي: قال أبو سعيد الخُدري، وأبْنُ مسعود: ضَنْكًا: عذاب القبر^(١)، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَتَذَرُونَ فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾» أَتَذَرُونَ مَا الْمَعِيشَةُ الضَنْكُ؟ قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: عَذَابُ الْكَافِرِ فِي الْقَبْرِ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَسْلُطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تَيْنًا - وَهِيَ الْحَيَاتُ - لِكُلِّ حَيَّةٍ تِسْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْفُخْنَ فِي جِسْمِهِ، وَلَيَسْعَنَّهُ

(١) أخرجه الطبري (٤٧٢/٨) رقم (٢٤٤٢٤)، وذكره البغوي (٢٣٥/٣)، والسيوطي (٥٥٧/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، والبيهقي عن ابن مسعود.

وَيَخْدِشْنُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُخَشِّرُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَى مَوْقِفِهِ أَعْمَى^(١). انتهى من «التذكرة» فَإِنْ صَحَّ هذا الحديث، فلا نظر لأحد معه، وإن لم يصح، فالصواب حمل الآية على عمومها؛ والله أعلم.

قال الثَّعْلَبِيُّ: قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال: أجاز الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا، أو يشقى في الآخرة^(٢). وفي لفظ آخر: «ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن...» الحديث، وعنه: مَنْ قرأ القرآن واتبع ما فيه، هداه الله تعالى مِنَ الضَّلَالَةِ ووقاه الله تعالى يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ. انتهى.

وقوله سبحانه: «وَنَخْشِرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» قالت فرقة: وهو عمى البصر، وهذا هو الأوجه، وأما عمى البصيرة، فهو حاصل للكافر.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ النسيان هنا: هو الترك، ولا مدخل للذهول في هذا الموضع، و﴿تَنْسَى﴾ أيضاً بمعنى: تترك في العذاب.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقَةُ لِّلْفَقْرِ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣).

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ المعنى: أفلم^(٣) يبين لهم.

(١) أخرجه أبو يعلى (١١/ ٥٢١-٥٢٢) رقم (٦٦٤٤)، وابن حبان (٨٧٢ - موارد)، والطبري في «تفسيره» (٢٢٨/١٦) من حديث أبي هريرة.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٥٨/٣): رواه أبو يعلى، وفيه دراج، وحديثه حسن، واختلف فيه. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٥٧)، وزاد نسبه إلى ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٤٦٩) برقم (٢٤٤٠٠) بنحوه، وذكره البغوي (٣/ ٢٣٥)، وابن كثير (٣/ ١٦٨)، والسيوطي (٤/ ٥٥٦)، وعزاه للفريايبي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق عن ابن عباس.

(٣) في ج: أو لم.

وقرأت^(١) فرقة: «نَهْد» بالنون، والمراد بالقرون المهلكين: عَادَ، وَثُمُودَ، والطوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشام وغيره، ثم أعلم سبحانه نبيه ﷺ أن العذاب كان يصير لهم لزاماً لولا كلمة سبقت من الله تعالى في تأخيرهم عنهم إلى أجل مُسمًى عنده، فتقدير الكلام. ولولا كلمة سبقت في التأخير، وأجل مسمى، لكان العذاب لزاماً؛ كما تقول لكان حتماً، أو واقعاً، لكنه قدم وأخر؛ لتشابه رؤوس الآي.

واختلف في الأجل المسمى: هل هو يوم القيامة، أو موت كل واحد منهم، أو يوم بذر؟ وفي «صحيح البخاري»: ^(٢) أن يوم بذر هو: اللزام، وهو: البطشة الكبرى، يعني: وقع في البخاري من تفسير ابن مسعود، وليس هو من تفسير النبي ﷺ.

قال *ص*: «وَإِلْزاماً»: إما مصدر، وإما بمعنى ملزم، وأجاز أبو البقاء: أن يكون جمع لأزم، كقائِمٍ وقيام. انتهى.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالصبر على أقوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كاذب^(٣) إلى غير ذلك.

وقوله سبحانه: / ﴿وسبح بحمد ربك...﴾ الآية، قال أكثر المفسرين: هذه إشارة ١٤ ب إلى الصلوات الخمس؛ فقبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر، ومن آتاء الليل العشاء، وأطراف النهار المغرب والظهر.

[قال ابن العربي^(٤): والصحيح أن المغرب من طرف الليل، لا من طرف النهار. انتهى من «الأحكام»]^(٥).

وقالت فرقة: آتاء الليل: المغرب والعشاء، وأطراف النهار: الظهر وحدها، ويحتمل اللفظ أن يراد به قول: سبحان الله وبحمده.

(١) وهي قراءة ابن عباس والسلمي.

كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١١/١٧٢).

ينظر: «الكشاف» (٣/٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/٦٩)، و«البحر المحيط» (٦/٢٦٧)، و«الدر المصون» (٥/٦٣).

(٢) ينظر «صحيح البخاري» (٨/٣٥٥) كتاب التفسير: باب «فسوف يكون لزاماً» رقم (٤٧٦٧).

(٣) في ج: كذاب.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٦٣).

(٥) سقط في ج.

وقالت فرقة: في الآية: إشارة إلى نوافل، فمنها آناء الليل، ومنها قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر.

ت: ويتعذر على هذا التأويل قوله: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ إذ ليس ذلك الوقت وقت نفل^(١)، على ما علم إلا أن يتأول ما قبل الغروب بما قبل صلاة العصر وفيه بعد.

قال *ص*: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: وأنت حامد. انتهى.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ بفتح التاء، أي: لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): وهذه الآية ثمائل قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

وعنه رحمته أنه قال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؛ فَإِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا»^(٤) عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَغْنِي: الصُّبْحُ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَأَفْعَلُوا»^(٥).

وفي الحديث الصحيح أيضاً: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٦). انتهى.

وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم^(٧): «تَرْضَى» أي: لعلك تغطي ما يرضيك، ثم أمر سبحانه نبيه عليه السلام بالاحتقار لشأن الكفرة، والإعراض عن أموالهم، وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك مُنَحْصَرٌّ عنهم صائر إلى خزي، والأزواج: الأنواع، فكانه قال: إلى ما متعنا به أقواماً منهم، وأصنافاً.

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٧٠/٤)، و«البحر المحيط» (٢٦٩/٦).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٦٣/٣).

(٤) في ج: لا نغموا.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٥٢/٢) كتاب مواقيت الصلاة: باب فضل صلاة الفجر، حديث (٥٧٤) ومسلم (١/٤٤٠) كتاب المساجد: باب فضل صلاة الصبح والعصر، حديث (٦٣٥/٢١٥)، وأحمد (٨٠/٤)، والدارمي (٣٣١/١)، وابن حبان (١٧٣٩)، والبيهقي (٤٦٦/١)، والبغوي في «شرح السنة» (٢/٣٩). بتحقيقنا.

(٧) ينظر: «السبعة» (٤٢٥)، و«الحجة» (٢٥٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٥٧/٢)، و«معاني القراءات» (١٦٠/٢)، و«شرح الطيبة» (٥٣/٥)، و«العنوان» (١٣٠)، و«شرح شعلة» (٤٩٧)، و«إتحاف» (٢/٢٥٩).

وقوله: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ شَبَّهَ سبحانه نَعَمَ هؤلاء الكفار بالزهر، وهو ما أَضْفَرَّ من الثَّوَر، وقيل: الزهر: النور جملة؛ لأن الزهر له منظر، ثم يضمحل عن قرب، فكَذَلِكَ مَالٌ هؤلاء، ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ: أن ذلك إنما هو ليختبرهم به، ويجعله فِتْنَةً لهم وأمرًا يجازون عليه أسوأ الجزاء؛ لفساد قلوبهم فيه.

ص: وَ﴿زَهْرَةً﴾: منصوبٌ على الذمِّ، أو مفعولٌ ثانٍ ل: ﴿مَتَعْنَا﴾ مضمن معنى أعطينا. اهـ.

ورزق الله تعالى الذي أحله للمتقين من عباده، خير وأبقى، أي: رزق الدنيا خير ورزق الآخرة أبقى، وبين أنه خير من رزق الدنيا، ثم أمره سبحانه وتعالى بأن يأمر أهله بالصلاة، ويمثلها معهم وَيَضْطَبِرَ عليها ويلازمها، وتكفل هو تعالى برزقه لا إله إلا هو، وأخبره أن العاقبة للمتقين بنصره في الدنيا، ورحمته في الآخرة، وهذا الخطاب للنبي ﷺ ويدخل في عُمُومِهِ: جميع أمته.

وَرُوي: أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم، بادر إلى منزله، فدخله وهو يقول: ﴿وَلَا تَمُدُّنَّ عُيُنِيكَ...﴾ الآية إلى قوله ﴿وَأَبْقَى﴾ ثم ينادي: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، ويصلي^(١).

وكان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يوقظ أهل داره لِصَلَاةِ اللَّيْلِ ويصلي هو ويتمثل بالآية^(٢).

قال الداودي: وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قال: «كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله ضيقاً أو شدة أمرهم بالصلاة، ثم قرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ إلى قوله ﴿لِلتَّقْوَى﴾^(٣). انتهى.

قال ابن عطاء الله في «التنوير»: وأعلم أنَّ هذه الآية علمت أهل الفهم عن الله تعالى كيف يطلبون / رزقهم، فإذا توقفت عليهم أسباب المعيشة، أكثروا من الخدمة والموافقة، ١١٥ وقرعوا باب الرِّزْقِ بمعاملة الرِّزَّاق - جل وعلا - ثم قال: وسمعتُ شَيْخَنَا أَبَا الْعَبَّاسِ

(١) أخرجه الطبري (٤٨٠/٨) رقم (٢٤٤٥٩)، وذكره ابن عطية (٧١/٤)، وابن كثير (١٧١/٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٧١/٤)، وابن كثير (١٧١/٣) نحوه، والسيوطي (٥٦١/٤)، وعزاه لمالك، والبيهقي عن أسلم عن عمر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦١/٤)، وعزاه إلى أبي عبيد، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، والطبراني في «الأوسط»، وأبي نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن سلام.

المُرْسِي رضي الله عنه يقول: واللَّهِ مَا رَأَيْتَ الْعَزَّ إِلَّا فِي رَفْعِ الْهِمَّةِ عَنِ الْخَلْقِ، وَأَذْكُرُ رَحِمَكَ اللَّهُ هُنَا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المتفقون: ٨].

ففي العز الذي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنَ رَفَعُ هِمَّتِهِ إِلَى مَوْلَاهُ، وَثِقَتُهُ بِهِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، وَاسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ كَسَاكَ حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَزِينَتِ بَزِينَةِ الْعِزِّفَانِ؛ أَنْ تَسْتَوِلِي عَلَيْكَ الْغَفْلَةُ وَالنِّسْيَانُ؛ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى الْأَكْوَانِ^(١)، أَوْ تَطْلُبَ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى وَجُودَ إِحْسَانٍ، ثُمَّ قَالَ: وَرَفَعَ الْهِمَّةَ عَنِ الْخَلْقِ: هُوَ مِيزَانُ ذَوِي الْكَمَالِ وَمِشْبَارُ الرِّجَالِ، كَمَا تَوَزَنَ الذَّوَاتُ كَذَلِكَ تَوَزَنَ الْأَحْوَالُ وَالصُّفَاتُ. انْتَهَى.

وَمِنْ كِتَابِ «صِفْوَةِ التَّصَوُّفِ» لِأَبِي الْفَضْلِ مُحَمَّدَ بْنَ طَاهِرِ الْمُقَدَّسِيِّ الْحَافِظِ حَدِيثٌ^(٢) بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي عُمَرَ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدَّثْنِي حَدِيثًا، وَأَجْعَلُهُ مُوجِزًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «صَلِّ صَلَاةَ مُؤَدَّعٍ، كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَإِيَّاسٌ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، تَعِشْ غَنِيًّا، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ» وَرَوَاهُ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ بِمِثْلِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣) انْتَهَى.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، أَيُّ: بِعَلَامَةٍ مِمَّا اقْتَرَحْنَاهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ وَبِخُفْمِ سَبْحَانِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أَيُّ: [مَا فِي]^(٤) التَّوْرَةِ، وَغَيْرِهَا، فَفِيهَا أَعْظَمُ شَاهِدٍ، وَأَكْبَرُ آيَةٍ لَهُ سَبْحَانَهُ.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾﴾.

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيُّ: مِنْ قَبْلِ إِسْرَالِنَا إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا، ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا...﴾ الْآيَةُ، وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْتَجُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ، وَالْمَغْلُوبُ

(١) في ج: الأخوان.

(٢) في ج: حدث.

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٥٢٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٩٥٢)، وابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (١٠٨/١) من حديث ابن عمر.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣٢/١٠)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه من لم أعرفهم.

(٤) سقط في ج.

عَلَى عَقْلِهِ، وَالصَّبِيَّ الصَّغِيرُ. فَيَقُولُ الْمَغْلُوبُ عَلَى عَقْلِهِ: رَبِّ، لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلاً، وَيَقُولُ الصَّبِيُّ نَحْوَهُ، وَيَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ. رَبِّ، لَمْ يُرْسِلْ إِلَيَّ رَسُولاً، وَلَوْ جَاءَنِي، لَكُنْتُ أَطْوَعَ خَلْقِكَ لَكَ، قَالَ: فَتَزْتَفِعْ لَهُمْ نَارٌ، وَيَقَالَ لَهُمْ: رُدُّوْهَا، فَيَرُدُّهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ سَعِيدٌ وَيَكْفَعُ عَنْهَا الشَّقِيَّ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ فَكَيْفَ بِرُسُلِي لَوْ أَتَيْتُكُمْ^(١).

قال (ع)^(٢): أما الصبي، والمغلوب على عقله، فبين أمرهما، وأما صاحب الفترة، فليس ككفار قريش قبل بعثة النبي ﷺ، لأن كفار قريش، وغيرهم ممن علم وسمع نبوة ورسالة في أقطار الأرض، ليس بصاحب فترة، وقد قال النبي ﷺ لرجل: «أبي وأبوك في النار» ورأى ﷺ، عَمَرُو بْنُ لُحَيٍّ فِي النَّارِ^(٣) وإلى غير هذا مما يطول ذكره، وإنما صاحب الفترة يفرض أنه آدمي لم يطرأ إليه أن الله تعالى بعث رسولاً، ولا دعا إلى دين، وهذا قليل الوجود إلا أن يشذ في أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران.

ت: والصحيح في هذا الباب: «أَنَّ أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَأُمَا أَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ فَفِي الْجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ» متفق عليه.

وقد أسند أبو عُمَرَ فِي «التمهيد»^(٤) من طريق أنس عن النبي ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي فِي اللَّاهِنِينَ مِنْ ذُرِّيَةِ الْبَشَرِ أَلَا يُعَذِّبُهُمْ فَأَعْطَانِيهِمْ»^(٥). قال أبو عمر: إنما قيل للأطفال:

- (١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨١/٨) رقم (٢٤٤٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري.
- (٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٧١-٧٢).
- (٣) أخرجه ابن إسحاق (١/ ٧٨-٧٩) «تهذيب سيرة ابن هشام»، ومن طريقه الطبري (٨٩/٥) (١٢٨٣١) عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي، أن أبا صالح السمان حدثه، أنه سمع أبا هريرة يقول... فذكره، وأخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٥) عن محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً به وصححه، ووافقه الذهبي.
- وله شاهد من حديث أبي بن كعب، رواه أحمد (٥/ ١٣٨)، والحاكم (٤/ ٦٠٥) وصححه، ووافقه الذهبي.
- وأخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢-٣٥٣) عن جابر.
- وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٩١): رواه أحمد، وروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ بمثله. وفي الإسنادين عبد الله بن محمد بن عقيل، وفيه ضعف، وقد وثق.
- (٤) ينظر: «التمهيد» (١٨/ ١١٧)، وينظر: «الاستذكار له» (٨/ ٤٠١-٤٠٢).
- (٥) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٢٦٧) رقم (٣٥٧٠).
- وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٢٢): رواه أبو يعلى من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن المتوكل، وهو ثقة.

اللَّاهُوتَ^(١)؛ لأن أعمالهم كاللهو، واللعب من غير عقد، ولا عَزَم، ثم أسند أبو عمر،
١٥ ب / عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢).

قال أبو عمر^(٣)، وروى شُعبَة، وسعيد بن أبي عروبة، وأبو عَوَانَة، عن قتادة، عن
أبي سريّة العجلي، عن سَلْمَانَ قال: أَطْفَالُ الْمُشْرِكِينَ خَدَمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وذكر البخاري حَدِيثَ الرُّؤْيَا الطَّوِيلِ، وفيه: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرُّؤْيَا،
فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَّا الْوَلَدَانُ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، قَالَ: فَقِيلَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ»، وفي رواية:
«وَالصَّبِيَّانِ حَوْلَهُ أَوْلَادُ النَّاسِ» وظاهره العموم في جميع أولاد الناس. انتهى [من التمهيد]^(٤)
والذَّلُّ، والخِزْيُ مقترنان بعذاب الآخرة.

وقوله: «قُلْ كُلٌّ» أَي: مِنَّا وَمِنْكُمْ «مُتَرَبِّصٌ» والتربصُ: التأنّي، والصُّرَاطُ:
الطريق، وهذا وَعِيدٌ بَيِّنٌ؛ والله الموفق، والهادي إلى الرشاد بفضله.

(١) في ج: اللاهين.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢/ ٢٣٥-منحة) رقم (٢٨٢٢)، وأبو يعلى (١٣١/٧) رقم (٤٠٩٠)، وأبو نعيم في
«الحلية» (٣٠٨/٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٢/٧): رواه أبو يعلى، والبخاري، والطبراني في
«الأوسط» إلا أنهما قالوا: أطفال المشركين، وفي إسناد أبي يعلى يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وقال فيه
ابن معين: رجل صدق. ووثقه ابن عدي، وبقية رجالهما رجال الصحيح.

والحديث ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٥١/١)، وعزاه للطبراني عن أنس، وسعيد بن منصور
عن سلمان موقوفاً، وللبخاري في «تاريخه الأوسط» عن سمرة مرفوعاً.

(٣) ينظر «التمهيد» (١٨/ ١١٦-١١٨) و «الاستذكار» (٨/ ٤٠٢).

(٤) سقط في ج.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مكية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١.

قوله عز وجل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾ الآية: روي أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، كان يبني جداراً، فمر به آخر يوم نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل اليوم ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فنفض يديه من البنيان، وقال: واللّه لا يَنْتِثُ. قال أبو بكر بن العربي: قال لي شيخني: في العبادة لا يذهب لك الزمان؛ في مُصَاوَلَةِ الْأَقْرَانِ؛ ومُوَاصَلَةِ الْإِخْوَانِ، ولم أر للخلاص شيئاً أقرب من طريقين: إمّا أن يغلق الإنسان على نفسه بابه، وإما أن يخرج إلى مَوْضِعٍ لا يُعْرِفُ فيه، فإن أَضْطَرَّ إِلَى مَخَالَطَةِ النَّاسِ، فَلْيَكُنْ معهم ببدنه، ويفارقهم بقلبه ولسانه، فإن لم يستطع، فبقلبه، ولا يفارق السكوت. قال القُرْطُبِيُّ: ولأبي سليمان الخطّابي في هذا المعنى: [الوافر]

أَنِسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْنِي قَدَامَ الْأَنْسِ لِي وَنَمَا السُّرُورُ
وَأَدْبَيْتُ الزَّمَانَ فَلَا أَبَالِي بِأَنْفِي لَا أَرَارُ وَلَا أَرُورُ
وَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا أَسَارَ الْجَيْشِ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

انتهى من «التذكرة».

وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس، وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش؛ ويدل على ذلك ما يأتي بعد من الآيات.

قال *ص*: اقترب: بمعنى الفعل المجزء وهو قَرُبَ، وقيل: اقترب أبلغ للزيادة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ الواو للحال، انتهى.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريد: الكفار، ويأخذ عصاة المؤمنين من هذه الألفاظ قسطنطهم.

ت*: أيها الأخ أشعر قلبك مهابة ربك، فإليه مالك؛ وتأهب للقدوم عليه؛ فقد آن أرتحالك؛ أنت في سكرة لذاتك؛ وغشية شهواتك؛ وإغماء غفلاتك؛ ومقراض / الفناء يعمل في ثوب حياتك؛ ويفصل أجزاء عمرك جزءاً جزءاً في سائر ساعاتك؛ كل نفس من أنفاسك جزء منفصل من جملة ذاتك وبذهاب الأجزاء تذهب الجملة، أنت جملة تؤخذ، آخاها وأبعاضها، إلى أن تستوفي سائر عساكر الأفضية، والأقدار مكددة بأسوار الأعمار؛ تهدمها بمعاول الليل والنهار؛ فلو أضاء لنا مضباح الاعتبار؛ لم يبق لنا في جميع أوقاتنا سكون ولا قرار. انتهى من «الكلم الفارقة والحكم الحقيقة».

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ① لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ② قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ③ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنَسْ بِتَأْيِيدِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ④ ⑤.

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ وما بعده مختص بالكفار، والذكر: القرآن، ومعناه محدث نزوله، لا هو في نفسه.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أي: أستماعهم في حال لعب؛ فهو غير نافع، ولا واصل إلى النفس.

وقوله ﴿لَاهِيَةً﴾ حال بعد حال، واختلف النحاة في إعراب قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فمذهب سيويه^(١) (رحمه الله تعالى): أن الضمير في ﴿أَسْرُوا﴾: فاعل، وأن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل منه، وقال: ليس في القرآن لغة من قال: أكلوني البراغيث^(٢)، ومعنى: ﴿أَسْرُوا النَّجْوَى﴾ تكلّموا بينهم في السر، ومناجات بعضهم لبعض.

(١) ينظر «الكتاب» (٤١/٢).

(٢) الواو علامة جمع الفاعل، كما يلحق الفعل تاء التانيث ليدل على تانيث الفاعل، ك «قامت هند»، وهذه اللغة جارية في المثنى وجمع الإناث أيضاً فيقال: قاما أخواك، وقمن أخواتك كقوله:

وَقَدْ أَسْلَمَاهُ مُبْعَدٌ وَحَمِيمٌ
وقوله:

وَلَكِنْ دِيافِي أَبَوْهُ وَأُمُّهُ بِحَوْرَانٍ يَغْصِرْنَ السَّلِيطَ أَقَارِبُهُ
واستدل بعضهم بقوله عليه السلام: «يتعاقبون فيكم ملائكة»، ويعبر النحاة عن هذه اللغة بلغة «أكلوني البراغيث»، ولكن الأصح ألا تلحق الفعل علامة، وفرق النحويون بين لحاق علامة التانيث وعلامة التثنية والجمع بأن علامة التانيث ألزم؛ لأن التانيث في ذات الفاعل بخلاف التثنية والجمع فإنه غير لازم.
ينظر: «الدر المصون» (٥٨٠ - ٥٨١).

وقال أبو عبيدة^(١): أسرّوا: أظهروا، وهو من الأضداد، ثم بين تعالى الأمر الذي تناجوا به، وهو قول بعضهم لبعض على جهة التوبيخ بزعمهم: ﴿أَفَتَتَّبِعُونَ السَّحَرِ﴾ المعنى: أَتَتَّبِعُونَ السحر وأنتم تبصرون، ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ، أن يقول لهم وللناس جميعاً: قُلْ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم أقوالكم هذه، وهو بالمرصاد في المجازاة عليها، ثم عدّد سبحانه جميع ما قاله طوائفهم ووقع الاضراب بكلّ مقالة عن المتقدمة لها؛ ليبيّن اضطراب أمرهم فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ والأضغاث: الأخطاط، ثم حكى سبحانه اقتراحهم، آية تضطربهم؛ كناية صالحة وغيرها، وقولهم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ذال على معرفتهم بإتيان الرُّسُلِ الأَمَمِ المتقدمة.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧).

وقوله سبحانه: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ فيه محذوف يدلّ عليه المعنى تقديره: والآية التي طلبوها عَادَتُنَا أَنَّ الْقَوْمَ إِنْ كَفَرُوا بِهَا عَاجَلْنَاهُمْ، وما آمنت قبلهم قَرْيَةٌ مِنَ الْقُرَى التي نزلت بها هذه النازلة، أفهذه كانت تؤمن؟.

وقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ جملة في موضع الصّفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ والجَمَلُ: إذا اتَّبَعَتِ التَّكْرَارَاتُ؛ فهي صفاتٌ لها، وإذا اتبعت المعارف؛ فهي أحوالٌ منها.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية رَدٌّ عَلَى مَنْ اسْتَبَعَدَ مِنْهُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا و﴿الذِّكْرُ﴾ هو كُلُّ مَا يَأْتِي مِنْ تَذْكِيرِ اللَّهِ عِبَادَهُ، فأهل القرآن أهلُ ذِكرٍ، وأما المُحَالُ عَلَى سَوَالِهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونُوا أَهْلُ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا خُصُومَهُمْ، وَإِنَّمَا أُحِيلُوا عَلَى سَوَالِ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ كَانُوا مُوَافِقِينَ لَكُفَّارِ قَرِيشٍ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَدًّا لَا يُكَفِّرُونَ الْإِثْمَ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ﴾ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ قيل: الجَسَدُ من الأحياء: ما لَا يَتَغَذَّى، وقيل: الجسد يَعْمُ الْمُتَغَذِّي من الأجسام وغير المتغذي ف ﴿جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً﴾ على التأويل الأول: مَنَفِي، وعلى الثاني: مُوجِبٌ، والنفي واقعٌ على صِفَتِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ الآية، هذه آية وعيد.

وقوله: ﴿وَمِنْ نَشَاءٍ﴾ يعني مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، و﴿المُسْرِفِينَ﴾: الْكُفَّارُ، ثُمَّ وَخَّهْنَهُمُ تَعَالَى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً﴾ / يعني: الْقُرْآنَ، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، أَي: شَرْفُكُمْ، آخِرُ الدَّهْرِ، وَفِي هَذَا تَحْرِيطٌ لَهُمْ، ثُمَّ أَكَّدَ التَّحْرِيطَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ و﴿كُمْ﴾ لِلتَّكْثِيرِ، ب ١٦ و﴿قَصَصْنَا﴾ مَعْنَاهُ: أَهْلَكْنَا، وَأَصْلُ الْقِصَمِ: الْكُسْرُ فِي الْأَجْرَامِ، فَإِذَا اسْتَعِيرَ لِلْقَوْمِ وَالْقَرِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهُوَ مَا يُشَبِّهُ الْكُسْرَ وَهُوَ إِهْلَاكُهُمْ، و﴿أَنْشَأْنَا﴾، أَي: خَلَقْنَا وَبَنَيْنَا أُمَّةً أُخْرَى غَيْرَ الْمُهْلَكَةِ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا﴾ وَضُفَّ عَنْ حَالِ قَرِيَةٍ مِنَ الْقَرَى الْمُجْمَلَةِ أَوَّلًا؛ قِيلَ: كَانَتْ بِالْيَمَنِ تُسَمَّى «حُضُور»، بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِهَا رَسُولًا فَقَتَلُوهُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِخُتَنَصْرٍ صَاحِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَهَزَمُوا جَيْشَهُ مَرَّتَيْنِ، فَتَهَضَّ فِي الثَّالِثَةِ بِنَفْسِهِ، فَلَمَّا هَزَمَهُمْ، وَأَخَذَ الْقَتْلَ فِيهِمْ رَكَضُوا هَارِبِينَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا يَرِيدُ بِالْآيَةِ قَرِيَةً بَعِيْنَهَا، وَأَنَّ هَذَا وَضُفَّ حَالِ كُلِّ قَرِيَةٍ مِنَ الْقَرَى الْمُعَذَّبَةِ إِذَا أَحْسَوْا الْعَذَابَ؛ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ^(١)، أَخَذُوا فِي الْفِرَارِ و﴿أَحْسَوْا﴾ بِأَشْرُوهُ بِالْحَوَاسِّ.

ص: ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إِذَا» الْفَجَائِيَّةُ، وَهِيَ وَمَا بَعْدَهَا جَوَابُ لِمَا. انتهى.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٣) قَالُوا يَوَلَّيْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلِيدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعْلَيْنِ (١٦).

وقوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ يُحْتَمَلُ عَلَى الرِّوَايَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ رِجَالٍ بُخْتَنَصْرَ عَلَى جِهَةِ الْخِدَاعِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ أَمَرَ بِخُتَنَصْرٍ أَنْ يُنَادِيَ فِيهِمْ: يَا ثَارَاتِ النَّبِيِّ الْمَقْتُولِ^(٢)، فَقَتِلُوا بِالسَّيْفِ عَنْ آخِرِهِمْ.

(١) فِي جَد: أَكَانُوا.

(٢) فِي جَد: الْمَقْتُولِ.

قال *ع^(١): «وهذا كله مزوي، ويُحتمل أن يكون: ﴿لا تركضوا﴾ إلى آخر الآية. من كلام ملائكة العذاب على جهة الهزء بهم.

وقوله: ﴿حصيداً﴾ أي: بالعذاب كحصيد الزرع بالمنجل، و ﴿خامدين﴾ أي: موتى مُشبهين بالنار إذا طفت، ثم وعظ سبحانه السامعين بقوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لالعين﴾.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْمَلِ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسْحِقُونَ الْإِثْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ الآية: ظاهر الآية: الرّد على من قال من الكفار في أمر مريم - عليها السلام -، وما ضارعه من الكفر تعالى الله عن قول المبطلين و«إن» في قوله: ﴿إن كنا فاعلين﴾ يُحتمل أن تكون شرطية، ويحتمل أن تكون نافية بمعنى: ما كنا فاعلين، وكل هذا قد قيل، و«الحق» عام في القرآن والرسالة والشّرع، وكل ما هو حق، ﴿فيدمغه﴾ معناه: يُصيب دماغه، وذلك مهلك في البشر؛ فذلك الحق يهلك الباطل، و«الويل» الخزي.

وقيل: هو اسم واد في جهنم، وأنه المراد في هذه الآية، وهذه مخاطبة للكفار الذين وصفوا الله عز وجل بما لا يجوز عليه تعالى الله عن قولهم.

وقوله: ﴿ومن عنده...﴾ الآية: عند هنا ليست في المسافات، وإنما هي تشريف في المنزلة. ﴿ولا يستحسرون﴾ أي: لا يكلون، والحسير من الإبل: المعيب.

وقوله: ﴿لا يفترون﴾ وفي «الترمذي» عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطب السماء وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»^(٢) الحديث. قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، وفي الباب عن عائشة، وابن عباس، وأنس، انتهى من أصل الترمذي، أعني: «جامعه».

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٧٦).

(٢) تقدم تخريج حديث الأبيط.

﴿أَوْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذَكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾، أي: يُخَيِّوْنَ غَيْرَهُمْ، ثم بَيَّنَّ تعالى أَمْرَ التَّمَانَعِ بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وقد تَقَدَّمَ إِيضَاحُ ذَلِكَ عند قوله تعالى: ﴿إِذَا لَا يَتَّبِعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

١٧ / وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِالْإِشَارَةِ بقوله: ﴿هَذَا﴾ إِلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا - أَنَّهَا تُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ الْخَالِقَ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بقوله: ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنَ وَالْمَعْنَى: فِيهِ نَبَأُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَتَنْصُ أَخْبَارَ الْأَوَّلِينَ، وَذَكَرَ الْغُيُوبَ فِي أُمُورِهِمْ، حَسْبَمَا هِيَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَذَكَرَ الْآخِرِينَ بِالْدَّعْوَةِ، وَبَيَّنَّ الشَّرْعَ لَهُمْ، ثُمَّ حَكَّمَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، لِإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: فَهُمْ مُعْرِضُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ؛ بَلِ الْمَعْنَى: فَهُمْ مُعْرِضُونَ، وَلِذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيَّنَّ، ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ نَوْعًا آخَرَ مِنْ كُفْرِهِمْ بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ الْآيَةِ؛ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتًا، وَكَمَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالْيَهُودُ فِي عَزِيرَ.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ عِبَارَةٌ تَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَعِيسَى وَعَزِيرَ. وَقَالَ *ص*: بَلْ إِضْرَابٌ عَنْ نَسَبِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوقًا كَبِيرًا. و﴿عباد﴾ خَيْرٌ مُّبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، أَي: هُمْ عِبَادٌ. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ انْتَهَى.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَلَنُجْزِيَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ حُسْنِ طَاعَتِهِمْ وَمُرَاعَاتِهِمْ لَامْتِثَالٍ

الأمر، ثم أَخْبَرَ تعالى: أَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ أَنْ يُشَفِّعَ لَهُ، قال بعضُ المفسرين: لأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْمُشَفِّعُ: الْمُبَالِغُ فِي الْخَوْفِ، الْمُخْتَرِقُ النَّفْسِ مِنَ الْفَزَعِ عَلَى أَمْرِ مَا.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ...﴾ الآية، المعنى: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ كَذَا أَنْ لَوْ قَالَه، وليس منهم مَنْ قَالَ هذا، وقال بَعْضُ المفسرين: المراد بقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ...﴾ الآية: إبليس، وهذا ضعیف؛ لِأَنَّ إبليسَ لم يُزَوَّ قَطُّ أَنَّهُ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ، ثُمَّ وَقَفَهُمْ سبحانه عَلَى عِبْرَةِ ذَالَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، فقال: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ والرتق: الْمُلتَصِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، الَّذِي لَا صَدْعَ فِيهِ وَلَا فَتْحَ، ومنه: امرأةٌ رَتْقاءٌ، واختلَفَ فِي معنى قوله: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فقالت فرقة: كانت السماءُ مُلتَصِقَةً بِالْأَرْضِ فَفَتَقَهَا اللَّهُ بِالْهَوَاءِ، وقالت فرقة: كانت السَّمَوَاتُ مُلتَصِقَةً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَالْأَرْضُ كَذَلِكَ فَفَتَقَهُمَا اللَّهُ سَبْعًا سَبْعًا؛ فعلى هذين القولين فالرُّؤْيُ الْمَوْقُفُ عَلَيْهَا رُؤْيُ قَلْبٍ، وقالت فرقة: السماءُ قَبْلَ الْمَطَرِ رَتْقٌ، وَالْأَرْضُ قَبْلَ النَّبَاتِ رَتْقٌ فَفَتَقَهُمَا اللَّهُ تعالى بِالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

وهذا قولٌ حَسَنٌ يَجْمَعُ الْعِبْرَةَ وَتَعْدِيدَ النِّعَةِ وَالْحُجَّةَ بِمَحْسُوسٍ بَيِّنٍ، وَيُنَاسِبُ قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾، أي: مِنَ الْمَاءِ الَّذِي كَانَ عَنِ الْفَتْقِ، فَيَظْهَرُ معنى الآية، وَيَتَوَجَّهُ الْاعتِبَارُ بِهَا، وقالت فرقة: السماءُ وَالْأَرْضُ رَتْقٌ بِالظُّلْمَةِ فَفَتَقَهُمَا اللَّهُ بِالضُّوءِ؛ وَالرُّؤْيُ عَلَى هذينِ القولين رُؤْيُ الْعَيْنِ، وباقِي الآية بَيِّنٌ.

قال *ص*: قال الرَّجَّاجُ: السَّمَوَاتُ جَمْعٌ أُريدَ بِهِ الْوَاحِدُ؛ وَلِذَا قَالَ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾. وقال الْخَوْفِيُّ: «قال: ﴿كانتا﴾ - والسَّمَوَاتُ جَمْعٌ - : لِأَنَّهُ أَرَادَ الصَّنِفَيْنِ» انتهى.

وقوله: ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ الْحِفْظُ هُنَا عَامٌّ فِي الْحِفْظِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمِنَ الْوَهْيِ وَالسَّقُوطِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ، وَالْقَلْكَ: الْجِسْمُ الدَّائِرُ دَوْرَةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلِ / ١٧ ب و﴿يسبحون﴾ معناه: يَتَصَرَّفُونَ، وقالت فرقة: الْقَلْكَ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ، قوله: ﴿يسبحون﴾ من السَّباحَةِ وَهِيَ: الْعَوْمُ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٢٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُم بِالنَّفْسِ وَالْخَيْرِ فَنَسَاءً وَإِلَيْنا تُرجعون ﴿٢٥﴾.

وقوله عزَّ وجل: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...﴾ الآية، وتقديرُ الكلام:

أَفَهُمُ الْخَالِدُونَ، إِنَّ مِثَّ؟!

وقوله سبحانه: ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ الآية: موعظة^(١) بليغة لِمَنْ وَفَّقَ؛ قال أبو نُعَيْمٍ: كَانَ الثَّوْرِيُّ (رضي الله عنه) إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ لَا يُنْتَفِعُ بِهِ أَيَّامًا. انتهى. من «التذكرة»^(٢) للقرطبي.

قال عبدُ الحقِّ في «العاقبة»: وقد أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَأَعَادَ الْقَوْلَ فِيهِ؛ تَهْوِيلًا لِأَمْرِهِ، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِ الْمَوْتِ يُزِدُّ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُلَيِّنُ الْقَلْبَ الْقَاسِي.

قال الحسن: مَا رَأَيْتُ عَاقِلًا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتَهُ حَذِرًا مِنَ الْمَوْتِ، حَزِينًا مِنْ أَجْلِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاعْلَمْ: أَنَّ طَوْلَ الْأَمَلِ يَكْسِلُ عَنِ الْعَمَلِ، وَيُورِثُ التَّوَانِي، وَيَخْلُدُ إِلَى الْأَرْضِ، وَيُمِيلُ إِلَى الْهَوَى، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ شُوْهِدَ بِالْعَيَانِ؛ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ، وَلَا يُطَالَبُ صَاحِبُهُ بِالْبِرْهَانِ؛ كَمَا أَنَّ قِصْرَهُ يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ، وَيَخْمِلُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ، وَيَحُثُّ عَلَى الْمَسَابَقَةِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا النَّذِيرُ، وَالْمَوْتُ الْمُغِيرُ، وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ»^(٣) ذكره القاضي أبو الحسن بن صَخْرٍ فِي الْفَوَائِدِ. انتهى.

﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ معناه: نَخْتَبِرُكُمْ، وَقَدَّمَ ﴿الشَّرَّ﴾ عَلَى لَفْظَةِ ﴿الْخَيْرِ﴾؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ مِنْ عَادَتِهَا أَنَّ تَقَدَّمَ الْأَقْلَ وَالْأَزْدَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. فَبَدَأَ تَعَالَى فِي تَقْسِيمِ أُمَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ بِالظَّالِمِ^(٤). و﴿فِتْنَةً﴾ معناه: امْتِحَانًا.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلَّا هُزُواً أَلَّذِي يَذْكُرُ الْهَمَّكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: كَأَبْيِ جَهْلٍ وَغَيْرِهِ، «وَلِنْ» بِمَعْنَى: «مَا»، وَفِي الْكَلَامِ حَذَفَ تَقْدِيرُهُ: يَقُولُونَ: أَهَذَا الَّذِي؟

(١) فِي جَدِّ: هُوَ عِظَةٌ.

(٢) يَنْظُرُ: «التَّذَكُّرَةُ فِي أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَأُمُورِ الْآخِرَةِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (٢٣/١).

(٣) أَخْرَجَهُ الطُّحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ مَعَانِي الْأَثَارِ» (٣٨٧/٤)، وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي «تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ» (٤٥٩/٤).

وَقَالَ: أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «قَصْرِ الْأَمَلِ»، وَأَبُو الْقَاسِمِ الْبَغَوِيُّ بِإِسْنَادٍ فِيهِ لِينٌ.

(٤) فِي جَدِّ: بِالْمِظَالِمِ.

وقال ﴿ص:﴾: «إِنَّ: نافية، والظاهر أنها وما دَخَلَتْ عليه جَوَابُ إِذَا، انتهى.
قوله سبحانه: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ رُوِيَ: أَنَّ الآيةَ نَزَلَتْ حِينَ أَنْكَرُوا
هذه اللَّفْظَةَ، وقالوا: ما نعرفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا فِي الِإِمَامَةِ، وظاهرُ الكلام: أَنَّ ﴿الرحمن﴾
قُصِدَ به العبارة عَنِ اللَّهِ عز وجل، وَوَصِفَ سبحانه الإنسانَ الذي هو اسمُ جنسٍ بأنه خَلِقَ
من عَجَلٍ، وهذا على جهةِ المبالغة؛ كما تقول للرجل البطال: أَنْتَ من لَعِبٍ وَلَهْوٍ.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ﴾ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ
بِالْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ
دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا
أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ
رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ
مُتَّقِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ...﴾
الآية: حُذِفَ جوابُ «لو»؛ إيجازاً لدلالة الكلام عليه، وتقديرُ المحذوف: لما استعجلوا،
ونحوه، وَذَكَرَ الوجوه؛ لشرفها من الإنسان، ثُمَّ ذَكَرَ الظهور؛ لِبَيِّنِ عُمُومِ النَّارِ لجميعِ
أَبْدَانِهِمْ، والضميرُ في قوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾: للِسَّاعَةِ التي تُصِيرُهُمْ إِلَى العذابِ،
وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّارِ، و﴿يُنْظَرُونَ﴾ معناه: يُؤَخَّرُونَ، و﴿حَاقَ﴾ معناه: حَلَّ وَنَزَلَ،
و﴿يَكْلُوكُمْ﴾، أي: يَحْفَظُكُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يَخْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ:

أحدهما: يجارون ويمنعون.

والآخر: وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ بخيرٍ وَتَرْكِهٍ ونحو هذا.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ الآية ﴿نَأْتِي
الْأَرْضَ﴾ معناه: بِالْقُدْرَةِ، ونقص الأرض: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ بِتَخْرِيبِ الْمَغْمُورِ، وإِمَّا بِمَوْتِ
الْبَشَرِ.

وقال قوم: النَّقْصُ من الأَطْرَافِ: موْتُ العلماءِ، ثم خاطب سبحانه نبيَّهُ ﷺ مُتَوَعِّدًا ١١٨ لَهُوْلَاءِ / الْكَفَرَةَ بقوله: ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك...﴾ الآية، والنَّفْحَةُ: الْخَطَرَةُ والمَسَّةُ، والمعنى: ولئن مَسَّتْهُمْ صَدْمَةُ عَذَابٍ لَيَنْدَمُنَّ، وَلَيَقْرُنَّ بِظَلَمِهِمْ، وباقِي الآية بَيِّنٌ. وقال الثعالبي: ﴿نفحة﴾، أي: طَرَفٌ؛ قاله ابن عباس^(١)، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ليوم القيامة﴾ قال أبو حيان^(٢): اللام للظرفية بمعنى «في» انتهى.

قال القرطبي^(٣) في «تذكرته»: قال العلماء: إذا انقضى الحسابُ كان بعده وَزَنُ الأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْوَزْنَ لِلْجَزَاءِ، فينبغي أَنْ يَكُونَ بعدَ الْمُحَاسَبَةِ، واخْتَلَفَ في المِيزَانِ وَالْحَوْضِ: أَيُّهُمَا قَبْلُ الْآخَرِ، قال أبو الحسن القاسبي: والصحيحُ أَنَّ الْحَوْضَ قَبْلَ الْمِيزَانِ، وَذهب صَاحِبُ «القوت» وغيره إلى: أَنَّ حَوْضَ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ الصِّرَاطِ.

قال القرطبي^(٤): والصحيح: «أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَوْضَيْنِ، وكلاهما يُسَمَّى كَوْثَرًا، وَأَنَّ الْحَوْضَ الَّذِي يُدَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَعَيَّرَ، يَكُونُ فِي الْمَوْقِفِ قَبْلَ الصِّرَاطِ، وكذا حِوَاظُ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - تَكُونُ فِي الْمَوْقِفِ؛ على ما وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ»^(٥) انتهى.

وَالْفُرْقَانُ الَّذِي أُوتِيَ مُوسَى وَهَارُونُ قِيلَ: التَّوْرَةُ، وَهِيَ الضِّيَاءُ وَالذِّكْرُ.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٢٩٤).

(٢) في هذه اللام أوجه: - أحدها: قال الزمخشري مثلها في قولك: جِئْتُ لِحَمْسٍ خَلُونٍ مِنَ الشَّهْرِ، ومنه قول النابغة: [الطويل]

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعٍ
والثاني: أَنَّهَا بِمَعْنَى فِي وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ قَتِيْبَةَ وَابْنُ مَالِكٍ وَهُوَ رَأْيُ الْكُوفِيِّينَ وَمِنْهُمْ عِنْدَهُمْ ﴿لَا يُجَلِّيْهَا لِوَقْتِهَا
إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ولقول مسكين الدارمي: [الطويل]

أُولَئِكَ قَوْمِي قَدْ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ كَمَا مَضَى مِنْ قَبْلُ عَادٌ وَتُبَّعٌ
وكقول الآخر: [الطويل]

وَكُلُّ أَبٍ وَابْنٍ وَإِنْ غُمُّرَا مَعًا مُقِيمِينَ مَفْقُودٌ لِوَقْتٍ وَقَائِدُ
والثالث: أَنَّهَا عَلَى بَابِهَا مِنَ التَّعْلِيلِ وَلَكِنْ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ لِحِسَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ينظر: «الدر المنصور» (٥/ ٨٩-٩٠) وينظر: «الكشاف» (٢/ ٥٧٤)، و «البحر» (٦/ ٣١٦).

(٣) ينظر: «التذكرة» (٢/ ٤١٧).

(٤) ينظر: القرطبي (١/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٩٩) كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ حديث (٣٧/ ٢٣٠١)، وأحمد (٥/ ٢٨٠).

وقالت فرقة: الْفُرْقَان: هو ما رَزَقَهُمَا اللَّهُ تعالى من نَضْرٍ وظُهُورٍ على فرعون وغير ذلك، والضَّيَاء: التوراة، والدُّكْرُ: بمعنى التذكرة.

وقوله سبحانه: ﴿وهذا ذكر مبارك﴾ يعني: القرآن، ثم وَقَفَهُمْ سبحانه؛ تقريراً وتوبيخاً: هل يَصِحُّ لهم إنكارُ بَرَكَتِهِ وما فيه من الدعاءِ إلى الله تعالى وإلى صالح العمل؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَمَّ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده...﴾ الآية. الرُّشْدُ عامٌّ، أي: في جميع المَرَاشِدِ وأنواع الخيرات.

وقال الثعلبي: ﴿رُشْدُهُ﴾، أي: توفيقه، وقيل: صَلَاحُهُ، انتهى.

وقوله: ﴿وكنا به عالمين﴾: مَدَحٌ لإبراهيم عليه السلام، أي: عالمين بما هَلَّ له؛ وهذا نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والتماثيل: الأصنام.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقوله: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم...﴾ الآية. رُوِيَ: أَنَّهُ حَضَرَهُمْ عِيدٌ لَهُمْ، فعزم قومٌ منهم على إبراهيم في حُضُورِهِ؛ طمعاً منهم أَنْ يَسْتَحْسِنَ شيئاً من أحوالهم، فَمَشَى معهم، فلما كان في الطريق ثَنَّى عَزَمَهُ على التَّخَلُّفِ عنهم، فقعد، وقال لهم: إني سقيم، فَمَرَّ به جُمُهورُهُمْ، ثم قال في خلوةٍ من نفسه: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾ فَمَسَّعَهُ قومٌ من ضَعْفَتِهِمْ مِمَّنْ كان يسيرُ في آخِرِ الناس.

وقوله: ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ معناه: إلى عِيدِكُمْ، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامِهِمْ فدخله، ومعه قُدُومٌ، فوجد الأصنامَ قد وَقَفَتْ، أَكْبَرَهَا أَوَّلَ، ثم الذي يليه فالذي يليه، وقد جعلوا أَطْعَمَتَهُمْ في ذلك اليوم بين يدي الأصنام؛ تبركاً لينصرفوا من ذلك العيد إلى أَكْلِهِ، فجعل - عليه السلام - يَقْطَعُهَا بتلك القدوم، وَيُهَشِّمُهَا حتى أَفْسَدَ أَشْكَالَهَا، حاشا الكبير؛ فَإِنَّهُ تَرَكَه بحالِهِ وَعَلَّقَ القدومَ في يَدِهِ، وَخَرَجَ عنها، و﴿جذاذا﴾:

معناه: قطعاً صغاراً، والجذ: القَطْع، والضميرُ في ﴿إليه﴾ أظهرُ ما فيه أنه عائِدٌ على إبراهيم، أي: فَعَلَ هذا كُلُّهُ؛ ترجياً منه أن يَغْفَبَ ذلك منهم رَجْعَةً إليه وإلى شَرْعِهِ، ويَحْتَمَلُ أن يعودَ على كبيرهم.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٥) قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦٦) قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّا نَبْرَاهِيمُ (٦٧) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَاءُوا لَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٨).

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا...﴾ الآية. المعنى: فانصرفوا من عيدهم فأروا ١٨ ب ما حَدَثَ بآلِهِمْ، ف ﴿قَالُوا: مَنْ / فَعَلَ هذا بآلِهِمْ؟﴾ و﴿قَالُوا﴾ الثاني: الضميرُ فيه للقوم الضَّعْفَةُ الذين سَمِعُوا قولَ إبراهيم: ﴿تَاللَّهِ لَاكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿على أعين الناس﴾ يريدُ في الحَقْل، وبِمَحْضَرِ الجمهور، وقوله: ﴿يشهدون﴾: يَحْتَمَلُ أن يريدَ: الشهادةَ عليه بفعله، أو بقوله: ﴿لأكيدن﴾، ويحتملُ أن يريدَ به: المُشَاهَدَةَ، أي: يشاهدون عُقُوبَتَهُ أو غلبته المُؤَدِّيَةَ إِلَى عُقُوبَتِهِ، وقوله عليه السلام: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ على معنى الاحتجاجِ عليهم، أي: إِنَّهُ غَارَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ هُوَ وَتُعْبَدَ الصُّغَارُ معه، ففعل هذا بها لذلك؛ وفي الحديث الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله لِلْمَلِكِ: هِيَ أُخْتِي. وكانت مقالاته هذه في ذات الله، وذهبت فرقة إلى أن معنى الحديث: لم يكذب إبراهيم، أي: لم يقل كلاماً ظاهره الكذب أو يشبه الكذب، وذهب الفَرَاءُ إلى جهة أخرى في التأويل بأن قال: قوله: ﴿فعله﴾ ليس من الفعل، وإنما هو فعله على جهة التوقع، حُذِفَ اللامُ على قولهم: عَلَهُ بمعنى: لَعَلَّهُ، ثم حُفِّفَتِ اللامُ.

قال *ع^(١): * وهذا تكلف.

قلت: قال عياض: واعلم، (أكرمك الله) أن هذه الكلمات كلها خارجة عن الكذب، لا في القصد ولا في غيره، وهي داخلة في باب المعارض التي فيها مندوحة عن الكذب، فأما قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ فإنه عَلَّقَ خبره بشرط النطق، كأنه قال: إِنْ كَانَ ينطق فهو فعله؛ على طريق التبيكيت لقومه. انتهى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٧/٤).

ثم ذكر بقية التوجيه وهو واضح لا تطيل بسرده.

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفَىٰ لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) فَلَمَّا يَنْتَازِ كُوْنِي بَرَكًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) .

وقوله سبحانه: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾، أي: في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأنتم معكم من تسألون ثم رأوا ببديهة العقل أن الأصنام لا تنطق، فقالوا لإبراهيم حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة ووقفهم مؤبّخاً لهم بقوله: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً...﴾ الآية. ثم حَقَّرَ شأنهم وشأنها بقوله: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله...﴾ الآية.

*ص^(١): وقولهم: ﴿لقد علمت﴾: جواب قَسَمٍ محذوف معمول لقول محذوف في موضع الحال، أي: قائلين، لقد علمت. انتهى.

وقال الثعلبي: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: تفكروا بعقولهم فقالوا: ما نراه إلا كما قال، إنكم أنتم الظالمون في عبادتكم الأصنام الصغار مع هذا الكبير. اهـ.

وما قدمناه عن *ع^(٢) هو الأوجه و﴿أف﴾ لفظة تُقال عند المُسْتَقْدَرَاتِ من الأشياء، وَيُسْتَعَارُ ذلك لِلْمُسْتَقْبَحِ من المعاني، ثم أخذتهم العِزَّةُ بالإثم وانصرفوا إلى طريق الغلبة والغشم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾؛ رُوي: أَنَّ قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس، أي: من باديتها، فَخَسَفَ اللَّهُ به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وروي: أَنه لما أجمع رأيهم على تحريقه حَبَسَهُ نمرود الملك (لعه الله) وأمر بجمع

(١) [هذه الجملة جواب قسم محذوف والقسم وجوابه معمولان لقول مضمّر وذلك القول المضمّر حال من مرفوع نكسوا أي نكسوا قائلين والله لقد علمت قوله: «مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» يجوز أن تكون ما هذه مجازية فتكون هؤلاء اسمها وينطقون في محل نصب خبرها أو تيمية فلا علم لها والجملة المنفية بأسرها سادة مسد المفعولين إن كانت «عَلِمْتُ» دلتى بابها ومسد واحد إن كانت عرفانية].

ينظر: «الدر المصون» (٩٨/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٨٨/٤).

الْحَطَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَضْرَمَ نَاراً فَلَمَّا أَرَادُوا طَرَحَ إِبْرَاهِيمَ فِيهَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْقَرَبِ مِنْهَا، فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا أَصْنَعُ لَكُمْ آلَةً يُلْقَى بِهَا، فَعَلَّمَهُمْ صِنْعَةَ الْمُنْجَنِيقِ، ثُمَّ أَخْرَجَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَشَدَّ رِبَاطاً، وَوَضَعَ فِي كَفَّةِ الْمُنْجَنِيقِ، وَزَمِي بِهِ، فَتَلَقَّاهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ لَهُ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَ، وَأَمَّا إِلَى اللَّهِ فَبَلَى.

قلت: قال ابنُ عطاء الله في «التنوير»: وَكَنْ أَثْبَاهَا الْآخَ إِبْرَاهِيمِيًّا؛ إِذْ رُجَّ بِهِ فِي الْمُنْجَنِيقِ، فَتَعَرَّضَ لَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَ، وَأَمَّا إِلَى رَبِّي، فَبَلَى، قَالَ: فَاسْأَلْهُ. قَالَ: حَسْبِي مِنْ سْؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي، فَانْظُرْ كَيْفَ رَفَعَ هِمَّتَهُ عَنِ الْخَلْقِ، وَوَجَّهَهَا إِلَى الْمَلِكِ الْحَقِّ، فَلَمْ يَسْتَغْثِ بِجَبْرِيلَ، وَلَا احْتَالَ عَلَى السُّؤَالِ، بَلْ رَأَى رَبَّهُ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ جَبْرِيلَ وَمِنْ سْؤَالِهِ؛ فَلِذَلِكَ سَلَّمَهُ مِنْ نَمْرُودَ وَنُكَالِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنَوَالِهِ وَأَفْضَالِهِ. انْتَهَى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ قال بعض العلماء فيما روي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ لَمْ يَقُلْ: ﴿وَسَلَامًا﴾ لَهْلَكَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَرْدِ النَّارِ، وَرُويَ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ فِي النَّارِ سَلَّمَهُ اللَّهُ، وَاحْتَرَقَ الْحَبْلُ الَّذِي رُبِطَ بِهِ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي قِصَصِهِ فَاخْتَصَرْنَاهُ؛ لَعَدَمِ صِحَّةِ أَكْثَرِهِ، وَرُوي: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَهُ بَسْطُ وَطْعَامٍ فِي تِلْكَ النَّارِ كُلِّ ذَلِكَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَرُوي: أَنَّ الْعِيدَانِ أَيْنَعَتِ وَأَثْمَرَتِ لَهُ هُنَاكَ ثَمَارَهَا، وَرُوي: أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَذِهِ نَارٌ مَسْحُورَةٌ، لَا تَحْرُقُ، فَرَمُوا فِيهَا شَيْخًا مِنْهُمْ فَاحْتَرَقَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ.

قلت: قال صاحب «غاية المغنم في اسم الله الأعظم» وهو من الأئمة المحدثين، وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: إِنَّهُ يُكْتَبُ لِلْمَحْمُومِ وَيُعَلَّقُ عَلَيْهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ أَشْفِ حَامِلَهَا بِحَوْلِكَ وَقَوْنِكَ وَجَبْرُوتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَسَلَامًا﴾ معناه: وسلامة، و«الكَيْدُ»: هو ما أَرَادُوهُ مِنْ حَرْقِهِ.

﴿وَتَجَنَّبَنَهُ لَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ﴿٧٤﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٥﴾ وَلَوْطًا أَكْبَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَتَجَنَّبَنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسْقَيْنَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ

مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَتَوَّعًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

وقوله سبحانه: ﴿ونجيناه ولو طأ...﴾ الآية. رُوِيَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خرج من النار أحضره نمرود، وقال له في بعض قوله: يا إِبْرَاهِيمُ، أين جنود ربك الذي تزعم؟ فقال له عليه السلام: سيريك ففعل أضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من بعوض فأكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاء، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود، فكان رأسه يُضْرَبُ بالعيدان وغيرها، ثم هلك منها، وخرج إِبْرَاهِيمُ وابن أخيه لوط - عليهما السلام - من تلك الأرض مهاجرين، وهي «كوثي» من العراق، ومع إِبْرَاهِيمَ بنت عمه، سارة زوجته، وفي تلك السفرة لَقِيَ الجبار الذي رام أخذها منه، واختلِفَ في الأرض التي بُورِكَ فيها ونحا إليها إِبْرَاهِيمَ ولوط - عليهما السلام -، فقالت فرقة: هي مَكَّةُ، وقال الجمهور: هي الشام، فنزل إِبْرَاهِيمَ بالسبع من أرض فلسطين، وهي بركة الشام، ونزل لوط بالموتكفة، «والنافلة»: العطية، وباقي الآية بَيَّنَّ، وخباثت قرية لوط هي إتيان الذكور، وتضارطهم في مجالسهم، إلى غير ذلك من قبيح أفعالهم.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَالنُّوحَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْكَنٌ الْفُجْرَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِنْدَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وقوله سبحانه في نوح - عليه السلام -: ﴿ونصرناه من القوم...﴾ الآية، لما كان جُلُّ نُصْرَتِهِ النجاة، وكانت غلبة قومه بأمر أجنبي منه - حَسُنَ أَنْ يَقُولَ: «نصرناه من»، ولا تتمكن هنا «على».

قال *ص*: عُدِّي «نصرناه» بـ «مِنْ»؛ لتضمنه معنى: نجينا، وعصمنا، ومنعنا. وقال أبو عبيدة: «مِنْ» بمعنى «على».

قلت: وهذا أولى، وأما الأول ففيه نظر؛ لأن تلك الألفاظ المُقَدِّمَةُ كلها غير مرادفة لـ «نصرنا»، انتهى.

قلت: وكذا يظهر من كلام ابن هشام: ترجيح الثاني، وذكر هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - ضَرْبٌ مَثَلٌ لقصة نبيِّنا محمد ﷺ مع قومه، ونجاة الأنبياء، وهلاكُ مكذبيهم ضمنها تَوَعُّدٌ لِكُفَّارِ قريش.

وقوله تعالى: ﴿وداود وسليمان﴾ المعنى: واذكر داود وسليمان، هكذا قَدَّرَهُ جماعة من المفسرين، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المعنى: وآتينا داود، و«النفش»: هو الرعي ليلاً، ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أربابِ النعم ما أفسدت بالليل؛ لأنَّ على أهلها أَنْ يثقفوها، وعلى أهل الزروع حفظها بالنهار، هذا هو مُقْتَضَى الحديث في ناقة ابن عازب، وهو مذهب مالك وجمهور الأمة، وفي كتاب ابن سحنون: إن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان محدقة، وأما البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة فيضمن أربابُ النعم ما أفسدت بالليل والنهار.

قال *ص*: والضمير في قوله: ﴿لحكمهم﴾ يعودُ على الحاكمين والمحكوم له؛ وعليه أبو البقاء.

وقيل: الضمير لداود وسليمان - عليهما السلام - فقط، وجميع؛ لأنَّ الاثنين جمع. انتهى.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): المواشي على قسمين: ضوار^(٢)، وغير ضوار، وهكذا قَسَمَهَا مالك، فالضواري: هي المعتادة بأكل الزرع والثمار، فقال مالك: تُعَرَّبُ وتُبَاعُ في بلد لا زرع فيه، ورواه ابن القاسم في الكتاب وغيره.

قال ابن حبيب: وإن كَرِهَ ذلك أربابُها، وكان قول مالك في الدَّابَّةِ التي ضريت بفساد الزرع أَنْ تُعَرَّبَ وتُبَاعَ، وأما ما يُسْتَطَاعُ الاحتراز منه فلا يُؤْمَرُ صاحبه بإخراجه عن ملكه، وهذا بَيِّنٌ. انتهى.

وقوله: ﴿يسبحن﴾، أي: يقلن: سبحان الله؛ هذا قول الأكثر، وذهبت فرقة منهم

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٢٧٠).

(٢) الضُّرَى من السباع: ما ضَرِيَ بالصيد ولهج بالفرائس.

ينظر: «لسان العرب» (٢٥٨٣).

منذرُ بن سعيد إلى أنه بمعنى: يُصَلِّينَ معه بصلاته، واللبوس في اللغة: هو السلاح، فمنه الدرع وغيره.

قال *ص*: ﴿لَبُوسٌ﴾ معناه: مَلْبُوسٌ؛ كالرُّكُوب بمعنى المَرْكُوب؛ قال الشاعر [الطويل].

عَلَيْهَا أَسُودَ ضَارِيَاتٍ لَبُوسُهُنَّ سَوَابِغُ بَيْضٍ لَا تُخَرِّقُهَا النَّبْلُ
﴿ولسليمان الريح﴾، أي: وسخرنا لسليمانَ الريحَ، هذا على قراءة [النصب] ^(١) وقرأت ^(٢) فرقة «الريح» بالرفع، ويروى أَنَّ الريح العاصفة كانت تهبُّ على سرير سليمان الذي فيه بساطه، وقد مد حول البساط بالخشب والألواح حتى صَنَعَ سريراً يَحْمِلُ جميع عسكره وأقواته، فتقله من الأرض في الهواء، ثم تتولاه الريح الرُّخَاءُ بعد ذلك فتحمّله إلى حيث أراد سليمان.

قال *ص*: والعَصْفُ: الشَّدَّةُ، والرُّخَاءُ: اللين. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ اِخْتَلَفَ فيها، فقالت فرقة: هي الشام، وكانت مسكنه وموضع ملكه، وقد قال بعضهم: إِنَّ العاصفة هي في القفول على عادة البشر والدُّوَابِّ في الإسراع إلى الوطن، وَإِنَّ الرُّخَاءَ كانت في البداية حيث أصاب، أي: حيث يقصد؛ لِأَنَّ ذلك وقت تَأَنٍّ / وتدبير وتقلُّبٍ رأي، ويحتمل: أَنْ يريد الأرض التي يسير ^{١١٩} إليها سليمان كائنة ما كانت، وذلك أَنَّهُ لم يكن يسير إلى أرضٍ إِلَّا أصلحها الله تعالى به ﷺ، ولا بركةَ أعظم من هذا، والغوصُ: الدخول في الماء والأرض، والعمل دون ذلك البنين وغيره من الصنائع والخدمة ونحوها، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ قيل: معناه: مِنْ إفسادهم ما صنعوه، وقيل: غير هذا.

قلت: وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا الاسم المُبَارَكُ مناسب لحال أَيُّوبَ عليه السلام، وقد روى أسامة بن زيد (رضي الله عنه) أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَكًا مُوَكَّلًا بِمَنْ يَقُولُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ لَهُ الْمَلَكُ: إِنَّ

(١) سقط في ج.

(٢) وقد قرأ بها الأعرج، وأبو بكر عن عاصم.

ينظر: «مختصر الشواذ» (٩٥)، و«الكشاف» (١٣٠/٣)، و«المحرر الوجيز» (٩٣/٤)، و«البحر المحيط»

(٣٠٨/٦)، و«الدر المصون» (١٠٣/٥).

أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ؛ فَاسْأَلْ»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک»، وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَلْ؛ فَقَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ»^(٢) رواه الحاكم، انتهى من «السلام». وفي قصص أيوب عليه السلام طُولٌ واختلاف، وتلخيصُ بعض ذلك: أَنَّ أيوبَ عليه السلام أصابه الله تعالى بأكلة في بدنه، فلما عَظُمَتْ، وتقطعَ بدنه، أخرجته الناس من بينهم، ولم يبقَ معه غيرُ زوجته، ويقال: كانت بنتُ يوسفَ الصديق عليه السلام قيل: اسمها رحمة، وقيل في أيوب: إِنَّهُ من بني إسرائيل وقيل: إِنَّهُ من «الروم» من قرية «عيصو»، فكانت زوجته تسعى عليه، وتأتيه بما يأكل، وتقوم عليه، ودَامَ عليه ضُرُّهُ مدَّةً طويلة، وروي أَنَّ أيوبَ (عليه السلام) لم يزل صابراً شاكراً، لا يدعو في كشف ما به، حتى إِنَّ الدودة تسقط منه فيردها، فمرَّ به قوم كانوا يعادونه فسمتوا به؛ فحينئذٍ دعا رَبَّهُ سبحانه فاستجاب له، وكانت امرأته غائبةً عنه في بعض شأنها، فأُنبِغَ الله تعالى له عيناً، وأُمِرَ بالشرب منها فبرئ باطنه، وأُمِرَ بالاعتسال فبرئ ظاهره، ورُدَّ إلى أفضل جماله، وأُوتِيَ بأحسن ثياب، وهبَّ عليه رجل من جراد من ذهب فجعل يحتفن منه في ثوبه، فناداه ربه سبحانه وتعالى: «يا أيوب أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيكَ عن هذا؟ فقال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك» فبينما هو كذلك إذ جاءت امرأته، فلم تره في الموضع، فجذعت وَظَنَّتْ أَنَّهُ أَزِيلَ عنه، فجعلت تتولَّه رضي الله عنها، فقال لها: ما شَأْنُكِ أيتها المرأة؟ فهابته؛ لحسن هيئته، وقالت: إِنِّي فَقَدْتُ مريضاً^(٣) لي في هذا الموضع، ومعالم المكان قد تغيرت، وتأملت في أثناء المقالة^(٤) فرأت أيوبَ، فقالت له: أنت أيوب؟ فقال لها: نعم، واعتنقها، وبكى، فَرَوِيَ أَنَّهُ لم يُقَارِفْهَا حَتَّى أَرَاهُ الله جميعَ مَالِهِ حاضراً بين يديه. واختلف الناس في أهله وولده الذين آتاه الله، فقيل: كان ذلك كله في الدنيا فَرَدَّ الله عليه ولده بأعيانهم، وجعل مثلهم له عدة في الآخرة، وقيل: بل أُوتِيَ جميع ذلك في الدنيا من أهل ومال.

ت: وقد قَدَّمَ *ع*^(٥) في صدر القصة: إِنَّ الله سبحانه أَدْنَى لِإِبْلِيسَ (لعنه الله)

(١) أخرجه الحاكم (٥٤٤/١) من طريق كامل بن طلحة عن فضال بن جبير عن أبي أمامة مرفوعاً، وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: فضال ليس بشيء.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٤٤/١) من حديث أنس بن مالك، وقال الذهبي: لم يصح هذا.

(٣) في ج: كان لي.

(٤) في ج: المقالة.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٩٤/٤).

في إهلاك مال أيوب، وفي إهلاك بنيه وقراته، ففعل ذلك أجمع، والله أعلم بصحة ذلك، ولو صحَّ لوجب تأويله.

وقوله سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ لِلْعَابِدِينَ﴾، أي: وتذكروا وموعظة للمؤمنين، ولا يعبد الله إلا مؤمن.

﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ المعنى: واذكر إسماعيل، وقوله سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ التقدير واذكر ذا النون، قال السُّهَيْلِيُّ: لما ذكر الله تعالى يُونسَ هنا في معرض الثناء، قال: ﴿وَذَا النُّونِ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] / والمعنى واحد، ولكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن ب ١٩ الإشارة إلى الحاليتين، وتنزيل الكلام في الموضعين والإضافة بذی أشرف من الإضافة بصاحب؛ لأن قولك^(١): ذو يضاف بها إلى التابع، وصاحب يُضاف بها إلى المتبوع. انتهى.

والنون: الحوت، والصاحب: يونس بن متى - عليه السلام - وهو نبي من أهل نينوى.

وقوله: ﴿مُغْضِبًا﴾ قيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وَتَعَثُّهُمْ، فذهب فاراً بنفسه، وقد كان الله تعالى أمره بملازمتهم والصبر على دعائهم، فكان ذلك ذنبه، أي: في خروجه عن قومه بغير إذن ربه.

قال عِيَّاض: والصحيح في قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ أَنَّهُ مُغْضِبٌ لقومه؛ لكفرهم، وهو قول ابن عباس، والضَّحَّاك^(٢) وغيرهما، لا لربه؛ إِذْ مُغْضِبَةُ الله تعالى معاداة له، ومعاداة الله كفر لا يليق بالمؤمنين، فكيف بالأنبياء - عليهم السلام -؟! وفراؤ

(١) في ج: قوله وذا.

(٢) أخرجه الطبري (٧٣/٩) برقم (٢٤٧٤٩) عن ابن عباس، (٢٤٧٥٠) عن الضحاك، وذكره السيوطي (٤/ ٥٩٧) وعزاه للبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك.

يونس عليه السلام خشيةً تكذيب قومه بما وعدهم به من العذاب .

وقوله سبحانه: ﴿فَظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ معناه: أنَّ لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ، وقيل: معناه: نقدر عليه ما أصابه، وقد قُرِئَ «نَقْدَرُ» عليه بالتشديد^(١)، وذلك، كما قيل لحسن ظَنِّه بربه: أَنَّهُ لَا يَقْضِي عَلَيْهِ بِعُقُوبَةٍ، وقال عياض في موضع آخر: وليس في قصة يونس عليه السلام نَصٌّ على ذنب، وإنما فيها أَبَقَ وذهب مغاضباً، وقد تكلمنا عليه، وقيل: إنما نَقَمَ اللَّهُ - تعالى - عليه خروجه عن قومه، فأزاً من نزول العذاب. وقيل: بل لَمَّا وعدهم العذاب، ثم عفا اللَّهُ عنهم، قال: وَاللَّهِ لَا أَلْقَاهُمْ بَوَجه كَذَابٍ أَبَدًا، وهذا كله ليس فيه نَصٌّ على معصية. انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فَظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾. قالت فرقة: معناه: أنَّ لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ في مذهبه؛ من قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقرأ الزُّهْرِيُّ: «نَقْدَرُ»^(٢) بضم النون، وفتح القاف، وشَدَّ الدال، ونحوه عن الحسن.

وروي: أَنَّ يونس عليه السلام سجد في جوفِ الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: يريد فيما خالف فيه من ترك ملازمة قومه والصبر عليهم، هذا أحسن الوجوه، فاستجاب اللَّهُ له.

* وليس في هذه الكلمة ما يَدُلُّ أَنَّهُ اعترف بذنب، كما أشار إليه بعضهم، وفي الحديث الصحيح: «دَعْوَةُ أَخِي ذِي الثُّونِ، فِي بَطْنِ الْحَوْتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، مَا دَعَا بِهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ - أَوْ قَالَ: مُسْلِمٌ -، إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ»^(٣)

(١) وهي قراءة الزهري والحسن كما ذكرهما المصنف بقَدْر.

وقرأ بها ابن أبي ليلى، وأبو شرق، والكلبي، ويعقوب.

كما في «مختصر الشواف» ص (٩٥)، وينظر: «المحرر الوجيز» (٩٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣١١/٦)،

ونسبها للزهري حسب. وهي في «الدر المصون» (١٠٥/٥).

وحكاها القرطبي (٢١٩/١١) عن عمر بن عبد العزيز والزهري.

(٢) ينظر القراءة السابقة.

(٣) أخرجه الترمذي (٥٢٩/٥) كتاب الدعوات: باب (٨٢) حديث (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/

١٦٨) كتاب عمل اليوم والليلة: باب ذكر دعوة ذي الثون، حديث (١٠٤٩٢)، وأحمد (١٧٠/١)،

والحاكم (٥٠٥/١)، والطبري (٧٨/٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٢/١) رقم (٦٢٠) كلهم من

حديث سعد بن أبي وقاص.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثنو» (٥٩٩/٤)، وزاد نسبه إلى الحكيم في «توادر الأصول»،

وابن أبي حاتم، والبرار، وابن مردويه.

الحديث، انتهى. وعن سعد بن مالك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّمَا مُسْلِمٍ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً قَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ - أُعْطِيَ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرَى بَرَى وَقَدْ عَفَرَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ^(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

وذكر صاحب «السَّلَاحِ» أيضاً عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي الثُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ» رواه الترمذي، واللفظ له، والنسائي والحاكم في «الْمُسْتَدْرَكِ»، وقال: صحيح الإسناد، وزاد فيه من طريق آخر: «فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ كَانَتْ لِيُوسُ خَاصَّةٌ، أَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾»^(٢). انتهى.

والغم: ما كان ناله حين التقمه الحوت.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَمْ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١).

١٢٠. وقوله سبحانه: / ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ...﴾ الآية تقدم أمر زكرياء.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ قيل: بَأَن جُعِلَتْ مِنْ تَحِيلٍ وهي عاقر قاعد، وعموم اللفظ يتناول جميع الإصلاح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ المعنى: أنهم يدعون في وقت تعبداتهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف في حال واحدة؛ لَأَنَّ الرغبة والرغبة متلازمان، والخشوع: التذلل بالبدن المتركب على التذلل بالقلب.

قال القشيري في «رسالته»: سُئِلَ الْجَنِيدُ عَنِ الْخُشُوعِ فَقَالَ: تَذَلُّ الْقُلُوبِ لِعَلَامِ الْغُيُوبِ، قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَمْ يَقْرَبْ مِنَ الشَّيْطَانِ. انتهى.

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٥٠٦/١)، وَسَكَتَ عَنْهُ هُوَ وَالذَّهَبِيُّ.

(٢) تَقْدِمُ تَخْرِيجَهُ.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ المعنى: واذكر التي أحصنت فرجها، وهي الجارحة المعروفة، هذا قول الجمهور، وفي إحصانها هو المدح، وقالت فرقة: الفرج هنا هو فرج ثوبها [الذي منه نفخ الملك]^(١). وهذا قول ضعيف، وقد تقدم أمرها.

ت: وعكس (رحمه الله) في سورة التحريم النقل، فقال: قال الجمهور: هو فرج الدرع.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (١٦) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ بِحِجُوتٍ (١٧) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (١٨) وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَهُمْ يَنْتَظِرُونَ (١٩) وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٢٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ منقطعاً خطاباً لمعاصري النبي ﷺ ثم أخبر عن الناس أَنَّهُمْ تَقَطَّعُوا، ثم وعد وأوعده، ويحتمل أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلاً بقصة مريم وابنها - عليهما السلام -.

ص: أبو البقاء: ﴿وتقطعوا أمرهم﴾ أي، في أمرهم، يريد أنه منصوب على إسقاط حرف الجر.

وقيل: عُدِّي بنفسه؛ لأنه بمعنى قطعوا، أي فرقوا، انتهى.

وقال البخاري: ﴿أمتكم أمة واحدة﴾، أي: دينكم دين واحد^(٢). انتهى.

وقرأ جمهور السبعة: «وحرام»، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم^(٣): «وحِزَم» - بكسر الحاء وسكون الراء - وهما مصدران بمعنى، فأما معنى الآية، فقالت فرقة: حَرَامٌ وَحَزَمٌ معناه: حزم وحتم، فالمعنى: وحتم على قرية أهلكتها، أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَتُوبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، بل هم صائرون إلى العقاب.

وقالت طائفة: حرام وحزم، أي: ممتنع.

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٩/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة الأنبياء.

(٣) إنما قرأ عاصم هذه القراءة في رواية أبي بكر، لاحفص كما ذكر المصنف، وأما قراءة حفص فهي كقراءة الجمهور.

ينظر: «السبعة» (٤٣١)، و«الحجة» (٢٦١/٥)، و«إعراب القراءات» (٦٨/٢)، و«معاني القراءات» (١٧٠/٢)، و«شرح الطيبة» (٦٠/٥)، و«العنوان» (١٣٢)، و«شرح شعله» (٥٠٠)، و«إتحاف» (٢/٢٦٧).

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦).

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون...﴾ الآية، تحتل «حتى» في هذه الآية أن تتعلق بـ ﴿يرجعون﴾، وتحتل أن تكون حرف ابتداء، وهو الأظهر بسبب «إذا»؛ لأنها تقتضي جواباً، واختلف هنا في الجواب، والذي أقول به: أن الجواب [في قوله] (١) ﴿فإذا هي شاخت﴾ وهذا هو المعنى الذي قصد ذكره.

قال *ص*: قال أبو البقاء: ﴿حتى إذا﴾ متعلقة في المعنى بـ ﴿حرام﴾ أي: يستمر الامتناع إلى هذا الوقت، ولا عمل لها في «إذا». انتهى.

وقرأ الجمهور: «فُتِحَتْ» بتخفيف التاء، وقرأ ابن عامر (٢) وحده «فُتِحَتْ» بالتشديد، ورؤي أن يأجوج ومأجوج يشرفون في كل يوم على الفتح، فيقولون: غداً نفتح، ولا يردون المشيئة إلى الله تعالى، فإذا كان غد وجدوا الردم كأوليه حتى إذا أذن الله تعالى في فتحه، قال قائلهم: غداً نفتح إن شاء الله تعالى، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ.

ت وقد تقدم في «سورة الكهف» كثير من أخبار يأجوج ومأجوج فأغنانا عن إعادته، وهذه عادتنا في هذا المختصر أسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم به، ويجعله لنا نوراً بين أيدينا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والحَدَبُ: كل مُسْتَمٍ من الأرض، كالجبل والظرب (٣) والكدية (٤)، والقبر ونحوه.

وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وهم﴾ يأجوج ومأجوج، يعني أنهم يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويملأون الأرض من كثرتهم.

وقالت فرقة: المراد بقوله: «وهم» جميع العالم، وإنما هو تعريف بالبعث من القبور.

(١) سقط في جـ.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٣١)، و«الحجة» (٢٦٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٦٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٧٢)، و«العنوان» (١٣٢)، و«حجة القراءات» (٤٧٠)، و«إتحاف» (٢٦٧/٢).

(٣) الظَّربُ: كل ما نتأ من الحجارة، وحُدَّ طرفه، وقيل: هو الجبل المنبسط، وقيل: هو الجبل الصغير، وقيل: الروابي الصغار، والجمع: ظُرَابٌ.

ينظر: «لسان العرب» (٢٧٤٥).

(٤) الكدية: الأرض المرتفعة، وقيل: هو شيء صلب من الحجارة والطين، وهي أيضاً الأرض الغليظة، وقيل: الأرض الصلبة.

ينظر: «لسان العرب» (٣٨٣٨).

وقرأ ابن مسعود^(١): «وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَذْثٍ بِالْجِيمِ وَالثَّاءِ الْمَثْلُثَةِ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تُؤَيِّدُ ٢٠ ب / هذا التأويل، و«ينسلون»: معناه: يسرعون في تطامن، وأسند الطبري عن أبي سعيد قال: «يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحداً إلا قتلوه، إلا أهل الحصون، فيمرون على بحيرة طبرية فيمر آخرهم فيقول: كان هنا مرة ماء، قال فيبعث الله عليهم النعف حتى تكسر أعناقهم، فيقول أهل الحصون: لقد هلك أعداء الله، فيدلون رجلاً ينظر، فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله من السماء ماء فيقذف بهم في البحر، فيطهر الله الأرض منهم»^(٢) وفي حديث حذيفة نحو هذا، وفي آخره قال: وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ لَوْلَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ إِلَٰهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿واقترب الوعد الحق﴾ يريد يوم القيامة.

وقوله: ﴿[فإذا] هي﴾^(٣): مذهب سيبويه أنها ضمير القصة، وجوز الفراء أن تكون ضمير الإبصار تقدمت؛ لدلالة الكلام، ومجيء ما يفسرها، والشخص بالبصر إحداد النظر دون أن يطرف، وذلك يعتري من الخوف المفطر ونحوه، وباقي الآية بين.

وقوله سبحانه: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم...﴾ الآية: هذه الآية مُحَاطَبَةٌ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، أي: إنكم وأصنامكم حصب جهنم، والحصب: ما توقد به النار؛ إمَّا

(١) وقرأ بها ابن عباس، والكلبي، والضحاك.

قال أبو الفتح: هو القبر بلغة أهل الحجاز.

ينظر: «المحتسب» (٦٦/٢)، و«مختصر الشواذ» (٩٥)، و«الكشاف» (١٣٥/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٠٠/٤)، و«البحر المحيط» (٣١٤/٦)، و«الدر المصون» (١١١/٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٦٣-١٣٦٤) كتاب الفتن: باب فتنة الدجال، حديث (٤٠٧٩)، وأحمد (٣/٧٧)، وأبو يعلى (٣٧٧-٣٧٨) رقم (١١٤٤)، وابن حبان (١٩٠٩-موارد)، والحاكم (٤٨٩/٤)، والطبري في «تفسيره» (٨٦/٩) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري.

وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٣/٤)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن مردويه.

(٣) سقط في جـ.

لأنها تحصب به، أي: تُرمى، وإِذَا أَنْ يَكُونُ لُغَةً فِي الْحَطَبِ إِذَا رُمِيَ، وَأَمَّا قَبْلَ أَنْ يَرْمَى فَلَا يُسَمَّى حَصْباً إِلَّا بِتَجَوُّزٍ، وَحَرَقَ الْأَصْنَامَ بِالنَّارِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لِعَابِدِيهَا، وَمِنْ حَيْثُ تَقَعُ «مَا» لِمَنْ يَعْقِلُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ، اعْتَرَضَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ عِيسَى وَغَزِيرًا وَنَحْوَهُمَا قَدْ عُبِدَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا حَصْباً لَجَنَّهُمْ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنِ الْآيَةُ. وَالْوَرُودُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَرُودُ الدَّخُولِ، وَالزَّفِيرُ: صَوْتُ الْمُعَذِّبِ، وَهُوَ كَنَهْقِ الْحَمِيرِ وَشَبَّهَ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الصَّدْرِ.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٠٢) لَا يَخَزْنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَفَّي السَّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) .

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ هذه صفة الذين سبقت لهم الحسنى، وذلك بعد دخولهم الجنة؛ لأنَّ الحديث يقتضي أَنَّ في الموقف تزفر جهنم زفرةً لا يبقى نبيٌّ ولا مَلَكٌ إِلَّا جثا على ركبتيه، قال البخاري^(١): الحسيس والحس: واحد، وهو الصوت الخفي، انتهى. والفرع الأكبر عامٌ في كلِّ هول يكون يوم القيامة، فكأنَّ يوم القيامة بجملته هو الفرع الأكبر.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يريد: بالسلام عليهم والتبشير لهم، أي: هذا يومكم الذي وَعِدْتُمْ فِيهِ الثَّوَابَ وَالنَّعِيمَ، و﴿السَّجِلِ﴾ في قول فرقة: هو الصحيفة التي يُكْتَبُ فِيهَا، والمعنى: كما يطوى السَّجِلُ من أجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إلى المفعول؛ وهكذا قال البخاري^(٢): السجل: الصحيفة، انتهى، وما خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «مِرَاسِيلِهِ» مِنْ أَنَّ السَّجِلَ: اسْمُ رَجُلٍ مِنْ كُتَّابِ النَّبِيِّ ﷺ^(٣). قال السهيلي فيه: هذا غير معروف. انتهى.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٩/٨) كتاب التفسير: باب سورة الانبياء.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٧/٢) كتاب الخراج والفئ والإمارة: باب في اتخاذ الكاتب، حديث (٢٩٣٥)، والنسائي في التفسير (٧٤/٢) رقم (٣٥٥)، والطبري (٩٤/٩) رقم (٢٤٨٤٩)، وابن عدي في «الكامل» (٧/٢٦٦٢)، والبيهقي (١٠/١٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢/١٧٠) رقم (١٢٧٩٠) من حديث ابن عباس. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦١١)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن منده في «المعرفة»، وابن مردويه، وابن عساكر.

وقوله سبحانه: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون خبراً عن البعث، أي كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال كذلك ننشئهم تارة أخرى، فنبعثهم من القبور.

والثاني أن يكون خبراً عن أنَّ كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها ١٢١ إلى الدنيا، ويؤيد هذا قوله ﷺ: «يُخْشَرُ / النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا» ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾^(١).

وقوله: ﴿كما بدأنا﴾ الكاف مُتَعَلِّقَةٌ بقوله: ﴿نعيده﴾، وقالت فرقة: ﴿الزبور﴾ هنا يعم جميع الكتب المُتَزَلَّة؛ لأنه مأخوذ من: زبرت الكتاب إذا كتبته، و﴿الذكر﴾ أراد به اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: ﴿الزبور﴾ هو زبور داود عليه السلام، و﴿الذكر﴾: التوراة.

وقالت فرقة: ﴿الزبور﴾: ما بعد التوراة من الكتب، و﴿الذكر﴾: التوراة.

وقالت فرقة: ﴿الأرض﴾ هنا: أرض الدنيا، أي: كل ما يناله المؤمنون من الأرض، وقالت فرقة: أراد أرض الجنة، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاءً لِقَوْمٍ عَصِيبٍ ۝١٢٦ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٢٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٢٨ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ۝١٢٩ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١٣٠ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فَتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ جِئِ ۝١٣١ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٣٢﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إن في هذا لبلاغاً﴾: الإشارة بـ «هذا» إلى هذ الآيات المتقدمة في قول فرقة.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وانخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ حديث (٣٣٤٩)، وأطرافه في (٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٦٢٦، ٤٧٤٠، ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب فناء الدنيا، حديث (٢٨٦٠/٥٠٨)، والترمذي (٤/ ٦١٥-٦١٦) كتاب صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الحشر، حديث (٢٤٢٣)، والنسائي (٤/ ١١٤) كتاب الجنائز: باب البعث، حديث (٢٠٨٢) من حديث ابن عباس وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقالت فرقة: الإشارة إلى القرآن بجملته، والعبادة تتضمن الإيمان.

وقوله سبحانه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾: قالت فرقة: هو ﷺ رحمة للعالمين عموماً، أمّا للمؤمنين فواضح، وأمّا للكافرين فلا لأن الله تعالى رفع عنهم ما كان يصيب الأمم والقرون السابقة قبلهم من التعجيل بأنواع العذاب المستأصلة؛ كالطوفان وغيره.

وقوله ﴿آذنتكم﴾ معناه: عَرَفْتُكُمْ بنذارتي، وأردت أن تشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله تعالى، وقال البخاري: ﴿آذنتكم﴾: أعلمتكم، فإذا أعلمتهم فأنت وهم على سواء، انتهى، ثم أخبر أنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم، هل هو قريب أم بعيد؟ وهذا أهول وأخوف.

قال *ص*: ﴿وإن أدري﴾ بمعنى: ما أدري، انتهى. والضمير في قوله: ﴿لعله﴾ عائد على الإملاء لهم، و﴿فتنة﴾ معناه: إمتحان وابتلاء، وال ﴿متاع﴾: ما يُسْتَمْتَعُ به مدة الحياة الدنيا، ثم أمره تعالى أن يقول على جهة الدعاء: ﴿رب احكم بالحق﴾ وهذا دعاء فيه توعد، ثم توكل في آخر الآية واستعان بالله تعالى؛ قال الداوودي: وعن قتادة: أن النبي ﷺ كان إذا شهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾^(١). انتهى.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠٢/٩) رقم (٢٤٨٩٧) عن قتادة مرسلاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٥/٤)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

[وهي^(١) مكية]

سوى ثلاث آيات وهي^(٢): ﴿هذان خصمان﴾ إلى تمام ثلاث آيات، هذا قول ابن عباس، ومجاهد^(٣).

وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة: التحريك العنيف، وذلك مع نفخة الفزع، ومع نفخة الصعق؛ حسبما تضمنه حديث أبي هريرة من ثلاث نفخات، والجمهور على أن «زلزلة الساعة» هي كالمعهودة في الدنيا إلا أنها في غاية الشدة، واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: [هي في الدنيا، والضمير في «ترونها» عائد عندهم على الزلزلة، وقوى قولهم أن الرضاع^(٤) والحمل إنما هو في الدنيا، وقالت فرقة: الزلزلة في يوم القيامة، والضمير عندهم عائد على الساعة، والذهول: الغفلة عن الشيء بطرياق ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره؛ قال

(١) سقط في ج.

(٢) في ج: قوله.

(٣) ذكره ابن عطية (٤/١٠٥).

(٤) سقط في ج.

ابن زيد: المعنى: تترك وَلَدَهَا للكرب الذي نزل بها^(١).

/قلت: وَخَرَجَ البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ ٢١ ب عز وجل يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، قِيْلُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، قِيْلُ: أَخْرَجَ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»^(٢) الحديث. انتهى.

وهذا الحديث نَصٌّ صريح في أنه يوم القيامة، وانظر قوله: «يَوْمًا يجعل ولدان شيباً» [المزمّل: ١٧]، وقوله: «وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ» [التكوير: ٤] تجذبه موافقاً للحديث، وجاء في حديث أبي هريرة فيما ذكره علي بن معبد: «أَنَّ نَفْحَةَ الْفَرْعِ تَمْتَدُّ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي النُّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَيُسَبِّحُ اللَّهُ الْجِبَالَ، فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، ثُمَّ تَكُونُ سَرَابًا، ثُمَّ تَزْتَجُّ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًّا، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا، وَيَشِيبُ الْوُلْدَانُ، وَيُولِي النَّاسُ مُدْبِرِينَ، ثُمَّ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا هِيَ كَالْمُهْلِ، ثُمَّ انْشَقَّتْ»، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالْمَوْتَى لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ اسْتَشْنَى اللَّهُ عز وجل حِينَ يَقُولُ: «فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ»؟ قَالَ: أَوْلَئِكَ هُمُ الشُّهَدَاءُ»^(٣). انتهى مختصراً، وهذا الحديث ذكره^(٤) الطبري، والشعلبي، وصححه ابن العربي في «سراج المريدين».

(١) أخرجه الطبري (١٠٨/٩) رقم (٢٤٩١٣)، وذكره ابن عطية (١٠٦/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قصة يأجوج ومأجوج، حديث (٣٣٤٨)، وفي (٢٩٥/٨) كتاب التفسير: باب «وترى الناس سكارى» حديث (٤٧٤١) وفي (٣٩٦/١١) كتاب الرقاق: باب قوله عز وجل: «إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ»، حديث (٦٥٣٠)، وفي (٤٦٢/١٣) كتاب التوحيد، حديث (٧٤٨٣)، ومسلم كتاب الإيمان: باب قوله: يقول الله لأدم: «أخرج بعث النار»، حديث (٣٧٩/٢٢٢)، وأحمد (٣٣٠٣/٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» رقم (٩١٧) والطبري (١٠٦/٩) رقم (٢٤٩٠٧)، والنسائي في «التفسير» (٣٥٩) من حديث أبي سعيد، وذكره السيوطي في «الدور المثور» (٦١٨/٤)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) ذكره السيوطي في «الدور المثور» (٦٣٤/٥) مطولاً، وعزاه إلى عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب «الطاعة والمصيان»، وأبي يعلى، وأبي الحسن القطان في «المطولات»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي موسى المديني كلاهما في «المطولات»، وأبي الشيخ في «المعظمة»، والبيهقي في «البعث والنشور».

(٤) ينظر: «الطبري» (١٠٥/٩).

وقال عبد الحق: بل هو حديث منقطع، لَا يَصِحُّ، والذي عليه المحققون أَنَّ هذه الأحوال هي بعد البعث، قاله صاحب «التذكرة» وغيره، انتهى.

والْحَمْلُ: - بفتح الحاء - ما كان في بطن أو على رأس شجرة.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ تشبيهاً لهم، أي: من الهم، ثم نفى عنهم السُّكْرَ الحقيقي الذي هو من الخمر، قاله الحسن^(١) وغيره، وقرأ حمزة والكسائي: «سكرى» في الموضعين^(٢).

قال سيبويه^(٣): وَقَوْمٌ يَقُولُونَ: سَكْرَى جعلوه مثل مرضى، ثم جعلوا: روى مثل سكرى، وهم المستقلون نوماً من شرب الرائب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَعْرِى عَلَيْهِ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُيِّبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾.

قال ابن جريج: هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خَلَفٍ، وقيل في أبي جهل بن هشام^(٤)، ثم هي بعد تناول كل من اتصف بهذه الصفة، ومجادلتهم في أَنَّ الله تعالى لا يبعث مَنْ يَمُوتُ، والشيطان هنا هو مغربهم من الجن، ويحتمل من الأنس، والمريد: الْمُتَجَرِّدُ من الخير للشرِّ، ومنه الأُمرد، وشجرة مرداء، أي: عارية من الورق، وَصَرَّحَ مُمَرَّدٌ، أي: مملس، والضمير في ﴿عليه﴾ عائد على الشيطان؛ قاله قتادة^(٥)، ويحتمل أَنَّ يعودَ على المجادل، وأنه في موضع رفع على المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله، و«أنَّه» الثانية عطف على الأولى مؤكدة مثلها، وقيل: هي مُكْرَّرَةٌ للتأكيد فقط، وهذا مُعْتَرَضٌ بَأَنَّ الشيء لا يُوَكَّدُ إِلَّا بعد تمامه، وتمام «أَنَّ» الأولى إنما هو بصلتها في قوله:

(١) ذكره ابن عطية (١٠٦/٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٣٤)، و«الحجة» (٢٦٦/٥)، و«إعراب القراءات» (٧٢/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٧٥)، و«شرح الطيبة» (١٣/٥)، و«العنوان» (١٣٤)، و«حجة القراءات» (٤٧٢)، و«شرح شملة» (٥٠٢)، و«إتحاف» (٢٧٠/٢).

(٣) ينظر: «الكتاب» (٢/ ٢١٢-٢١٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٠٩/٩) برقم (٢٤٩١٨)، وذكره ابن عطية (١٠٧/٤)، وابن كثير (٢٠٦/٣)، والسيوطي (٦١٩/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج.

(٥) ذكره ابن عطية (١٠٧/٤)، والسيوطي (٦٢٠/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

﴿السعير﴾ وكذلك لا يُعْطَفُ عليه، وليسبويه في مثل هذا: أنه بدل، وقيل: «أنه» الثانية خبر مبتدأ محذوف تقديره: فشأنه أنه يضلّه.

قال ع^(١): * : ويظهر لي أنّ الضمير في ﴿أنه﴾ الأولى للشيطان، وفي الثانية لمن الذي هو المتولي، وقرأ أبو عمرو^(٢): «فإنّه» بالكسر فيهما.

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِّك أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأَنّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ...﴾ الآية: هذا احتجاج على العالم بالبداة الأولى، وضرب سبحانه وتعالى في هذه الآية مَثَلَيْنِ، إذا اعتبرهما الناظر جَوَزَ في العقل البعثة / من القبور، ثم وَرَدَ الشرعُ بوقوع ذلك.

١٢٢

وقوله: ﴿فإنّا خلقناكم من تراب﴾ يريد آدم عليه السلام.

﴿ثم من نطفة﴾ يريد: المنى، والنطفة: تقع على قليل الماء وكثيره.

﴿ثم من علقه﴾ يريد: من الدم الذي تعود النطفة إليه في الرحم أو المقارن للنطفة، والعلقُ الدَّمُ الغليظ، وقيل: العلق الشديد الحُمْرة.

﴿ثم من مضغة﴾ يريد مضغة لحم على قدر ما يمضغ.

وقوله: ﴿مخلقة﴾ معناه: مُتَمِّمَةٌ، ﴿وغير مخلقة﴾ غير متممة، أي: التي تسقط، قاله مجاهد^(٣) وغيره، فاللفظة بناءً مبالغة من خلق، ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختصّ بخلق - حَسَنَ في جملته تضعيفُ الفعل؛ لأن فيه خلقاً كثيراً.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٠٧/٤)، و«البحر المحيط» (٣٢٦/٦)، وزاد نسبتها إلى الأعمش. وينظر: «الشواذ» ص ٩٦، و«الدر المصون» (١٢٤/٥).

(٣) أخرجه الطبري (١١١/٩) برقم (٢٤٩٢٦) و (٢٤٩٢٧) بنحوه، وذكره البغوي (٢٧٥/٣)، وابن عطية (١٠٨/٤)، وابن كثير (٢٠٦/٣) بنحوه، والسيوطي (٦٢١/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وقوله سبحانه: ﴿لَنَبْلِيَنَّ لَكُمْ﴾ قالت فرقة: معناه أمر البعث، ﴿وَنَقْرُ﴾ أي: ونحن نُقْرِ في الأرحام، والأجل المُسَمَّى مختلف بحسب حين حين، فَتَمَّ مَنْ يَسْقُطُ، وثم مَنْ يَكْمَل أمره ويخرج حَيًّا.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ قد تقدَّم بيانُ هذه المعاني، والرُّدُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ هو حصول الإنسان في زمانة، واختلال العقل والقوة، فهذا مثال واحد يقتضي للمُعْتَبَرِ به أن القادِرَ على هذه المناقل، المُثَقِّنَ لها - قادرٌ على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل، إلى حالها الأولى.

وقوله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ هذا هو المثال الثاني الذي يُعْطَى للمعتبر فيه جوازُ بعث الأجساد؛ وذلك أَنَّ إحياء الأرض بعد موتها بَيِّنٌ؛ فكذلك الأجساد، و﴿هَامِدَةً﴾: معناه: ساكنة دارسة بالية، واهتزاز الأرض: هو حركتها بالنبات وغير ذلك مِمَّا يعترىها بالماء، ﴿وربت﴾: معناه: نشزت وارتفعت؛ ومنه الرُّبُوءُ وهي المكان المرتفع، والزوج: النوع، والبهيج: من البهجة، وهي الحسن؛ قاله قتادة^(١) وغيره.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كل ما تقدم ذكره، وباقي الآية بين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفُهُ. يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠).

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآية، الإشارة بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى القوم الذين تقدَّم ذكرهم، وكرَّرَ هذه الآية؛ على جهة التوبيخ فكأنه يقول: فهذه الأمثال في غاية الوضوح، ومنَّ الناس مع ذلك مَنْ يجادل، و﴿ثاني﴾: حال من الضمير في ﴿يجادل﴾.

(١) أخرجه الطبري (١١٣/٩) برقم (٢٤٩٣٧، ٢٤٩٣٨)، وذكره ابن عطية (١٠٩/٤)، والسيوطي (٦٢٢/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

وقوله: ﴿ثاني عطفه﴾: عبارة عن المُتَكَبِّرِ المُعْرِضِ؛ قاله ابنُ عباس^(١) وغيره؛ وذلك أَنَّ صاحبَ الكبر يردُّ وجهه عَمَّنْ يتكبر عنه، فهو يَرُدُّ وجهه يَصْعُرُ خَدَّهُ، ويولي صَفْحَتَهُ، ويُلوي عُنُقَهُ، وَيُثْبِي عِطْفَهُ، وهذه هي عبارات المفسرين، والعطف: الجانب.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ أي: يقال له ذلك، واختُلِفَ في الوقف على: ﴿يداك﴾ ف قيل: لا يجوز: لأنَّ التقدير: وبأَنَّ الله، أي: أَنَّ هذا هو العدل فيك بجرائيك.

وقيل: يجوز بمعنى: والأمر أَنَّ الله ليس بظلام للعبيد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْذُو اللَّهَ عَن حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنْ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف...﴾ الآية نزلت في أعراب، وقوم لا يقيِنُ لهم؛ كان أحدهم إذا أسلم فاتفق له اتفاقات حَسَنًا: من نمو مال، وولد يُزْرِقُهُ، وغير ذلك - قال: هذا دينٌ جيّدٌ، وتمسك به لهذه المعاني، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، تشاءم به، وارتد؛ كما فعل العُرَنيون، قال هذا المعنى ابن عباس^(٢) وغيره.

وقوله: ﴿على حرف﴾ معناه: على انحرافٍ منه عن العقيدة البيضاء، وقال البخاري^(٣):

﴿على حرف﴾: على شكٍّ، ثم أسند عن ابن عباس ما تقدم من حال الأعراب، / انتهى. ب ٢٢

وقوله: ﴿يدعوا من دون الله ما لا ينصره﴾ يريد الأوثان، ومعنى ﴿يدعوا﴾: يعبد، ويدعو أيضاً في مُلِمَاتِهِ، واللام في قوله: ﴿لمن ضره﴾: لام مُؤَدِّة بمجيء القسم، والثانية في ﴿لَيْسَ﴾: لام القسم، و﴿العشير﴾: القريب المُعَايِرُ في الأمور.

(١) أخرجه الطبري (١١٤/٩) برقم (٢٤٩٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (١٠٩/٤)، والسيوطي (٦٢٣/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١١٥/٩) رقم (٢٤٩٤٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (١١٠/٤)، وابن كثير (٢٠٩/٣) بنحوه، والسيوطي (٦٢٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٦/٨) كتاب التفسير باب ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾.

ت وفي الحديث في شأن النساء: «وَيَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ» يعني الزوج.

قال أبو عمر بن عبد البر^(١): قال أهل اللغة: العشيرة: الخليفة من المعاشرة والمخالطة، ومنه قوله عز وجل: «لَبَسَ الْمُؤْمِنُ الْعَشِيرَ» انتهى من «التمهيد»، والذي يظهر: أنَّ المراد بالمؤمِن والعشيرة هو الوثن الذي ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نفعه، وهو قول مجاهد^(٢)، ثم عَقَّبَ سبحانه بذكر حالة أهل الإيمان وذكر ما وعدهم به فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...» الآية، ثم أَخَذَتِ الْآيَةُ فِي تَوْبِيخِ أَوْلَئِكَ الْأَوَّلِينَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ الْعَابِدُونَ عَلَى حَرْفٍ صَحَبَهُمُ الْقَلْقُ، وَظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَنْصُرَ مُحَمَّدًا وَأَتْبَاعَهُ، وَنَحْنُ إِنَّمَا أَمْرُنَا بِالصَّبْرِ وَانْتِظَارِ وَعْدِنَا، فَمَنْ ظَنَّ غَيْرَ ذَلِكَ فَلْيَمْدِدْ بِسَبَبٍ، وَهُوَ الْحَبْلُ وَلِيَخْتَنِقَ هَلْ يَذْهَبُ بِذَلِكَ غِيْظُهُ؟ قَالَ هَذَا الْمَعْنَى قَتَادَةُ^(٣)، وَهَذَا عَلَى جِهَةِ الْمَثَلِ السَّائِرِ فِي قَوْلِهِمْ: «دُونَكَ الْحَبْلُ فَاخْتَنِقْ»، وَ«السَّمَاءُ» عَلَى هَذَا الْقَوْلِ: الْهَوَاءُ عُلُوًّا، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ سَقْفًا أَوْ شَجَرَةً، وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «بِسَبَبٍ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ»^(٤)، انْتَهَى، وَالْجَمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْقَطْعَ هُنَا هُوَ الْاِخْتِنَاقُ.

قال الخليل: وقطع الرجل: إذا اختنق بحبل ونحوه، ثم ذكر الآية، ويحتمل المعنى مَنْ ظَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يَنْصُرُ فَلْيَمْتِ كَمَدًّا؛ هُوَ مَنْصُورٌ لَا مُحَالَةً، فَلْيَخْتَنِقْ هَذَا الظَّنَّ غِيْظًا وَكَمَدًا، وَيُؤَيِّدُ هَذَا: أَنَّ الطَّبْرِيَّ وَالنَّفَاشَ قَالَا: وَيُقَالُ: نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَغَطَفَانٍ، قَالُوا: نَخَافُ أَلَّا يُنْصَرَ مُحَمَّدٌ؛ فَيَنْقَطِعُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَلَفَائِنَا مِنْ يَهُودٍ مِنَ الْمَنَافِعِ^(٥)، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ الَّذِي قِيلَ لِلْعَابِدِينَ عَلَى حَرْفٍ - لَيْسَ بِهِذَا؛ وَلَكِنَّهُ بِمَعْنَى: مَنْ قَلِقَ وَاسْتَبْطَأَ النَّصْرَ، وَظَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يُنْصَرُ فَلْيَخْتَنِقْ سَفَاهَةً؛ إِذْ تَعَدَّى الْأَمْرُ الَّذِي حَدَّ لَهُ فِي الصَّبْرِ وَانْتِظَارِ صَنِيعِ اللَّهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الضَّمِيرُ فِي «يَنْصُرُهُ» عَائِدٌ عَلَى «مَنْ» وَالْمَعْنَى: مَنْ كَانَ مِنَ الْمُتَقَلِّقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٦)، وَمَا فِي قَوْلِهِ: «مَا يَغِيْظُ» بِمَعْنَى الَّذِي، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مُصَدْرِيَّةً حَرْفًا؛ فَلَا عَائِدَ عَلَيْهَا، وَأَبَيَّنَ الْوَجْهَ فِي الْآيَةِ: التَّأْوِيلَ الْأَوَّلَ وَبَاقِيَ الْآيَةِ بَيَّنَّ.

وقوله: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»، أَي: سَاجِدُونَ مَرَحُومُونَ بِسُجُودِهِمْ، وَقَوْلُهُ: «وَكَثِيرٌ

(١) ينظر «التمهيد» (٣/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (١١٨/٩) برقم (٢٤٩٥٨)، وذكره ابن عطية (١١١/٤)، وذكره ابن كثير (٢١٠/٣).

(٣) أخرجه الطبري (١١٨/٩) برقم (٢٤٩٥٩، ٢٤٩٦٠) نحوه، وذكره ابن عطية (١١١/٤)، وابن كثير (٢١٠/٣) نحوه، والسيوطي (٦٢٣/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (١١٩/٩) برقم (٢٤٩٦٦)، وذكره ابن كثير (٢١٠/٣) نحوه، وذكره السيوطي (٤/ ٦٢٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) ذكره ابن عطية (١١١/٤).

(٦) ذكره البغوي (٣/ ٢٧٨)، وابن عطية (٤/ ١١١، ١١٢).

حق عليه العذاب ﴿مُعَادِلٌ لَهُ﴾، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَمَنْ يَهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾ الآية.

﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِمَّنْ تَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمَا...﴾ الآية، نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر، وهم ستة نفر: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث (رضي الله عنهم) برزوا لعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وشيبة بن ربيعة، قال علي بن أبي طالب: أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الله تعالى، وأقسم أبو ذر^(١) على هذا القول ووقع في «صحيح البخاري» (رحمه الله تعالى): أَنَّ الآيةَ فِيهِمْ، وقال ابن عباس: الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب^(٢)؛ وذلك أَنَّهُ وقعَ بينهم تخاصم، فقالت اليهود: نحن أقدم ديناً منكم، ونحو هذا؛ فنزلت الآية، وقال مجاهد وجماعة^(٣): الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم.

قال *ع^(٤): * وهذا قول تَعْصُدُهُ الآية؛ وذلك أَنَّهُ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: ﴿وكثير من الناس﴾ المعنى: هم مؤمنون ساجدون، ثم قال تعالى: ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ / ، ثم أشار ١٢٣ إلى هذين الصنفين بقوله: ﴿هذان خصمان﴾ والمعنى: أن الإيمان وأهله، والكفر وأهله - خصمان مذ كانا إلى يوم القيامة بالعداوة والجدال والحرب، وخصم مصدر يُوصَفُ به الواحد والجمع، ويدلُّ على أَنَّهُ أراد الجمع قوله: ﴿اِخْتَصِمُوا﴾؛ فإنه قراءة الجمهور^(٥) وقرأ ابن أبي عتبة: «اِخْتَصَمَا».

-
- (١) أخرجه البخاري (٢٩٧/٨) كتاب «التفسير»: باب ﴿هذان خصمان﴾ حديث (٤٧٤٣) و«مسلم» (٤/٢٣٢٣) كتاب «التفسير»: باب قوله تعالى: ﴿هذان خصمان﴾ حديث (٣٠٣٣/٣٤).
 (٢) أخرجه الطبري (١٢٤/٩) برقم (٢٤٩٨٤)، وذكره البغوي (٢٨٠/٣)، وابن عطية (١١٣/٤)، وابن كثير (٢١٢/٣)، والسيوطي (٦٢٨/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس.
 (٣) أخرجه الطبري (١٢٤/٩) برقم (٢٤٩٨٥)، وذكره البغوي (٢٨٠/٣)، وابن عطية (١١٤/٤)، وابن كثير (٢١٢/٣)، والسيوطي (٦٢٨/٤)، وعزاه لابن جرير عن مجاهد، وعطاء بن أبي رباح والحسن.
 (٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٤).
 (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٤).
 (٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٤/٤)، و«البحر المحيط» (٣٣٤/٦)، و«الدر المنصور» (١٣٤/٥).

جرى معها من ذكر الله وتسبيحه، وتقديسه، وسائر كلام أهل الجنة من محاورة وحديث طيب؛ فإنها لا تسمع فيها لاغية، و﴿صراط الحميد﴾ هو طريق الله الذي دعا عباده إليه، ويحتمل أن يريد بالحميد نفس الطريق، فأضاف إليه على حد إضافته في قوله: ﴿دار الآخرة﴾، وقال البخاري^(١): ﴿وهدوا إلى الطيب﴾: أي: ألهموا إلى قراءة القرآن، ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾: أي: إلى الإسلام، انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظْلَمِ نُفُوقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْمَعُوا أَلْيَسَ الْفَقِيرُ ٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَبْطَرُوا بِالْبَيْتِ الْعَمِيقِ ٢٩﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه الآية نزلت عام الحُدَيْبِيَّةِ حينُ صُدَّ النبي ﷺ وجاء ﴿يصدون﴾ مستقبلاً؛ إذ هو فعل يُدِيمُونَهُ، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف مُقَدَّرٌ عند قوله: و﴿الباد﴾: تقديره: خسروا أو هلكوا. و﴿العاكف﴾: المقيم في البلد، و﴿البادي﴾: القادم عليه من غيره.

وقوله: ﴿بِالْحَادِ﴾ قال أبو عبيدة^(٢): الباء فيه زائدة.

* قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: وجعل الباء زائدة لا يُحْتَاجُ إليه في سبيل العربية؛ لأنَّ حَمَلَ المعنى على القول أولى من حمله على الحروف، فيقال: المعنى ومن يَهْمُ فيه بميل، لأنَّ الإلحاح هو الميل في اللغة، إلاَّ أنَّه قد صار في عُرْفِ الشرع ميلاً مذموماً، فرفع الله الإشكال، وبيَّن سبحانه أنَّ الميل بالظلم هو المراد هنا، انتهى.

/ قال *ع^(٤): * والإلحاد الميل وهو يشمل جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، ٢٣ ب فلعظم حرمة المكان توعده الله تعالى على نية السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها - لم

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٢/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة الحج.

(٢) ينظر: «معجاز القرآن» (٤٨/٢).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٧٦/٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٦/٤).

يُحَاسَبُ بِذَلِكَ إِلَّا فِي مَكَّةَ. هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة^(١) وغيرهم.

قال *ص*: وقوله: ﴿أَنْ لَا تَشْرِكَ﴾: أَنْ: مفسرة لقول مُقَدِّرٍ، أي: قائلين له، أو موحيين له: لا تشرك، وفي التقدير الأول نَظَرٌ فانظره، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ...﴾ الآية: تطهير البيت عام في الكُفَرِ، والبِدْعِ، وجميع الأتْجَاسِ، والدماءِ، وغير ذلك، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾: هم المصلون، وَخَصَّ سُبْحَانَهُ بالذكر من أركان الصلاة أعظَمَها، وهو القيامُ والركوعُ والسجودُ، وَرُوي: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عليه [الصلاة]^(٢) والسلام - لَمَّا أُمِرَ بِالْأَذَانِ بِالْحَجِّ - قال: يا رب، وَإِذَا أَذُنْتُ، فَمَنْ يَسْمَعُنِي؟ فَقِيلَ لَهُ: نَادِ يَا إِبْرَاهِيمُ، فَعَلَيْكَ النِّدَاءُ وَعَلَيْنَا الْبَلَاغُ؛ فَصَعِدَ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ^(٣)، وَقِيلَ: عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، وَنَادَى: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَكَم بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ؛ فَحُجُّوا، فَرُوي أَنَّ يَوْمَ نَادَى أَسْمَعَ كُلَّ مَنْ يَحْجُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَجَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: مِنْ جَمَادٍ، وَغَيْرِهِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ؛ فَجَرَتْ التَّلْبِيَةُ عَلَى ذَلِكَ». قاله ابن عباس، وابن جبير^(٤)، و﴿رَجَالًا﴾: جمع رَجُلٍ، وَالْ «ضَامِرُ»: قالت فرقة: أراد بها الناقة؛ وذلك أنه يقال: ناقة ضامرٌ، وقالت فرقة: لفظ «ضامر» يشمل كُلَّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ جَمَلٍ، أَوْ نَاقَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قال *ع*^(٥): وهذا هو الأظهر، وفي تقديم ﴿رَجَالًا﴾ تفضيل للمُشَاةِ فِي الْحَجِّ؛ وَإِلَيْهِ نَحْنُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٦).

قال ابن العربي في «أحكامه»^(٧): قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ رَدُّ الضَّمِيرِ إِلَى الْإِبِلِ؛ تَكْرِمَةً لَهَا لِقَصْدِهَا الْحَجَّ مَعَ أَرْبَابِهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]. فِي خَيْلِ الْجِهَادِ؛ تَكْرِمَةً لَهَا حِينَ سَعَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، انْتَهَى. وَالْفُجْ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعَةُ، وَالْعَمِيقُ:

- (١) ذكره ابن عطية (١١٦/٤) والسيوطي (٦٣٣/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبراني عن ابن مسعود.
- (٢) سقط في ج.
- (٣) جبل مشرف على مكة ينظر: «المراصد» (١٠٦٦/٣).
- (٤) أخرجه الطبري (١٣٤/٩) برقم (٢٥٠٣٩، ٢٥٠٤٠، ٢٥٠٤١) عن ابن عباس، وبرقم (٢٥٠٤٣) عن سعيد بن جبير، وذكره ابن عطية (١١٨/٤)، والسيوطي (٦٣٨/٤)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لابن جرير عن سعيد بن جبير.
- (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١١٨/٤).
- (٦) أخرجه الطبري (١٣٥/٩، ١٣٦) برقم (٢٥٠٥٢)، وذكره ابن عطية (١١٨/٤)، وابن كثير (٢١٦/٣)، والسيوطي (١٣٩/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس.
- (٧) ينظر: «أحكام القرآن» (١٢٧٩/٣).

معناه: البعيد؛ قال الشاعر [الطويل]:

إِذَا الْخَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ يَمُدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاحِبٍ^(١)
وال ﴿منافع﴾ في هذه الآية التجارة في قول أكثر المتأولين، ابن عباس^(٢) وغيره،
وقال أبو جعفر محمد بن علي: أراد الأجر ومنافع الآخرة^(٣)، وقال مجاهد بعموم
الوجهين^(٤).

ت: وأظهرها عندي قول أبي جعفر؛ يظهر ذلك من مقصد الآية، والله أعلم.

وقال ابن العربي: الصحيح: القول بالعموم، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ﴾ ذهب قوم إلى: أن المراد ذكر اسم الله على التَّخْرِ والذَّبْح، وقالوا: إِنَّ فِي ذِكْرِ
الْأَيَّامِ دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ الذَّبْحَ فِي اللَّيْلِ لَا يَجُوزُ، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي.

وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه: الأيام المعلومات: يومُ النحر ويومان بعده.

وقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ ندب، واستحب أهل العلم أن يأكل الإنسان مِنْ هَذِيهِ وَأَضْحِيَّتِهِ،
وَأَنْ يَتَصَدَّقَ بِالْأَكْثَرِ، والبائس: الذي قد مَسَّهُ ضَرْبُ الْفَاقَةِ وَبُؤْسُهَا، والمراد أهل الحاجة،
والتفت: ما يصنعه الْمُخْرِمُ عند جِلِّهِ من تقصير شعر وحلقه، وإزالة شعث ونحوه،
﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: وهو ما معهم من هدي وغيره، ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: يعني:
طواف الإفاضة الذي هو من واجبات^(٥) الحج.

(١) لم أقف على قائله، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع في الجبل، والعميق البعيد سفلاً، وهو
محل الشاهد، والأشعث المتلبد شعره المتغير، والشاحب المتغير من هزال.

ينظر: «البحر المحيط» (٢/٦)، و«الدر المصون» (١٤٤/٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٦/٩) برقم (٢٥٠٦٣)، وذكره البغوي (٢٨٤/٣)، وابن عطية (١١٨/٤)، وابن
كثير (٢١٦/٣)، والسيوطي (٦٤٠/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن
عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٧/٩) برقم (٢٥٠٧٤) بلفظ العفو، وذكره ابن عطية (١١٨/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٣٧/٩) برقم (٢٥٠٧٢)، وذكره البغوي (٢٨٤/٣)، وابن عطية (١١٨/٤)، وابن
كثير (٢١٦/٣)، والسيوطي (٦٤٠/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن مجاهد.

(٥) من أركان الحج الطواف بالبيت، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، والمراد به: طواف الإفاضة،
لانعقاد الإجماع على ذلك، ولهذا الطواف أسماء غير ذلك منها طواف الزيارة، وطواف الفرض، وقد
يسمى طواف الصَّدَر بفتح الدال: والأشهر أن طواف الصدر هو طواف الوداع.

قال الطبري / : ولا خلاف بين المتأولين في ذلك.

قال مالك: هو واجب، ويرجع تاركه من وطنه إلا أن يطوف طواف الوداع؛ فإنه يجزيه عنه، ويحتمل أن تكون الإشارة بالآية إلى طواف الوداع، وقد أسند^(١) الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلِيُطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طواف الوداع؛ وقاله مالك في «الموطأ»، واختلف في وجه وصف البيت بالعتيق، فقال مجاهد^(٢) وغيره: عتيق، أي: قديم.

وقال ابن الزبير^(٣): لأن الله تعالى أعتقه من الجبابة.

وقيل: أعتقه من غرق الطوفان، وقيل غير هذا.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآتَمَةُ إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ فَأَحْذَرُوا الْيَتَمَ مِنَ الْأَوْتَنِ وَأَحْذَرُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾﴾.

وقوله: ﴿ذلك﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير: فرضكم ذلك، أو الواجب ذلك، ويحتمل أن يكون في محل نصب بتقدير: امثلوا ذلك ونحو هذا الإضمار، وأحسن الأشياء مضمراً أحسنها مظهراً؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير: [البسيط]

هَذَا، وَلَيْسَ كَمَنْ يَغْيَا بِخُطْبَتِهِ وَسَطَ السَّيِّ إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقًا^(٤)

والحُرُمَاتُ المقصودة هنا هي أفعال الحج.

= ومحل طواف الإفاضة بعد الخروج من عرفة ولهذا سمي طواف الإفاضة. ويدخل وقته بنصف ليلة النحر لمن وقف قبله قياساً على رمي جمرة العقبة. ولا آخر لوقته إذ الأصل عدم التأقيت إلا إذا دل دليل على ذلك ولا دليل ثمة. ويسن تأخيرها إلى بعد طلوع الشمس للاتباع، ويكره تأخيرها عن يوم النحر وفي تأخيرها عن أيام التشريق كراهة شديدة وعن خروجه من مكة كراهة أشد.

(١) أخرجه الطبري (١٤٢/٩) برقم (٢٥١٢٣)، وذكره ابن عطية (١١٩/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (١١٩/٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤/٥) كتاب «التفسير» باب ومن سورة الحج حديث (٣١٧٠)، والحاكم (٣٨٩/٢) من حديث عبد الله بن الزبير وقال الترمذي: حسن صحيح وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) البيت في ديوانه (٤٢)، و «البحر» (٣٣٩/٦)، و «الدر المصون» (١٤٥/٥).

والندي: القوم المجتمعون ومنه النادي، والشاهد في قوله «هذا» حيث أشير باسم الإشارة إلى ما سبق من وصف الهرم.

وقال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: الحرمان: امتثال ما أمر الله تعالى به، واجتناب ما نهى عنه؛ فإنَّ للقسم الأول حرمة المبادرة إلى الامتثال، وللثاني حرمة الانكفاف والانتزاج^(٢). انتهى.

وقوله: ﴿فهو خير﴾ ظاهر أنها ليست للتفضيل، وإنما هي عِدَّةٌ بخير، ويحتمل أن يجعل ﴿خير﴾ للتفضيل على تجوز في هذا الموضع.

ص: ﴿فهو خير له﴾ أي: فالتعظيم خير له، [انتهى]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ يحتمل معنيين.

أحدهما: أن تكون «من» لبيان الجنس أي: الرجس الذي هو الأوثان؛ فيقع النهي عن رجس الأوثان فقط، وتبقى سائر الأرجاس نَهْيًا في غير هذا الموضع.

والمعنى الثاني: أن تكون «من» لابتداء الغاية فكأنه نهاهم سبحانه عن الرجس عموماً، ثم عَيَّنَ لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان فيكون هذا مما يَتَلَى عليهم، والمَرْوِيُّ عن ابن عباس وابن جريج: أن الآية نَهْيٌ عن عبادة الأوثان^(٤)، و﴿الزور﴾ عامٌ في الكَذِبِ والكفر؛ وذلك أن كُلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل.

وقال ابن مسعود وغيره: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ بِالشُّرْكِ»^(٥)،

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٢٨٤).

(٢) في ج: الازتجار.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٤/٩) برقم (٢٥١٢٩) عن ابن عباس، وبرقم (٢٥١٣٠) عن ابن جريج، وذكره ابن عطية (١٢٠/٤)، والسيوطي (٦٤٦/٤)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٢٩/٢) كتاب الأقضية: باب في شهادة الزور حديث (٣٥٩٩) والترمذي (٥٤٧/٤) كتاب الشهادات: باب ما جاء في شهادة الزور حديث (٢٣٠٠) وابن ماجه (٧٩٤/٢) كتاب الأحكام: باب شهادة الزور حديث (٢٣٧٢) وأحمد (٣٢١/٤، ٣٢٢) والطبراني (٢٠٩/٤) رقم (٤١٦٢) والبيهقي (١٢١/١) كلهم من طريق حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك الأسدي به وقال الترمذي: خريم بن فاتك له صحبة وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث وهو مشهور أ.هـ.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦٤٦/٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».

وأخرجه الترمذي (٥٤٧/٤) كتاب الشهادات: باب ما جاء في شهادة الزور حديث (٢٢٩٩) من طريق سفيان بن زياد الأسدي عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث =

وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ «وَالزُّورُ: مُشْتَقٌّ مِنَ الزُّورِ، وَهُوَ الْمِيلُ^(١)، وَمِنْهُ فِي جَانِبِ فُلَانٍ زُورٌ،

= غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد ولا يعرف لأيمن بن خريم سمعاً من النبي ﷺ وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد. وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤٤/٩) رقم (٢٥١٣٤) عن عبد الله بن مسعود موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٦/٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والخرائطي في «مكارم الأخلاق».

(١) الزور: الكذب، والتزوير: تزيين الكذب، وزور الشيء حسنه، وقومه، والزور مأخوذ من زور يزور، بمعنى مال، وانحرف، فالشاهد الذي يشهد بخبر كاذب يسمى شاهد زور، لأنه مائل عن الحق، منحرف عن الصدق.

وشهادة الزور من أكبر الكبائر، وقد قرن الله (تعالى) بينها وبين الشرك، فقال تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾.

وعن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟! قلنا: بلى يا رسول الله، قال «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً، فجلس وقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» حتى قلنا: ليته سكت.

واختلف أهل العلم في كيفية ثبوت شهادة الزور، فقال الحنفية إن شاهد الزور لا يثبت كونه شاهد زور، إلا إذا أقر على نفسه، ولم يدع سهواً، أو غلطاً.

واعترض على هذا صدر الشريعة، بأنه قد يعلم بدونه، كما إذا شهد بموت زيد، أو بأن فلاناً قتله، ثم ظهر زيد حياً، أو برؤية الهلال، فمضى ثلاثون يوماً، وليس في السماء علة، ولم ير الهلال. وإنما لا تثبت شهادة الزور بالبينة، لأنها ستكون بينة على النفي، والبينة حجة للإثبات دون النفي.

وفي «المهذب» للشافعية: ويثبت أنه شاهد زور من ثلاثة أوجه: أحدها: أن يقر أنه شاهد زور. الثاني: أن تقوم البينة على أنه شاهد زور.

الثالث: أن يشهد بما يقطع بكذبه، بأن شهد على رجل أنه قتل، أو زنى في وقت معين في موضع معين، والمشهود عليه في ذلك الوقت كان في بلد آخر.

وأما إذا شهد بشيء أخطأ فيه، لم يكن شاهد زور، لأنه لم يقصد الكذب.

وإن شهد لرجل بشيء، وشهد به آخر أنه لغيره، لم يكن شاهد زور، لأنه ليس تكذيب أحدهما بأولى من تكذيب الآخر، فلم يقدح ذلك في عدالته.

وكذلك اختلفوا في عقوبة شاهد الزور، فقال أبو حنيفة (رضي الله تعالى عنه): شاهد الزور يعزر بتشهيره على الملأ في الأسواق ليس غير.

وقال الصاحبان: نوجهه ضرباً ونحبسه، وذكر شمس الأئمة السرخسي (رحمه الله تعالى) أنه يشهر عندهما أيضاً، والتعزير والحبس على قدر ما يراه القاضي.

وقال بهذه الرواية مالك، والشافعي، والأوزاعي، وابن أبي ليلى.

لهما ما روي عن عمر (رضي الله تعالى عنه) أنه ضرب شاهد الزور أربعين سوطاً وسخم وجهه، ولا يقال: الاستدلال بهذا غير مستقيم على مذهبهما، لأنهما لا يريان التسخيم، لأنه يحمل التسخيم على أنه كان سياسة.

ويظهر أنَّ الإشارة إلى زور أقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شرعوا في الأنعام، و﴿حنفاء﴾ معناه مستقيمين أو مائلين إلى الحق، بحسب أن لفظة الحنف من الأضداد، تَقَعُ على الاستقامة، وتقع على الميل، والسحق: البعيد.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلَاهَا إِلَى الْبَيْتِ الْقَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْهُ يُهَيِّمُوا الْأَتْمَارَ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَيَشِرَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ التقدير في هذا الموضع: الأمر ذلك، و﴿الشعائر﴾ جمع شعيرة وهي كُلُّ شيءٍ لله عز وجل فيه أمر أشعر به وأعلم.

قال الشيخ ابن أبي جمرة: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ قال:

= واستدل أبو حنيفة. بأن شريحاً كان يشهر، ولا يضرب، وما روي عن عمر من أنه ضرب شاهد الزور أربعين سوطاً وسخم وجهه، فمحمول على السياسة، بدلالة التبليغ إلى الأربعين، والتسخيم. والتشهير منقول عن شريح (رحمه الله تعالى)، فإنه كان يبعثه إلى سوقه إن كان سوقياً، وإلى قومه إن كان غير سوقى بعد العصر أجمع ما كانوا، ويقول إن شريحاً يقرئكم السلام، ويقول: إنا وجدنا هذا شاهد زور، فاحذروه، وحذروا الناس منه.

واختلف القائلون بجواز الضرب، والحبس: فقال ابن أبي ليلى: يجلد خمسة وسبعين سوطاً، وهذه رواية عن أبي يوسف، وفي رواية أخرى عنه: يجلد تسعة وسبعين سوطاً.

وقال الشافعي: لا يزيد على تسعة وثلاثين.

وقال أحمد: لا يزداد على عشر جلدات.

وقال الأوزاعي في شاهدي الطلاق: يجلدان مائة مائة، ويغرمان الصداق.

وقال صاحب «الفتح»: اعلم أنه قد قيل: إن المسألة على ثلاثة أوجه: أن يرجع على سبيل الإصرار، مثل أن يقول لهم: شهدت في هذه بالزور، ولا أرجع عن مثل ذلك، فإنه يعزr بالضرب بالاتفاق، وإن رجع على سبيل التوبة لا يعزr اتفاقاً، وإن كان لا يعرف حاله، فعلى الإختلاف المذكور.

واختلفوا في قبول شهادته بعد توبته، فذهب الحنفية إلى أنه إذا تاب شاهد الزور، وأنت على ذلك مدة، قيل سنة، وقيل ستة أشهر، والصحيح أنها مفوضة لرأي القاضي.

فإن كان فاسقاً تقبل شهادته، لأن الحامل له على الزور فسقه، وقد زال بالتوبة.

وإن كان مستوراً لا يقبل أصلاً، وكذا إذا كان عدلاً، على رواية بشر عن أبي يوسف، لأن الحامل له على ذلك غير معلوم، فكان الحال قبل التوبة وبعدها سواء، وروى أبو جعفر أنها تقبل، قالوا: وعليه الفتوى.

وقال الشافعي، وأبو ثور، وأحمد: تقبل شهادته إذا أتت على ذلك مدة تظهر فيها توبته، ويتبين فيها صدقه، وعدالته..

وقال مالك: لا تقبل شهادته أبداً، لأنه لا يؤمن على قول الصدق.

تعظيم شعائر الله، - كان من البقع أو من البشر أو ممن شاء الله تعالى - زيادة في الإيمان وقوة في اليقين. انتهى.

وقال العراقي في أرجوزته: [الرجز]

أَعْلَامٌ طَاعَةٌ هِيَ الشَّعَائِرُ

٢٤ ب / البيت .

وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهدي والأنعام المشعرة، ومعنى تعظيمها التسمين والاهتبال بأمرها، قاله ابن عباس^(١) وغيره، ثم اختلف المتأولون في قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ...﴾ الآية: فقال مجاهد وقتادة: أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف، واللبن، والذبح للأكل، وغير ذلك ما لم يبعثها ربها هدياً، فإذا بعثها فهو الأجل المسمى^(٢)، وقال عطاء: أراد لكم في الهدي المبعوث منافع، من الركوب، والاحتلاب لمن اضطر، والأجل نحرها^(٣)، وتكون «ثم» من قوله: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ لترتيب الجمل؛ لأنَّ المحلَّ قبل الأجل، ومعنى الكلام عند هذين الفريقين: ثم محلها إلى موضع النحر، وذكر البيت؛ لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدي وغيره.

وقال ابن زيد، والحسن، وابن عمر، ومالك: الشعائر في هذه الآية: مواضع الحج كلها، ومعالمه بمنى، وعرفة، والمزدلفة، والصفاء والمروة، والبيت وغير ذلك^(٤)، وفي الآية التي تأتي أن البدن من الشعائر، والمنافع: التجارة وطلب الرزق أو الأجر والمغفرة، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة، ومحلها مأخوذ من إحلال المحرم، والمعنى: ثم آخروا هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه، قاله مالك في «الموطأ».

(١) أخرجه الطبري (١٤٦/٩) برقم (٢٥١٤٢)، وذكره البغوي (٢٨٦/٣)، وابن عطية (١٢١/٤)، وابن كثير (٢١٩/٣)، والسيوطي (٦٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٤٨/٩) برقم (٢٥١٥٦) عن مجاهد، وعن قتادة برقم (٢٥١٦٠)، وذكره البغوي (٣/٢٨٧)، وابن عطية (١٢١/٤)، والسيوطي (٦٤٧/٤)، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (١٤٨/٩) برقم (٢٥١٦٢)، وذكره البغوي (٣/٢٨٧)، وابن عطية (١٢١/٤)، والسيوطي (٦٤٧/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك وعطاء.

(٤) أخرجه الطبري (١٤٦/٩) برقم (٢٥١٤٨) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية (١٢١/٤).

ت* وأظهر هذه التأويلات عندي تأويلُ عطاءٍ، وفي الثالث بعضُ تكلفٍ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمةٍ من الأمم المؤمنة منسكاً، أي: موضعُ سُكٍّ وعبادة، هذا على أنَّ المنسك ظرف، ويحتملُ أنَّ يريد به المصدر كأنه قال: عبادة، والناسك العابد.

وقال مجاهد^(١): سُنَّةٌ في هراقة دماء الذبائح.

وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، وأن يكون الذبح له؛ لأنَّه رازق ذلك، وقوله: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي: آمنوا، ويحتملُ أنَّ يريد استسلموا، ثم أمر سبحانه نبيّه ﷺ أَنْ يُبَشِّرَ بشارَةً على الإطلاق، وهي أبلغ من المفسرة؛ لأنها مُرْسَلَةٌ مع نهاية التخيل للمختبين المتواضعين الخاشعين المؤمنين، والخبت ما انخفض من الأرض، والمُخْبِتُ المتواضع الذي مَشِيَتْهُ متطامن كأنه في حدودٍ من الأرض، وقال عمرو بن أوس^(٢): المختبون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

قال ع*^(٣): وهذا مثال شريف من خُلِقِ المؤمن الهَيِّنُ اللَّيِّنُ، وقال مجاهد: هم المطمئنون بأمر الله تعالى، ووصفهم سبحانه بالخوف والوجل عند ذكر الله تعالى، وذلك لِقُوَّةِ يقينهم ومراقبتهم لربهم، وكأنهم بين يديه جلَّ وعلا، وَوَصَفَهُم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها، وَرَوَى: أَنَّ هذه الآية قوله: ﴿وبشر المختبين﴾ نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَاقَهُ وَالْمَعَرَّةَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البدن: جمع بدنة، وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة؛ قاله عطاء وغيره^(٤)، وَسُمِّيَتْ بذلك؛ لأنها تبدن، أي: تسمن.

(١) أخرجه الطبري (١٥٠/٩) برقم (٢٥١٧١)، وذكره ابن عطية (١٢١/٤) والسيوطي (٦٤٨/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (١٥١/٩) برقم (٢٥١٧٧)، وذكره ابن عطية (١٢٢/٤)، وابن كثير (٢٢١/٣)، والسيوطي (٦٤٩/٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا في «فم الغضب»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عمرو بن أوس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٥٢/٩) برقم (٢٥١٨٠)، وذكره ابن عطية (١٢٢/٤)، وابن كثير (٢٢١/٣).

وقيل: بل هذا الاسم خاصٌّ بالإبل، والخير هنا قيل فيه ما قيل في المنافع التي تقدّم ذكرها، والصوابُ عُمومُه في خير الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿عليها﴾ يريد عند نحرها، و﴿صوافٌ﴾، أي: مُصَطَفَةٌ، وقرأ ابن مسعود^(١)، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم: «صَوَافِنَ» جمع صَافِنَةٍ، وهي التي رُفِعَتْ إحدى يديها بالعقل؛ لئلاً تضطرب، ومنه في الخيل ﴿الشافنات الجياد﴾ [ص: ٣١]، و«وجبت» معناه: سقطت.

١٢٦ وقوله: ﴿فكلوا منها﴾: / نَذَبٌ، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجرٌ وامتثالٌ؛ إذ كان أهل الجاهليّة لا يأكلون من هديهم، وتحرير القول في ﴿القانع﴾: أنّه السائل و﴿المعتزُّ﴾ المُتَعَرِّضُ من غير سؤال؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما^(٢)، وعكست فرقة هذا القول، فحكى الطبري^(٣) عن ابن عباس أنّه قال: الْقَانِعُ: الْمُسْتَغْنَى^(٤) بما أعطيته، والمعتزُّ: هو المتعرض^(٥)، وحكي عنه أنّه قال: الْقَانِعُ: الْمُتَعَفِّفُ، والمُتَعَرِّضُ: السائل^(٦).

قال *ع^(٧): يُقَالُ: قَنَعَ الرَّجُلُ - بفتح النون - يَفْتَحُ قُنُوعاً فهو قَانِعٌ إذا سأل؛ فالقانع: هو السائل بفتح النون في الماضي، وقَنِعَ - بكسر النون - يَفْتَحُ قَنَاعَةً فهو قَنِيعٌ إذا تَعَفَّفَ واستغنى ببلغته؛ قاله الخليل بن أحمد.

-
- (١) وقرأ بها النخعي، وأبو جعفر محمد بن علي، والأعمش.
ينظر: «الشواذ» (٩٧، ٩٨)، و«المحتسب» (٨١/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٢٢/٤)، و«البحر المحيط» (٣٤٢/٦)، و«الدر المصون» (١٥٠/٥).
- (٢) أخرجه الطبري (١٥٧/٩، ١٥٨) برقم (٢٥٢٣١، ٢٥٢٣٢، ٢٥٢٣٣، ٢٥٢٣٦، ٢٥٢٣٧) عن الحسن، وذكره البغوي (٢٨٨/٣)، وابن عطية (١٢٣/٤)، والسيوطي (٦٥٤/٤)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد عن الحسن، وعزاه أيضاً للبيهقي في «سننه» عن مجاهد، وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.
- (٣) سبق تخريجه.
- (٤) في ج: المستغنى والمستغني.
- (٥) أخرجه الطبري (١٥٦/٩) برقم (٢٥٢١٩)، وذكره البغوي (٢٨٨/٣) بنحوه، وابن عطية (١٢٣/٤)، وابن كثير (٢٢٢/٣)، والسيوطي (٦٥٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٦) أخرجه الطبري (١٥٦/٩) برقم (٢٥٢٢٢)، وذكره ابن عطية (١٢٣/٤)، وذكره ابن كثير (٢٢٢/٣)، والسيوطي (٦٥٣/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.
- (٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٤).

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا...﴾ الآية: عبارة مبالغية، وهي بمعنى: لن تُزفَع عنده سبحانه، وتحصل سبب ثواب، والمعنى: ولكن تُنال الرُفعة عنده، وتحصل الحسنة لديه بالتقوى.

وقوله تعالى: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي: أن قوله: «وبشر المحسنين» نزلت في الخلفاء الأربعة حسبما تقدّم في التي قبلها، وظاهر اللفظ العموم في كل مُحسِن.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: «يُدْفَعُ»^(١) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال أبو علي: أجريت «دافع» مُجرى «دفع» كعاقبت اللّصّ وطارت النعل، قال أبو الحسن الأَخْفَشُ: يقولون: دافع الله عنك، ودفع عنك، إِلَّا أَنَّ «دفع» أكثر في الكلام.

قال *ع^(٢): ويحسن «يدافع»؛ لَأَنَّهُ قد عَنَ للمؤمنين مَنْ يدفعهم ويؤذِيهم، فيجيء دفعه سبحانه مدافعة عنهم، وروي أَنَّ هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين لَمَّا كَثُرُوا بِمَكَّةَ وَأَذَاهُمُ الْكُفَّارُ؛ هَمَّ بَعْضُهُمْ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ أَمَكَنَهُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَيَغْتَالَ، وَيَغْدُرَ، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿كفور﴾، ثم أذن الله سبحانه في قتال المؤمنين لِمَنْ قاتلهم من الكفار بقوله: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾.

وقوله: ﴿بأنهم ظلموا﴾ معناه: كان الإذن بسبب أنهم^(٣) ظلموا، قال ابن جريج^(٤): وهذه الآية أول ما نقضت المُوَادعة.

(١) وحجتها أن الله - جل وعز - لا يدافعه شيء، وهو يدفع عن الناس، فالفعل له وحده لا لغيره. وحجة الباقي أنه يدافع مرة بعد مرة.

ينظر: «السبعة» (٤٣٧)، و«الحجة» (٢٧٨/٥)، و«إعراب القراءات» (٧٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٨١)، و«شرح الطيبة» (٦٩/٥)، و«العنوان» (١٣٤)، و«حجة القراءات» (٤٧٧)، و«شرح شعلة» (٥٠٤)، و«إتحاف» (٢٧٧/٢).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٣/٤).

(٣) في ج: أنهم عند هجرة النبي ﷺ.

(٤) ذكره ابن عطية (١٢٤/٤).

قال ابن عباس^(١)، وابن جُرَيْج^(٢): نزلت عند هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.
وقال أبو بكر الصديق: لَمَّا سَمِعْتُهَا، عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ^(٣).

قلت: وهذا الحديث خَرَّجَهُ الترمذي، قال ابن العربي: ومعنى ﴿أَذِّنْ﴾: أُبَيِّحْ، وقرئ «يُقَاتِلُونَ» بكسر التاء وفتحها^(٤)، فعلى قراءة الكسر: تكون الآية خبراً عن فعل المأذون لهم، وعلى قراءة الفتح: فالآية خبر عن فعل غيرهم، وأنَّ الإِذْنَ وقع من أجل ذلك لهم، ففي فتح التاء بيان سبب القتال، وقد كان الكفار يتعمدون النبي ﷺ والمؤمنين بالإذابة ويعاملونهم بالنكاية، وقد قتل أبو جهل سُمَيَّةَ أُمَّ عمار بن ياسر، وعُذِّبَ بلال، وبعد ذلك جاء الانتصار بالقتال، انتهى، ثم وعد سبحانه بالنصر في قوله: ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْحُهُمْ وَيَبِيعُ غُلَامٌ فِيهَا سُمْماً اللَّهُ كَثِيرٌ وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يريد كُلَّ مَنْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَأَذَاهُ أَهْلُهَا حَتَّى أُخْرِجُوهُ بِإِذْنِهِمْ، - طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة -، ونسب الإخراج إلى الكفار؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي مَعْرُضِ تَقْرِيرِ الذَّنْبِ، وَإِلْزَامِهِ لَهُمْ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥/٥) كتاب «التفسير»: باب ومن سورة الحج حديث (٣١٧١)، وأحمد (١/٢١٦)، والطبري (١٦١/٩) رقم (٢٥٢٥٥) وابن حبان (١٦٨٧ - موارد) والحاكم (٧/٣) والطبراني (١٦/١٢) رقم (١٢٣٣٦) والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٩٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٥٥) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) في ج: حي.

(٣) ينظر الأثر السابق.

(٤) قرأ بفتح التاء كل من نافع، وأبي عمارة، وابن أبي عمير، وهبيرة عن حفص عن عاصم، مع ضم همزة «أذن».

وقرأ بكسر التاء مع ضم الهمزة - عاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو.

وقرأها مكسورة مع فتح همزة «أذن» كل من ابن كثير، وحمزة، والكسائي. وقرأها ابن عامر مفتوحة الهمزة والتاء.

ينظر: «السبعة» (٤٣٧)، و«الحجة» (٥/٢٨٠)، و«إعراب القراءات» (٢/٧٩)، و«معاني القراءات» (٢/١٨٢)، و«شرح الطيبة» (٥/٦٩ - ٧٠)، و«العنوان» (١٣٥)، و«حجة القراءات» (٤٧٨)، و«شرح شعلة» (٥٠٤)، و«إتحاف» (٢/٢٧٦).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا / رَبَّنَا اللَّهُ﴾ استثناء مُنْقَطِعٌ.

ب ٢٦

قال *ص*: وأجاز أبو إسحاق وغيره أن يكون في موضع جرّ بدلاً من حقّ، أي: بغير مُوجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون مُوجب الإقرار، لا مُوجب الإخراج، ومثله: ﴿هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَدًا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] انتهى، وهو حسنٌ من حيث المعنى، والانتقاد عليه مُزيّفٌ.

وقوله: ﴿ولولا دفع الله الناس﴾ الآية تقوية للأمر بالقتال، وذكر أنه مُتَقَدِّمٌ في الأمم، وبه صَلُحَتِ الشرائع، فكأنه قال: أُذِنَ في القتال، فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لَتَغَلَّبَ على الحقّ في كُلِّ أُمّةٍ، هذا أصوب تأويلات الآية، والصومعة: موضع العبادة، وهي بناء مرتفع، منفرد، حديد الأعلى، والأصمع من الرجال: الحديد القول، وكانت قبل الإسلام مُختَصَّةً برهبان النصارى، وعُبَاد الصابئين^(١)؛ قاله قتادة^(٢)، ثم استعملت^(٣) في مئذنة المسلمين، والبيع: كنائس النصارى، واحدها: بيعَة.

وقال الطبري^(٤): قيل: هي كنائس اليهود، ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك، والصلوات مشتركة لكل ملّة؛ واستعير الهدم للصلوات من حيث تعطيلها، أو أراد موضع صلوات، وقال أبو العالية^(٥): الصلوات مساجد الصابئين، وقيل: غير هذا.

وقوله: ﴿يذكر فيها﴾ الضمير عائد على جميع ما تَقَدَّمَ، ثم وعد سبحانه بُضْرَةَ دينه وشرعه، وفي ذلك حَضٌّ على القتال والجدّ فيه، ثم الآية تَعْمُ كل مَنْ نصر حقاً إلى يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة...﴾ الآية: قالت فرقة: هذه الآية في الخلفاء الأربعة، والعموم في هذا كله أبين، وبه يَتَجَهّ الأمر في جميع الناس، وإنّما الآية آخذة عهداً على كُلِّ مَنْ مَكَّن [في الأرض]^(٦) على قَدَرِ ما مَكَّن، والآية

(١) في ج: الصابئين.

(٢) أخرجه الطبري (١٦٤/٩) برقم (٢٥٢٧٢)، وذكره البيهقي (٢٩٠/٣)، وابن عطية (١٢٥/٤)، وابن كثير (٢٢٦/٣)، والسيوطي (٦٥٧/٤)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) في ج: استعمل.

(٤) ينظر: «الطبري» (١٦٤/٩).

(٥) أخرجه الطبري (١٦٥/٩) برقم (٢٥٢٨٥)، وذكره ابن عطية (١٢٥/٤)، وابن كثير (٢٢٦/٣)، والسيوطي (٦٥٧/٤) وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي العالية.

(٦) سقط في ج.

أمكن ما هي في الملوك.

وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: تَوَعَّدُ للمخالف عن هذه الأمور التي تقتضيها الآية لمن مكن.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَنَّمِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَتَسْجُدُونَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنَّمِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَالِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ﴾: يعني: قريشاً، ﴿فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى...﴾ الآية: فيها وعيد لقريش، و﴿أمليت﴾ معناه: أمهلت، والنكير مصدر بمعنى الإنكار.

[وقوله^(١): «ويبر معطلة» قيل: هو معطوف على العروش، وقيل: على القرية؛ وهو أصوب.

ثم وَبَّخَهُمْ تعالى على الغفلة وترك الاعتبار بقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ وهذه الآية تقتضي أَنَّ العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا يُنَكَّرُ أَنَّ للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ.

وقوله: ﴿فتكون﴾: نصب بالفاء في جواب الاستفهام؛ صُرِفَ الفعل من الجزم إلى النصب.

وقوله سبحانه: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار﴾ لفظ مبالغة كأنه قال: ليس العمى عَمَى العين، وإنما العمى كُلُّ العمى عَمَى القلب، ومعلوم أن الأبصار تعمي، ولكن المقصود ما

ذكرنا؛ وهذا كقوله ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ»^(١)، «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَافِ»^(٢)، والضمير في «إِنَّهَا» للقصة ونحوها من التقدير، والضمير في «يَسْتَعْجِلُونَكَ» لقريش.

وقوله: «وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» وعيد وإخبار بأن كل شيء إلى وقت محدود، والوعد هنا مُقَيَّدٌ بالعذاب.

وقوله سبحانه: «وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» / قالت فرقة: معناه ١٢٧ وإنَّ يومًا من أيام عذاب الله كألف سنة من هذه؛ لطول العذاب وبؤسه، فكان المعنى أي من هذه السنين فما أَجْهَلُ مَنْ يَسْتَعْجِلُ هذا، وَكُرِّرَ قوله: «وَكَايْنِ»؛ لَأَنَّهُ جَلَبَ معنى آخر؛ ذكر أَوَّلَ القرى الْمُهْلَكَةَ دون إِملاء، بل بعقب التَكْذِيبِ، ثم ثَنَّى سبحانه بالممهلة؛ لثلاً يَفْرَحُ هؤلاء بِتَأخير العذاب عنهم، وباقي الآية بَيِّنُ، والرزق الكريم: الجنة، و«مُعَاجِزِينَ» معناه: مغالِبِينَ، كأنهم طلبوا عَجَزَ صاحب الآيات، والآيات تقتضي تعجيزهم؛ فصارت مُفَاعَلَةً.

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ﴿٥٢﴾.

وقوله سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...» الآية.

قلت: قال [القاضي أبو الفضل]^(٣) عياض: وقد توجهت ها هنا لبعض الطاعنين سَوَآلَاتٍ منها ما رُوِيَ مِنْ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ «وَالنَّجْمِ» وَقَالَ: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ» [النجم: ١٩، ٢٠] قَالَ: تِلْكَ الْغَرَائِيقُ الْعُلَى، وَإِنْ شَفَاعَتُهَا لَتَرْتَجَى»^(٤).

(١) أخرجه مالك (٩٠٦/٢) كتاب «حسن الخلق»: باب ما جاء في الغضب، حديث (١٢)، والبخاري (٥٣٥/١٠) كتاب «الأدب»: باب الحذر من الغضب، حديث (٦١١٤)، ومسلم (٢٠١٤/٤) كتاب «البر والصلة»: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث (٢٦٠٩/١٠٧)، وأحمد (٢٣٦/٢)، والبيهقي في «شرح السنة» (٦/ ٥٣١ - بتحقيقنا)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٢١٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٣/١٢) رقم (١٢٤٥٠)، والبراز في «مستده» كما في «تخريج الكشاف» (٣٩١/٢)، وابن مردويه كما في المصدر السابق، كلهم من طريق يوسف بن حماد ثنا أمية بن خالد، ثنا =

= شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، فذكر القصة.

وقال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، ولا نعلم أحداً أسند هذا الحديث عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد عن ابن عباس إلا أمية، ولم نسمعه نحن إلا من يوسف بن حماد، وكان ثقة، وغير أمية يحدث به عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلًا، وإنما يعرف هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وأمّية ثقة مشهور. هـ.

وقد مشى الهيثمي على ظاهر السند، فقال في «المجمع» (١١٨/٧): رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيحين.

وهذا الطريق فيه اضطراب، فقد رواه بعضهم عن أبي بشر عن سعيد مرسلًا وقد أشار إلى ذلك البزار رحمه الله.

وهذا الطريق أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣١) من طريق محمد بن جعفر: ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير مرسلًا.

وقد رويت هذه القصة عن محمد بن كعب القرظي، وعن قتادة، وعن أبي العالية مرسله: أما مرسل محمد بن كعب، فأخرجه الطبري (١٧٥-١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٢٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٦٢)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور.

مرسل قتادة: أخرجه الطبري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٦٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

أما مرسل أبي العالية، فأخرجه الطبري (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٦٦٣)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وللحديث طريق موصول عن ابن عباس: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧٦/٩) رقم (٢٥٣٣٣): حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس به.

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/٣٩٢): ولكن فيه عدة مجاهيل عينا وحالًا. هـ.

وقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين، قال البيهقي وهو من كبار رجال السنة: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال القاضي عياض في: «الشفاء»: إن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به ويمثله المفسرون والمؤرخون، والمولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين، لم يسندوا أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع منها حديث شعبة، عن أبي البشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في وصل الحديث): «أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة»: قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل، إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي خالد عن ابن عباس، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه، مع وقوع الشك فيه، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه، وأما حديث الكلبي: فمما لا يجوز الرواية منه، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه. هـ. وكذا أنكر القصة القاضي أبو بكر بن العربي وطعن فيها من جهة النقل، وسئل محمد بن إسحاق بن خزيمة، عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف في ذلك كتابًا، وذهب إلى وضعها الإمام: أبو منصور الماتريدي، في كتاب «حصى الأنبياء» حيث قال: الصواب أن قوله: «تلك الغرائق العلى» من جملة =

= إيحاء الشياطين إلى أولياته من الزنادقة، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين، ليرتابوا في صحة الدين، والرسالة بريئة من مثل هذه الرواية.

فها نحن نرى: أن من أنكرها وقضى بوضعها أكثر ممن صححها اعتماداً على روايات مرسلة.

ومما يقلل الثقة بالحديث: اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً.

فقاتل يقول: إنه كان في الصلاة، وقاتل يقول: قالها في نادي قومه، وثالث يقول: قالها وقد أصابته سِنَّة. ورابع يقول: بل حدث نفسه فيها. ومن قائل: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأئك؟ وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان: أن النبي قرأها كما رويت: تلك الغرائب العلى على أنحاء مختلفة، وكل هذا الاضطراب ممّا يوهن الرواية، ويقلل الثقة بها. والحق أبلغ والباطل لجلج.

وقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر، فصصح القصة، وجعل لها أصلاً، قال في «الفتح»، في تفسير سورة الحج، بعد ما ساق الطرق الكثيرة: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف، وإما منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين، رجالهما على شرط الصحيح: أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فذكر نحوه. والثاني: ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمد بن سليمان، وحماد بن سلمة، فرقهما عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية، وبعد أن ذكر كلام القاضي أبي بكر بن العربي، وعباض قال: وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها، دل ذلك على أن لها أصلاً، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج، لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك: تعين تأويل ما فيها مما يستنكر، وهو قوله: «ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائب العلى»، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إن كان مغايراً لما جاء به من التوحيد، لمكان عصمته، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك... وبعد أن ذكر الكثير منها، ولم يرتضه، ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل: وهو أن النبي ﷺ كان يرتل القرآن ترتيلاً، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمة محاكياً نغمته، بحيث سمعها من دنا، فظنه من قوله، وأشاعها بين الناس، قال: وهو الذي ارتضاه عباض وأبو بكر بن العربي ١.هـ، والقاضيان: عباض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلاً وعقلاً، ولكنهما ارتضيا ذلك تنزلاً على تسليم الصحة.

والذي أجيب به على ما ذكره الحافظ:

١- أن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل، وجعلوه من قسم الضعيف؛ لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحيثئذ: يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة. وعلى الثاني: فلا يؤمن أن يكون كذاباً، والإمام مسلم قال في مقدمة كتابه: والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالإخبار: ليس بحجة. وقال ابن الصلاح في مقدمته: «وذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه: هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث، وتداولوه في تصانيفهم»، والاحتجاج به مذهب مالك، وأبي حنيفة والشافعي، بشروط ذكرها في رسالته، ونقلها العراقي في شرح ألفيته، وقد قالوا في مراسيل أبي العالية: إنها كالريح، كما في: «التدريب» وإني لأذكر الحافظ بما ذكره من البلاء في الاحتجاج بالمراسيل =

قال عياض: اعلم (أكرمك الله) أنَّ لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله.

والثاني: على تقدير تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أنَّ هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رَوَاهُ ثقة بسند مُتَّصِلٍ سليم؛ وإنما أولع به وبمثله المُفَسِّرُونَ والمُؤَرِّخُونَ المُؤَلَّعُونَ بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، وصدق القاضي أبو بكر ابن العلاء المالكي (رحمه الله تعالى) حيث يقول: لقد بُلِيَ الناسُ ببعض أهل الأهواء والتفسير، ثم قال عياض: قال أبو بكر البَرَّازُ: هذا الحديث لا نعلمه يُرَوَّى عن النبي ﷺ بإسناد مُتَّصِلٍ يجوزُ ذكره؛ وإنما يُعْرَفُ عن الكلبيِّ. قال عياض: والكلبيُّ مِمَّنْ لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره؛ لقوَّة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البَرَّازُ، وقد أجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذا، انتهى، ونحو هذا لابن عطية^(١) قال: وهذا الحديث الذي فيه: هن الغرائقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يُدْخَلْ البخاري ولا مسلم، ولا ذكره - في علمي - مُصَنَّفٌ مشهور؛ بل يقتضي مذهب أهل الحديث أنَّ الشيطان ألقى، ولا يعينون هذا السَّبَبَ ولا غيره.

= في مقدمة كتابه «لسان الميزان».

٢- الاحتجاج بالمرسل إنما هو في الفرعيات التي يكفي فيها الظن، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلم، وقد قال علماء التوحيد: إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به في العقائد؛ لأنه لا يكتفي فيها إلا باليقين، فما بالك بالضعيف؟!!

٣- هذا التأويل الذي ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل، فهو يقع متأوله فيما فر منه، وهو تسلط الشيطان على النبي، فالتسلط عليه بالمحاكاة، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه، كلاهما لا يجوز، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات، وإذا سلمنا أنَّ الشيطان هو الذي نطق في أثناء سكوت الرسول، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان؟ وإذا سمعنا، فكيف لا يبادر إلى إنكارها؟ والبيان في مثل هذا وجب على الفور، وإذا لم يسمع النبي، ألم يسمع أصحابه؟ وإذا سمعوا، فكيف يسكتون؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع؟

ومثل هذا: ما ذكره موسى بن عقبة في «مغازيه»: من أنَّ المسلمين ما سمعوا، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين، فهل كان الشيطان يسر في آذان المشركين دون المؤمنين؟ ثم كيف يتفق هذا وما روي: من أنَّ النبي حزن حزناً شديداً، وأن جبريل قال له: ما جئتكَ بهذا الحق!!

الحق: أن نسج القصة مهما تأوَّل فيه المتأولون فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث.

ينظر: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص ٢٤٥ وما بعدها بتصرف.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٩/٤).

قال *ع^(١)*: وحديثي أبي (رحمه الله تعالى) أَنَّهُ لَقِيَ بِالْمَشْرِقِ مِنْ شُبُوحِ الْعُلَمَاءِ وَالتَّكَلِّمِينَ مَنْ قَالَ: هَذَا لَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ الْمَعْصُومُ فِي التَّبْلِيغِ؛ وَإِنَّمَا الْأَمْرُ يَعْنِي عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ - أَنَّ الشَّيْطَانَ نَطَقَ بِلَفْظِ أَسْمَعَهُ الْكُفَّارُ عِنْدَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]. وَقَرَّبَ صَوْتَهُ مِنْ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى التَّبَسَّ الْأَمْرَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، وَقَالُوا: مُحَمَّدٌ قَرَأَهَا، هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا التَّأْوِيلِ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي الْمَعَالِي.

قلت: قال عياض: وقد أعادنا الله من صِحَّتِهِ، وقد حكى موسى^(٢) بن عقبة في «مغازيه» نحو هذا، وقال: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَسْمَعُوهَا، وَإِنَّمَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ذَلِكَ فِي أَسْمَاعِ الْمَشْرِكِينَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَمْنَى﴾ أي: تلا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨]. أي: تلاوة، «فينسخ الله ما يلقي الشيطان» أي: يُذْهِبُهُ، وَيَزِيلُ اللَّبْسَ بِهِ وَيُحْكَمُ آيَاتُهُ، وَعِبَارَةُ الْبَخَارِيِّ^(٣): وقال ابن عباس: ﴿إِذَا تَمْنَى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾، أي: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ / وَيُحْكَمُ ٢٧ ب آيَاتُهُ، وَيُقَالُ: ﴿أَمْنِيَّتُهُ﴾: قِرَاءَتُهُ. انتهى.

قال عياض: وقيل: معنى الآية هو ما يقع للنبي ﷺ من السهو إِذَا قَرَأَ فَيَتَنَبَّهُ لَذَلِكَ، وَيَرْجِعُ عَنْهُ، انتهى.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيقَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥ أَلَمْ لِكُفْرِكُمْ يَوْمٌ يَمَسُّ لِيْلَهُمْ ٥٦ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥٧﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ الفتنة: الامتحان والاختبار، والذين في قلوبهم مرض: عامة الكفار، «والقاسية قلوبهم» خواص منهم عتاة: كأبي جهل وغيره، والشقاق: البعد عن الخير والكون في شق غير شقّ الصلاح، و«الذين أوتوا العلم»: هم أصحاب نبينا محمد ﷺ، والضمير في «أنه»: عائد على القرآن، «فتخبت

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٢٩/٤).

(٢) في المطبوعة (محمد) والمثبت من «السير» للذهبي (١١٤/٦) ترجمة (٣١).

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٢٩٢/٨) كتاب التفسير: باب سورة الحج.

له قلوبهم»: معناه: تتطامن وتَخَضَعُ، وهو مأخوذ من الخبت وهو المطمئن من الأرض كما تقدم.

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي: من القرآن، والمرية: الشك، ﴿حتى تأتيهم الساعة﴾ يعني يوم القيامة، ﴿أو يأتيهم عذاب عقيم﴾ قيل: يوم بدر، وقيل: الساعة ساعة موتهم، واليوم [العقيم]^(١) يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خِزْيُ الرَّزْقِينَ﴾ ^(٥٨) لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ^(٥٩) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ^(٦٠) ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ^(٦١) ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ^(٦٢).

وقوله سبحانه: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا...﴾ الآية، ابتداءً معنى آخر؛ وذلك أنه لما مات عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلُ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ. فنزلت هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم في أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وليس هذا بقاضٍ بتساويهم في الفضل، وظاهرُ الشريعة أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ، وقد قال بعض الناس: المقتول والميت في سبيل الله شهيدان، ولكن للمقتول مزية ما أصابه في ذات الله، والرزق الحسن يحتمل: أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ، ويحتمل أن يريد بعد يوم القيامة في الجنة^(٢)، وقرأت^(٣) فرقة: «مَدْخَلًا» - بضم الميم -؛ من أدخل؛ فهو محمولٌ على الفعل [المذكور]، وقرأت فرقة: «مَدْخَلًا» - بفتح الميم -؛ من دخل؛ فهو محمولٌ على فعل^(٤) مُقَدَّرٍ تقديره: فَيَدْخُلُونَ مَدْخَلًا، ثم أخبر سبحانه عَمَّنْ عَاقَبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ ظَلَمَهُ مِنَ الْكُفْرَةِ، وَوَعَدَ الْمَبْغِيَّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ يَنْصُرُهُ، وذلك أن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كُفَّارًا في

(١) سقط في جـ.

(٢) ذكره ابن عطية (٤/١٣٠).

(٣) بفتح الميم قرأ نافع، وبضمها قرأ الباقون.

ينظر: «السبعة» (٤٣٩، ٤٤٠)، و«الحجة» (٥/٢٨٤)، و«إعراب القراءات» (٢/٨٣)، و«العنوان» (١٣٥)، و«حجة القراءات» (٤٨١)، و«إتحاف فضلاء البشر» (٢/٢٧٨).

(٤) سقط في جـ.

الأشهر الحُزْم؛ فأبى المؤمنون من قتالهم، وأبى المشركون إلا القتال، فلما اقتتلوا، جدَّ المؤمنون ونصرهم الله تعالى؛ فنزلت الآية فيهم^(١)، وجعل تقصير الليل وزيادة النهار وعكسهما إيلاجاً؛ تجوزاً وتشبيهاً، وباقي الآية بين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَمْ يَأْتِ السَّمَكُوتَ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد قوله: ﴿فتصبح﴾ عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء؛ وروي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بـ «مكة»^(٢) و«تهامة».

[قال *ع^(٣)]: ومعنى هذا أنه أخذ قوله: ﴿فتصبح﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخراً^(٤).

قال *ع^(٥): وقد شاهدتُ هذا في السوس الأقصى، نزل المطر ليلاً بعد قحط، وأصبحت تلك الأرض الرملة التي تسفيها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق.

قلت: وقد شاهدتُ أنا ذلك بصحراء سواكن بالمشرق، وهي في حكم مكة إلا أن البحر قد حال بينهما؛ وذلك أن التعديّة من جدة إلى «سواكن» مقدار يومين في البحر أو أقل بالريح المعتدلة، وكان ذلك في أول الخريف، وأجرى الله العادة أن أمطار تلك البلاد تكون بالخريف فقط، هذا هو الغالب، ولما شاهدتُ ذلك تذكرتُ هذه الآية / الكريمة، ١٢٨ فسبحان الله ما أعظم قدرته! واللطيف: المُحَكِّمُ للأمور برفق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُخْسِكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَسْكَاةً لَهُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يَسْتَرْعِنَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

(١) ذكره ابن عطية (١٣١/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (١٣١/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣١/٤).

(٤) سقط في ج.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣١/٤).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: سَخَّرَ لَنَا سبحانه ما في الأرض من الحيوان والمعادين وسائر المرافق، وباقي الآية بَيَّنَّ مِمَّا ذَكَرَ فِي غير هذا الموضع.

وقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ الآية، المنسك: المصدر، فهو بمعنى: العبادة والشُرْعَةُ، وهو أيضاً موضع النسك، وقوله: ﴿هَمَّ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي أَنَّ المنسك: المصدر، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ...﴾ الآية مُوَادَعَةٌ مَحْضَةٌ نسختها آية السيف^(١)، وباقي الآية وعيد.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى الْحُكْمِ فِي الْاِخْتِلَافِ.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنْ ذَلِكَُمْ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٧٢) يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ يعني: أَنَّ كُفَّارَ قَرِيشَ كانوا إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، وسمعوا ما فيه من رفض^(٢) آلهتهم والدعاء إلى التوحيد - عُرِفَتِ الْمَسَاءَةُ فِي وجوهم والمنكر من معتقدهم وعداوتهم، وأنهم يريدون ويتسرعون إلى السطوة بالثالين، والسطو إيقاع ببطش، ثم أمر تعالى نبيّه عليه السلام

(١) قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية [التوبة ٢٩]. وقيل غير ذلك.

(٢) في ج: بغض.

أن يقول لهم على جهة الوعيد والتفريع: ﴿أفأنبئكم﴾ أي: أخبركم. ﴿بشرٌ من ذلكم﴾: والإشارة بـذلكم إلى السطو، ثم ابتدأ بخبر؛ كأن قائلًا قال له: وما هو؟ قال: ﴿النار﴾^(١) أي: نار جهنم.

وقوله: ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ يحتمل أن يكون أراد: أن الله تعالى وعدهم بالنار، فيكون الوعد في الشر، ويحتمل أنه أراد: أن الله سبحانه وعد النار^(٢) بأن يطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابه، إذ الذي يقتضي قولها: ﴿هل من مزيد﴾ [ق: ٣٠] ونحو ذلك، أن ذلك من مسارها.

قلت: والظاهر الأول.

وقوله سبحانه: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه...﴾ الآية: ذكر تعالى أمر سالب الذباب، وذلك أنهم كانوا يضمخون^(٣) أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يتسلط ويذهب بذلك الطيب، وكانوا يتألمون من ذلك، فجعلت مثلاً، واختلَف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ فقالت فرقة: أراد بالطالب: الأصنام، وبالمطلوب: الذباب، أي: أنهم ينبغي أن يكونوا طالبين لما يسلب من طيبهم على معهود الأنفة في الحيوان، وقيل: معناه: ضَعُفَ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام، وضَعُفَ الأصنام في إعطاء ذلك وإنالته.

قال *ع^(٤): * ويحتمل أن يريد: ضعف الطالب وهو الذباب في استلابه ما على الأصنام، وضعف الأصنام في أن لا منعة لهم، وبالجمله فدلتهم الآية على أن الأصنام في أخط رتبة، وأحسن منزلة لو كانوا يعقلون. و﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ المعنى: ما وقَّره حقه سبحانه من التعظيم والتوحيد.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسُجُّدُوا وَعَبَدُوا رَبِّكُمْ وَأَقْعَلُوا الْحَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾.

(١) في ج: النار، فيكون الوعد في الشر.

(٢) في ج: الناس.

(٣) الضمخ: لطح الجسد بالطيب حتى كأنما يقطر.

ينظر: «لسان العرب» (٢٦٠٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٤/٤).

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ...﴾ الآية: نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة: ﴿أُنْزِلَ^(١) عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

ص: أبو البقاء: ﴿ومِنَ النَّاسِ﴾ أي: رسلاً، انتهى، ثم أمر سبحانه بعبادته ٢٨ ب وَخَصَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ بِالذِّكْرِ؛ تَشْرِيفًا / لِلصَّلَاةِ، واختلف الناس: هل [في]^(٢) هذه الآية سجدة أم^(٣) لا؟.

قال ابن العربي^(٤) في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ تَقَبَّلَهَا قَوْمٌ عَلَى أَنَّهَا سَجْدَةٌ تِلَاوَةٌ؛ فَسَجَدُوهَا.

وقال آخرون: هو سجود الصلاة فقصره عليه، ورأى عمرُ وابنه عبدُ الله رضي الله عنهما: أنها سجدة تلاوة، وإني لَأَسْجُدُهَا وَأَرَاهَا كَذَلِكَ^(٥)؛ لما رَوَى ابنُ وهب، وغيره عن مالك، وغيره^(٦)، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿وافعلوا الخير﴾ نَذَبَ فيما عدا الواجبات.

قلت: وهذه الآية الكريمة عامة في أنواع الخيرات، ومن أعظمها الرأفة والشفقة على خلق الله، ومواساة الفقراء وأهل الحاجة، وقد رَوَى أبو داود والترمذي عن النبي ﷺ [أنه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ»^(٧) كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ، كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ، أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ، سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ»^(٨)]. انتهى. وروى علي بن عبد العزيز البغوي في «المسند الْمُتَّعَب» عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا، كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَا بَقِيََتْ عَلَيْهِ مِنْهُ رُقْعَةٌ»^(٩). وروى ابن أبي شيبة في «مسنده» عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا أَهْلٍ

(١) في ج: نزل.

(٢) سقط في ج.

(٣) في ج: أو.

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٠٤).

(٥) ذكره البغوي (٣/٢٩٩).

(٦) ذكره البغوي (٣/٢٩٩).

(٧) سقط في ج.

(٨) تقدم تخريجه.

(٩) تقدم تخريجه.

عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعًا، فَقَدْ بَرِثَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ^(١). انتهى من «الكوكب الدرري».

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ يِلَّةَ أَيْكُمْ إِيْرَاهِمُ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨).

وقوله سبحانه: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ قالت فرقة: الآية في قتال الكفار.

وقالت فرقة: بل هي أعم من هذا، وهو جهاد النفس، وجهاد الكفار والظلمة، وغير ذلك، أمر الله عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله.

قال *ع^(٢): والعموم أحسن، ويَبَيَّنُ أَنَّ عُرْفَ اللفظة يقتضي القتال في سبيل الله.

وقوله: ﴿هو اجتباكم﴾ [أي: تَخَيَّرَكُم] ^(٣)، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي: من تضيق، وذلك أَنَّ الْمِلَّةَ حَنِيفِيَّةً سَمْحَةً، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التوبة والكفارات، والرَّخْصُ، ونحو هذا مِمَّا يَكْثُرُ عَدُّهُ، ورفع الحرج عن هذه الأمة لمن استقام منهم على منهاج الشرع، وأما السُّلَابَةُ ^(٤) والسَّرَاقُ وأصحاب الحدود فهم أدخلوا الْحَرَجَ على أنفسهم بمفارقتهم الدِّينَ، وليس في الدِّينِ أَشَدُّ مِنْ إِيْزَامِ رَجُلٍ لِاثْنَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ومع صحة اليقين، وجودة العزم ليس بِحَرَجٍ و﴿ملة﴾ نُصِبَ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ مِنْ أفعال الإغراء.

(١) أخرجه أحمد (٣٣/٢)، والحاكم (٢/ ١١-١٢)، وأبو يعلى (١١٧/١٠) رقم (٥٧٤٦)، والبزار (١٣١١- كشف) كلهم من طريق أبي بشر الأملوكي، عن أبي الزاهرية، عن عمرو بن دينار، عن ابن عمر به.

وقال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٣٩٢/١) رقم (١١٧٤) عن أبيه: هذا حديث منكر.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠٣/٤): رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، والطبراني في «الأوسط»، وفيه أبو بشر الأملوكي، ضعفه ابن معين ١. هـ.

ومن طريق أبي بشر ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٥/٣).

(٣) سقط في جـ.

(٤) السُّلَابُ: جمع سالب، وهم أهل الاختلاس.

ينظر: «لسان العرب» (٢٠٥٧).

وقوله: ﴿هو سماكم المسلمين^(١)﴾ قال ابن زيد^(٢): الضمير لـ ﴿إبراهيم﴾ - عليه السلام - والإشارة إلى قوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: الضمير لله عز وجل^(٣). ﴿ومن قبل﴾ معناه: في الكتب القديمة، ﴿وفي هذا﴾ أي: في القرآن، وهذه اللفظة تُضَعِّفُ قولَ مَنْ قال: الضمير لإبراهيم عليه السلام، ولا يتوجه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف.

قال *ص*: ﴿هو﴾ قيل: يعود على الله تعالى، وقيل: على إبراهيم، وعلى هذا فيكون: ﴿وفي هذا﴾: القرآن، [أي]^(٤): وسميت بسببه فيه، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ أي: بالتبليغ.

وقوله: ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي: بتبليغ رسلكم إليهم على ما أخبركم نبيكم، ثم أمر سبحانه بالصلاة المفروضة أَنْ تُقَامَ وَيُدَامَ عليها بجميع حدودها، وبالزكاة أَنْ تُؤَدَّى، ثم أمر سبحانه بالاعتصام به، أي: بالتعلق به والخلوص له وطلب النجاة منه، ورَفُضِ التَّوَكُّلِ على سواه.

وقوله سبحانه: / ﴿هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ المولى: في هذه الآية معناه: الذي يليكم نصره وحفظه، [وباقى الآية بين]^(٥).

(١) في ج: سَمَاكم المسلمين.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٤/٩) برقم (٢٥٤٠٥)، وذكره ابن عطية (١٣٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٣٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٢/٤)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري (١٩٣/٩، ١٩٤) برقم (٢٥٣٩٩، ٢٥٤٠٠) عن ابن عباس، وبرقم (٢٥٤٠١) عن قتادة، وبرقم (٢٥٤٠٢، ٢٥٤٠٣) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (١٣٥/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٣٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٢/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٤) سقط في ج.

(٥) سقط في ج.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾.

قوله سبحانه: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ الذي هم في صلاتهم خاشعون ﴿أخبر الله سبحانه عن فلاح المؤمنين، وأنهم نالوا البُغْيَةَ، وأحرزوا البقاء الدائم.

قلت: وعن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، يُسْمِعُ عِنْدَ وَجْهِهِ ﷺ دَوِيَّ كَدَوِي النخل، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ يَوْماً، فَمَكَّثْنَا سَاعَةً، وَسُرِّي عَنْهُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ، زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَآكِرْمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْظِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآتِرْنَا وَلَا تُؤْتِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَأَرْضَ عَنَّا»، ثُمَّ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مِّنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات^(١)؛ رواه الترمذي واللفظ له والنسائي والحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «سلاح المؤمن».

قلت: وقد نُصِّ بعض أئمتنا على وجوب الخشوع في الصلاة، قال الغزالي

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنين، حديث (٣١٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٤٥٠/١) كتاب الوتر: باب رفع اليدين في الدعاء، حديث (١٤٣٩)، وأحمد (٣٤/١)، والحاكم (٣٩٢/٢)، وعبد الرزاق (٦٠٣٨)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤٦٠/٤) كلهم من طريق يونس بن سليم قال: أُملى علي يونس بن يزيد عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد القاري عن عمر بن الخطاب به.

وقال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه. وقال العقيلي في ترجمة يونس: لا يتابع على حديثه هذا ولا يعرف إلا به. والحديث ذكره السيوطي في «الدرر المشورة» (٤/٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل»، والضياء في «المختارة».

- رحمه الله -: ومن مكائد الشيطان أن يَشْغَلَكَ [في الصلاة بفكر الآخرة وتدبيرِ فِعْلِ الخيرات؛ لِمَتَمَنَعْ عَنْ فَهْمِ ما تَقْرَأُ، واعلم أَنَّ كُلَّ ما أَشْغَلَكَ] ^(١) عن معاني قراءتك فهو وسواس؛ فَإِنَّ حَرَكَةَ اللسان غيرُ مقصودة؛ بل المقصود معانيها، انتهى من «الإحياء».

وروي عن مجاهد ^(٢): أَنَّ اللَّهَ تعالى لما خلق الجَنَّةَ، وأتقن حُسْنَهَا قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين: فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ والخشوع التَّطَامُّنُ، وسكونُ الأعضاء، والوقارُ، وهذا إِنَّمَا يظهر في الأعضاء مِمَّنْ في قلبه خوف واستكانة؛ لَأَنَّهُ إِذَا خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ، وَرَوِيَ أَنَّ سَبَبَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَلْتَفِتُونَ فِي صَلَاتِهِمْ يُمَنِّئَةً وَيُسْرَةً؛ فنزلت هذه الآية، وأُمِرُوا أَنْ يَكُونَ [بَصَرًا] ^(٣) الْمُصَلِّي حِذَاءَ قِبْلَتِهِ أَوْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وفي الحرم إلى الكعبة، و﴿اللغو﴾: سقط القول، وهذا يَعْْمُ جميع ما لا خَيْرَ فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأصحابه، أي: يُعْرِضُونَ عن اللغو، وكأنَّ الآية فيها مَوادعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ذهب الطبري ^(٤) وغيره إلى: أَنَّهَا الزكاة المفروضة في الأموال، وهذا بَيِّنٌ، ويحتمل اللفظُ أَنْ يريد بالزكاة: الفضائل، كأنه أراد الأزكى من كل فعل؛ كما قال تعالى: ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةٌ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ٦ ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ ٨ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ٩ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الزَّائِرُونَ﴾ ١٠ ﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١١ ﴿.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هم العادون﴾ يقتضي تحريم الزنا والاستمناء ومواقعة البهائم، وكُلُّ ذَلِكَ داخل في قوله: ﴿وراء ذلك﴾ ويريد: وراء هذا الحد الذي حُدِّدَ، والعادي: الظالم، والأمانة والعهد يَجْمَعُ كُلُّ ما تَحْمِلُهُ الْإِنْسَانُ من أمر دينه ودنياه قولاً وفِعْلاً. وهذا يعمُ معاشرَةَ النَّاسِ والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك حِفْظُهُ والقيام به، والأمانة أعمُّ من العهد؛ إذ كل عهد فهو أمانة، وقرأ الجمهور:

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٦/٩) (٢٥٤١١)، وذكره ابن عطية (١٣٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٣٧/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥)، وغزاه لابن جرير عن مجاهد.

(٣) سقط في ج.

(٤) ينظر الطبري (١٩٩/٩).

«صَلَّوَاتِهِمْ» وقرأ حمزة والكسائي: «صلاتهم» بالإنفراد^(١)، و«الوارثون» يريد الجنة، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَسْكَنًا فِي الْجَنَّةِ، وَمَسْكَنًا فِي النَّارِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَأْخُذُونَ مَنَازِلَهُمْ، وَيَرِثُونَ مَنَازِلَ الْكُفَّارِ، وَيَخْصُلُ الْكُفَّارُ فِي مَنَازِلِهِمْ / فِي النَّارِ».

ب ٢٩

قلت: وَخَرَجَهُ ابن ماجه أيضاً بمعناه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ إِلَّا [مَنْ]»^(٢) لَهُ مَنَزِلَانِ: مَنَزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنَزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ - يعني الإنسان - وَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنَزِلَهُ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ»^(٣) قال القرطبي في «التذكرة»^(٤): إسناده صحيح، انتهى من «التذكرة».

قال ع*^(٥): ويحتمل أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهُ تَعَالَى حَصُولَهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَرِاثَةً مِنْ حَيْثُ حَصَلُوا دُونَ غَيْرِهِمْ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَحَاطَ بِحَائِطِ الْجَنَّةِ: لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَ غِرَاسَهَا بِيَدِهِ، وَقَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي، فَقَالَتْ: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» فَقَالَ: طُوبَى لَكَ! مَنَزِلُ الْمُلُوكِ»^(٦) خَرَجَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «الْمَسْنَدِ الْمُنْتَقَبِ» لَهُ، انْتَهَى مِنْ «الْكُوكَبِ الدَّرِّيِّ».

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا

(١) ينظر: «السبعة» (٤٤٤)، و«الحجة» (٢٨٧/٥)، و«إعراب القراءات» (٨٥/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٨٧)، و«شرح الطيبة» (٧٥/٥)، و«العنوان» (١٣٦)، و«حجة القراءات» (٤٨٣)، و«شرح شعلة» (٥٠٧)، و«إتحاف» (٢/٢٨٢).

(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٤٥٣/٢) كتاب الزهد: باب صفة الجنة، حديث (٤٣٤١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٠/٩) رقم (٢٥٤٤١) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. قال البوصيري في «الزوائد» (٣٢٧/٣): هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩/٥)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث».

(٤) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (١٦٦/١)، (٥٦٩/٢).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٧/٤).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (١٣٧/١) رقم (١٤٠)، وفي «الحلية» (٢٠٤/٦)، والبيهقي في «البعث» (٢٣٦) من حديث أبي سعيد الخدري.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠٠/١٠) وقال: رواه البزار مرفوعاً وموقوفاً، والطبراني في «الأوسط»، ورجال الموقوف رجال الصحيح.

مَآخِرُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين...﴾ الآية: اختلف في قوله: «الإنسان» فقال قتادة وغيره [أراد آدم - عليه السلام -؛ لأنه استل من الطين^(١)].

وقال ابن عباس وغيره^(٢): المراد ابن آدم^(٣)، والقراؤ المكين من المرأة: هو موضع الولد، والمكين: الممكّن، والعلقّة: الدّم الغليظ، والمضعة: بضعة اللحم قدر ما يُمضغ، واختلف الناس في الخلق الآخر، فقال ابن عباس^(٤) وغيره: هو نفخ الروح فيه.

وقال ابن عباس^(٥) أيضاً: هو خروجه إلى الدنيا.

وقال أيضاً^(٦): تَصَرُّفُهُ في أمور الدنيا، وقيل: هو نبات شعره.

قال *ع^(٧): وهذا التخصيص كُلُّهُ لا وجه له، وإنما هو عام في هذا وغيره: من وجوه النطق، والإدراك، وحُسن المحاولة، و﴿تبارك﴾ مطاوع بارك، فكانها بمنزلة تعالى وَتَقَدَّسَ من معنى البركة.

وقوله: ﴿أحسن الخالقين﴾ معناه: الصانعين: يقال لمن صنع شيئاً: خَلَقَهُ، وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس؛ فقال ابن جريج^(٨): إِنْما قال: ﴿الخالقين﴾؛ لأنّ تعالى أَدْنَى لِعِيسَى في أَنْ يَخْلُقَ، واضطرب بعضهم في ذلك.

(١) أخرجه الطبري (٢٠٢/٩) (٢٥٤٥٢)، وذكره ابن عطية (١٣٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.
(٢) سقط في جـ.

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٢/٩) (٢٥٤٥٤) بمعناه كما ذكره الطبري، والبغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٧)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤٠/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٢٠٤/٩) (٢٥٤٥٧)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (٢٠٤/٩) (٢٥٤٦٦)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/١٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٤/٩) (٢٥٤٦٦)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٨)، وابن كثير في «تفسيره» (٢٤١/٣).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٣٨).

(٨) أخرجه الطبري (٢٠٥/٩) (٢٥٤٧٣)، وذكره البغوي (٣٠٤/٣)، وابن عطية (٤/١٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٢/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن جريج.

قال ﴿ع^(١)﴾: ولا تُنفَى اللفظة عن البشر في معنى الصنع؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوْكَةً كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ﴾^(٢) أي: بعد هذه الأحوال المذكورة، ويريد بالسبع الطرائق: السموات، والطرائق: كُلُّ [ما كان]^(٣) طبقات بعضها فوق بعض؛ ومنه طارقت علي. ويجوزُ أَنْ تكونَ الطرائق بمعنى المَبْسُوطَاتِ؛ من طرقت الشيء.

قلت: وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ...﴾ الآية: ظاهر الآية أَنَّهُ مَاءُ المطر، وأسند أبو بكر ابن الخطيب في أول «تاريخ»^(٤) بغداد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ خَمْسَةَ أَثْهَارٍ: سَبْحُونُ: وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ، وَجَبْحُونُ: وَهُوَ نَهْرُ بَلْخَ، وَدَجَلَةُ وَالْفَرَاتُ: وَهُمَا نَهْرَا الْعِرَاقِ، وَالتَّيْلُ: وَهُوَ نَهْرُ مِصْرَ، أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ مِنْ أَسْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَّاخِي جَبْرِيلَ، فَاسْتَوْدَعَهَا الْجِبَالِ، وَأَجْرَاهَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ لِلنَّاسِ فِي أَصْنَافٍ مَّعَايِشِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيلَ فَرَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ الْقُرْآنَ، وَالْعِلْمَ كُلَّهُ، وَالْحَجَرَ مِنْ رُكْنِ الْبَيْتِ، وَمَقَامَ إِبْرَاهِيمَ، وَتَابَوْتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فِيهِ، وَهَذِهِ الْأَثْهَارُ الْخَمْسَةُ، فَيَرْفَعُ ذَلِكَ / كُلُّهُ إِلَى السَّمَاءِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، فَإِذَا رُفِعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَدْ أَهْلَهَا خَيْرُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا. وفي رواية: «خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥). انتهى، فَإِنَّ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثَ، فَلَا نَظَرَ لِأَحَدٍ مَعَهُ، وَنَقَلَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ» هَذَا الْحَدِيثَ أَيْضاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ: وَهَذَا جَائِزٌ فِي الْقُدْرَةِ إِنْ صَحَّ بِهِ الرَّوَايَةُ، انْتَهَى.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٣٨/٤).

(٢) سقط في جـ.

(٣) سقط في جـ.

(٤) ينظر: «تاريخ بغداد» (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٥٧ - ٥٨) من طريق مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس.

قال ﴿ع^(١)﴾: قوله تعالى: ﴿ماء بقدر﴾ قال بعض العلماء: أراد المطر.

وقال بعضهم: إنما أراد الأنهار الأربعة سيحان^(٢) وجيحان^(٣) والفرات^(٤) والنيل^(٥).

قال ﴿ع^(٥)﴾: والصواب أن هذا كله داخل تحت الماء الذي أنزله الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾ يحتمل: أن يعود الضمير على الجنات؛ فيشمل أنواع الفواكه، ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة؛ إذ فيهما مراتب وأنواع، والأول أعم لسائر الثمرات.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعَ اللَّائِلِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٦﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَثَرَتُمْ بِهٖ حَتَّىٰ جِئْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَقَالَ رُبِّكُمْ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله سبحانه: ﴿وشجرة﴾ عطف على قوله: ﴿جنات﴾ ويريد بها الزيتون، وهي كثيرة في طور سيناء من أرض الشام، وهو الجبل الذي كلم فيه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس، وغيره^(٦)، وال ﴿طور﴾: الجبل في كلام العرب، واختلف في ﴿سيناء﴾ فقال قتادة: معناه الحسن^(٧)، وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول جبل أحد، وقرأ الجمهور: ﴿تَنْبُتُ﴾ بفتح التاء وضم الباء، فالتقدير تنبت ومعها الدهن؛ كما تقول خرج زيد الجمهور: ﴿تَنْبُتُ﴾ بفتح التاء وضم الباء، فالتقدير تنبت ومعها الدهن؛ كما تقول خرج زيد

(١) ينظر: «المحور الوجيز» (١٣٩/٤).

(٢) (سيحان) نهر كبير بالثغر، من نواحي المضيفة، وهو نهر أدنة بين أنطاكية والروم، يمر بأدنة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال؛ فيصب في بحر الروم.

(٣) الفرات: وهو النهر المعروف.

(٤) نيل مصر: قيل هو تعريب نيلوس، فليس في الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال إلا هو، ولا أطول منه.

(٥) ينظر: «المحور الوجيز» (١٣٩/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٨/٩) رقم (٢٥٤٨١)، وذكره ابن عطية (١٣٩/٤).

(٧) أخرجه الطبري (٢٠٧/٩) (٢٥٤٧٩) وذكره البغوي (٣٠٦/٣)، وابن عطية (١٣٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤/٥)، وعزه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

بسلّاحه، وقرأ ابن كثير^(١) وأبو عمرو: «تُنْبِتُ» بضم التاء [وكسر الباء]^(٢) واختلّف في التقدير على هذه القراءة، فقالت [فرقة: الباء زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾] [البقرة: ١٩٥]، وقالت^(٣) فرقة: التقدير تُنْبِتُ جناها ومعه الدُّهُنُ، فالمفعول محذوف، وقيل: نبت وأنبت بمعنى؛ فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور، والمراد بالآية تعديد النعم على الإنسان، وبأبي الآية يَبْنِي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم... الآية: هذا ابتداء تمثيل لكفار قريش بأمم كفرت بأنبيائها فأهلَكُوا، وفي ضمن ذلك الوعيد بأن يحلّ بهؤلاء نحو ما حلّ بأولئك، والملأ: الأشراف، والجنة، الجنون، و﴿حتى حين﴾ معناه إلى وقت يريحكم القدر منه، ثم إن نوحاً عليه السلام دعا على قومه حين يئس منهم، وإن كان دعاؤه في هذه الآية ليس بنص؛ وإنما هو ظاهر من قوله: ﴿بما كذبون﴾ فهذا يقتضي طلب العقوبة، وأمّا النصرة بمجرد فكانت تكون بردهم إلى الإيمان.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا فَبَدَأَ الْجُنُودَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِينَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٧) ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ السَّلَامُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ الْقَوْمِ الْفَاطِلِينَ﴾ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَرْزُقْنِي مِزْلًا مَّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ﴾ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ (٣٠).

وقوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا فَبَدَأَ الْجُنُودَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِينَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ * فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله في قوله: ﴿بأعيننا﴾ عبارة عن الإدراك هذا مذهب الحنّاق، ووقفت الشريعة على أعين وعين، ولا يجوز أن يقال: عينان من حيث لم توقف الشريعة على الثنية، و﴿وحينا﴾ معناه في كيفية العمل، ووجه البيان لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه، و﴿أمرنا﴾ يحتمل أن

(١) ينظر: «السبعة» (٤٤٥)، و«الحجّة» (٢٩١/٥)، و«إعراب القراءات» (٨٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٨٨)، و«شرح الطيبة» (٧٥/٥)، و«العنوان» (١٣٦)، و«حجّة القراءات» (٤٨٤)، و«شرح شعلة» (٥٠٧)، و«إتحاف» (٢/٢٨٢).

(٢) سقط في جـ.

(٣) سقط في جـ.

يكون واحد الأوامر، ويحتمل أن يريد واحد الأمور، والصحيح من الأقوال في «التنوير» أنه تنور الخيز، وأنها أمانة كانت بين الله تعالى وبين نوح - عليه السلام -.

٣٠ ب وقوله: «فأسلك»: معناه: فادخل؛ يقال سلك وأسلك بمعنى، وقرأ حفص / عن عاصم^(١): «مِنْ كُلِّ» بالتنوين، والباقون بغير تنوين، والزوجان: كُلُّ ما شأنه الاصطحاب من كل شيء؛ نحو: الذكر والأنثى من الحيوان، ونحو: النعال وغيرها، هذا موقع اللفظة في اللغة.

وقوله: «وأهلك»: يريد: قرابته، ثم استثنى من سبق عليه القول بأنه كافر، وهو ابنه وإمرأته، ثم أمر نوح ألا يراجع ربه، ولا يخاطبه شافعاً في أحد من الظالمين، ثم أمر بالدعاء في بركة المنزل.

وقوله سبحانه: «إن في ذلك لآيات» خطاب لبني محمد ﷺ ثم أخبر سبحانه أنه يبتيلى عباده الزمن بعد الزمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار، واللام في «لمبتلين» لام تأكيد، و«مبتلين»: معناه: مُصِيبِينَ ببلاء، ومختبرين اختباراً يؤدي إلى ذلك.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَّآخِرِينَ ٢١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ٢٢ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٢٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ٢٤ أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ إِنَّا وَتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ٢٥ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تَعُدُّونَ ٢٦ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٢٧ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ٢٨ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ٢٩﴾

وقوله سبحانه: «ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين».

قال الطبري^(٢) - رحمه الله -: إن هذا القرن هم ثمود، قوم صالح.

قال ع*^(٣): وفي جُل الروايات ما يقتضي أن قوم عاد أقدم، إلا أنهم لم يهلكوا

بصيحة.

(١) والمعنى على هذه القراءة: من كل شيء.

ينظر: «السبعة» (٤٤٥)، و«الحجة» (٢٩٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٨٩/٢)، و«العنوان» (١٣٦)،

و«حجة القراءات» (٤٨٦)، و«إنحاف» (٢٨٣/٢).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢١٢/٩).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٢/٤).

قلت: وهو ظاهر ترتيب قَصَصِ القرآن أَنَّ عاداً أقدم، «وأترفناهم» معناه نَعَمَتَاهُم، وبسطنا لهم الأموال والأزْزَاقَ وقولهم: «أبعدكم» استفهام على جهة الاستبعاد و«أنكم»: الثانية بَدَلٌ من الأولَى عند سيبويه، وقولهم: «هيهات هيهات» استبعاد، وهيهات أحياناً تلي الفاعل دون لام، تقول هيهات مجيء زيد، أي: بعد ذلك، ومنه قول جرير: [الطويل]:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وَهَيْهَاتَ خِلٌ بِالْعَقِيقِ نَوَاصِلُهُ^(١)
وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً، وذلك عند وجود اللام كهذه الآية، التقدير: بعد الوجود؛ لما توعدون.

قال *ص*: رُذِّدَ بَأَنَّ فيه حذفَ الفاعل، وحذفَ المصدر وهو الوجود وذلك غير جائز عند البصريين، وذكر أبو البقاء: أَنَّ اللام زائدة و«ما» فاعل، أي: بعد ما توعدون.

قال أبو حيان^(٢): وهذا تفسير معنى لا إعراب؛ لأنَّه لم تثبت مصدرية «هيهات»، انتهى. وقولهم: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» أرادوا: أَنَّهُ لَا وجودَ لنا غيرَ هذا الوجود؛ وإنَّما تموتُ مِنَّا طائفة فتذهب، وتجيء طائفة جديدة، وهذا هو كُفْرُ الدَّهْرِيةِ.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضِیْحَنَّ نَادِمِينَ﴾ (٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُشَاءً فَبَعَثْنَا لِقَوْمِ الْفَظَّالِينَ﴾ (٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٤٣) ﴿مَا نَسِيقُ مِنَ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ (٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَثْنَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٤٦) ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (٤٧) ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾ (٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ (٤٩).

وقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضِیْحَنَّ نَادِمِينَ﴾ المعنى: قال الله لهذا النَّبِيِّ الدَّاعِي: عَمَّا قَلِيلٍ يندم قومك على كفرهم حين لا ينفعهم الندم، ومن ذكر الصَّيْحَةُ ذهب الطبري^(٣) إلى

(١) البيت لجرير في «ديوانه» ص ٩٦٥؛ و«الأشباه والنظائر» (١٣٣/٨)، و«الخصائص» (٤٢/٣)، و«الدرر» (٣٢٤/٥)، و«شرح التصريح» (٣١٨/١)، (١٩٩/٢)، و«شرح شواهد الإيضاح» ص ١٤٣، و«شرح المفصل» (٣٥/٤)، و«لسان العرب» (٥٥٣/١٣) (هـ)، و«المقاصد النحوية» (٧/٣)، (٣١١/٤)، وبلا نسبة في «أوضح المسالك» (١٩٣/٢)، (٨٧/٤)، و«سمط اللالي» ص ٣٦٩، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص ١٠٠١.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٣٧٤/٦).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢١٢/٩).

أنهم قوم ثمود.

وقوله: ﴿بالحق﴾ أي: بما استحقوا بأفعالهم وبما حَقَّ مِنَّا في عقوبتهم، والغناء: ما يحمله السِّلُّ من زَبَدِهِ الذي لا يُتَفَعُّ به، فَيَسْبُهُ كُلُّ هَامِدٍ وتالف بذلك.

قال أبو حيان^(١): «ويعداً» منصوبٌ بفعل محذوف، أي: بَعُدُوا بُعْدًا، أي: هلكوا، انتهى، ثم أخبر سبحانه: إِنَّهُ أنشأ بعد هؤلاء أُمَمًا كثيرة، كُلُّ أُمَّةٍ بأجل، وفي كتاب لا تتعداه في وجودها وعند موتها، وتترى: مصدر من تَوَاتَرَ الشيء.

وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي: في الإهلاك.

وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ يريد أحاديث مَثَلٍ، وَقَلَّمَا يُسْتَغْمَلُ الْجَعْلُ حديثاً ١٣١ إِلَّا فِي الشَّرِّ، و﴿عالين﴾ / معناه: قاصدين لِلْعُلُوِّ بالظلم، وقولهم: ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ معناه: خادمون متذللون، والطريق الْمُعْبَدُ الْمُذَلَّلُ، و﴿من المهلكين﴾: يريد بالغرق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني: التوراة، و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يريد: بني إسرائيل؛ لِأَنَّ التوراة إِنَّمَا نزلت بعد هلاكِ فرعونَ وَالْقَبْطِ، والربوة: المُرْتَفِعُ من الأرض، والقرار: التَّمَكُّنُ، وَبَيَّنَّ أَنَّ ماء هذه الربوة يرى معيناً جارياً على وجه الأرض؛ قاله ابن عباس^(٢)، والمعين: الظاهرُ الجري للعين، فالميم زائدة، وهو الذي يُعَايَنُ جريه، لا كالبئر ونحوه، ويحتمل أن يكون من قولهم: معن الماء إِذَا كَثُرَ، وهذه الربوة هي الموضع الذي قَرَّتْ إِلَيْهِ مَرْيَمُ وَقَتَ وضع عيسى عليه السلام هذا قول بعض المفسرين، واختلف الناس في موضع الربوة، فقال ابن المَسَيَّبِ^(٣): هي العُوْطَةُ بدمشق وهذا أشهر الأقوال؛ لِأَنَّ صفة العُوْطَةِ أَنَّهَا ذات قرار ومعين على الكمال.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٣٧٥).

(٢) أخرجه الطبري (٩/٢١٩) (٢٥٥٢٣)، وذكره ابن عطية (٤/١٤٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٤٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٧)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٩/٢١٨) (٢٥٥١٤)، وذكره البغوي (٣/٣١٠)، وذكره ابن عطية (٤/١٤٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٢٤٦)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٨). وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن سعيد بن المسيب.

وقال كَغَبِ الْأَخْبَارِ^(١): الربوة بيت المقدس، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء وأنه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً.

قال ع^(٢): * ويترجح: أن الربوة في بيت لحم من بيت المقدس؛ لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحيث كان الإيواء، وقال ابن العربي في «أحكامه»: اختلف الناس في تعيين هذه الربوة على أقوال منها: ما تُفسر لغة ومنها: ما تُفسر نقلاً، فيفتقر إلى صحة سنده إلى النبي ﷺ، إلا أن ها هنا نُكتة، وذلك أنه إذا نُقل للناس نقل تواتر أن هذا موضع كذا، وأن هذا الأمر جرى كذا - وقع العلم به، ولزم قبوله، لأن الخبر المتواتر ليس من شرطه الإيمان، وخبر الآحاد لا بد من كون المُخبر به بصفة الإيمان؛ لأنه بمنزلة الشاهد، والخبر المتواتر بمنزلة العيان، وقد بيّنا ذلك في «أصول الفقه»^(٣)، والذي شاهدت عليه الناس ورأيتهم يعينونه تعيين تواتر - موضع في سفح الجبل في غربي دمشق، انتهى، وما ذكره: من أن التواتر ليس من شرطه الإيمان هذا هو الصحيح، وفيه خلاف إلا أننا لا نُسلم أن هذا متواتر؛ لاختلال شرطه، انظر «المتهى» لابن الحاجب.

يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّبَائِفِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ وَجَدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِجُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَصْرَتِهِمْ حَتَّى جَاءَ جِبْنَ ﴿٥٤﴾ أَحْسَبُونَ أَنَّمَا يُنذِرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ سَاعٍ لَكُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةٍ رَيْبِهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَيْبِهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَرِيهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَيْبِهِمْ رَجِعُونَ ﴿٦٠﴾

- (١) أخرجه الطبري (٢١٩/٩) (٢٥٥١٨)، وذكره البغوي (٣/٣١٠)، وابن عطية (٤/١٤٥).
- (٢) ينظر: «المحور الوجيز» (٤/١٤٥).
- (٣) ينظر: الكلام عن التواتر في «البحر المحيط» للزركشي (٤/٢٣١)، «البرهان» لإمام الحرمين (١/٥٦٦)، «الإحكام في أصول الأحكام» للأمدى (٢/١٤)، «نهاية السؤل» للإسنوي (٣/٥٤)، «منهاج العقول» للبدخشي (٢/٢٩٦)، «غاية الوصول» للشيخ زكريا الأنصاري (٩٥)، «التحصيل من المحصول» للأرموي (٢/٩٥)، «المنقول» للغزالي (٢٣١)، «المستصفى» له (١/١٣٢)، «حاشية البنانى» (٢/١١٩)، «الإبهاج» لابن السبكي (٢/٢٦٣)، «الآيات البينات» لابن قاسم العبادي (٣/٢٠٦)، «حاشية المطار على جمع الجوامع» (٢/١٤٧)، «المعتمد» لأبي الحسين (٢/٨٦)، «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (١/١٠١)، «تيسير التحرير» لأمير بادشاه (٣/٢٣٢)، «كشف الأسرار» للنسفي (٢/٤)، «شرح التلويح على التوضيح» لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني (٢/٣)، «شرح المنار» لابن ملك (٧٨)، «ميزان الأصول» للسمرقندي (٢/٦٢٧)، «تقريب الوصول» لابن جزي (١١٩)، «إرشاد الفحول» للشوكاني (٤٦).

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون معناه: وقلنا يا أيها الرسل، وقالت فرقة: الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرسل﴾ للنبي ﷺ.

قال *ع^(١): والوجه في هذا أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، وخرج بهذه الصيغة، لِيُفْهَمَ وَجِيزاً أَنَّ الْمَقَالَةَ قَدْ خُوطِبَ بِهَا كُلُّ نَبِيٍّ، أَوْ هِيَ طَرِيقَتُهُمُ الَّتِي يَنْبَغِي لَهُمُ الْكُونُ عَلَيْهَا؛ كَمَا تَقُولُ لِعَالَمٍ: يَا عُلَمَاءُ إِنَّكُمْ أَثَمَةٌ يُفْتَدَى بِكُمْ؛ فَمَسْكُوا بِعِلْمِكُمْ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ^(٢): الْخَطَابُ لِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.

قلت: والصحيح في تأويل الآية: أنه أمر للمُرْسَلِينَ كما هو نص صريح في الحديث الصحيح؛ فلا معنى للتردد في ذلك، وقد روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» / [المؤمنون: الآية ٥١]. وقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» [البقرة: ١٧٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ [حرام]^(٣) وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟!^(٤) اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، وهذه الآية تقوي أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرسل﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وإذا قُدِّرَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الرسل﴾ مخاطبة للنبي ﷺ - قَلِقَ اتِّصَالُ هَذِهِ وَاتِّصَالُ قَوْلِهِ: «فَتَقَطَّعُوا»، ومعنى الأُمَّة هنا: المِلَّةُ والشريعة، والإشارة بهذه إلى الحنيفية السمحة مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو دين الإسلام.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٦/٤).

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٢٠/٩).

(٣) سقط في جـ.

(٤) أخرجه مسلم (٧٠٣/٢) كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث (١٠١٥/٦٥)، والترمذي (٢٢٠/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة البقرة، حديث (٢٩٨٩)، والدارمي (٣٠٠/٢)، وأحمد (٣٢٨/٢) كلهم من طريق الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وإنما نعرفه من حديث فضيل بن مرزوق.

وقوله سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ يريد الأمم، أي: افترقوا، وليس بفعل مُطَاوَع؛ كما تقول: تقطع الثوب؛ بل هو فعل مُتَعَدٍّ بمعنى قطعوا، وقرأ نافع^(١): «زُبْرًا» جمع زبور، وهذه القراءة تحتل معنيين:

أحدهما: أَنَّ الأمم تنازعت كتباً مُنَزَّلَةً فَاتَّبَعَتْ فرقة الصُّحُفَ، وفرقة التوراة، وفرقة الإنجيل، ثم حَرَفَ الكُلُّ وَبَدَّلَ، وهذا قول قتادة^(٢) - والثاني: أَنَّهُم تنازعوا أمرهم كتباً وضعوها وضلالة أَلْفُوهَا؛ قاله ابن زيد^(٣)، وقرأ أبو عمرو^(٤) بخلاف: «زُبْرًا» بضم الزاي وفتح الباء، ومعناها: فرقاً كزبر الحديد، ومن حيث كان ذكرُ الأمم في هذه الآية مثلاً لقريش - خاطب الله سبحانه نبيّه محمداً ﷺ في شأنهم مُتَّصِلاً بقوله: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أي: فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة مَنْ تقدم، والغمرة: ما عَمَّهُمْ من ضلالهم وفعل بهم فعل الماء الغمر بما حصل فيه، والخيرات هنا نِعَمُ الدنيا.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ...﴾ الآية: أسند الطبري^(٥) عن عائشة أنها قالت: قلت: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أهى في الذي يَزْنِي وَيَسْرِقُ؟ قال: «لا، يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، بَلْ هِيَ فِي الرَّجُلِ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَقَلْبُهُ وَجَلٌ، يَخَافُ أَلَّا يَقْبَلَ مِنْهُ»^(٦).

-
- (١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٧/٤).
- (٢) أخرجه الطبري (٢٢١/٩) برقم (٢٥٥٣٣) وذكره البغوي (٣/٣١١)، وابن عطية (٤/١٤٧)، والسيوطي (٥/٢٠)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة بنحوه.
- (٣) أخرجه الطبري (٢٢٢/٩) برقم (٢٥٥٣٧)، وذكره ابن عطية (٤/١٤٧)، والسيوطي (٥/٢٠)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد نحوه.
- (٤) ينظر: مصادر القراءة السابقة.
- (٥) ينظر: «الطبري» (٢٢٥/٩) رقم (٢٥٥٦٢).
- (٦) أخرجه الترمذي (٥/٣٢٧-٣٢٨) كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنين، حديث (٣١٧٥)، وابن ماجه (٢/١٤٠٤) كتاب الزهد: باب التوقي على العمل، حديث (٤١٩٨)، وأحمد (٦/١٥٩، ٢٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٩/٢٢٥) رقم (٢٥٥٦٠)، والحاكم (٢/٣٩٣-٣٩٤) كلهم من طريق مالك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة به.
- وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢١)، وزاد نسبه إلى القريائي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «نعت الخائفين»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

قال *ع^(١): ولا نظَرَ مع الحديث، والوَجَلُ: نحو الإشفاق والخوف، وصورة هذا الوجَلِ إمَّا الْمُخَلَّطُ؛ فينبغي أن يكونَ أبدأً تحت خوف من أن يكونَ ينفذ عليه الوعيد بتخليطه، وإمَّا التَّقِيُّ أو التائب، فخوفه أمرُ الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وفي قوله تعالى: ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾: تنبيهٌ على الخاتمة، وقال الحسن: معناه الذين يفعلون ما يفعلون من البرِّ، ويخافون ألا يُنَجِّيَهُمْ ذلك من عذاب ربِّهم^(٢)، وهذه عبارة حسنة، ورُوِيَ عن الحسنِ أيضاً أنه قال: المؤمن يجمع إحساناً وشفقةً، والمنافق يجمع إساءةً وأمناً^(٣).

قلت: ولهذا الخطبِ العظيم أطال الأولياء في هذه الدار حُزْنَهُمْ وأجروا على الوجنات^(٤) مدامعهم.

قال ابن المبارك في «وقائعه»: أخبرنا سفيان قال: إنما الحُزْنُ على قَدْرِ البصيرة^(٥).

قال ابن المبارك: وأخبرنا مالك بن مغول عن رجل عن الحسن قال: ما عُبدَ الله بمثل طُولِ الحُزْنِ^(٦)، وقال ابن المبارك أيضاً: أخبرنا مسعر عن عبد الأعلى التميمي قال: إِنَّ مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُنْكِيهِ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ علماً ينفعه؛ لأنَّ الله تعالى نَعَتَ الْعُلَمَاءَ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ / إلى قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾^(٧) [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]. انتهى.

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ سَفَوْنَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يظَلُمُونَ ﴿١٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٣﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿١٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٤٨/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٤/٩) برقم (٢٥٥٤٧)، وذكره البغوي (٣/٣١١)، وابن عطية (١٤٨/٤)، والسيوطي (٢٢/٥)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري (٢٢٤/٩) برقم (٢٥٥٤٩)، وذكره ابن عطية (١٤٨/٤)، والسيوطي (٢١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) الوجنة: ما ارتفع من الخدين بين الصُّدْغَيْنِ وكففي الأنف.

ينظر: «لسان العرب» (٤٧٧٤).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤٢) رقم (١٢٨).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤١) رقم (١٢٦).

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤١) رقم (١٢٥).

وقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: إليها سابقون، وهذا قول بعضهم في قوله: ﴿لَهَا﴾، وقالت فرقة: معناه وهم من أجلها سابقون، وقال الطبري عن ابن عباس: المعنى: سبقَتْ لهم السعادة في الأزل؛ فهم لها^(١)، وَرَجَحَهُ الطبري^(٢) بأنَّ اللام متمكنة في المعنى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أظهر ما قيل فيه أنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة، وقيل: الإشارة إلى القرآن، والأول أظهر.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اخْتَلَفَ في الإشارة بقوله: ﴿مِنْ هَذَا﴾ هل هي: إلى القرآن، أو إلى كتاب الإحصاء، أو إلى الدين بجملته، أو إلى النبي ﷺ؟ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أي: من الفساد ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: في الحال والاستقبال، والمُتَرَفُّ: المُتَعَمِّمُ في الدنيا، الذي هو منها في سَرْفٍ، ﴿وَيَجَارُونَ﴾ معناه: يستغيثون بصياح كصياح البقر، وكَثُرَ استعمال الجُؤَارِ في البَشَرِ؛ ومنه قول الأعشى: [المقارب]

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِكِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا^(٣)
وقال ص*ص*: جَارَ الرجلُ إلى الله تعالى، أي: تَضَرَّعَ؛ قاله الحوفي، انتهى، وذهب مجاهد وغيره إلى أَنَّ هذا العذاب المذكور هو الوعيدُ بيوم بَذَرٍ^(٤)، وقيل: غير هذا.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَجْتَرُوا يَوْمَ﴾ أي: يقال لهم يوم العذاب: لا تجأروا اليوم.

﴿فَدَكَانَتْ ءَايَتِي ثُلَاثًا عَلَيْكُمْ فَكَثُرَ عَلَىٰ عَقَبِكُمْ لَنُكَصِّنَنَّ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا

(١) أخرجه الطبري (٢٢٦/٩) برقم (٢٥٥٦٥)، وذكره البغوي (٣/٣١٢)، وذكره ابن عطية (٤/١٤٨)، والسيوطي (٥/٢٢)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: الطبري (٢٢٦/٩).

(٣) في «ديوانه» (٧٦) وينظر البيت في «تفسير الطبري» (٢/١٠٥)، والصاحبي (٨٤)، و«البحر المحيط» (٥/٥٠٠)، و«روح المعاني» (١٤/١٦٥)، و«الدر المصون» (٤/٣٣٦).

(٤) أخرجه الطبري (٩/٢٢٨، ٢٢٩) برقم (٢٥٥٨١) عن مجاهد، وبرقم (٢٥٥٨٣) عن ابن جرير، وبرقم (٢٥٥٨٤) عن الضحاك، وذكره ابن عطية (٤/١٤٩)، والسيوطي (٥/٢٣)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، وعزاه أيضاً للنسائي عن ابن عباس.

وعزاه أيضاً لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد عن سعيد بن جبير.

تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَنْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْآيَاتُ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ قَتَلْتَهُمْ خَيْرًا فَخَرَّاجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُّونَ ﴿٧٦﴾ .

وقوله: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾ يعني القرآن و﴿تنكصون﴾ معناه: ترجعون وراءكم، وهذه استعارة للإعراض والإدبار عن الحق و﴿مستكبرين﴾ حال والضمير في ﴿به﴾: عائد على الحرم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكر؛ لشهرته، والمعنى: إنكم تعتقدون في نفوسكم أن لكم بالمسجد الحرام أعظم الحقوق على الناس والمنزلة عند الله، فأنتم تستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق.

وقالت فرقة: الضمير عائد على القرآن والمعنى: يُخَدِّثُ لَكُمْ سَمَاعُ آيَاتِي كِبَرًا وَطُغْيَانًا، وهذا قولٌ جيّدٌ، وذكر منذر بن سعيد: أن الضمير للنبي ﷺ وهو مُتَعَلِّقٌ بما بعده، كأن الكلام تَمَّ في قوله: ﴿مستكبرين﴾ ثم قال: بمحمد عليه السلام سامراً تهجرون، و﴿سامراً﴾ حال، وهو مفرد بمعنى الجمع؛ يقال: قوم سَمَرٌ وَسَمَرَةٌ وَسَامِرٌ، ومعناه: سَهْرٌ الليل مأخوذ من السَمَر وهو ما يقع على الأشخاص من ضوء القمر، وكانت العرب تجلس للسمر تتحدث وهذا أَوْجَبُ معرفتها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع من الغوارب، وقرأ أبو^(١) رجاء: «سَمَاراً» وقرأ ابن عباس^(٢) وغيره: «سمرا» وكانت قریش تَسْمُرُ حول الكعبة في أباطيلها وكفرها، وقرأ السبعة^(٣) غير نافع: «تَهْجُرُونَ» بفتح التاء

(١) وقرأ بها ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو نهيك، وزيد بن علي. قال أبو الفتح: فهذا ك: كاتب وكتاب، وشارب وشراب.

ينظر: «الشواذ» (١٠٠)، و«المحتسب» (٩٦/٢)، و«المحرر الوجيز» (١٥٠/٤)، و«البحر المحيط» (٣٨١/٦)، و«الدر المصون» (١٩٦/٥).

(٢) وقرأ بها ابن مسعود، وأبو حيوة، وعكرمة، وابن محيصن، والزعفراني، ومحبوب عن أبي عمرو. ينظر مصادر القراءة السابقة.

(٣) ينظر: «الحجة» (٢٩٨/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٢/٢)، و«معاني القراءات» (١٩٢/٢)، و«العنوان» (١٣٧)، و«شرح الطيبة» (٧٧/٥)، و«حجة القراءات» (٤٨٩)، و«شرح شملة» (٥٠٨)، و«إتحاف» (٢/٢٨٦).

وضم الجيم؛ قال ابن عباس^(١) معناه: تهجرون الحقَّ وذكَّر الله، وتقطعونه؛ من الهجران المعروف، وقال ابن زيد^(٢): هو من هجر المريض: إذا هذى، أي: تقولون اللغو من القول؛ وقاله أبو حاتم، وقرأ نافع وحده: «تُهَجِّرُونَ» بضم التاء وكسر الجيم وهي قراءة أهل المدينة، ومعناه: تقولون الفُحْشَ والهجر من القول، وهذه إشارة إلى سَبِّهِمُ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه؛ قال ابن عباس^(٣) أيضاً وغيره، ثم ويخهم سبحانه بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ لأنهم بعد التدبر والنظر الفاسد / قال بعضهم: سَخَّرَ وغير ذلك، أم ٣٢ ب جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين أي: ليس يبدع بل قد جاء آباءهم الأولين، وهم سالف الأمم الرُّسُلُ؛ كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل وغيرهم، وفي هذا التأويل من التَّجَوُّزِ أَنْ جَعَلَ سالف الأمم، آباء؛ إذ الناس في الجملة آخرهم من أولهم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ المعنى: ألم يعرفوا صدقه وأمانته مدَّةَ عمره ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

قال ابن جريج^(٤)، وأبو صالح: الحقُّ: الله تعالى.

قال *ع^(٥): * وهذا ليس من نَمَطِ الآية، وقال غيرهما: الحق هنا: الصواب والمستقيم.

قال *ع^(٦): * وهذا هو الأخرى، ويستقيم على هذا فساد السموات والأرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء؛ وذلك أنهم جعلوا لله شركاء وأولاداً، ولو كان هذا حقاً لم تكن لله عز وجل الصفات العليَّة، ولو لم تكن له سبحانه - لم تكن الصَّنَعَةُ، ولا الْقُدْرَةُ كما هي، وكان ذلك فساد السموات والأرض ومن فيهن: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

(١) أخرجه الطبري (٢٣١/٩) برقم (٢٥٦٠٨)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٠)، والسيوطي (٥/٢٤)، وعزاه للطستي عن ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٢/٩) برقم (٢٥٦١٤)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٠).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٢/٩) برقم (٢٥٦١٥)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٠)، والسيوطي (٥/٢٤)، وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٢٣٤/٩) برقم (٢٥٦٢٣) عن أبي صالح، وبرقم (٢٥٦٢٥) عن ابن جريج، وذكره البغوي (٣/٣١٣)، وابن عطية (٤/١٥١)، وابن كثير (٣/٢٥٠) والسيوطي (٥/٢٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي صالح.

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٥١).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٥١).

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ قال ابن عباس^(١): بوعظهم، ويحتمل: بشرفهم، وهو مزوي.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ الخَرْجُ والخراج بمعنى، وهو: المال الذي يُجَبَى وَيُؤْتَى به لأوقات محدودة.

وقوله سبحانه: ﴿فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ﴾ يريد ثوابه، ويحتمل أن يريد بخراج ربك: رِزْقَه، وَيُؤَيِّدُه قوله: ﴿وهو خير الرازقين﴾.

و«الصرط المستقيم» دين الإسلام، «وناكبون»: أي: مجادلون ومُغْرِضُونَ، وقال البخاري: ﴿لناكبون﴾: لعادلون، انتهى.

قال أبو حيان^(٢): يقال: نكب عن الطريق وَنَكَبَ بالتشديد، أي: عَدَلَ عنه، انتهى، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم الْقَحْطُ، وَمَنَّ اللَّهُ عليهم بالخصب، وَرَجَمَهُمْ بذلك - لبقوا على كفرهم وَلَجُوا في طغيانهم، وهذه الآية نزلت في المُدَّة التي أصاب فيها قريشاً السُّنُونُ الجَذْبَةُ والجُوع الذي دعا به النبي ﷺ في قوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(٣) الحديث.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾، قال ابن عباس وغيره^(٤): هو الجُوع والجَذْبُ حَتَّى أَكَلُوا الجلود وما جرى مجراها، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ لما بلغهم الجَهْدُ رَكِبَ أبو سفيان، وجاء إلى النبي ﷺ بالمدينة فقال: يا محمد، أَلَسْتُ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً للعالمين؟ قال: بلى، قَالَ: قَدْ قَتَلْتُ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، وَقَدْ أَكَلْنَا الْعِلَهَ^(٥)؛ فنزلت^(٦) الآية،

(١) أخرجه الطبري (٢٣٤/٩) برقم (٢٥٦٢٦)، وذكره البغوي (٣/٣١٤)، وابن عطية (٤/١٥١)، والسيوطي (٥/٢٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٣٨٣).

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الطبري (٩/٢٣٥) برقم (٢٥٦٣٢)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٢).

(٥) الْعِلَهُ: وَبَرٌّ يُخْلَطُ بدماء الْحَلَمِ، كانت العرب تأكله في الجاهلية؛ تأكله في الجذب.

(٦) أخرجه النسائي في «التفسير» (٢/٩٨-٩٩) رقم (٣٧٢)، والطبري في «تفسيره» (٩/٢٣٥-٢٣٦) رقم (٢٥٦٣٢)، وابن حبان (١٧٥٣- موارد)، والطبراني (١١/٣٧٠) رقم (١٢٠٣٨)، والحاكم (٢/٣٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٩٠-٩١) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢٦)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

﴿استكانوا﴾ معناه: تواضعوا وانخفضوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لِمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد...﴾ الآية توعّد بعذاب غير مُعَيَّن، وهذا هو الصواب، وهذه المَجَاعَةُ إِنَّمَا كانت بعد وقعة بدر، والمُبْلِسُ الذي قد نزل به شَرٌّ وَيَسُسُ من زواله ونَسْخِهِ بخير، ثم ابتدأ تعالى بتعديد نِعَمٍ في نفس تعديدها استدلالاً بها على عِظَمِ قدرته سبحانه، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار...﴾ الآية، أنشأ بمعنى: اخترع، والأفئدة: القلوب، وذراً: بَثٌّ وخلق.

وقوله: ﴿بل﴾ إضراب، والجَحْدُ قبله مُقَدَّر / كأنه قال: ليس لهم نظر في هذه ١٣٣ الآيات أو نحو هذا، و﴿الأولون﴾: يشير به إلى الأمم الكافرة: كعاد وثمود.

وقوله تعالى: ﴿لقد وعدنا نحن وءابؤنا هذا من قبل...﴾ الآية، قولهم: ﴿وءابؤنا﴾ إِن حُكِيَ المقالة عن العرب فمراؤهم مَن سَلَفَ من العالم، جعلوهم آباء من حيث النوع واحد، وكونهم سلفاً، وفيه تَجَوُّزٌ، وَإِن حُكِيَ ذلك عن الأولين فالأمر مستقيم فيهم.

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِيعِ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُورُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن يَبْدؤُا مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنشَأْنَاهُم بِالْحَقِّ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأني تسحرون * أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام بتوقيفهم على هذه الأشياء التي لا

يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار [بها]^(١) توحيد الله وإدعانهم لشرعه ورسالة رسله، وقرأ الجميع^(٢) في الأول: «الله» بلا خلاف، واختلف في الثاني والثالث، فقرأ أبو عمرو وحده: «الله» جواباً على اللفظ، وقرأ باقي السبعة: «الله» جواباً على المعنى، كأنه قال في السؤال: لمن ملك السموات السبع؟

وقوله سبحانه: ﴿فَأَنىٰ تَسْحَرُونَ﴾ استعارة وتشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها ما يقع من المسحور؛ عبّر عنهم بذلك.

وقالت فرقة: ﴿تَسْحَرُونَ﴾ معناه: تمنعون، وحكى بعضهم ذلك لغة، والإجارة: المنع، والمعنى: أن الله تعالى إذا أراد منع أحد فلا يقدر عليه، وإذا أراد أخذه فلا مانع له.

وقوله سبحانه: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي: فيما ذكره من الصاحبة، والولد، والشريك، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وفي قوله سبحانه: ﴿وما كان معه من إله﴾ [الآية]^(٣). دليل [التمانع]^(٤) وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. [الأنبياء: الآية ٢٢]. والجزء المخترع محال أن تتعلّق به قدرتان فصاعداً، وقد تقدم الكلام على هذا الدليل؛ فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿إِذَا﴾ جوابٌ لمحذوف تقديره: لو كان معه [إله]^(٥) إذا ذهب.

﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَنَدِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِأَلْمِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

(١) سقط في ج.

(٢) ينظر اتفاق الجميع على هذا الحرف، واختلافهم في الثاني والثالث، يعني في قوله تعالى «الله» من الآيتين (٨٧)، (٨٩) - في: «السبعة» (٤٤٧)، و«الحجة» (٣٠٠/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٣/٢)، و«معاني القراءات» (١٩٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٧٨/٥)، و«العنوان» (١٣٧)، و«حجة القراءات» (٤٩٠)، و«شرح شعلة» (٥٠٩)، و«إتحاف» (٢٨٧/٢).

(٣) سقط في ج.

(٤) سقط في ج.

(٥) سقط في ج.

وقوله: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ المعنى: هو عالم الغيب، وقرأ أبو عمرو^(١) وغيره: «عَالِمٍ» بالجر؛ اتباعاً للمكتوبة.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَمَرَ اللَّهُ تعالى نبيه - عليه السلام - أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظلمة إن كان قُضِيَ أن يرى ذلك، «وإن» شرطية و«ما» زائدة و«تريني» جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة وهي لا تُفَارِقُ، «إمّا» عند المُبرِّد، ويجوزُ عند سيبويه أن تفارقَ، ولكن استعمال القرآن لزومها، فمن هنالك ألزمه المبرد، وهذا الدعاء فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأمر المعذب من أجله، ثم نظيره لسائر الأُمّة دُعَاءٌ في حسن الخاتمة، وقوله ثانياً: «رب» اعتراض بين الشرط وجوابه.

وقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أَمَرَ بالصفح ومكارم الأخلاق، وما كان منها لهذا فهو مُحَكَّمٌ باقٍ في الأُمّة أبداً، وما كان بمعنى المودعة فمنسوخ بآية القتال. وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقتضي أنها آية مُوَادَعَةٍ.

وقال مجاهد^(٢): الدفع بالتي هي أحسن: هو السلام، تُسَلِّمُ عليه إذا لَقِيْتَهُ.

وقال الحسن^(٣): واللّه لا يُصِيبُهَا / أَحَدٌ حَتَّى يَكْظِمَ غِيظَهُ، وَيَصْفَحَ عَمَّا يَكْرَهُ، وفي ٣٣ ب الآية عِدَّةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أي: اشتغل أنت بهذا وكل أمرهم إلينا، ثم أمره سبحانه بالتَعَوُّذِ من همزات الشياطين، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه؛ وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكُفَّار فتقع المجادلة، ولذلك اتَّصَلَتْ بهذه الآية، وقال ابن زيد: هَمَزُ الشَّيْطَانِ: الْجَنُونُ^(٤)، وفي «مُصَنَّفِ أَبِي دَاوُدَ»: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ: هَمَزُهُ، وَنَفَخِهِ، وَنَفَثِهِ»^(٥). قال أبو داود: همزه: المَوْتَةُ، ونفخه:

- (١) وقرأ بها ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم.
- ينظر: «السبعة» (٤٤٧)، و«الحجة» (٣٠١/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٤/٢)، و«معاني القراءات» (٢/١٩٥)، و«شرح الطيبة» (٧٩/٥)، و«شرح شملة» (٥٠٩) و«حجة القراءات» (٤٩١)، و«إتحاف» (٢/٢٨٧).
- (٢) أخرجه الطبري (٢٤١/٩) رقم (٢٥٦٤٥)، وذكره ابن عطية (١٥٥/٤).
- (٣) أخرجه الطبري (٢٤١/٩) رقم (٢٥٦٤٧)، وذكره ابن عطية (١٥٥/٤).
- (٤) أخرجه الطبري (٢٤٢/٩) برقم (٢٥٦٤٨)، وذكره ابن عطية (١٥٥/٤)، والسيوطي (٢٨/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد.
- (٥) أخرجه أبو داود (٢٦٢-٢٦٣) كتاب الصلاة: باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، حديث (٧٦٤)، وابن ماجه (٢٦٥/١) كتاب الصلاة: باب الاستعاذة في الصلاة، حديث (٨٠٧)، وأحمد (٨٥/٤) من حديث جبير بن مطعم.

الكِبَرُ، وَنَفَثُهُ: السحر.

قال *ع^(١)*: وَالْتَزَعَاتِ وسورات الغضبِ من الشيطان، وهي الْمُتَعَوِّذُ منها في الآية، وأصل الهمز: الدَّفْعُ والوَكْرُ بيدٍ أو غيرها.

قلت: قال صاحب «سلاح المؤمن»: وَهَمَزَاتُ الشياطين: خَطَرَاتُهَا التي تَخْطُرُهَا بقلب الإنسان، انتهى.

وقال الواحدي: همزات الشياطين: نَزَعَاتُهَا وَوَسَاوِسُهَا، انتهى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلَفَعُوا فِي وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ ﴿حتى﴾ في هذا الموضع حَرْفُ ابتداء، والضمير في قوله: ﴿أحدهم﴾ للكفار، وقوله: ﴿ارجعون﴾ أي: إلى الحياة الدنيا، والنون في: ﴿ارجعون﴾: نونُ العِظَمَةِ؛ وقال النبي ﷺ لعائشة: «إِذَا عَابَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَوْتَ، قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: تُرْجِعُكَ؟ فيقول: إلى دارِ الهمومِ وَالْأَحْزَانِ؟ بل قُدِّمًا إلى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيَقُولُ: ﴿ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾»^(٢).

وقوله: ﴿كلا﴾: رَدٌّ وزجر.

وقوله: ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ تحتل ثلاثة معاني:

أحدها: الإخبار المؤكَّد بأنَّ هذا الشيء يقع، ويقول هذه الكلمة.

الثاني: أن يكون المعنى: إنها كلمة لا تغني أكثر من أنَّه يقولها، ولا نفع له فيها ولا غَوْثٌ - الثالث: أن يكون إشارة إلى أنَّه لو رُدَّ لعاد، والضمير في: ﴿ورائهم﴾ للكفار، والبرزخ في كلام العرب: الحاجز بين المسافتين، ثم يُسْتَعَارُ لما عدا ذلك، وهو هنا: للمُدَّة التي بين موت الإنسان وبين بعثه؛ هذا إجماعٌ من المفسرين.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٥/٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٢/٩) رقم (٢٥٦٥٢) عن ابن جريج قال: زعموا أن النبي ﷺ قال لعائشة، فذكره.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٩/٥)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ...﴾ الآية: قال ابن مسعود^(١) وغيره: هذا عند النفخة الثانية وقيام الناس من القبور؛ فهم حينئذٍ لهول المَطْلَعِ واشتغال كل امرئ بنفسه قد انقطعت بينهم الوسائل، وزال انتفاع الأنساب؛ فلذلك نفاهاً سبحانه، والمعنى: فلا أنساب نافعة، ورؤي عن قتادة أنه: ليس أحد أبغض إلى الإنسان في ذلك اليوم ممن يعرف، لأنه يخاف أن يكون له عنده مظلمة^(٢)، وفي ذلك اليوم يفر المرء من أخيه؛ وأمه وأبيه؛ وصاحبه وبنيته، ويفرح كل أحد يومئذ أن يكون له حق على ابنه وأبيه، وقد ورد بهذا حديث، وكان ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه، ثم تأتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف.

قال *ع^(٣): وهذا التأويل حسن، وهو مروى المعنى عن ابن عباس^(٤)، وذكر البراء من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالْمِيزَانِ، فَيُؤْتَى بِإِنِّ آدَمَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كَفْئَتِي الْمِيزَانِ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ، نَادَى / الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ الْخَلَائِقُ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَ مِيزَانُهُ، نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ الْخَلَائِقُ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعُدُ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٥)، انتهى من «العاقبة». وروى أبو داود في «سننه» عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكِ؟ قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ، فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا، عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَغْلَمَ: أَيْخَفُ مِيزَانُهُ أَمْ يُثْقَلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حَتَّى يَقُولَ: «هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي» [الحاقة: ١٩]، حَتَّى يَغْلَمَ أَيْنَ يُعْطَى كِتَابُهُ: أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ، أَمْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصُّرَاطِ، إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ»^(٦)، انتهى. ولفح النار: إصابتها بالوهج والإحراق، والكلوح انكشاف الشفتين عن الأسنان، وقد شبه ابن

(١) أخرجه الطبري (٢٤٤/٩) برقم (٢٥٦٦٩) نحوه، وذكره البغوي (٣/٣١٧)، وابن عطية (٣/١٥٦)، والسيوطي (٥/٣٠)، وعزاه لابن المبارك في «الزهد»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في «الحلية»، وابن عساكر عن ابن مسعود بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٥/٩) برقم (٢٥٦٧١)، وذكره ابن عطية (٤/١٥٦)، والسيوطي (٥/٣٠)، وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٥٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٤٤/٩) برقم (٢٥٦٦٧) نحوه، وذكره البغوي (٣/٣١٧)، وابن عطية (٤/١٥٦).

(٥) أخرجه البزار (٣٤٤٥ - كشف) من حديث أنس بن مالك، وذكره الهيثمي (١٠/٣٥٣) وقال: رواه البزار، وفيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه.

(٦) أخرجه أبو داود (٢/٦٥٤) كتاب السنة: باب في ذكر الميزان، حديث (٤٧٥٥).

مسعود ما في الآية بما يعتري رؤوس الكِبَاشِ إذا شيطت بالنار؛ فإنَّها تكلح، ومنه كلوح الكلب والأسد^(١).

قلت: وفي «الترمذي» عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿وهم فيها كالحن﴾ قال: تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلع وسط رأسه، وتستزجي شفته السفلى حتى تضرب سرتة...^(٢) الحديث قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، انتهى.

وهذا هو المعول عليه في فهم الآية، وأمَّا قول البخاري: ﴿كالحن﴾^(٣) معناه: عابسون - فغير ظاهر، ولعله لم يقف على الحديث.

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُلَى عَلَيْنَا فَنَكُنْ بِهَا نَكِيرًا﴾ (١٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٦) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٧) ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ (١٨).

وقوله سبحانه: ﴿ألم تكن آتيتي﴾ أي: يقال لهم، والآيات هنا القرآن، وقرأ حمزة: «شَقَاوُنَا» ثم وقع جواب رغبتهم بحسب ما حتمه الله من عذابهم بقوله: ﴿اخسؤا فيها ولا تكلمون﴾ ويقال: إنَّ هذه الكلمة إذا سمعوها يسوا من كل خير، فتنطبق عليهم جهنم، ويقع اليأس - عافانا الله من عذابه بمته وكرمه -!

وقوله: ﴿اخسؤا﴾ زجر، وهو مستعمل في زجر الكلاب.

﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٩)

(١) أخرجه الطبري (٢٤٦/٩) برقم (٢٥٦٧٥)، وذكره ابن عطية (١٥٧/٤)، والسيوطي (٣١/٥) وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الترمذي (٧٠٨/٤) كتاب صفة جهنم: باب ما جاء في صفة طعام أهل النار، حديث (٢٥٨٧)، وفي (٣٢٨/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنين، حديث (٣١٧٦)، وأحمد (٨/٣)، والحاكم (٢/٣٩٥)، وأبو يعلى (٥١٦/٢) رقم (١٣٦٧) كلهم من طريق ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد البخدي مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣١/٥)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «صفة النار»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم في «الحلية».

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٩/٨) كتاب التفسير: باب سورة المؤمنين.

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٥﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٦﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَادِينَ ﴿١١٨﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لِئِنَّا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١٢٠﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٢١﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢٣﴾

وقوله عز وجل: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا ءامنا...﴾ الآية الهاء في ﴿إنه﴾: مُبْهَمَةٌ: وهي ضمير الأمر والشأن، والفريق المُشَارُ إليه: كُلُّ مُسْتَضْعَفٍ من المؤمنين يَتَّفِقُ أَنْ تكون حاله مع كُفَّارٍ مِثْلَ هذه الحال، ونزلت الآية في كُفَّارٍ قريشٍ مع صُهَيْبٍ، وعَمَّارٍ، وبلالٍ، ونظرائهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر، وقرأ نافع وحزمة والكسائي: «سُخْرِيًّا» بضم السين^(١)، والباقون بكسرها؛ فقليل همّا، بَمَعْنَى واحد؛ ذكر ذلك الطبري^(٢).

وقال ذلك أبو زيد الأنصاري: إنهما بمعنى الهُزءِ^(٣)، وقال أبو عبيدة وغيره: إِنَّ ضَم السين من السخرة والاستخدام، وكسرها من السخر وهو الاستهزاء^(٤)، ومعنى الاستهزاء هنا أليق؛ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ...﴾ الآية قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قال الطبري^(٥) معناه: فِي الدُّنْيَا أَحْيَاءَ، وَعَنْ هَذَا وَقَعَ السُّؤَالُ، وَتَسَوَّاهُ لَفْرَطٍ هَوْلُ الْعَذَابِ حَتَّى قَالُوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وَالْغَرَضُ تَوْقِيفُهُمْ عَلَى أَنَّ أَعْمَارَهُمْ قَصِيرَةٌ أَذَاهُمْ الْكُفْرُ فِيهَا إِلَى عَذَابٍ طَوِيلٍ، عَافَانَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ!

وقال الجمهور: معناه: كَمْ لَبِئْتُمْ فِي جَوْفِ التُّرَابِ أَمْوَاتًا؟ قَالَ ع*ع^(٦): * وهذا هو

(١) وحجتهم: إجماع الجميع على الرفع في سورة الزخرف، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. ينظر: «السبعة» (٤٤٨)، و«الحجة» (٣٠٢/٥)، و«إعراب القراءات» (٩٥/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/٨٠)، و«العنوان» (١٣٧)، و«حجة القراءات» (٤٩١)، و«شرح شُعَلَة» (٥١٠)، و«إتحاف» (٢٨٨/٢).

(٢) ينظر: الطبري (٢٥٠/٩).

(٣) ذكره ابن عطية (١٥٨/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (١٥٨/٤).

(٥) ينظر «الطبري» (٢٥٣/٩).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٨/٤).

٣٤ ب الأصوب من حيث أنكروا البعث / . وكان قولهم: إنهم لا يقومون من التراب، وقوله آخراً: ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ يقتضي ما قلناه.

قلت: الآيات محتملة للمعنيين، والله أعلم بما أراد سبحانه؛ قال البخاري^(١): قال ابن عباس: ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الملائكة^(٢)، انتهى.

ص: قرأ الجمهور: «الْعَادِينَ»^(٣) - بتشديد الدال - اسم فاعل من «عَدَّ»، وقرأ الحسن والكسائي في رواية: «الْعَادِينَ»^(٤) بتخفيف الدال، أي: الظَّلَمَةُ، و«إِنْ» من قوله: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ نافية، أي: ما لبثتم إلا قليلاً، اهـ. و﴿عَبَّأُ﴾: معناه: باطلاً، لغير غاية مُرَادَةٍ، وَخَرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ عَنْ حَنْشِ الصَّنَعَانِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ «أَنَّهُ قَرَأَ فِي أَذْنِ مَبْتَلَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا قَرَأْتَ فِي أَذْنِهِ؟ قَالَ: قَرَأْتُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُوقِنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ»، انتهى^(٥)، وَخَرَجَهُ ابْنُ السُّيْتِ أَيْضًا، ذَكَرَهُ النَّوَوِيُّ.

وقوله سبحانه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: المعنى: فتعالى الله عن مقاتلتهم في دعوى الشريك والصاحبة والولد، ثم تَوَعَّدَ سبحانه عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ بقوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، وفي حرف عبد الله: «عند ربك»، وفي حرف^(٦) أَبِي: «عند الله» ثم أمر تعالى نَبِيَّهٖ ﷺ بالدعاء والذكر له فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٩/٨) كتاب التفسير: باب سورة المؤمنين.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٢/٩) برقم (٢٥٦٩٥) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (١٥٩/٤) عن مجاهد، والسيوطي (٣٤/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩٠/٦).

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٣٩٠/٦)، و«الدر المصون» (٢٠٥/٥)، و«إنحاف فضلاء البشر» (٢٨٩/٢).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٤٥٨/٨) رقم (٥٠٤٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١).

كلهم من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة، عن حنش الصنعاني عن ابن مسعود به.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٥/٥)، وقال: رواه أبو يعلى، وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن. اهـ. وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٣٤/٥)، وزاد نسبه إلى الحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٦) في قراءة عبد الله، وقراءة أبي: ينظر «المحرر الوجيز» (١٥٩/٤).

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٥٩/٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ

وَهِيَ مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَبِهُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايُهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سورة أنزلناها وفرضناها...﴾ الآية معنى «فرضنا»: أوجبنا وأثبتنا، وقال الثعلبي والواحدي: ﴿فرضناها﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام، انتهى، وقال البخاري^(١): قال ابن عباس^(٢): ﴿سورة أنزلناها﴾: بيّناها، انتهى. وما تقدم أُبين.

ص: ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ الجمهور: بتخفيف الراء أي: فرضنا أحكامها، وأبو عمرو وابن كثير: بتشديد الراء: إما للمبالغة في الإيجاب، وإما لأنَّ فيها فرائض شتى، انتهى، والآيات البيّنات: أمثالها ومواضعها وأحكامها.

وقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة...﴾ الآية، هذه الآية ناسخة لآية الحبس باتفاق، وحكم المُخَصَّنِينَ منسوخٌ بآية الرجم والسُّنَّة المتواترة على ما تقدّم في سورة النساء، وقرأ الجمهور^(٣): «رَأْفَةً» بهمزة ساكنة؛ من رَأَفَ إِذَا رَقَّ وَرَجِمَ، والرأفة المنهي عنها هي [في]^(٤) إسقاط الحَدِّ، أي: أقيموه ولا بُدَّ، وهذا تأويل ابن عمر^(٥) وغيره.

(١) ينظر: البخاري (٣٠١/٨) كتاب التفسير: باب سورة النور.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٦/٩) برقم (٢٥٧٠٦)، وذكره السيوطي (٣٦/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حارثة عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٦١/٤)، و«البحر المحيط» (٣٩٤/٦)، و«الدر المصون» (٢٠٨/٥).

(٤) سقط في جـ.

(٥) أخرجه الطبري (٢٥٦/٩) برقم (٢٥٧٠٩، ٢٥٧١٠)، وذكره البغوي (٣٢١/٣)، وذكره ابن عطية (٤/١٦١)، وابن كثير (٣/٢٦١، ٢٦٢)، والسيوطي (٣٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وقال قتادة وغيره: هي في تخفيف الضَرْبِ عَنِ الزُّنَاةِ^(١)، وَمِنْ رَأْيِهِمْ أَنْ يُخَفَّفَ ضَرْبُ الْخَمْرِ، وَالْفِرْيَةِ دُونَ ضَرْبِ الزَّانَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إغلاظاً على الزناة، وتوبيخاً لهم، ولا خلاف أنَّ الطائفة كُلَّمَا كَثُرَتْ فهو أليق بامثال الأمر، واختلف في أَقْلٍ ما يَجْزِيءُ فَقَالَ الزُّهْرِيُّ: الطائفة: ثلاثة فصاعداً^(٢)، وقال عطاء: لا بُدَّ من اثنين^(٣)، وهذا هو مشهور قول مالك فرآها موضع شهادة.

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ مَقْصِدُ الْآيَةِ تَشْنِيعُ الزَّانَا وَتَشْنِيعُ ١٣٥ أمره، وَأَنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ / ويريد بقوله: ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ أي: لا يَطَأُ، فالنكاح هنا بمعنى: الجماع؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وقد بيَّنه ﷺ في الصحيح أَنَّهُ بمعنى الوطء، حيث قال: «لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ...»^(٤) الحديث، وتحتل الآية وجوهاً هذا أحسنها.

(١) أخرجه الطبري (٢٥٨/٩) برقم (٢٥٧٢٢، ٢٥٧٢٤)، وذكره البغوي (٣/٣٢١)، وابن عطية (٤/١٦١)، والسيوطي (٣٧/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن، وإبراهيم، وعامر، ولابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن شعبة.

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٩/٩) برقم (٢٥٧٣٦)، وذكره البغوي (٣/٣٢١)، وابن كثير (٣/٢٦٢)، والسيوطي (٣٨/٥) وعزاه لابن جرير عن الزهري.

(٣) أخرجه الطبري (٢٥٩/٩) برقم (٢٥٧٣٤)، وذكره البغوي (٣/٣٢١)، وابن كثير (٣/٢٦٢).

(٤) أخرجه مالك (٥٣١/٢) كتاب النكاح: باب نكاح المحلل وما أشبهه، حديث (١٧) من طريق المسور بن رفاعة القرظي عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته... ومن طريق مالك أخرجه الشافعي في «الأم» (٢٤٨/٥) باب نكاح المطلقة ثلاثاً، وابن حبان (١٣٢٣-موارد)، والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب الرجعة: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

قال السيوطي في «تنوير الحوالك» (٦/٢) قال ابن عبد البر: كذا لأكثر الرواة مرسل، ووصله ابن وهب عن مالك، فقال: عن أبيه، وابن وهب من أجل من روى عن مالك هذا الشأن، وأثبتهم فيه. وتابعه أيضاً ابن القاسم وعلي بن زياد وإبراهيم بن طهمان وعبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، كلهم عن مالك، وقالوا فيه: عن أبيه، وهو صاحب القصة أ.هـ.

ومن طريق ابن وهب أخرجه ابن الجارود (٦٨٢)، والبيهقي (٣٧٥/٧) كتاب «الرجعة»: باب نكاح المطلقة ثلاثاً.

وأخرجه البزار (٢/ ١٩٤-كشف) رقم (١٥٠٤) من طريق عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ثنا مالك بن أنس عن المسور بن رفاعة، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٤٣/٤): رواه البزار والطبراني، ورجالهما ثقات، وقد رواه مالك في «الموطأ» مرسلًا، وهو هنا متصل أ.هـ.

وقد ورد هذا الحديث موصولاً من حديث عائشة:

أخرجه أحمد (٢٢٦/٦)، والبخاري (٢٤٩/٥) كتاب «الشهادات»: باب شهادة المختبىء، حديث (٢٦٣٩)، ومسلم (١٠٥٥-١٠٥٦/٢) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١١)، والترمذي (٢٩٣/٢) كتاب النكاح: باب ما جاء فيمن يطلق امرأته ثلاثاً حديث (١١١٨)، والنسائي (١٤٨/٦) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (١/٢٢١-٢٢٢) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً، حديث (١٩٣٢) والدارمي (١٦١/٢) كتاب الطلاق: باب ما يحل المرأة لزوجها الذي طلقها، والشافعي (٢/٣٤٠-٣٤١) كتاب الطلاق، حديث (١١٠)، والحميدي (١١١/١) رقم (٢٢٦)، وعبد الرزاق (٦/٣٤٦-٣٤٧) رقم (١١٣١)، والطالبي (١/٣١٤-٣١٥) رقم (١٦١٢، ١٦١٣)، وسعيد بن منصور (٢/٧٣-٧٤)، رقم (١٩٨٥)، وأبو يعلى (٣٩٧)، رقم (٤٤٢٣)، وابن حبان (٤١٩٩-٤١٩٨) الإحسان، والبيهقي (٧/٣٧٣-٣٧٤)، والبيهقي (٣٧٤) في «شرح السنة» (٥/١٦٩-بتحقيقنا) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فبت طلاق، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هبة الثوب، فقال: أتريدان أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تدوقي عسيلته ويدوق عسيلتك.

وقال الترمذي: حسن صحيح.

وللحديث طرق أخرى عن عائشة:

فأخرجه البخاري (٢٨٤/٩) كتاب الطلاق: باب من قال لامرأته: أنت علي حرام، حديث (٥٢٦٥)، ومسلم (١٠٥٧/٢) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١٤)، وأحمد (٢٢٩/٦)، والدارمي (١٦٢/٢) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

وأخرجه مسلم (١٠٥٧/٢) كتاب النكاح: باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (١٤٣٣/١١٥)، وأحمد (١٩٣/٦)، وأبو يعلى (٨/٣٧٣-٣٧٤) رقم (٤٩٦٤) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة.

وأخرجه أبو داود (٧٠٥/١) كتاب الطلاق: باب في المبتوتة لا يرجع إليها زوجها حتى تنكح زوجاً غيره، حديث (٢٣٠٩)، وأحمد (٤٢/٦) من طريق الأسود عن عائشة.

وأخرجه البخاري (٢٩٣/١٠) من طريق عبد الوهاب عن أيوب عن عكرمة [«أَنْ رَفَاعَةَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْقُرْظِيُّ، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْهَا خِمَارٌ أَخْضَرُ، فَشَكَّتْ إِلَيْهَا، وَأَزَتْهَا خُضْرَةٌ بَجِلْدِهَا فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَالنِّسَاءُ يَنْصُرُ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا - قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا يَلْقَى الْمُؤْمِنَاتُ لَجِلْدِهَا أَشَدَّ خُضْرَةً مِنْ ثَوْبِهَا. قَالَ وَسَمِعْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنَانِ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، إِلَّا أَنَّ مَا مَعَهُ لَيْسَ بِأَعْنَى عَنِّي مِنْ هَذِهِ. - وَأَخَذَتْ هَدِيَّةً مِنْ ثَوْبِهَا - فَقَالَتْ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَنْفَضُهَا نَفْضَ الْأَدِيمِ، وَلَكِنِّي نَاشِرٌ تَرِيدُ رِفَاعَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَحْلِيْ لَهُ أَوْ تَصْلَحِيْ لَهُ حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكَ. قَالَ وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ فَقَالَ: بَنُوْكَ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَذَا الَّذِي تَرْغَمِينَ مَا تَرْغَمِينَ؟ فَوَاللَّهِ لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ»].

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ الآية نزلت بسبب القاذفين، وذكر تعالى في الآية: قَذَفَ النِّسَاءَ مِنْ حَيْثُ هُوَ أَهْمٌ وَأَبْشَعُ، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى والإجماع على ذلك، و﴿المحصنات﴾ هنا: العفاف، وشَدَّدَ تعالى على القاذف بأربعة شهداء؛ رحمةً بعباده، وسترًا لهم، وحكم شهادة الأربعة أَنْ تكونَ على معاينة مبالغة كالْمِرْوَدِّ فِي الْمَكْحَلَةِ فِي مَوْطِنٍ وَاحِدٍ، فَإِنْ اضْطَرَبَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ

= وفي الباب عن ابن عمر، وعبيد الله بن عباس، وأنس بن مالك، والفضل بن عباس. حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٨٥/٢)، والنسائي (٦/ ١٤٨-١٤٩) كتاب النكاح: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، وابن ماجه (٦٢٢/١) كتاب النكاح: باب الرجل يطلق امرأته ثلاثاً: فتتزوج فيطلقها (١٩٣٣) من طريق محمد بن جعفر: حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد: سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر به. وأخرجه أحمد (٦٢/٢)، والنسائي (٦/ ١٤٩)، والبيهقي (٧/ ٣٧٥) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان عن ابن عمر. قال النسائي: هذا أولى بالصواب.

وأخرجه أبو يعلى (٨/ ٣٧٤) رقم (٤٠٦٦) من طريق يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر.

قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٤٣): رواه الطبراني وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح. حديث عبيد الله بن عباس:

أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والنسائي (٦/ ١٤٨) كتاب الطلاق: باب إحلال المطلقة ثلاثاً، عنه أن «الغَمِصَاءَ أَوْ الرِّمِصَاءَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ تَشْتَكِي زَوْجَهَا أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا، فَلَمْ يَلِثْ أَنْ جَاءَ زَوْجَهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هِيَ كَاذِبَةٌ، وَهُوَ يَصِلُ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ حَتَّى تَذُوقِي عَسِيلَتَهُ».

وأخرجه أبو يعلى (١٢/ ٨٥-٨٦) رقم (٦٧١٨) عن عبيد الله بن عباس والفضل بن عباس به. وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٤٣)، رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

حديث أنس بن مالك:

أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٤)، والبخاري (٢/ ١٩٥-كشف) برقم (١٥٠٥)، وأبو يعلى (٧/ ٢٠٧) رقم (٤١٩٩) عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت زوجاً، فمات عنها قبل أن يدخل بها هل يتزوجها الأول؟ قال: «لا حتى يذوق عَسِيلَتَهَا».

قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٤٣): رواه أحمد، والبخاري، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن دينار الطاحي، وقد وثقه أبو حاتم، وأبو زرعة، وابن حبان، وفيه كلام لا يضر.

حديث الفضل بن عباس: انظر حديث عبيد الله بن العباس.

جُلِدَ الثلاثة، والجلد: الضرب، ثم أمر تعالى: أَلَّا تُقْبَلَ لِلْقَذْفِ المحدودين شهادة أبداً^(١)،

(١) القاذف هو مَنْ يرمي مُحَصَّنًا أو مُحَصَّنَةً بالزنى ولم يأت بأربعة شهداء يشهدون على صدق قوله، ولا خلاف بين العلماء في شهادة القاذف إذا شهد قبل إقامة الحُدِّ وبعد التوبة، أو بعد إقامة الحُدِّ وقبل التوبة؛ فإنه في الصورة الأولى، تقبل شهادته إجماعاً، وفي الثانية لا تقبل إجماعاً إنما الخلاف في شهادته بعد الحُدِّ وبعد التوبة.

فذهب الإمام الشافعي، ومالك، وأحمد، وأبي حنيفة، وأبو عبيدة وأبو المنذر إلى قبول شهادة المحدود في القذف إذا تاب، وزوي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذهب الإمام أبو حنيفة وأصحابه وشريح والحسن والنخعي وسعيد بن جبيرة والثوري إلى ردِّ شهادة المحدود في القذف وإن تاب. وزوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنشأ هذا الاختلاف هو: اختلافهم في فهم الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَخَصَّنَاتِ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾. اختلفوا في الاستثناء: هل هو راجع إلى الكل أو إلى الأخيرة فقط؟ وهذه مسألة أصولية، وسنذكر فيما يلي خلاصة القول فيها: إن الاستثناء إذا وقع بعد جمل متعاطفة بالواو، ونحوها أمكن رده للجميع، وإلى الأخيرة خاصة بلا خلاف، وإنما الخلاف فيما هو ظاهر فيه، فالشافعية يقولون ظاهر في الكل، ولا يرجع للأخيرة فقط إلا بقرينة. والحنفية يقولون: ظاهر في الأخيرة، ولا يرجع للكل إلا بدليل.

وأبو الحسين كالشافعية إلا أنه فصل في القرينة فقال: إن قامت قرينة على الإضراب عن الأول فهو للأخير. وظهور الإضراب يكون باختلاف الجملتين نوعاً: بأن تكون إحداهما خبراً والأخرى إنشاء؛ نحو العلماء مكرمون ولا تكرم الجهال إلا خالداً.

أو تكون إحداهما أمراً والأخرى نهياً نحو: أَكْرَمِ الْعُلَمَاءَ ولا تكرم الجهال إلا من دخل الدار فالاستثناء من الأخير.

أو باختلافهما حكماً: بأن يكون مضمون إحداهما غير مضمون الأخرى نحو: الرجال قائمون، والعلماء جالسون إلا محمداً. أو باختلافهما اسماً بأن يكون الاسم في الأولى غير صالح لتعلق الاستثناء به نحو: أَكْرَمِ الرجال وأعطف على النساء إلا هنداً. ففي هذا كله يرجع الاستثناء إلى الأخير، ظهور الإضراب. لكن محل هذا ما لم يكن الاسم في الجملة الثانية ضمير الاسم في الأولى أو اتفاقاً في الغرض وإلا كان الاستثناء راجعاً للكل مطلقاً وإن اختلفا نوعاً أو حكماً.

وأما الاختلاف في الاسم فلا يمكن معه رجوع الاستثناء للكل، لعدم صلاحيته للتعلق بالكل. مثال الأول: أَكْرَمِ بني تميم وهم مكرمون إلا بكرأ، فهما مختلفان نوعاً لكن الاسم في الثانية ضمير الأول فيرجع للكل. ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فقد اتحدا في الغرض وهو الإهانة والانتقام وإن اختلفا نوعاً فيرجع للكل.

وقال ألفاضي وألغزالي: «بالوقف». وقال المرتضي: مُشْتَرَكٌ بين الكل والأخير، ويرجع مذهب الوقف والاشتراك إلى قول الحنفية، لأن مذهب الوقف معناه أن الاستثناء لا يعلم أهو موضوع للإخراج من الكل أو من الأخير؟ ومذهب المرتضي أنه مشترك بين الإخراج من الكل ومن الأخير. فيلزم الرجوع للأخير عليهما؛ لأنه إن كان موضوعاً للأخير فظاهر، وإن كان للكل ففي ضمنه الأخير.

قال الشافعي: توبة القاذف إكذابه نفسه. وفسره الإصطخري (من أصحاب الشافعي): بأن يقول: كذبت

وهذا يقتضي مُدَّة أعمارهم، ثم حكم بفسقهم، ثم استثنى تعالى مَنْ تاب وأصلح من بعد القذف، فالاستثناء غير عامل في جلده بإجماع، وعامل في فسقه بإجماع، واختُلِفَ في عمله في رَدِّ الشهادة، والجمهور أنه عامل في رَدِّ الشهادة، فإذا تاب القاذف قُبِلَتْ شهادته، ثم اختلفوا في صورة توبته، فقيل بأن يُكذِّبَ نَفْسَهُ، وإلا لم تُقْبَلْ، وقالت فرقة منها مالك: توبته أن يَصْلَحَ وَتَحْسُنَ حاله^(١). وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب واختلف فقهاء المالكية متى تسقط شهادة القاذف فقال ابن الماجشون: بنفس قَذَفِهِ، وقال ابن القاسم وغيره: لا تَسْقُطُ حتى يُجْلَدَ، فإن مَنَعَ من جلده مانع عفو أو غيره لم تُرَدَّ شهادته، قال اللَّخْمِيُّ: شهادته في مدة الأجل للإثبات موقوفة، و«تابوا» معناه: رجعوا، وقد رَجَّحَ الطبري^(٢) وغيره قول مالك، واختُلِفَ أيضاً على القول بجواز شهادته، فقال مالك: تجوز في كل شيء بإطلاق، وكذلك كُلُّ مَنْ حُدَّ في شيء.

وقال سحنون: مَنْ حُدَّ في شيء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه، واتفقوا فيما أحفظ على ولد الزنا أن شهادته لا تجوز في الزنا.

﴿وَالَّذِينَ يَزْنُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحْسَنَ شَهَادَةٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٦﴾ وَالْحَنُوسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ٧ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ٨ وَالْحَنُوسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾.

وقوله سبحانه: ﴿والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهن شهداء إلا أنفسهن...﴾ الآية: لما رَمَى هلال بن أمية الواقفي زوجته بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ - عزم النبي ﷺ على ضربه حَدَّ الْقَذْفِ؛ فَتَزَلَّتْ هذه الآية حسبما هو مشروح في الصَّحَاحِ، فَجَمَعَهُمَا ﷺ في الْمَسْجِدِ،

= فيما قلت، فلا أعود الى مثله. وقال أبو إسحاق المروزي (من أصحاب الشافعي) لا يقول كذبت، لأنه ربما يكون صادقاً، فيكون قوله: «كذبت» كذباً، والكذب معصية. والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى، بل يقول: القذف باطل، وندمت على ما فعلت، ورجعت عنه، ولا أعود إليه. وظاهر كلام أحمد والخرقي أن توبة القاذف (كما قال الشافعي) إكذاب نفسه، فيقول: كذبت فيما قلت. وقال بعض العلماء: توبة القاذف كتوبة غيره، أمر بينه وبين ربه، ومرجعها إلى الندم على ما قال، والعزم على ألا يعود. والسر في أن الشافعية ومن وافقهم أدخلوا في معنى التوبة التلفظ باللسان مع أن التوبة من عمل القلب أن يترتب عليها حكم شرعي، وهو قبول شهادة المحدود في القذف إذا تاب، فلا بد أن يعلم الحاكم توبته حتى تقبل شهادته.

(١) في ج: وتحسن حاله.

(٢) ينظر: «الطبري» (٢٦٥/٩).

وَتَلَاَعْنَا، وجاء أيضاً عَوْنِيْمُ الْعَجْلَانِي فَرَمَى امْرَأَتَهُ وَلَا عَن^(١)، والمشهور: أَنَّ نَازِلَةَ هَلَالٍ قَبْلُ، وَأَنَّهَا سَبَبُ الْآيَةِ، وَالْأَزْوَاجُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَغُمُّ الْمُسْلِمَاتِ وَالْكَافِرَاتِ وَالْإِمَاءُ؛ فَكُلُّهُنَّ يُلَاعِثُهُنَّ الزَّوْجُ؛ لِلانْتِفَاءِ مِنَ الْحَمْلِ، وَتَخْتَصُّ الْحُرَّةُ بِدَفْعِ حَدِّ الْقَذْفِ عَنْ نَفْسِهَا، وَقَرَأَ السَّبْعَةَ غَيْرَ نَافِع^(٢): ﴿أَنْ لَعَنْتَ﴾، و﴿أَنْ غَضِبَ﴾ بِتَشْدِيدِ «أَنْ» فِيهِمَا وَنَضَبِ اللَّعْنَةِ وَالْغَضَبِ، وَالْعَذَابُ الْمَذْرَأُ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ: هُوَ الْحَدُّ، وَجُعِلَتِ اللَّعْنَةُ لِلرَّجُلِ الْكَاذِبِ؛ لِأَنَّهُ مُفْتَرٍ مُبَاهِتٌ، فَأُبْعِدَ بِاللَّعْنَةِ، وَجُعِلَ الْغَضَبُ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ عَلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي بَاشَرَتْ الْمَعْصِيَةَ بِالْفِعْلِ ثُمَّ كَذَبَتْ وَبَاهَتَتْ - بِالْقَوْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَجْمَعَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ عَلَى وَجُوبِ اللَّعَانِ بِادِّعَاءِ الرُّوْيَةِ زِنَا لَا وَطْءَ مِنْ / الزَّوْجِ بَعْدَهُ، وَذَلِكَ مَشْهُورُ الْمَذْهَبِ.

ب ٣٥

وَقَالَ مَالِكٌ: إِنَّ اللَّعَانَ يَجِبُ بِنَفْيِ حَمْلِ يُدْعَى قَبْلَهُ اسْتِبْرَاءً وَالْمُسْتَحَبُّ مِنْ أَلْفَافِ اللَّعَانِ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ وَلَفْظِهِ، فَيَقُولُ الزَّوْجُ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لِرَأْيْتِ هَذِهِ الْمَرْأَةَ تَزْنِي،

(١) تقدم.

حديث ابن عباس في الملاءنة.
أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٦٨٨/٢) كِتَابَ الطَّلَاقِ: بَابُ فِي اللَّعَانِ، حَدِيثُ (٢٢٥٦)، وَأَحْمَدُ (١/ ٢٣٨-٢٣٩)، وَالتَّيَالِيسِيُّ (١/ ٣١٩-منحة) رَقْمَ (١٦٢٠)، وَالتَّطْبِرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٨/ ٦٥-٦٦)، وَالبَيْهَقِيُّ (٧/ ٣٩٤) كِتَابَ «اللَّعَانِ»: بَابُ الزَّوْجِ يَقْذِفُ امْرَأَتَهُ، كُلُّهُمْ مِنْ طَرِيقِ عِبَادِ بْنِ مَنْصُورٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَفِيهِ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي جِئْتُ أَهْلِي عِشَاءً، فَوَجَدْتُ عِنْدَهَا رَجُلًا فَرَأَيْتُ بَعْضِي وَسَمِعْتُ بِأَذْنِي، فَكَّرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا جَاءَ بِهِ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾.

وَالْحَدِيثُ ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥/ ٤٣)، وَعِزَّاهُ إِلَى أَحْمَدَ، وَعَبْدَ الرَّزَّاقِ، وَالتَّيَالِيسِيُّ، وَعَبْدَ بْنَ حَمِيدٍ، وَأَبِي دَاوُدَ، وَابْنَ جَرِيرٍ، وَابْنَ الْمُنْذِرِ، وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. أَمَّا حَدِيثُ عَوْنِيْمٍ: فَرَوَاهُ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ.

وَأَخْرَجَهُ مَالِكٌ (٢/ ٥٦٦-٥٦٧) كِتَابَ الطَّلَاقِ: بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّعَانِ، حَدِيثُ (٣٤)، وَالبَخَارِيُّ (٩/ ٣٦١) كِتَابَ الطَّلَاقِ: بَابُ مَنْ جُوزَ الطَّلَاقُ الثَّلَاثَ، حَدِيثُ (٥٢٥٩)، وَمُسْلِمٌ (٢/ ١١٢٩-١١٣٠) كِتَابَ «اللَّعَانِ»، حَدِيثُ (١/ ١٤٩٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢/ ٦٧٩-٦٨٢) كِتَابَ الطَّلَاقِ: بَابُ فِي اللَّعَانِ، حَدِيثُ (٢٢٤٥)، وَالنَّسَائِيُّ (٦/ ١٧٠-١٧١) كِتَابَ الطَّلَاقِ: بَابُ بَدْءِ اللَّعَانِ، وَابْنُ مَاجَةَ (١/ ٦٦٧) كِتَابَ الطَّلَاقِ: بَابُ اللَّعَانِ، حَدِيثُ (٢٠٦٦)، وَأَحْمَدُ (٥/ ٣٣٦-٣٣٧)، وَالدِّرَامِيُّ (٢/ ١٥٠) كِتَابُ النِّكَاحِ: بَابُ فِي اللَّعَانِ، وَابْنُ الْجَارُودِ فِي «الْمُنْتَقَى» بِرَقْمِ (٧٥٦)، وَابْنُ حِبَّانَ (٤٢٧١-الإحسان)، وَالتَّطْحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ مَعَانِي الْأَثَارِ» (٣/ ١٠٢)، وَالبَيْهَقِيُّ (٧/ ٣٩٨-٣٩٩) كِتَابُ «اللَّعَانِ»: بَابُ سُنَّةِ اللَّعَانِ، وَالبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ» (٥/ ١٨١-بتحقيقنا) مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ بِهِ.

(٢) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٤٥٣)، وَ«الْحُجَّةُ» (٥/ ٣١٤)، وَ«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢/ ١٠١)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/ ٢٠٢)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيبَةِ» (٥/ ٨٤)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١٣٨)، وَ«حُجَّةُ الْقُرْآنِ» (٤٩٤)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥١٢)، وَ«إِتْحَافٌ» (٢/ ٢٩٢)، وَ«الْمَحْتَسِبُ» (٢/ ١٠٢).

وإني في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: وَأَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيَّ إِنْ كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَأَمَّا فِي لَعَانِ نَفِي الْحَمْلِ فَيَقُولُ: مَا هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي، وتقول المرأة: أَشْهَدُ بِاللَّهِ مَا زَنَيْتُ، وَأَنَّهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، ثم تقول: غَضِبَ اللَّهُ عَلَيَّ إِنْ كَانَ مِنَ الْصَادِقِينَ، فَإِنْ مَنَعَ جَهْلُهُمَا مِنْ تَرْتِيبِ هَذِهِ الْأَلْفَافِ، وَأَتَى بِمَا فِي مَعْنَاهَا أَجْزَاءَ ذَلِكَ، ومشهور المذهب: أَنَّ نَفْسَ تَمَامِ اللَّعَانِ بَيْنَهُمَا فُرْقَةٌ، وَلَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى تَفْرِيقِ حَاكِمٍ، وَتَحْرِيمِ اللَّعَانِ أَبَدِيٍّ بِاتِّفَاقٍ فِيمَا أَحْفَظُ مِنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: لَكَشَفَ الزَّناةُ بِأَيْسَرٍ مِنْ هَذَا، أَوْ لَأَخَذَهُمْ بِعَقَابِهِ وَنَحْوِ هَذَا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَمْ يُصِيبُوا شَيْئًا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّنْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِفْكِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَفْئِدَتِهِمْ وَأَلَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَفَتُؤْمِنُونَ بِمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ خَبَرٍ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَادِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ...﴾ الآية: نزلت في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ففي «البخاري» في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْعَشْرَ الْآيَاتِ فِي بَرَاءَتِي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ...﴾ الآية: وَالْإِفْكِ: الزُّورُ وَالْكَذِبُ، وَحَدِيثُ الْإِفْكِ فِي «الْبُخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِمَا مُسْتَوْعَبٌ، وَالْعُصْبَةُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الْعَشْرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ﴾ خطاب لِكُلِّ مَنْ ساءه ذلك من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: أَنَّهُ تَبَرُّهُ فِي الدُّنْيَا، وَتَرْفِيعٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ نَزَلَ وَخَيَّةٌ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَجْرٌ جَزِيلٌ فِي الْآخِرَةِ، وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي غَابِرِ الدَّهْرِ، وَ﴿اِكْتَسَبَ﴾: مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمَأْثَمِ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ هِيَ إِلَى: عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِي سُلُوكٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَكِبْرُهُ: مُصْدَرُ كَبُرَ الشَّيْءُ وَعَظَمَ وَلَكِنْ اسْتَعْمَلَتْ الْعَرَبُ ضَمَّ الْكَافِ فِي السَّنِّ.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا...﴾ الآية: الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ حَاشَا مَنْ تَوَلَّى كِبْرَهُ، وَفِي هَذَا عِتَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَي: كَانَ الْإِنْكَارُ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ، وَيُقَيِّسُ فَضْلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ يَبْعُدُ فِيهِمْ فَأَمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَبْعَدُ، لِفَضْلِيَّتِهَا، وَوَقَعَ هَذَا النَّظَرُ السَّيِّدُ مِنْ أَبِي أَيُّوبَ وَامْرَأَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: «يَا أَبَا أَيُّوبَ، أَسَمِعْتَ مَا قِيلَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ الْكَذِبُ؛ أَكُنْتُ أَنْتِ يَا أُمَّ أَيُّوبَ

تفعلين ذلك؟ قالت: لا، والله، قال: فعائشة - والله - أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم^(١) فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله فيه المؤمنين؛ إذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: ﴿لولا جاء﴾ للذين تولوا كبره.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَكُتُ فِي مَا أَفْضَيْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤﴾
تَلْقَوْنَهُ بِالسُّنْبُكَةِ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥
وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ١٦ يَعْطُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ هذا عتاب من الله تعالى، بليغ في تعاطيهم هذا الحديث وإن لم يكن المخبر والمُخْبَر مُصَدِّقَيْنِ، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث - هو الذي وقع العتاب فيه، وقرأ ابن يعمر^(٢) وعائشة (رضي الله عنها) وهي أعلم الناس بهذا الأمر: «إِذْ تَلْقَوْنَهُ» / - بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف -، ومعنى ١٣٦ هذه القراءة من قول العرب: وَلَقِيَ الرَّجُلُ وَلَقًا إِذَا كَذَبَ، وحكى^(٣) الطبري: أن هذه اللفظة مأخوذة من: الْوَلَقِيَ الذي هو إسراعك بالشئ بعد الشئ؛ يقال: وَلَقِيَ فِي سِيرِهِ إِذَا أَسْرَعَ، والضمير في: ﴿تحسبون﴾ للحديث والخوض فيه والإداعة له.

وقوله تعالى: ﴿سبحانك﴾ أي: تنزيهاً لله أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ وحقيقة الْبُهْتَانِ: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة: أن يقال في الإنسان ما فيه، ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوْفٌ رَجِيمٌ ٢٠
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

(١) أخرجه الطبري (٢٨٤/٩) برقم (٢٥٨٥٩)، وذكره ابن عطية (١٧٠/٤)، وابن كثير (٢٧٣/٣)، والسيوطي (٦٠/٥)، وعزاه لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر.

(٢) وقرأ بها ابن عباس، وعثمان الثقفي.
ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٢، و«المحتسب» (١٠٤/٢)، و«الكشاف» (٢١٩/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٧١/٤)، و«البحر المحيط» (٤٠٢/٦)، و«الدر المصون» (٢١٣/٥).
(٣) ينظر: «الطبري» (٢٨٥/٩).

وَالْمُنْكَرُ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية: قال مجاهد وغيره: الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين، وعذابهم الأليم في الدنيا: الحدود، وفي الآخرة: النار^(١)، وقالت فرقة: الآية عامة في كُلِّ قاذف، و[هذا]^(٢) هو الأظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ معناه: يعلم البريء من المُذْنِبِ، ويعلم سائر الأمور، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ أيضاً محذوف تقديره: لَقَضَّحَكُمْ بِذُنُوبِكُمْ، أَوْ لَعَذَّبَكُمْ ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية: خطوات جمع خُطْوَة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأنَّ المعنى: لا تمشوا في سُبُلِهِ وطُرُقِهِ.

قلت: وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾: ما يردع العاقل عن الاشتغال بغيره، ويوجب له الاهتمام بإصلاح نفسه قبل هجوم مَنِيَّتِهِ وَخُلُولِ رَمْسِيهِ، وَحَدَّثَ أَبُو عَمْرِو فِي «الْتَمْهِيدِ» بِسَنَدِهِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ مُجَاهِدًا يَقُولُ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مَعَ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِخَيْرٍ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: وَلَكَ مِثْلُهُ، وَإِذَا ذَكَرَهُ بِشُرٍّ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ابْنَ آدَمَ الْمُسْتَوْرَ عَوْرَتِهِ، أَزِيعَ عَلَى نَفْسِكَ، وَاحْمَدِ اللَّهَ الَّذِي يَسْتَرُ عَوْرَتَكَ» انتهى، وَرَوَيْنَا فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ - أَرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ شَيْنَهُ، حَبَسَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»^(٣)، وَرَوَيْنَا أَيْضًا عَنْ أَبِي دَاوُدَ بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي طَلْحَةَ بْنِ سَهْلِ الْأَنْصَارِيِّينَ أَنَّهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَتُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ - إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ، وَتُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ - إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ

(١) أخرجه الطبري (٢٨٧/٩) برقم (٣٥٨٧٠) نحوه، وذكره ابن عطية (١٧١/٤)، والسيوطي (٦١/٥)،

وعزاه للفرجاني، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والطبراني عن مجاهد بلفظ: «تظهر».

(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه أبو داود (٦٨٧/٢) كتاب الأدب: باب من رد على مسلم غيبة، حديث (٤٨٨٣)، وابن المبارك

في «الزهد» (٢٣٩).

نُصِرَتْهُ»، انتهى^(١)، ثم ذكر تعالى أنه يزكي مَنْ شاءِ مِنْ سِبْقَتِ له السعادة، وكان عمله الصالح أمانة على سبق السعادة له.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ...﴾ الآية: المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر رضي الله عنه ومسطح بن أثاثه، وكان من قرابة أبي بكر، وكان أبو بكر ينفق عليه، لمسكنته، فلما وقع أمر الإفك بلغ أبا بكر أنه: وقع مسطح مع مَنْ وقع؛ فحلف أبو بكر: لا ينفق عليه، ولا ينفعه بنافعة أبداً، فجاء مسطح مُعْتَذِراً / ٣٦ ب وقال: إنما كنتُ أسمع ولا أقول، فنزلت الآية، والفضل: الزيادة في الدين، والسعة هنا: هي المال، ثم قال تعالى: ﴿أَلَا تحبون أن يغفر الله لكم...﴾ الآية، أي: كما تحبون عفو الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، فيروى أن أبا بكر قال: بلى، إني أحبُّ أن يغفر الله لي، ورَجَعَ إلى مسطح ما كان يُجْري عليه من النفقة والإحسان^(٢).

قال ابن العربي في «أحكامه»: وفي هذه الآية دليل على أن الحنث إذا رآه الإنسان خيراً هو أولى من البر، ولقول النبي ﷺ: «فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ» انتهى^(٣). وقال بعض الناس: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل من

(١) أخرجه أبو داود (٦٨٧/٢) كتاب الأدب: باب من رد على مسلم غيبة، حديث (٤٨٨٤)، وأحمد (٣/ ٤٤١)، والبخاري في «شرح السنة» (٦/ ٤٩٥ - ٤٩٦ - بتحقيقنا).

(٢) أخرجه الطبري (٢٨٩/٩) برقم (٢٥٨٧٥)، وذكره البخاري (٣/ ٣٣٤)، وابن عطيّة (٤/ ١٧٢، ١٧٣)، وابن كثير (٣/ ٢٧٦)، والسيوطي (٥/ ٦٣)، وعزاه لابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧١ - ١٢٧٢) كتاب الإيمان، باب نذب من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، حديث (١٦٥٠/ ١١)، والبيهقي (٣٢/ ١٠) كتاب الإيمان، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه.

وأخرجه مسلم (٣/ ١٢٧٢) كتاب الإيمان، باب نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، حديث (١٦٥٠/ ١٣). ومن حديث عدي بن حاتم أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، وأبو داود الطيالسي (١٣/ ٢٤٧).

(١/ ٢٤٧) كتاب «الإيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه، حديث (١٢١٨)، وأحمد (٤/ ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨)، والدارمي (٢/ ١٨٦).

كتاب «الإيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ومسلم (٣/ ١٢٧٢ - ١٢٧٣)، كتاب: الإيمان، باب: نذب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه، حديث (١٦، ١٨/ ١٦٥١)، والنسائي (٧/ ١٠ - ١١) كتاب «الإيمان والنذور»، باب الكفارة بعد

الحنث، وابن ماجه (١/ ٦٨١) كتاب «الكفارات»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، =

حيث لطفه سبحانه بالقَدَّةِ الْعَصَاةِ بهذا اللفظ.

قال *ع^(١): «وإنما تعطى الآية تفضلاً من الله تعالى في الدنيا، وإنما الرجاء في الآخرة، أما أن الرجاء في هذه الآية بقياس، أي: إذا أُمِرَ أُولَى الفضل والسعة بالعفو، فطرد هذا التفضل بسعة رحمته سبحانه لا رَبَّ غيره، وإنما آيات الرجاء: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾

= حديث (٢١٠٨)، والحاكم (٤/ ٣٠٠-٣٠١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب لا نذر في معصية الرب ولا في قطيعة الرحم، والبيهقي (٣٢/ ١٠) كتاب «الآيمان»: باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه، بلفظ «فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه». ومن حديث عبد الرحمن بن سمرة بلفظ «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأتت الذي هو خير وكفر عن يمينك».

ومنه من قال: «فكفر عن يمينك، وأتت الذي هو خير».

والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٦٢-٦٣)، والدارمي (١٨٦/ ٢) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، والبخاري (١١/ ٥١٦-٥١٧) كتاب «الآيمان والنذور»، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغوِ فِي آيَاتِكُمْ...﴾ حديث (٦٦٢٢)، ومسلم (٣/ ١٢٧٣-١٢٧٤) كتاب «الآيمان»، باب نذب من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، حديث (١٦٥٢/ ٩)، وأبو داود الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه، حديث (١٢١٩)، والنسائي (١٢/ ٧) كتاب «الآيمان والنذور»، باب الكفارة بعد الحنث، وأبو داود (٣/ ٥٨٤) كتاب «الآيمان والنذور»، باب الرجل يكفر قبل أن يحنث، حديث (٣٢٧٧)، وابن الجارود في «المتقى» ص (٣١٠): باب ما جاء في الآيمان، حديث (٩٢٩)، والبيهقي (٣١/ ١٠) كتاب «الآيمان»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه.

والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٤٠٠) من طرق عن الحسن عن عبد الرحمن به.

ومن حديث عبد الرحمن بن أذينة عن أبيه أخرجه الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه، حديث (١٢٢٠). ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه أحمد (٢/ ٢٠٤) بلفظ «فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، ورواه الطيالسي (٢٤٧/ ١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب من حلف على يمين فرأى خيراً منها، حديث (١٢٢١)، وأحمد (٢/ ٢١٢)، وأبو داود (٣/ ٥٨٢) كتاب «الآيمان والنذور»، باب اليمين في قطيعة الرحم، حديث (٣٢٧٤)، وابن ماجه (١/ ٦٨٢) كتاب «الكفارات»، باب من قال: كفارتها تركها، حديث (٢١١١) بلفظ «فليدعها وليأت الذي هو خير، فإن تركها كفارتها».

وقال أبو داود: الأحاديث كلها عن النبي ﷺ «وليكفر عن يمينه» إلا فيما لا يعبه به.

ومن حديث مالك الجشمي رواه النسائي (٧/ ١١) كتاب «الآيمان والنذور»، باب الكفارة بعد الحنث، وابن ماجه (١/ ٦٨١) كتاب «الكفارات»، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، حديث (٢١٠٩).

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧٣).

[الشورى: ١٩]. وسمعت أبي رحمه الله يقول: أرجى آية في كتاب الله عندي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]. وقال بعضهم: أرجى آية قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ...﴾ الآية: قال ابن جبير: هذه الآية خاصة في رُمَاةِ عائشة^(١)، وقال ابن عباس^(٢) وغيره: بل لجميع أزواج النبي ﷺ لمكانهن من الدين ولم يقرن بآخر الآية توبة.

قال *ع^(٣)*: وقاذفٌ غيرهنَّ له اسم الفسق، وذكرت له التوبة، ولعن الدنيا: الإبعاد، وضربُ الحدِّ، والعامل في قوله: ﴿يوم﴾ فعل مُضَمَّرٌ تقديره: يُعَذَّبُونَ يومَ أو نحو هذا، والدين في هذه الآية: الجزاء، وفي مصحف ابن مسعود^(٤) وأبي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ دِينَهُمْ﴾ بتقديم الصفة على الموصوف.

وقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ يُقَوِّي قولَ مَنْ ذهب: أَنَّ الآية في المنافقين عِنْدَ اللَّهِ بن أبي وغيره.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَتَّيْنًا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَعَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(١) أخرجه الطبري (٢٩٠/٩) برقم (٢٥٨٨١)، وذكره البغوي (٣/٣٣٤)، وابن عطية (٤/١٧٤)، وابن كثير (٣/٢٧٦)، والسيوطي (٥/٦٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني عن خفيف.

(٢) أخرجه الطبري (٢٩١/٩) برقم (٢٥٨٨٥)، وذكره البغوي (٣/٣٣٤)، وابن عطية (٤/١٧٤)، وابن كثير (٣/٢٧٦)، والسيوطي (٥/٦٤)، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/١٧٤).

(٤) ونسبها ابن خالويه إلى قراءة النبي ﷺ. ولكنه ضبطها برفع كلمة «الحق».

ينظر: «المختصر» ص (١٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/١٧٤).

وقوله تعالى: ﴿الْخِيثَاتِ لِلْخَيْثِثِينَ...﴾ الآية: قال ابن عباس^(١) وغيره: الموصوف بالخُبْث والطيب: الأقوال والأفعال، وقال ابن زيد^(٢): الموصوف بالخُبْث والطيب، النساء والرجال، ومعنى هذا التفريق بَيْنَ حكم ابن أبيّ وأشباهه وبين حكم النبي ﷺ وفضلاء أصحابه وأُمَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مِبْرُءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى الطيبين المذكورين، وقيل: الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى عائشة - رضي الله عنها - وَمَنْ فِي معناها.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ سبب هذه الآية فيما روى الطبري^(٣): أَنَّ امرأة من الأنصار قالت: يا رسولَ الله، إِنِّي أَكُونُ فِي مَنْزِلِي عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا أَحِبُّ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ عَلَيْهَا، لَا وَالَّذِي لَا وَلَدَ وَلَا وَلَدَ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي، وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ^(٤) الآية، ثُمَّ هِيَ عَامَّةٌ فِي الْأُمَّةِ غَايِرَ الدَّهْرِ، وَبَيْتَ الْإِنْسَانِ: هُوَ الَّذِي لَا أَحَدَ مَعَهُ فِيهِ، أَوِ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ زَوْجَتُهُ أَوْ أُمَّتُهُ، وَمَا عَدَا هَذَا ١٢٧ فَهُوَ غَيْرُ بَيْتِهِ، وَ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ معناه: تَسْتَعْمِلُوا / مَنْ فِي الْبَيْتِ، وَتَسْتَبْصِرُوا، تَقُولُ: أَنَسْتُ: إِذَا عَلِمْتُ عَنْ جِسٍّ وَإِذَا أَبْصَرْتُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦].

و«استأنس» وزنه: استفعل، فكأنَّ المعنى في ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾: تَطْلُبُوا أَنْ تَعْلَمُوا مَا يُؤْنِسُكُمْ وَيُؤْنِسُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْكُمْ، وَإِذَا طَلَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْلَمَ أَمْرَ الْبَيْتِ الَّذِي يَرِيدُ دُخُولَهُ، فَذَلِكَ يَكُونُ بِالْإِسْتِذَانِ عَلَى مَنْ فِيهِ، أَوْ بِأَنْ يَتَنَحَّنَحَ وَيُشْعِرَ بِنَفْسِهِ بِأَيِّ وَجْهِ أَمْكَنَهُ، وَيَتَأَنَّى قَدْرَ مَا يَتَحَفَظُ مِنْهُ، وَيَدْخُلُ إِثْرَ ذَلِكَ.

وزهد الطبري^(٥) في: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ إِلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى حَتَّى تَوَسَّوْا أَهْلَ الْبَيْتِ بِأَنْفُسِكُمْ بِالتَّنَحُّنِ وَالِاسْتِذَانِ وَنَحْوِهِ، وَتَوَسَّوْا نَفُوسَكُمْ بِأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ قَدْ شُعِرَ بِكُمْ.

(١) أخرجه الطبري (٢٩٣/٩) برقم (٢٥٨٩١)، وذكره ابن عطية (١٧٤/٤)، وابن كثير (٢٧٨/٣)، والسيوطي (٦٦/٥)، وعزاه لابن جرير، ولابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٢٩٥/٩) برقم (٢٥٩٠٥)، وذكره البغوي (٣٣٥/٣)، وابن عطية (١٧٤/٤)، وابن كثير (٢٧٨/٣).

(٣) ينظر: «الطبري» (٢٩٧/٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٩٧/٩) رقم (٢٥٩٢١) عن عدي بن ثابت.

(٥) ينظر: «الطبري» (٢٩٨/٩).

قال *ع^(١): «وتصريف الفعل يَأْبَى أَنْ يكون من أنس، وقرأ أَبِي وابن عباس^(٢): «حتى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا» وصورة الاستئذان أَنْ يقول الإنسان: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ فَإِنْ أَدْخَلَ له دَخَلَ، وَإِنْ أَمَرَ بالرجوع انصرف، وَإِنْ سَكَتَ عنه استأذن ثلاثاً ثم ينصرف، جاءت في هذا كله آثار، والضمير في قوله: ﴿تجدوا فيها﴾: للبيوت التي هي بيوت الغير، وأسند الطبري^(٣) عن قتادة أنه قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستاذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مُغْتَبِطٌ^(٤)؛ لقوله تعالى: ﴿هو أذكى لكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿والله بما تعملون عليم﴾ تَوَعَّدُ لأهل التجسس.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا بُدِئْتُمْ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبِيعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة...﴾ الآية: أباح سبحانه في هذه الآية رفع الاستئذان في كُلِّ بيت لا يسكنه أحد؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ في الاستئذان خوفُ الكشفة على الْمُحَرَّمَاتِ، فإذا زالت الْعِلَّةُ زال الحكم، وباقي الآية بَيِّنُ ظاهر التوعد، وعن مالك رحمه الله: أنه بلغه أَنَّهُ كَانَ يُسْتَحَبُّ إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ غَيْرَ الْمَسْكُونِ، أَنْ يَقُولَ

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٥/٤).

(٢) ينظر: «المحتسب» (١٠٧/٢)، و«مختصر شواذ ابن خالويه» ص ١٠٣، ولكنه حكاهما هكذا: «حتى يسلموا على أهلها ويستأذنوا»، ونسبها إلى ابن مسعود وابن عباس. وأما قراءة أبي عنده - فهي: حتى يسلموا ويستأذنوا».

وينظر: «الكشاف» (٢٢٧/٣)، و«المحرر الوجيز» (١٧٥/٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٩/٩) برقم (٢٥٩٣٣)، وذكره ابن عطية (١٧٦/٤)، وابن كثير (٢٨١/٣)، والسيوطي (٧٢/٥)، وعزاه لأبي يعلى، وابن مردويه عن أنس.

الذي يدخله: السَّلامَ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، انتهى، أخرجه^(١) في «الموطأ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أظهر ما في ﴿من﴾ أن تكون للتبعض، لأنَّ أول نظرة لا يملكها الإنسان؛ وإنما يَغُضُّ فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعض بخلاف الفروج؛ إذ حفظها عامٌ لها، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وحفظ الفرج هو عن الزنا وعن كشفه حيث لا يحل.

قلت: التواظر^(٢) صوارم مشهورة فاغمدتها في غِمدِ الغَضِّ والحياء من نظر المولى وإلا جرحك بها عدوُّ الهوى، لا ترسل بريد النظر فيجلب لقلبك رديء الفكر، غَضُّ البصر يورث القلب نوراً، وإطلاقه يقدِّح في القلب ناراً. انتهى من «الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية».

قال ابن العربي^(٣) في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ يريد: أظهر وأنمى، يعني: إذا غَضَّ بصره كان أظهر له من الذنوب وأنمى لعمله في الطاعة.

قال ابن العربي^(٤): ومن غَضَّ البصر: كَفُ التطلع إلى المباحات من زينة الدنيا وجمالها؛ كما قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ / الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]. يريد ما عند الله تعالى، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن...﴾ الآية: أمر الله تعالى النساء في هذه الآية بغَضِّ البصر عن كل ما يُكره - من جهة الشرع - النظر إليه، وفي حديث أم سلمة قالت: كُنْتُ أَنَا وَعَائِشَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَجِبْنَ، فَقُلْنَ: إِنَّهُ أَعْمَى! فَقَالَ ﷺ: «أَفَعَمَيَاوَانِ أَنْتُمَا»^(٥) و﴿من﴾ الكلام فيها كالتي قبلها.

(١) أخرجه مالك (٩٦٢/٢) كتاب «السلام»: باب جامع السلام حديث (٨).

(٢) في ج: النظر.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٣٦٦/٣).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٣٦٦/٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٢/٢) كتاب «اللباس»: باب قول الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ حديث (٤١١٢)، والترمذي (٩٤/٥) كتاب «الأدب»: باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، حديث (٢٧٧٨)، وأحمد (٢٩٦/٦)، والنسائي في «الكبرى» (٣٩٣/٥) كتاب «عشرة النساء»: باب نظر =

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وكما لا يحِلُّ للرجل أن ينظر إلى المرأة، لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل، فإنَّ علاقتهُ بها كعلاقتها به، وقصدَه منها كقصدها منه، ثم استدلَّ بحديث أم سلمة المتقدم، انتهى. وحفظ الفرج يُعْمُ الفواحش، وسرَّ العورة، وما دون ذلك ممَّا فيه حفظ، ثم أمر تعالى بالألَّا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا ما يظهر من الزينة؛ قال ابن مسعود^(٢): ظاهر الزينة: هو الثياب.

وقال ابن جبير وغيره^(٣): الوجه والكفَّان والثياب.

وقيل: غير هذا.

قال زينتها ع*^(٤) ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أنَّ المرأة مأمورة بألَّا تبدي، وأنَّ تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء في كُلِّ ما غلبها، فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بُدَّ منه أو إصلاح شأن، فما ظهر على هذا الوجه فهو المَعْفُو عنه، وذكر أبو عمر: الخلاف في تفسير الآية كما تقدم؛ قال: وزوي عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ قال: القَلْبُ والفتحة.

= النساء إلى الأعمى، حديث (٩٢٤١، ٩٢٤٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١٦/١)، وأبو يعلى (٣٥٣/١٢) رقم (٦٩٢٢)، وابن حبان (١٩٦٨- موارد)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٤١٦/١)، والبيهقي (٧/ ٩١-٩٢)، وابن سعد في «الطبقات» (١٢٦/٨) كلهم من طريق الزهري عن نيهان مولى أم سلمة عن أم سلمة به.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وصححه ابن حبان.

قال الحافظ في «الفتح» (٣٣٧/٩): وهو حديث أخرجه أصحاب السنن من رواية الزهري عن نيهان مولى أم سلمة عنها، وإسناده قوي، وأكثر ما علل به انفراد الزهري بالرواية عن نيهان، وليست بعلة قاذحة، فإن من يعرفه الزهري ويصفه بأنه مكاتب أم سلمة ولم يجرحه أحد لا ترد روايته أ. هـ.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (١٣٦٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٣/٩، ٣٠٤) برقم (٢٥٩٥١، ٢٥٩٥٢، ٢٥٩٥٣، ٢٥٩٥٤، ٢٥٩٥٥)، وذكره ابن عطية (١٧٨/٤)، وابن كثير (٢٨٣/٣) والسيوطي (٧٤/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري (٣٠٤/٩) برقم (٢٥٩٦٣، ٢٥٩٦٤) عن سعيد بن جبير، وبرقم (٢٥٩٦٥) عن عطاء، وذكره ابن عطية (١٧٨/٤)، وابن كثير (٢٨٣/٣)، والسيوطي (٧٥/٥)، وعزاه لابن جرير عن سعيد بن جبير.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٧٨/٤).

قال جرير بن حازم: القُلْبُ: السَّوَارُ، والفتحة: الخاتم، انتهى من «التمهيد».

وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾.

قال ابن العربي^(١): الجيب هو الطُّوقُ، والخمار: هو المِقْنَعَةُ، انتهى.

قال *ع^(٢): *سبب الآية أَنَّ النساءَ كُنَّ في ذلك الزمان إِذَا غَطَّيْنَ رُؤُوسَهُنَّ بِالْأُخْمَرَةِ سَدَلَتْهُنَّ من وراء الظهر؛ فيبقى النَّحْرُ والعُنُقُ والأُذُنَانِ لَا يَسْتَرُ على ذلك، فأمر الله تعالى بِلَيِّ الخمار على الجيوب، وهَيْئَةُ ذلك يستر جميع ما ذكرناه، وقالت عائشة - رضي الله عنها - رَجِمَ اللَّهُ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولَى؛ لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية عَمَدَنَ إِلَى أَكْثَفِ المَرُوطِ^(٣) فَشَقَّقْنَهَا أُخْمَرَةً، وضربن بها على الجيوب^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿أو نسائهن﴾ يعني جميع المؤمنات، ويخرج منه نساء المشركين، وكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح أَنَّ يَمْنَعُ نِسَاءَ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَ مع نساء المسلمين فامثل^(٥).

وقوله سبحانه: ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ يدخل فيه الإماماء الكتائب والعبيد.

وقال ابن عباس وجماعة^(٦): لَا يَدْخُلُ الْعَبْدُ عَلَى سَيِّدَتِهِ فَيَرَى شَعْرَهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَغَدَاً.

وقوله تعالى: ﴿أو التابعين﴾ يريد الأتباع لِيُطْعَمُوا، وهم فُسُوءُ الرجال الذين لَا إِزْبَةَ لَهُمْ فِي الْوُطْءِ، ويدخل في هذه الصنيفة: الْمَجْبُوبُ، والشيخ الفاني، وبعضُ الْمَعْتُوهِينَ، والذي لَا إِزْبَةَ لَهُ من الرجال قَلِيلٌ، والإرْبَةِ: الْحَاجَةُ إِلَى الْوُطْءِ، والطفل اسم جنس،

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٦٩).

(٢) ينظر «المحرر الوجيز» (٤/١٧٨).

(٣) المِرْطُ: كل ثوب غير مخيط. وبالفتح: كساء من خز أو صوف أو كتان، وقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مُرْمُطٌ،

ينظر: «لسان العرب» (٤١٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٧/٨) كتاب «التفسير»: باب ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ حديث (٤٧٥٨).

(٥) أخرجه الطبري (٣٠٧/٩) برقم (٢٥٩٨٦)، وذكره ابن عطية (٤/١٧٩)، وابن كثير (٣/٢٨٤)، والسيوطي (٥/٧٧)، وعزاه لسعيد بن منصور، والبيهقي في «سننه»، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب.

(٦) ذكره ابن عطية (٤/١٧٩)، والسيوطي (٥/٧٧) وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس نحوه.

/ويقال: طفل ما لم يُراهقِ الحُلُم، و﴿يظهروا﴾ معناه: يَطْلَعُوا بالوطء.

١٣٨

وقوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن...﴾ الآية، قيل: سببها أن امرأة مَرَّتْ على قوم فضربت برجلها الأرض فَصَوَّتَ الخَلْخَالُ، وسماعُ صوت هذه الزينة أشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها؛ ذكره الزَّجَّاجُ^(١)، ثم أمر سبحانه بالتوبة مُطْلَقَةً عَامَّةً من كل شيء صغير وكبير.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ كَيْدًا حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكِنَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَكَّبْتُمْ فِيهِمْ خَبْرًا وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيحَتُمْ عَلَى الْعِلَاءِ إِنْ أَرَدَ تَخَصُّصًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مَائِدَتِ مُوسَى بِمِثْلِ مِمَّا تَتْلُونَ مِنْ قَبْلُكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

وقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامي منكم﴾ الأيِّم: مَنْ لا زوجة له أو لا زوج لها؛ فالأَيِّم: يقال للرجل والمرأة.

وقوله: ﴿والصالحين﴾ يريد: للنكاح، وهذا الأمر بالنكاح يختلف بحسب شخص شخص، ففي نازلة: يَتَصَوَّرُ وجوبه، وفي نازلة: التَّدْبُ وغير ذلك حسبما هو مذكور في كتب الفقه؛ قال ابن العربي في «أحكامه»^(٢): قوله تعالى: ﴿والصالحين من عبادكم﴾ الأظهر فيه: أنه أمر بإنكاح العبيد والإماء كما أمر بإنكاح الأيامي، وذلك بيد السادة في العبيد والإماء؛ كما هو في الأحرار بيد الأولياء، انتهى. ثم وعد تعالى بإغناء الفقراء المتزوجين؛ طَلَبَ رضا الله عنهم، واعتصاماً من معاصيه، ثم أمر تعالى كُلَّ مَنْ يَتَعَدَّرُ عليه النكاح أن يستغفِر حتى يَغْنِيَهُمُ الله من فضله، إذ الغالب من موانع النكاح عَدَمُ المال، فوعد سبحانه الْمُتَعَدِّفَ بالغنى. والمكاتبة: مفاعلة من حيث يَكْتُبُ هذا على نفسه وهذا على نفسه، ومذهب مالك: أَنَّ الْأَمَرَ بالكاتبة هو على الندب.

وقال عطاء: ذلك واجب، وهو ظاهرُ مذهبِ عمرَ بن الخطاب^(٣) رضي الله عنه.

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤٠/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٣٧٨).

(٣) أخرجه الطبري (٩/٣١٢) رقم (٢٦٠١٨)، وذكره ابن عطية (٤/١٨١).

وقوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قالت فرقة: الخير هنا المال.

وقال مالك: إِنَّهُ لَيَقَالُ: الْقُوَّةُ وَالْأَدَاءُ، وقال عبيدة السَّلْمَانِيُّ: الخير هو: الصلاح في الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ قال المفسرون: هو أمر لكل مُكَاتِبٍ أَنْ يضع عن العبد من مال كتابته، ورأى مالك هذا الأمر على النَّذْبِ، ولم يَرِ لِقَدْرِ الوضعية حَدًّا، واستحسن^(١) عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يُوضَعَ عنه الرُّبْعُ، وقيل: الثُّلُثُ، وقيل: العشر، ورأى عمر^(٢) أن يكون ذلك من أَوَّلِ نُجُومِهِ؛ مبادرةً إلى الخير، وخوفَ ألا يدرك آخرها، ورأى مالك وغيره: أن يكون الوضع من آخر نَجْمٍ؛ وعِلَّةُ ذلك أَنَّهُ: ربما عجز العبدُ فرجع هو وماله إلى السَّيِّدِ، فعادت إليه وضيعته وهي شبه الصدقة.

قلت: والظاهر أن هذا لا يُعَدُّ رجوعاً كما لو رجع إليه بالميراث، ورأى الشافعي وغيره: أن الوضعية واجبة يُحَكِّمُ بها.

وقال الحسن^(٣) وغيره: الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾: للناس أجمعين في أن يتصدَّقوا على المكاتبين.

وقال زيد بن أسلم^(٤): إِنَّمَا الخطاب لولاة الأمور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الآية: رُوِيَ أَنَّ سبب الآية هو أن عبد الله بن أبي ابن سلول كانت له أمةٌ، فكان يأمرها بالزنا والكسب به، فشكَّت ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه، وفيمن فَعَلَ فعَلَهُ من المنافقين^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣١٥/٩) برقم (٢٦٠٤٦، ٢٦٠٤٧، ٢٦٠٤٨، ٢٦٠٤٩)، وابن عطية (١٨١/٤)، والسيوطي (٨٣/٥) وعزاه لأبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب، وعزاه أيضاً في رواية أخرى لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والديلمي، وابن المنذر، والبيهقي، وابن مردويه.

(٢) ذكره ابن عطية (١٨١/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٧/٩) برقم (٢٦٠٦٦)، وذكره ابن عطية (١٨٢/٤)، والسيوطي (٨٣/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

(٤) ذكره ابن عطية (١٨٢/٤)، والسيوطي (٨٣/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم.

(٥) أخرجه الطبري (٣١٨/٩) برقم (٢٦٠٧٣)، وذكره البغوي (٣٤٤/٣)، وابن عطية (١٨٢/٤)، والسيوطي (٨٤/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصَّنَا﴾ راجع إلى الفتيات؛ وذلك أَنَّ الفتاة إِذَا أَرَادَتْ التَّحَصُّنَ فحينئذ يمكن وَيُتَصَوَّرُ أَنَّ يكونَ السيد مُكْرَهًا، ويمكن أَن يُنْهَى عن الإكراه، وَإِذَا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يُتَصَوَّرُ أَنَّ يُقَالَ للسيد: لا تُكْرِهها: لِأَنَّ الإكراه لا يُتَصَوَّرُ فيها وهي مريدة للفساد، فهذا أمر في سادة وفتياتِ حالهم هذه، وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين / : فقال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ راجع إلى الأيامي في قوله: ﴿وَأَنْكَحُوا﴾ ٣٨ ب الأيامي منكم، وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ ملغى ونحو هذا مما هو ضعيف، والله الموفق للصواب برحمته.

قلت: وما اختاره *ع^(١) هو الذي عَوَّلَ عليه ابن العربي^(٢) وَنَصَّهُ، وإنما ذكر الله تعالى إرادة التَّحَصُّنِ من المرأة؛ لِأَنَّ ذلك هو الذي يصور الإكراه، فأما إِذَا كانت هي راغبة في الزنا، لم يتحصل الإكراه فحصلوه إِنْ شاءَ الله، انتهى من «الأحكام» وقرأ ابن مسعود^(٣) وغيره: «فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ [لَهُنَّ]»^(٤) غُفُورٌ رَحِيمٌ ثم عَدَّد سبحانه نِعَمَهُ على المؤمنين في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ لِيُقَعَّ التَّحَفُّظَ مِمَّا وَقَعَ أَوْلَئِكَ فِيهِ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُنْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٨٢).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٣٨٦).

(٣) وقرأ بها ابن عباس، وسعيد بن جبير.

قال أبو الفتح: اللام في «لهن» متعلقة بـ «غفور»؛ لأنها أدنى إليها، ولأن فعولا أقعد في التعدي من فعل، فكانه قال: فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن. ويجوز أن تكون أيضاً متعلقة بـ «رحيم»، وذلك أن ما لا يتعدى قد يتعدى بحرف الجر؛ ألا تراك تقول: هذا مارٌ يزيد أمس، فتعمل اسم الفاعل، وهو لما مضى؟ فكذلك يجوز تعلق اللام في «لهن» بنفس «رحيم».

ينظر: «المحاسب» (٢/ ١٠٨)، و«الكشاف» (٣/ ٢٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٨٢)، وزاد نسبتها إلى جابر بن عبد الله.

(٤) سقط في ج.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: النور في كلام العرب الأضواء المَذْرَكَةُ بالبصر، وَيُسْتَعْمَلُ مجازاً فيما صَحَّ من المعاني ولاح؛ فيقال: كلام له نور، ومنه الكتاب المنير، والله تعالى ليس كمثله شيء فواضح أنه ليس من الأضواء المَذْرَكَةِ، ولم يبقَ إِلَّا أَنَّ المعنى مُنَوَّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أي: به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، كما تقول: الملك نور الأمة، أي: به قوام أمورها وصلاح جملتها، والأمر في الملك مجاز، وهو في صفة الله تعالى حقيقة مَخْصُصَةٌ، وقرأ^(١) أبو عبد الرحمن السلمي وغيره: «اللَّهُ نَوَّرَ» - بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء - والضمير في «نوره» يعود على الله تعالى؛ قاله جماعة، وهو إضافة خلق إلى خالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله، ثم اختلفوا في المراد بهذا النور، فقيل: هو محمد ﷺ، وقيل: هو المؤمن، وقيل: هو الإيمان والقرآن، وفي قراءة أبي بن كعب: «مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِينَ» والمشكاة: هي الكُوَّةُ غير النافذة فيها القنديل ونحوه، وهذه الأقوال الثلاثة يَطْرُدُ فيها مقابلة جزء من المثل بجزء من المُمَثَّل، فعلى قول مَنْ قال: المُمَثَّلُ محمد ﷺ - وهو قول كعب الأحمار - فرسولُ الله ﷺ هو المشكاة أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يَتَّصِلُ بها من علمه وهده، والزجاجة: قلبه، والشجرة المباركة: هي الوحي، والزيت: هو الحجج والبراهين. وعلى قول مَنْ قال: إِنَّ المُمَثَّلَ به هو المؤمن - وهو قول أبي بن كعب^(٢) -، فالمشكاة صدره، والمصباح: الإيمان والعلم، والزجاجة: قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها: هو الحجج، والحكمة التي تضمنها قولُ أبي فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي في قبور الأموات، وتحتل الآية معنى آخر، وهو أن يريد: مَثَلُ نورِ الله الذي هو هده في الوضوح كهذه الجملة من النور، الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة؛ التي هي أبلغ صفات النور، الذي هو بين أيديكم أيها البشر؛ وقال أبو موسى: المشكاة: الحديدية أو الرِّصَاصَةُ التي يكون فيها القنديل في جوف الزجاجة، والأوَّلُ أَصَحُّ.

(١) وقرأ بها عبد الله بن أبي ربيعة.

ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٣/٤)، و«البحر المحيط» (٤١٨/٦)، وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي، وزيد بن علي، وثابت بن أبي حفصة، والقورصي، ومسلمة بن عبد الملك.

وينظر: «الدر المصون» (٢١٩/٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٦٠٨٨)، وذكره البغوي (٣/٣٤٥)، وابن عطية (٤/١٨٣)، وابن كثير (٣/٢٨٩)، والسيوطي (٥/٨٧) وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه عن أبي بن كعب.

وقوله: ﴿فِي زَجَاجَةٍ﴾ لَأَنَّهُ جَسْمٌ شَفَافٌ، المصباحُ فيه أنور منه في غير الزجاجِ، والمصباح: الفتيل بناره.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دَرِيٌّ﴾ أي / في الإنارة والضوء، وذلك يحتمل معنيين: إمَّا أَنْ يريد أنَّها بالمصباح كذلك، وإمَّا أَنْ يريد أنَّها في نفسها؛ لصفائها وجودة جواهرها، وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور؛ قال الضَّحَّاكُ: الكوكب الدُّرِّيُّ: الزهرة^(١).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٢): «تَوَقَّدَ» - بفتح التاء والدال -، والمراد: المصباح، وقرأ نافع وغيره: «يُوقَّدُ» أي: المصباح.

وقوله: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي من زيت شجرة، والمباركة: المُمْتَأَةُ.

وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال الحسن^(٣): أي: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا؛ وإِنَّمَا هو مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إمَّا شَرْقِيَّةً وإمَّا غَرْبِيَّةً، وقيل غيرُ هذا.

وقوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ...﴾ الآية مبالغة في صفة صفائه وحُسْنِهِ.

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: هذه كلها ومعان تكامل بها هذا النورُ المُمَثِّلُ به، وفي هذا الموضع تمَّ المثال، وباقي الآية بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذُنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ قال ابن عباس وغيره^(٤): هي المساجد المخصوصة بعبادة الله التي من عاداتها أَنْ تُنَوَّرَ بهذا النوع من المصابيح. وقوله: ﴿أَذُنُ اللَّهِ﴾: بمعنى: أمر وقضى، و﴿ترفع﴾ قيل: معناه تُبْنَى وتُعَلَّى؛ قاله مجاهد^(٥) وغيره؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾ [البقرة: ١٢٧].

(١) ذكره ابن عطية (١٨٤/٤)، والسيوطي (٨٩/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحَّاك.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٥٥ - ٤٥٦)، و«الحجة» (٣٢٤/٥)، و«إعراب القراءات» (١٠٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢٠٧/٢)، و«شرح الطيبة» (٩٠/٥)، و«العنوان» (١٣٩)، و«حجة القراءات» (٥٠٠)، و«شرح شملة» (٥١٤) و«إتحاف» (٢٩٨/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٣٢٧/٩) برقم (٢٦١٢٤)، وذكره البغوي (٣٤٧/٣) وابن عطية (١٨٥/٤)، والسيوطي (٩٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري (٣٢٩/٩) برقم (٢٦١٢٩، ٢٦١٣٠)، وذكره البغوي (٣٤٨/٣)، وابن عطية (٤/١٨٥)، والسيوطي (٩٠/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (٣٢٩/٩) برقم (٢٦١٣١، ٢٦١٣٢، ٢٦١٣٣)، وذكره البغوي (٣٤٨/٣)، وابن عطية (٤/١٨٦)، والسيوطي (٩١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

وقال الحسن^(١): معناه تُعْظَمُ وَيُزْفَعُ شأنها، وذكر اسمه تعالى هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلًا، و﴿يسبح له فيها﴾ أي: في المساجد، و﴿بالغدو والآصال﴾ قال ابن عباس^(٢): أراد ركعتي الضحى. [والعصر، وإن ركعتي الضحى]^(٣) لفي كتاب الله وما يغوص عليها إلا غَوَّاصٌ؛ ثم وصف تعالى المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم رضاه، لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا.

قلت: وعن عمر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «يُجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَتَقَدَّمُ الْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ: سَتَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ لِمَنْ الْكَرْمُ الْيَوْمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانَتْ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ؟» [السجدة: ١٦]، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا لَا تُلْهِيهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؟ إلى آخر الآية، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: سَتَعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ لِمَنْ الْكَرْمُ الْيَوْمَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الْحَمَادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ رَبَّهُمْ؟» مختصراً^(٤) رواه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» وله طرق عن أبي إسحاق، انتهى من «السلام»، ورواه أيضاً ابن المبارك من طريق ابن عباس قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: سَتَعْلَمُونَ الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْكَرَمِ، لِيَقُمَ الْحَامِدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَيَقُومُونَ، فَيَسْرَحُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُنَادِي ثَانِيَةً: سَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الْكَرَمِ؛ لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ جُنُوبُهُمْ تَتَجَافَى عَنِ الْمَضَاجِعِ؛ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ؛ قَالَ: فَيَقُومُونَ، فَيَسْرَحُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُنَادِي ثَالِثَةً: سَتَعْلَمُونَ الْيَوْمَ مَنْ أَصْحَابُ الْكَرَمِ؛ لِيَقُمَ الَّذِينَ كَانَتْ: «لَا تُلْهِيهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» فَيَقُومُونَ، فَيَسْرَحُونَ إِلَى الْجَنَّةِ». انتهى من «التذكرة». والزكاة هنا عند ابن عباس: الطاعة لله^(٥).

وقال الحسن^(٦): هي الزكاة المفروضة في المال، واليوم المخوف: هو يوم القيامة،

(١) أخرجه الطبري (٣٣٠/٩) برقم (٢٦١٤١)، وذكره البغوي (٣٤٨/٣)، وابن عطية (١٨٦/٤)، والسيوطي (٩١/٥)، وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣١/٩) برقم (٢٦١٤٤)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٤)، والسيوطي (٩٣/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الحاكم (٣٩٩/٢) من حديث عقبة بن عامر الجهني.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، وله طرق عن أبي إسحاق ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه الطبري (٣٣٢/٩) برقم (٢٦١٥٣)، وذكره ابن عطية (١٨٦/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (١٨٦/٤).

ومعنى الآية: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لِشِدَّةِ مَوَلِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ فِيهِ مُضْطَرَبَةٌ قَلِقَةٌ مُتَقَلِّبَةٌ.

/قلت: ومن «الكلم الفارقة»: سعادة القلب إقباله على مُقَلِّبِهِ والعالم بحال مآله ٣٩ ب /وَمُنْقَلِبِهِ، القلبُ بحارٌ جواهرُها المعارفُ، وسواحلُها الألسنة وغواصُها الفكرة النافذة، غَوَاصُ بحرِ الصُّورِ يغوصُ بصورته في طلب مكسبه، والعارِفُ يغوصُ بمعنى قلبه في بحارِ غَيْبِ رَبِّهِ، فيلتقط جواهرَ الحكمة ودُرَرَ الدَّرَايَةِ، قلوبُ العارفين كالبحار، تنعقد في أصداف ضمايرهم جواهرُ المعارف والأسرار، القلوب كالأراضي إلى من أسلمت إليه قلبك بذر فيه ما عنده، أَمَّا مَنْ بذر نفسه ووسواسه العفن المسوس، أو بذر فيه معرفته بالرب المقدس، انتهى.

قلت: فَإِنْ أَرَدْتَ سلامتك في ذلك اليوم فليكن قلبك الآن مقبلاً على طاعة مولاك؛ فإنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

قال الواحدي: تتقلب فيه القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تتقلب في أي ناحية يؤخذ بهم أذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أي جهة يؤتون كتبهم، انتهى.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ يَافِقُهَا يَحْسَبُهَا الطُّغَمَاءُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ أَوْ كَطُلُمُوتٍ فِي بَحْرٍ لَّيْجٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدُ بِرِثْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ليجزئهم﴾ أي فعلوا ذلك ليجزيهم «أحسن ما عملوا» أي: ثواب أحسن ما عملوا، ولما ذكر تعالى حالة المؤمنين وتنويره قلوبهم عقَّب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم، فقال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ وهي جمع قاع، والقاع: المنخفض البساط من الأرض، ويريد بـ ﴿جاءه﴾: جاء موضعه الذي تخيَّله فيه، ويحتمل أن يعود الضمير في: ﴿جاءه﴾ على السراب ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدلُّ عليه الظاهر تقديره: فكذلك الكافر يوم القيامة، يظنُّ عمله نافعاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

وقوله: ﴿ووجد الله عنده﴾ أي بالمجازات والضمير في ﴿عنده﴾ عائد على العمل، وباقي الآية وعيدٌ بيِّن.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على قوله: ﴿كَسْرَابٍ﴾ وهذا المثال الأخير تضمن صفة أعمالهم في الدنيا، أي أنهم من الضلال في مثل هذه الظلمات المجتمعة من هذه الأشياء، وذهب بغض الناس إلى أن في هذا المثال أجزاء تقابل أجزاء من المُمَثِّل به فقال: الظلمات: الأعمال الفاسدة والمُعْتَقَدَاتُ الباطلة، والبحر اللُّجِّي: صَدْرُ الكافر وقلبه، واللجي معناه: ذو اللجة وهي مُعْظَمُ الماء وَعَمْرُهُ، واجتماع ما به أَشَدُّ لظلمته، والموج: هو الضلال والجهالة التي قد غمرت قلبه، والسحاب هو شهوته في الكفر وإِعْرَاضُهُ عن الإيمان.

قال *ع^(١): وهذا التأويل سائغ وألَّا يُقَدَّرُ هذا التقابل سائغ.

وقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يده لم يكد يراها﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلَفَ في هذه اللفظة، هل معناها أَنَّهُ لم يريده البتَّة؟ أو المعنى أَنَّهُ رآها بعد عُسْرٍ وَشِدَّةٍ وكاد أَلَّا يراها، ووجه ذلك أَن «كاد» إِذَا صَحِبَهَا حرف النفي، وَجَبَ الفعل الذي بعدها، وَإِذَا لم يصحبها انتفى الفعل، وكاد معناها: قارب.

وقوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ قالت فرقة: يريد في الدنيا، أي: مَنْ لم يهده الله لم يَهْتَدِ، وقالت فرقة: أراد في الآخرة، أي: مَنْ لم يرحمه الله وَيُنَوِّرْ حاله بالمغفرة والرحمة فلا رحمة له.

قال *ع^(٢): ﴿والأولُ أَيْبُنْ / وأليق بلفظ الآية، وأيضاً فذلك متلازم، ونور الآخرة إِنَّمَا هو لمن نُورَ قلبه في الدنيا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ زَكَاةً فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِ لهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية: الرؤية هنا قلبية، والتسبيح: التنزيه والتعظيم، والآية عامة عند المفسرين لكل شيء من العقلاء والجمادات.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٨/٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٨٨/٤).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قال الزَّجَّاجُ^(١) وغيره: المعنى: كُلُّ قَدْ عَلِمَ [الله]^(٢) صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.

وقال الحسن^(٣): المعنى: كُلُّ قَدْ عَلِمَ صلاة نفسه وتسبيح نفسه.

وقالت فرقة: المعنى: كل قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدى إليهما، فهذه إضافة خلقٍ إلى خالق، وباقي الآية وعيد، و﴿يزجي﴾ معناه: يسوق، والرُّكَّام، الذي يركب بَعْضُهُ بَعْضاً ويتكاثف، والودق: المطر، قال البخاري: ﴿من خلاله﴾ أي: من بين أضعاف السحاب، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قيل: ذلك حقيقة، وقد جعل الله في السماء جبلاً من بَرَدٍ، وقالت فرقة: ذلك مجاز، وإنَّما أراد وصف كثرتِه، وهذا كما تقول: عند فلان جبال من مال وجبال من العلم.

قلت: وحمل اللفظ على حقيقته أولى إن لم يمنع من ذلك مانع، ومن كتاب «الفرج بعد الشدة» للقاضي أبي علي التنوخي، أحد الرواة عن أبي الحسن الدارقطني والمختصين به - قال: أخبرنا أبو بكر الصولي عن بعض العلماء قال: رأيت امرأة بالبادية، وقد جاء البرد فذهب بزريعها، فجاء الناس يُعزِّونها، فرفعت رأسها إلى السماء، وقالت: اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف وبيدك التعويض مما تَلَفَ، فافعل بنا ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك وآمالنا مصروفة إليك، قال: فلم أبرح حتى مرَّ رجل من الأجلاء، فحدث بما كان؛ فَوَهَبَ لها خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ، فأجاب الله دعوتها وَفَّرَجَ في الحين كربتها، انتهى. وال﴿سنا﴾ مقصوراً: الضوء، وبالمدة: المَجْدُ، والباء في قوله ﴿بالأبصار﴾ يحتمل أن تكون زائدة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ لَشِقَّةٌ يُأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَوَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) ينظر: «معاني القرآن» (٤٨/٤).

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٨٩/٤).

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾.

وقوله سبحانه: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ الآية آية اعتبار، والدابة: كل ما دب من جميع الحيوان، وقوله: ﴿من ماء﴾ قال الجمهور: يعني أن خلقه كل حيوان فيها ماء؛ كما خلق آدم من الماء والطين، وقال النقاش: أراد مني^(١) الذكور، والمشي على البطن: للحيات، والحوث، والدود، وغيره، وعلى رجلين: للإنسان، والطير إذا مشى، وعلى أربع لسائر الحيوان، وفي مصحف أبي بن كعب: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي^(٢) عَلَى أَكْثَرِ فَعَمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات﴾ يعُم كل ما نصب الله تعالى من آية.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون﴾ يعني المنافقين؛ رُوِيَ أَنَّ رجلاً من المنافقين اسمه بشر دعاه يهودي إلى التحاكم عند النبي ﷺ وكان المنافق مُبْطِلاً، فأبى، ودعا اليهودي إلى كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية، فيه، والحيث: المثل.

وقوله سبحانه: ﴿إنما كان قول المؤمنين...﴾ الآية المعنى: إنما كان الواجب أن يقول المؤمنون إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله - سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُخْرِجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

٤٠ ب. وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قال الغزالي في «المنهاج»: التقوى في القرآن تُطْلَقُ على ثلاثة أشياء:

أحدها: بمعنى الخشية والهبة؛ قال الله عز وجل: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال ابن عباس: أطيعوا الله حَقَّ طاعته، وقال مجاهد: هو أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، وأن يُذَكَّرَ فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ.

(١) في ج: أراد منية.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩١/٤)، و«البحر المحيط» (٤٢٨/٦).

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأوليين؛ ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ ذَكَرَ الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عن الذنوب، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم...﴾ الآية: جهد اليمين: بلوغ الغاية في تعقيدها، و﴿ليخرجن﴾ معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولوا حين دُعُوا إلى الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾ يحتمل معاني:

أحدها: النهي عن القَسَمِ الكاذب؛ إذ قد عُرِفَ أن طاعتهم دغلة فكأنه يقول: لا تغالطوا فقد عُرِفَ ما أنتم عليه.

والثاني: أن المعنى: لا تتكلفوا القَسَمَ؛ فطاعة معروفة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدر بكم، وفي هذا التأويل إبقاء عليهم، وقيل غير هذا.

وقوله: ﴿تولوا﴾ معناه: تولوا، والذي حمل النبي ﷺ هو التبليغ، والذي حمل الناس هو السمع والطاعة واتباع الحق، وباقي الآية بين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم...﴾ الآية عامة لأمة نبينا محمد ﷺ في أن يملكهم الله البلاد كما هو الواقع، فسبحانه ما أصدق وعده! وقال الضحَّاك في كتاب «النقاش»^(١): هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واللام في ﴿ليستخلفنهم﴾ لام القسم.

وقوله: ﴿يعبدونني﴾ فعل مستأنف، أي: هم يعبدونني.

(١) ذكره ابن عطية (٤/١٩٣).

وقوله: ﴿ومن كفر﴾ يحتمل أن يريد كفر هذه النعم، ويحتمل الكفر المُخْرِجَ عن المِلَّةِ عياداً بالله من سخطه! وباقي الآية يَبَيِّنُ مِمَّا تقدم في غيرها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية: قيل: «الذين ملكت أيمانهم»: الرجال والنساء، وَرَجَّحَهُ الطبري، وقيل: الرجال خاصة، وقيل: النساء خاصَّة، ومعنى الآية عند جماعة من العلماء: أَنَّ اللَّهَ تعالى أَدَبَ عباده بأن يكون العبيد والأطفال الذين عقلوا معاني الكَشَفَةِ ونحوها - يستأذنون على أهلهم في هذه الأوقات الثلاث، وهي الأوقات التي تقتضي عادة الناس الانكشاف فيها وملازمة التَّعَرِّي في المضاجع، وهي: عند الصباح، وفي وقت القائلة وهي الظهيرة؛ لأنَّ النهار يظهر فيها إذا علا واشتدَّ حرُّه، وبعد العشاء؛ لأنَّه وقتُ التعرِّي للنوم، وأما في غير هذه الأوقات فالعُرْفُ من الناس التَّحَرُّزُ/ والتَّحَفُّظُ فلا حرج في دخول هذه الصنيفة بغير إذن؛ إذ هم طَوَافُونَ يَمْضُونَ ويَجِيئُونَ، لا يجد الناس بُدًّا من ذلك.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بدل من قوله: ﴿طَوَافُونَ﴾، و﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ نُصِبَ على الظرف؛ لأنَّهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثاً؛ وإِنَّمَا أُمِرُوا بالاستئذان في ثلاث مواطن، فالظرفية في ثلاث بَيِّنَةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يَبَيِّنُ لِلْمُتَأَمِّلِ.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْفَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْتَدُّنَّ إِكْلَامًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ...﴾ الآية: أَمَرَ تعالى في هذه الآية أَنْ يكونوا إذا بلغوا الحُلُمَ على حكم الرجال في الاستئذان في كل وقت، وهذا بيان من الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ - بَيِّنُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ .

﴿والقواعد من النساء﴾: هن اللواتي قد أَسْنَنَ وَقَعَدَنَ عن الولدِ، واحدتهن قَاعِدٌ، وقال ربيعة: هي هنا التي تُسْتَقْدَرُ من كِبَرِهَا، قال غيره: وقد تَقَعُدُ المرأة عن الولدِ وفيها مُسْتَمْتَعٌ، ولما كان الغالب من النساء أَنَّ ذواتَ هذا السِّنِّ لا مذهبَ للرجالَ فيهنَّ - أُبِيحَ لَهُنَّ ما لم يُبَحَّ لغيرهنَّ، وقرأ^(١) ابن مسعود وأبي: «أَنْ يَصْغَنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ» والعرب تقول: امرأة واضع للثي كَبُرَتْ، فوضعت خمارها، ثم استثنى عليهن في وضع الثياب ألا يقصدن به التَّبَرُّجَ وإبداء الزينة؛ فَرُبَّ عَجُوزٍ يبدو منها الجِرْصُ على أَنَّ يظهر لها جمال، والتبرج: طلب البدو والظهور للعين، ومنه: بُرُوجٌ مُشِيدَةٌ، والذي أُبِيحَ وضعه لهن الجلباب الذي فوق الخمار والرداء، قاله ابن مسعود^(٢) وغيره، ثم ذكر تعالى أَنَّ تَحَفُّظَ الجميعِ مِنْهُنَّ، واستغفاهنَّ عن وضع الثياب، والتزامهنَّ ما يلزم الشَّوَابِ من السَّتر - أَفْضَلُ لَهُنَّ وخير.

وقوله تعالى: «والله سميع عليم» أي: سميع لما يقول كُلُّ قائل وقائلة، عليم بمقصد كل أحد، وفي هاتين الصفتين تواعد وتحذير.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانَكُمْ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُمِيتُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ إلى قوله ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ ظاهر الآية وأمر الشريعة: أَنَّ الْحَرَجَ عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر، وتقتضي نيتهم الإتيان به بالأكمل، ويقتضي العذر أَنْ يَقَعَ منهم الانقاص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا، وللناس أقوال في الآية وتخصيصات يطول ذكرها، وذكر الله تعالى

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٥/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤٩/٩) برقم (٢٦٢٠٦، ٢٦٢٠٧)، وذكره ابن عطية (١٩٥/٤)، وابن كثير (٣/٣٠٤)، والسيوطي (١٠٤/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفرياحي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في «السنن» عن ابن مسعود.

بيوت القربان، وسقط منها بيوت الأبناء؛ فقال المفسرون: ذلك لأنها داخله في قوله: ﴿من بيوتكم﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته.

وقوله تعالى: ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ يريد ما خزنتم وصار في قبضتكم، فمعظمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وهو تأويل الضحاك ومجاهد^(١)، وعند جمهور المفسرين: يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء بالمعروف. وقرأ^(٢) ابن جبير: «مَفَاتِيحُهُ» مبنياً للمفعول وزيادة ياء بين التاء والحاء، وقرن تعالى في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضّة الوكيده؛ لأن قُرْب المودة لصيق؛ قال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الجُب؟ قال: أنت لي صديق، فما هذا الاستئذان؟^(٣) قال ابن عباس^(٤) في «كتاب النقاش»: الصديق أوكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجهنيمين: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾: ردّ لمذهب جماعة من العرب كانت / لا تأكل أفذاذاً البتّة، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وأن إحضار الأكيل لَحَسَنٌ ولكن بآلاً يحرم الانفراد، قال البخاري^(٥): أشتاتاً وشتى واحد، انتهى.

وقال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بقوله عليه السلام: [«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»]^(٦) الحديث، وبقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾

(١) أخرجه الطبري (٣٥٣/٩) برقم (٢٦٢٢٨) عن الضحاك، (٢٦٢٣٠) عن مجاهد، وذكره البغوي (٣/٣٥٨) عن الضحاك، وابن عطية (١٩٦/٤)، والسيوطي (١٠٩/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) ينظر: «مختصر الشواذ» ص (١٠٤)، و«المحرر الوجيز» (١٩٦/٤)، و«البحر المحيط» (٤٣٤/٦)، و«الدر المصون» (٢٣٦/٥).

(٣) أخرجه الطبري (٣٥٤/٩) برقم (٢٦٢٣١)، وذكره ابن عطية (١٩٦/٤)، والسيوطي (١٠٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة بنحوه.

(٤) ذكره ابن عطية (١٩٦/٤).

(٥) ينظر البخاري (٣٠١/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة النور.

(٦) أخرجه البخاري (١٩٠/١) كتاب «العلم»: باب قول النبي ﷺ «زُبَّ مبلغ أوعى من سامع»، حديث (٦٧)، (٢٤٠/١) كتاب «العلم»، باب: «ليبلغ العلم الشاهد الغائب»، حديث (١٠٥)، (٦٧٠/٤) كتاب «الحج»: باب الخطبة أيام منى، حديث (١٧٤١)، (٣٣٨/٦) كتاب «بدء الخلق»: باب ما جاء في سبع

أرضين، حديث (٣١٩٧)، (٧١١/٧) كتاب «المغازي»: باب حجة الوداع، حديث (٤٤٠٦)، (١٠/١٠)

(١٠) كتاب «الأصاحي»: باب الأضحى يوم النحر، حديث (٥٥٥٠)، (٢٩/١٣) كتاب «الفتن»: باب =

الآية، وبقوله عليه السلام^(١) من حديث ابن عمر: «لَا يَجْلِبُنْ أَحَدُكُمْ مَاشِيَةً أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ...»^(٢) الحديث.

قلت: والحق أن لا نسخ في شيء مما ذكر، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾: قال النخعي: أراد المساجد^(٣)، والمعنى: سَلُّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ فَالسَّلَامُ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

وقال ابن عباس^(٤) وغيره: المراد البيوت المسكونة، أي: سَلُّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا، [قالوا: ويدخل في ذلك غير المسكونة]^(٥)، وُسِّلِمَ المرءُ فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قلت: وفي «سلاح المؤمن»، وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا

= قول النبي - ﷺ - «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...»، حديث (٧٠٧٨)، (١٣/٤٣٣-٤٣٤) كتاب «التوحيد»: باب قول الله تعالى: ﴿وَجْهَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ﴾، حديث (٧٤٤٧)، ومسلم (٣/١٣٠٥-١٣٠٧) كتاب «القسماء»: باب تغليظ تحريم الدماء، حديث (٢٩، ٣٠، ٣١/١٦٧٩)، وأبو داود (٥٩٩/١) كتاب «المناسك»: باب الأشهر الحرم، حديث (١٩٤٨)، وابن ماجه مختصراً (٨٥/١) المقدمة: باب من بلغ علماً، حديث (٢٣٣)، وأحمد (٣٧/٥، ٤٥، ٤٩)، وابن الجارود في «المتقى» برقم (٨٣٣)، والبيهقي (١٤٠/٥) كتاب «الحج»: باب الخطبة يوم النحر، كلهم من طريق محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه مرفوعاً. تنبيه: سقط من إسناد ابن الجارود «أبو بكرة» ولعله سهو من طابع أو ناسخ، فوقع محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ، وعبد الرحمن ليس هو القائل وليست له صحبة. سقط في جـ.

(٢) أخرجه البخاري (٨٨/٥) كتاب «اللقطة»: باب لا تحتلب ماشية أحد بغير إذنه، حديث (٢٤٣٥)، ومسلم (٣/١٣٥٢) كتاب «اللقطة»: باب تحريم حلب الماشية بغير إذن مالكها، حديث (١٣/١٧٢٦)، وأبو داود (٤٦/٢) كتاب «الجهاد»: باب فيمن قال: لا يحلب، حديث (٢٦٢٣) كلهم من طريق مالك، وهو في «الموطأ» (٩٧١/٢) كتاب «الاستئذان»: باب ما جاء في أمر الغنم، حديث (١٧) عن نافع عن ابن عمر به. وأخرجه أحمد (٦/٢) من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر، وأخرجه أيضاً (٥٧/٢) من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر بلفظ: نهى أن تحتلب المواشي بغير إذن أهلها. وأخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٠٠/٢) رقم (٦٨٣) من طريق إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر.

(٣) أخرجه الطبري (٣٥٧/٩) رقم (٢٦٢٤٧)، وذكره ابن عطية (٤/١٩٦).

(٤) ذكره السيوطي (١٠٧/٥)، وعزه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس.

(٥) سقط في جـ.

فسلموا على أنفسكم» قال: هو المسجد إذا دخلته فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح على شرط الشيخين، يعني البخاري ومسلماً، انتهى، وهذا هو الصحيح عن ابن عباس، وفهم النووي أن الآية في البيوت المسكونة، قال: ففي الترمذي عن أنس قال: قال لي النبي ﷺ: «يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ، فَسَلِّمْ، يَكُنْ بَرَكَهَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وفي أبي داود عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: [رَجُلٌ خَرَجَ غَارِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ]»^(٣) فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ؛ وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ؛ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٤)، حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواه آخرون، والضمان: الرعاية للشيء، والمعنى: أنه في رعاية الله عز وجل، انتهى. وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ﴾ وصفها تعالى بالبركة؛ لأنَّ فيها الدعاء واستجلاب مودَّة المسلم عليه.

قلت: وقد ذكرنا في سورة النساء: ما ورد في المصافحة من رواية ابن السُّنِّي قال النووي: وَرَوَيْنَا فِي «سُنَنِ» أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنَ مَاجَةَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا»^(٥) انتهى. والكاف من قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾: كاف تشبيه؛ وذلك: إشارة إلى هذه السنن.

وقال أيضاً بعضُ الناس في هذه الآية: أنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

قال *ع^(٦): والنسخ لا يُتَصَوَّرُ في شيءٍ من هذه الآيات، بل هي مُحْكَمَةٌ، أمَّا

(١) أخرجه الطبري (٣٥٧/٩) برقم (٢٦٢٤٦)، وذكره البغوي (٣٥٩/٣)، والسيوطي (١٠٨/٥)، وعزاه

لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩/٥) كتاب «الاستئذان»: باب ما جاء في التسليم إذا دخل بيته، حديث (٢٦٩٨) من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أنس. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه أبو داود (١٠/٢) كتاب «الجهاد»: باب فضل الغزو في «البحر»، حديث (٢٤٩٤)، والحاكم

(٧٣/٢)، وابن حبان (٤١٦-موارد)، والبيهقي (١٦٦/٩) كتاب «السير»: باب فضل من مات في سبيل

الله، من حديث أبي أمامة وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه أيضاً ابن حبان.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (١٩٧/٤).

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] ففي التعدي والخذع ونحوه، وأمّا هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يسرها - استباحة طعامها على هذه الصفة، وأمّا آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف الكشف، فإذا استأذن المرء ودخل المنزل بالوجه المباح صَحَّ له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة، وليس يكون في الآية نسخ فتأمله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ سَتَدُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَفْتَوُكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْ لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوَادًّا فليَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَبِهِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

وقوله / تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية: إنما هنا: ١٤٢ للحصر، والأمر الجامع يُرَادُّ به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لمصلحة، فالأدب اللازم في ذلك ألا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، والإمام الذي يُتَرَقَّبُ إذنه هو إمام الإمارة، وروي: أن هذه الآية نزلت في وقت حفر النبي ﷺ خندق المدينة، فكان المؤمنون يستأذنون، والمنافقون يذهبون دون إذن، ثم أمر تعالى نبيّه عليه السلام بالاستغفار لصنفي المؤمنين: مَنْ أَدْنَى لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ^(١). وفي ذلك تأنيس للمؤمنين ورأفة بهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تخاطبوه كمخاطبة بعضكم لبعض، وأمرهم تعالى في هذه الآية وفي غيرها أن يدعوا رسول الله بأشرف أسمائه؛ وذلك هو مُقْتَضَى التوقير، فالأدب في الدعاء أن يقول: يا رسول الله، ويكون ذلك بتوقير وبر، وخفض صوت، قاله مجاهد^(٢)، واللواذ: الرُوعَانُ، ثم أمرهم تعالى بالحد من عذاب الله ونقمته إذا خالفوا أمره ومعنى ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: يقع خلافهم بعد أمره، ثم أخبر تعالى أنه قد علم ما أهل الأرض والسماء عليه، وباقي الآية بَيِّنٌ، والحمد لله.

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٠/٩) برقم (٢٦٢٦٢، ٢٦٢٦٣)، وذكره البغوي (٣/٣٥٩)، وابن عطية (٤/١٩٨)، وابن كثير (٣/٣٠٦)، والسيوطي (٥/١١١)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وسلم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ

[وهي] ^(١) مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَمْ يَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَنْجِزْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿تبارك﴾ هو مطاوع «بارك» من البركة، و«بارك» فاعل من واحد، ومعناه: زاد، و«تبارك»: فعل مُخْتَصَّصٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ صِفَةُ فِعْلٍ، أَيْ: كَثُرَتْ بَرَكَاتُهُ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا: أَنْزَالَ كِتَابَهُ الَّذِي هُوَ الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

والضمير في قوله: ﴿ليكون﴾، قال ابن زيد ^(٢): هو لمحمد ﷺ وهو عبده المذكور، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلْفُرْقَانِ.

وقوله: ﴿وخلق كل شيء﴾ عامٌ في كل مخلوق، ثُمَّ عَقَّبَ تَعَالَى بِالطَّعْنِ عَلَى قَرِيشٍ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً لَيْسَتْ لَهَا صِفَاتُ الْأُلُوهِيَّةِ. وَالنُّشُورُ: بَعَثُ النَّاسِ مِنَ الْقُبُورِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤) وَقَالُوا اسْطِطِئُوا أَنْتَ وَالْأَوَّلُ اعْتَنِبْهَا فَيَ حَقٍّ تُعَمِّلُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَقُورًا رَجِيمًا (٦)﴾.

﴿وقال الذين كفروا﴾ يعني: قريشاً ﴿إن هذا إلا إفك افتراه﴾: محمد، ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ تقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة النحل، ثُمَّ أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الطبري (٣٦٣/٩) رقم (٢٦٢٦٩)، وذكره ابن عطية (٤/١٩٩).

ما جاؤوا إلا إثمًا وزوراً، أي: ما قالوا إلا باطلاً وبُهتاناً؛ قال البخاري^(١): ﴿تملى عليه﴾ تقرأ عليه؛ من أملت وأملت، انتهى. ثم أمر تعالى نبيه - عليه السلام - أن يقول: إن الذي أنزله هو الذي يعلم سِرَّ جميع الأشياء التي في السموات والأرض، وعبارة الشيخ العارف بالله، سيدي عبد الله بن أبي جمرة (رضي الله عنه): ولما كان المراد مِنَّا بِمُقْتَضَى الحكمة الربَّانيَّة العبادَةُ ودوامُها؛ ولذلك خُلِقْنَا كما ذكر مولانا سبحانه في الآية الكريمة، يعني: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦]. وهو عزل وجل غني عن عبادتنا وعن كل شيء؛ لكن الحكمة اقتضته لأمر لا يعلمه إلا هو؛ كما قال الله عز وجل: ﴿الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ أي: الذي يعلم الحكمة في خلقها وكذلك في خَلْقِنَا وَخَلَقِ جميع المخلوقات، انتهى.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ (٧) أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبْرًا مِمَّنْ ذَلِكَ جَنَّتِ بَعْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُصُورًا ۝ (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ (١١) إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَفَهِيرًا ۝ (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَنَا ضَيْقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ (١٣) لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ (١٤)﴾.

/ ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام...﴾ الآية: المعنى عندهم: أن من كان رسولاً فهو مُسْتَعْنٍ عن الأكل والمشى في الأسواق، ومُحَاجَّتُهُمْ بهذا مذكورة في السِّير، ثم أخبر تعالى عن كفار قريش، وهم الظالمون المشار إليهم، أنهم قالوا: ﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي: قد سَجَرَ، ثم نبَّه تعالى نبيه مُسَلِّياً له عن مقالته فقال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال...﴾ الآية، والقصور التي في هذه الآية تأولها الشعبي وغيره أنها في الدنيا، والقصور هي البيوت المبنية بالجدران، لأنها قصرت عن الداخلين والمستأذنين، وباقي الآية بَيَّنَّ، والضمير في ﴿رأيتهم﴾ لجهم.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَاصِيراً ۝ (١٥) هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّشْتُولًا ۝ (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ هَئِنَّمْ أَضَلُّكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ (١٧) قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٨/٨) كتاب «التفسير»: باب سورة الفرقان.

يَلْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ سَوُوا لِلْكَرِّ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الصائرين إلى هذه الأحوال من النار: أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ، وهذا استفهام على جِهَةِ التوقيف والتوبيخ؛ لِأَنَّ الْمَوْقِفَ جَائِزَ لَهُ أَنْ يُوقِفَ مُحَاوِرَهُ عَلَى مَا شَاءَ؛ ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ.

وقوله تعالى: «ويوم نحشرهم» يعني الكفار، ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ يريد كل شيء عِبْدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وقرأ ابن^(١) عامر: «فَنَقُولُ» بالنون، قال جمهور المفسرين: والموقف المجيب كل من ظلم بأن عِبْدَ مِمَّنْ يَعْقِلُ كالملائكة وعيسى وعزير وغيرهم، وقال الضَّحَّاكُ وَعِكْرِمَةُ: الموقف المجيب: الأصنام التي لَا تَعْقِلُ يقدرها الله تعالى على هذه المقالة، ويجيء خزي الكفرة لذلك أبلغ^(٢)، وقرأ الجمهور^(٣): «نَتَّخِذُ» - بفتح النون -، وذهبوا بالمعنى إلى أَنَّهُ مِنْ قَوْلٍ مَنْ يَعْقِلُ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بِمَعْنَى الَّتِي فِي سُورَةِ سَبَأٍ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الآية [سبأ: ٤٠]. وكقول عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقولهم: ﴿حتى نسوا الذكر﴾ أي: ما ذكر به الناس على السنة الأنبياء - عليهم السلام -، وقرأ زيد بن ثابت^(٤) وجماعة: «نَتَّخِذُ» - بضم النون -.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُم نَذِقْهُ

(١) قال أبو علي الفارسي: وقراءة ابن عامر: «ويوم نحشرهم فنقول» حسن؛ لإجرائه المعطوف مجرى المعطوف عليه في لفظ الجمع، وقد قال: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة﴾ [سبأ: ٤٠]، ﴿ويوم نحشرهم ثم نقول للذين أشركوا﴾ [الأنعام: ٢٢]، ﴿وحشرناهم فلم نغادر﴾ [الكهف: ٤٧]. ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (٣٣٨/٥)، و«السبعة» (٤٦٣)، و«إعراب القراءات» (١١٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢١٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٩٣/٥)، و«المنوان» (١٤٠)، و«حجة القراءات» (٥٠٩)، و«شرح شملة» (٥١٧)، و«إتحاف» (٣٠٦/٢).

(٢) ذكره البغوي (٣/ ٣٦٣-٣٦٤)، وابن عطية (٢٠٤/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٤/٤)، و«البحر المحيط» (٤٤٦/٦)، و«الدر المصون» (٢٤٧/٥).

(٤) وقرأ بها أبو جعفر، والحسن، وأبو الدرداء، وأبو رجاء، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وحفص بن حميد، والسلمي.

ينظر «الشواذ» ص (١٠٥)، و«الكشاف» (٢٧٠/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٠٤/٤)، و«البحر المحيط» (٤٤٨/٦)، و«الدر المصون» (٢٤٧/٥).

عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فقد كذبوكم...﴾ الآية: خطاب من الله تعالى للكفرة، أخبرهم أن مغبوباتهم كذبتهم، وفي هذا الإخبار خزي وتوبيخ لهم، وقرأ حفص عن عاصم: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ» - بالتاء من فوق ؛ قال مجاهد^(١): الضمير في «يستطيعون» هو للمشركين، و﴿صرفاً﴾ معناه ردُّ التكذيب أو العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ومن يظلم منكم﴾ قيل: هو خطاب للكفار، وقيل: للمؤمنين، والظلم هنا: الشُّرْكُ، قاله الحسن^(٢) وغيره، وقد يحتمل أن يعم غيره من المعاصي، وفي حرف أبي: «وَمَنْ يَكْذِبُ مِنْكُمْ نَذَفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين...﴾ الآية: ردُّ على قريش في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ثم أخبر عز وجل أن السبب في ذلك أنه جعل بعض عبده فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، والتوقيف بـ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ خاص بالمؤمنين المحققين، قال ابن العربي في «الأحكام»^(٣): ولما كثر الباطل في الأسواق، وظهرت فيه المناكر - كره علماءنا دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين؛ تنزيهاً لهم عن البقاع التي يغصى الله تعالى فيها، انتهى. ثم أعرب قوله تعالى: ﴿وكان ربك بصيراً﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين، وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُخَيِّ وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ / وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ ١٤٣ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ»^(٤)، رواه الترمذي وابن ماجه، وهذا لفظ الترمذي، وزاد في رواية أخرى: «وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»، ورواه الحاكم في «المستدرک» من عدة طرق، انتهى من «السلاح».

(١) أخرجه الطبري (٣٧٥/٩) برقم (٢٦٣٠٧، ٢٦٣٠٨)، وذكره ابن عطية (٢٠٤/٤)، والسيوطي (١١٩/٥)، وعزاه للقرطبي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٣٧٦/٩) برقم (٢٦٣١٢) عن الحسن، و(٣٦٣١١) عن ابن جريج. وذكره ابن عطية (٢٠٤/٤)، والسيوطي (١١٩/٥)، وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤١٤/٣).

(٤) تقدم تخريجه في سورة آل عمران.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا...﴾ الآية: الرجاء هنا على بابيه، وقيل: هو بمعنى الخوف، ولما تَمَثَّلَتْ كُفَارُ قَرِيشِ رُؤْيَا رَبِّهِمْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنََّّهُمْ عَظُمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَسَلَّوْا مَا لِيَسُوْلَهُ بِأَهْلٍ.

ص ﴿لقد﴾ جواب قَسَمٍ محذوف، انتهى. والضمير في قوله: ﴿ويقولون﴾ قال مجاهد^(١)، وغيره: هو للملائكة، والمعنى: يقول الملائكة للمجرمين: حِجْرًا مَّحْجُورًا عليكم البُشْرَى، أي: حراماً مُحَرَّمًا، والحِجْرُ: الحرام، وقال [مجاهد أيضاً]^(٢) وابن جريج^(٣): الضمير للكافرين المجرمين، قال ابن جريج: كانت العرب إذا كرهوا شيئاً، قالوا: حِجْرًا، قال مجاهد: حِجْرًا عوداً يستعيذون من الملائكة^(٤).

قال *ع*^(٥): ويحتمل أن يكون المعنى: ويقولون حرام مُحَرَّمٌ علينا العَفْوُ، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة للعرب بقولها مَنْ خَافَ آخَرَ فِي الْحَرَمِ، أَوْ فِي شَهْرِ حَرَامٍ إِذَا لَقِيَهُ وَبَيْنَهُمَا تَرَّةٌ؟ قال الداودي: وعن مجاهد^(٦): ﴿وقدمنّا﴾ أي: عمدنا، انتهى.

قال *ع*^(٧): ﴿وقدمنّا﴾ أي: قصد حكمنا وإنفاذاً ونحو هذا من الألفاظ اللاتقة، ومعنى الآية: وقصدنا إلى أعمالهم التي لا تَزُنْ شَيْئاً فصيَرناها هَبَاءً، أي: شَيْئاً لا تحصيلَ له، والهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد يرى إلا في الشمس، قاله ابن

(١) أخرجه الطبري (٣٧٩/٩) برقم (٢٦٣٢٢)، وذكره ابن عطية (٢٠٦/٤) عن الحسن، وقتادة، والضحاك ومجاهد، وابن كثير (٣١٤/٣)، والسيوطي (١٢١/٥) وعزاه للفريايبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) سقط في ج.

(٣) أخرجه الطبري (٣٧٩/٩) برقم (٢٦٣٢٣)، وذكره البغوي (٣٦٥/٣)، وابن عطية (٢٠٦/٤)، والسيوطي (١٢١/٥)، وعزاه للفريايبي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٣٧٩/٩) برقم (٢٦٣٢١)، وذكره البغوي (٣٦٥/٣)، وابن عطية (٢٠٦/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٦/٤).

(٦) أخرجه الطبري (٣٨٠/٩) رقم (٢٦٣٢٤)، وذكره ابن كثير (١٣٤/٣).

(٧) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٦/٤).

عباس^(١) وغيره، ومعنى هذه الآية: جعلنا أعمالهم لا حُكْمَ لها ولا منزلة، ووصف تعالى الهباء في هذه الآية بمنثور، ووصفه في غيرها بِمُنْبَثٌ، فقالت فرقة: هما سواء، وقالت فرقة: المُنْبَثُ: أَرْقُ وَأَدْقُ من المنثور؛ لأنَّ المنثورَ يقتضي أنَّ غيره نَثَرَهُ، والمُنْبَثُ كأنه انبثَّ من دَقَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ مَقِيلًا﴾ ذهب ابن عباس والتَّخَعِيُّ وابن جريج: إلى أن حساب الخلق يَكْمُلُ في وقت ارتفاع النهار، وَيَقِيلُ أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فالمقيل: القائلة^(٢).

قال *ع*: وَيُحْتَمَلُ أن اللفظة إنما تضمنت تفضيلَ الجَنَّةِ جُمْلَةً، وَحُسْنَ هوائها؛ فالعرب تفضِّل البلادَ بِحُسْنِ المقيل؛ لأنَّ وقت القائلة يُبْدِي فسادَ هواء البلاد، فإذا كان بلد في وقت فساد الهواء حسناً حاز الفضل، وعلى ذلك شواهد.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَزُلْزَلَتِ الْمَلَكَةُ تَزِيلًا ۝٢٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَلْتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيَنِي لَوْ أَنِّي لَأَتَّخِذُ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ۝٢٩﴾.

﴿ويوم تشقق السماء﴾ يريد: يوم القيامة.

ص: ﴿بالغمام﴾ الباء: للحال، أي: متغيمه، أو للسبب، أو بمعنى «عن»، انتهى. وفي قوله تعالى: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾: دليل على أنه سهل على المؤمنين، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُهَوِّنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ عَلَيْهِ أَخَفُّ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ صَلَّاهَا فِي الدُّنْيَا». وعضُّ اليدين هو فعل النادم؛ قال ابن عباس وجماعة من المفسرين: الظالم في هذه الآية عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ؛ وذلك أنه كان أسلم أو جَنَحَ إِلَى الإسلام، وكان أَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ الذي قتله النبي ﷺ بيده يوم أُحُدٍ خَلِيلًا

(١) أخرجه الطبري (٣٨١/٩) برقم (٢٦٣٣١)، وذكره البغوي (٣/٣٦٦)، وابن عطية (٤/٢٠٧)، والسيوطي (٥/١٢٢)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٣٨٢/٩) برقم (٣٦٣٣٦) عن إبراهيم النخعي، (٣٦٣٣٧) وابن جريج، (٣٦٣٣٥) وابن عباس، وذكره ابن عطية (٤/٢٠٧)، وابن كثير (٣/٣١٥) عن ابن عباس، والسيوطي (٥/١٢٣)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعزاه لابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبي نعيم في «الحلية» عن إبراهيم النخعي.

لْعُقْبَةِ، فنهاه عن الإسلام، فَقَبِلَ نَهْيَهُ؛ فنزلت الآية فيهما^(١)، فالظالم: عقبة، و﴿فلاناً﴾ أبي. قال السهيلي: وَكُنِيَ سبحانه عن هذا الظالم ولم يُصْرَحْ باسمه؛ ليكون هذا الوعيد غير مخصوص به ولا مقصور عليه؛ بل يتناول جميع مَنْ فعل مثل فعله، انتهى.

٤٣ ب / وقال مجاهد^(٢) وغيره: ﴿الظالم﴾ عام، اسم جنس، وهذا هو الظاهر، وأنَّ مقصد الآية تعظيم يوم القيامة وذكر هولاء بأنه يوم تندم فيه الظلمة، وتتمنى أنها لم تُطع في دنياها أخلاءها، والسبيل الممتنة: هي طريق الآخرة، وفي هذه الآية لكل ذي نُهيّة تنبيه على تجنب قرين السوء، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة، و﴿الذكر﴾: ما ذكر الإنسان أمر آخرته من قرآن، أو موعظة ونحوه.

﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ يحتمل: أن يكون من قول الظالم، ويحتمل: أن يكون ابتداء إخبار من الله عز وجل على وجه التحذير من الشيطان الذي بلغهم ذلك المبلغ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۖ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۖ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۖ﴾ الَّذِينَ يُحْمَلُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الرسول﴾ حكاية عن قول رسول الله ﷺ في الدنيا وتشكيه ما يلقى من قومه؛ هذا قول الجمهور، وهو الظاهر، وقالت فرقة: هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة، و﴿مهجوراً﴾ يحتمل: أن يريد مُبْعِداً مقصياً من الهجر بفتح الهاء، وهذا قول ابن زيد^(٣)، ويَحْتَمَلُ: أن يريد مقولاً فيه الهجر - بضم الهاء -؛ إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة ونحوه؛ قاله مجاهد^(٤).

قال *ع^(٥): * وقول ابن زيد مُثَبِّةٌ للمؤمن على ملازمة المُضَحِّفِ، وألاً يكون الغبار

-
- (١) أخرجه الطبري (٣٨٤/٩) برقم (٢٦٣٤٧)، وذكره ابن عطية (٢٠٨/٤) والسيوطي (١٢٥/٥) وعزاه لأبي نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
 - (٢) ذكره ابن عطية (٢٠٨/٤)، والسيوطي (١٢٧/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد بلفظ: «الشيطان».
 - (٣) أخرجه الطبري (٣٨٦/٩) برقم (٢٦٣٥٧)، وذكره ابن عطية (٢٠٩/٤).
 - (٤) أخرجه الطبري (٣٨٦/٩) برقم (٢٦٣٥٥)، وذكره ابن عطية (٢٠٩/٤)، والسيوطي (١٢٧/٥)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.
 - (٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٠٩/٤).

يعلموه في البيوت، ويشغل بغيره، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَلَّقَ مُصْحَفًا، وَلَمْ يَتَعَاهِذْهُ - جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا؛ أَفْضِرْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» وفي حلية النووي قال: وروينا في «سنن أبي داود» و«مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ» عن سعد بن عُبَادَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْذَمٌ^(١)، وروينا في كتاب أبي داود والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَدَاةِ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرْ ذَنْبًا أَغْطَمْ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أَوْتِيَهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا»^(٢) تكلم الترمذي فيه، انتهى، ثم سَلَاةُ تَعَالَى عَنْ فِعْلٍ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ» أي: فاصبر كما صبروا؛ قاله ابن عباس^(٣)، ثم وعد تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَكُفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا» والباء في «بِرَبِّكَ»: للتأكيد ذَالَّةٌ عَلَى الْأَمْرِ؛ إِذِ الْمَعْنَى: اكْتَفَى بِرَبِّكَ.

«وقال الذين كفروا»^(٤) لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» قال ابن عباس^(٥) وغيره: قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان من عند الله لنزل جُمْلَةً كالتوراة والإنجيل. وقوله: «كذلك» يحتمل أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ؛ إِشَارَةً إِلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُسْتَأْنَفِ وَهُوَ أَوَّلِي، وَمَعْنَاهُ: كَمَا نُزِّلَ أَرْدَنَاهُ، فَإِلْإِشَارَةُ إِلَى نَزُولِهِ مُتَفَرِّقًا، وَالتَّرْتِيلُ: التَّفْرِيقُ بَيْنَ الشَّيْءِ الْمَتَابِعِ، وَمِنْهُ تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى السَّبَبَ فِي نَزُولِهِ مُتَفَرِّقًا: تَثْبِيَتْ قَلْبَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْ يَنْزِلَ فِي النَّوَازِلِ وَالْحَوَادِثِ الَّتِي

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥/١) كتاب الصلاة: باب التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه، حديث (١٤٧٤)، والدارمي (٤٣٧/٢) كتاب «فضائل القرآن»: باب من تعلم القرآن ثم نسيه، وأحمد (٣٢٣/٥) من حديث سعد بن عبادة.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٩/١) كتاب «الصلاة»: باب في كنس المساجد، حديث (٤٦١)، والترمذي (٥/١٧٨-١٧٩) كتاب «فضائل القرآن»: باب (١٩) حديث (٢٩١٦)، وكلاهما من طريق المطلب بن حنطب عن أنس بن مالك مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه، واستغفبه. قال محمد: ولا أعرف للمطلب بن عبد الله سماعاً من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا قوله: حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ.

قال: وسمعت عبد الله بن عبد الرحمن (هو الدارمي) يقول: لا نعرف للمطلب سماعاً من أحد من أصحاب النبي ﷺ قال عبد الله: وأنكر علي بن المديني أن يكون المطلب سمع من أنس.

(٣) أخرجه الطبري (٣٨٦/٩) برقم (٢٦٣٥٨) بنحوه، والسيوطي (١٢٧/٥).

(٤) في ج «وقالوا الذين كفروا».

(٥) ذكره ابن عطية (٢٠٩/٤)، والسيوطي (١٢٧/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس.

قد قَدَّرَهَا وَقَدَّرَ نَزُولَهُ فِيهَا، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ لَا يَجِثُونَ بِمَثَلٍ يَضْرِبُونَهُ عَلَى جِهَةِ الْمَعَارِضَةِ مِنْهُمْ إِلَّا جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ وَالْجَلِيَّةِ، ثُمَّ هُوَ أَحْسَنُ تَفْسِيرًا، وَأَفْصَحُ بَيَانًا، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ تَقْدِمُ تَفْسِيرَ نَظِيرِهِ، وَالْجُمْهُورُ: أَنَّ هَذَا الْمَشْيَ عَلَى الْوُجُوهِ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ جَاءَ كَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]: / أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُخْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «الَّذِي أَلْبَسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةُ رَبِّنَا، انْتَهَى.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (٣٥) ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا﴾ (٣٦) ﴿وَقَوْمٌ نُوْجٍ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧) ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (٣٨) ﴿وَكُلًّا ضَرَفْنَا لَهُ الْأَمثالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا﴾ (٣٩) ﴿وَلَقَدْ أَقْرَأَ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السُّوءِ فَلَسَمَ يَكُونُوا بِرُؤسِهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُكْرًا﴾ (٤٠) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبْرَنَا عَلَيْهَا وَسَوَفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَفْقَهُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٤).

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب...﴾ الآيات تنبيه لكفار قريش، وتوعده أن يحل بهم ما حل بهؤلاء المعذبين؛ قال قَتَادَةُ^(٢): أصحاب الرِّسِّ، وأصحاب الأيكة: قومان أُرْسِلَ إِلَيْهِمَا شُعَيْبٌ، وقاله وهب^(٣) بن منبه، وقيل غير هذا.

وقوله تعالى: ﴿وقرُوناً بين ذلك كثيراً﴾ إِبْهَامٌ لَا يَغْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّبَارُ: الْهَلَاكُ، وَالْقَرْيَةُ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السُّوءِ هِيَ: «سُدُومُ» مَدِينَةُ قَوْمِ لُوطَ، وَمَا لَمْ نَذْكُرْ تَفْسِيرَهُ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ لِلْفَاهِمِ الْمُتَّقِظِ، ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنََّّهُمْ إِذَا رَأَوْا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا عَلَى جِهَةِ الْاسْتِهْزَاءِ: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

قال *ص*: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ [إِنْ]^(٤) نَافِيَةٌ، جَوَابُ «إِذَا»، انْتَهَى، ثُمَّ أَنَسَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ...﴾ الْآيَةُ، الْمَعْنَى: لَا تَتَأَسَفْ عَلَيْهِمْ،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢١٠)، والسيوطي (٥/١٢٩)، وعزاه لابن عساكر.

(٣) ذكره ابن عطية (٤/٢١١).

(٤) سقط في ج.

ومعنى ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ أي: جعل هواه مطاعاً فصار كالإله. ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ أي: بل هم كالأنعام.

قلت: وعبرة الواحدي: ﴿إن هم﴾ أي: ما هم إلا كالأنعام، انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَآةٍ وَالتَّوَمَّ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُثْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُخْفِئُهَا مَتًّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَآنَاسًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَاتِ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّهُمْ بِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل...﴾ الآية: مد الظل بإطلاق: هو ما بين أول الإسفار إلى بُزوغ الشمس، ومن بعد مغيبها أيضاً وقتاً يسيراً؛ فإن في هذين الوقتين على الأرض كلها ظلاً ممدوداً.

﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي: ثابتاً غير متحرك ولا منسوخ، لكنه جعل الشمس ونسخها إياه، وطردها له من موضع إلى موضع؛ دليلاً عليه مُبَيَّنّاً لوجوده ولوجه العبرة فيه، وحكى الطبري^(١) أنه: لولا الشمس لم يُعْلَمَنَّ أَنَّ الظل شيء، إذ الأشياء إنما تُعْرَفُ بأضدادها.

وقوله تعالى: ﴿قبضاً يسيراً﴾ يحتمل أن يريد، لطيفاً، أي: شيئاً بعد شيء، لا في مرة واحدة.

قال الداوودي: قال الضحّاك: ﴿قبضاً يسيراً﴾ يعني: الظل إذا علت الشمس^(٢)، انتهى. قال الطبري^(٣): ووصف الليل باللباس من حيث يستر الأشياء ويغشاها، والسبات: ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً، فشبه النوم به، والنشور هنا: الإحياء، شبهة اليقظة به، ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق، و﴿آناسي﴾: قيل [هو]^(٤) جمع إنسان،

(١) ينظر: «الطبري» (٣٩٥/٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٤/٩) رقم (٢٦٣٩٨).

(٣) ينظر «الطبري» (٣٩٦/٩).

(٤) سقط في ج.

والياء المُشَدَّدَةُ بدل من النون في الواحد، قاله سيبويه، وقال المُبَرِّدُ: هو جمع إنسي، والضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر، وَيَغْضُدُ ذلك قوله: ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُم نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (٥٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (٥٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٥) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءٍ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٥٦).

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ مرج معناه: خَلَطَ.

قال *ع^(١)*: والذي أقول به في معنى هذه الآية: أَنَّ المقصود بها التنبيه على قدرة الله تعالى في أَنَّ بَثَّ في الأرض مياهاً عذبة كثيرة، جعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، كما هو مَرْتَبِي تجد البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضَفْتِهِ، وتجد الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج، وكُلُّ باقٍ على حاله ومطعمه؛ فالبحران: يراد بهما جميع الماء العذب، وجميع الماء الأجاج، والبرزخ والحجر هو ما بين البحرين من الأرض واليبس؛ قاله^(٢) الحسن، والفرات: الصافي اللذيذ المطعم، والأجاج أبلغ ما يكون من الملوحة.

٤٤ ب

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء / بشراً...﴾ الآية تعديداً نِعَمَ على الناس، والنسب: هو أَنَّ يجتمع إنسان مع آخر في أب وأُمٍّ، والصُّهْرُ هو تَوَاشُج المَنَاحِة، فقرابة الزوجة هم الأختان، وقربة الزوج هم الأحماء، والأصهار يقع عاماً لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي: مُعِيناً؛ يعينون على رَبِّهِمْ غيرهم من الكفرة بطاعتهم للشيطان، وهذا تأويل مجاهد^(٣) وغيره، والكافر هنا اسم جنس، وقال

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٤/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٠/٩) برقم (٢٦٤٣٠)، وذكره ابن عطية (٢١٤/٤)، والسيوطي (١٣٦/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠١/٩) برقم (٢٦٤٣٥)، وذكره ابن عطية (٢١٥/٤)، والسيوطي (١٣٧/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وسعيد بن منصور، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

ابن عباس^(١): هو أبو جهل.

قال *ع^(٢): فيشبهه أن أبا جهل هو سبب الآية، ولكن اللفظ عام للجنس كله.

قلت: والمعنى: على دين ربّه ظهيراً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الظاهر فيه: أنه استثناء مُنْقَطِعٌ، والمعنى: لكن مسؤولي ومطلوب من شاء أن يهتدي ويؤمن، ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَجْزِي عِبَادَهُ﴾ وَكَفَىٰ بِهِ يَنْتُوبُ عِبَادَهُ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَتَنَلْ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾.

قال القشيري في «التحجير»: وإذا عَلِمَ العبد أن مولاه حي لا يموت، صَحَّ تَوَكُّلُهُ عليه؛ قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ قيل: إن رجلاً كتب إلى آخر أن صديقي فلاناً قد مات، فَمِنْ كَثَرَةِ ما بكيت عليه ذَهَبَ بَصْرِي، فكتب إليه: الذُّنْبُ لك حين أَحْبَبْتَ الْحَيَّ الذي يموت، فهلا أَحْبَبْتَ الْحَيَّ الذي لا يموت حتى لا تحتاج إلى البكاء عليه، انتهى. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كَرَّبَنِي أَمْرٌ إِلَّا تَمَثَّلَ لِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، قُلْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا» رواه^(٣) الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «السلح».

(١) أخرجه الطبري (٤٠٢/٩) برقم (٢٦٤٤٠)، وابن عطية (٢١٥/٤)، والسيوطي (١٣٧/٥)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢١٥/٤).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٠٩/١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وذكره الهندي في «كنز العمال» (١١٩ - ١٢٠) رقم (٣٤٢٤)، وعزاه لابن أبي الدنيا في «الفرج»، والبيهقي في «الأسماء» عن إسماعيل بن أبي فديك مرسلاً.

وعزاه لابن صصري في «أماليه» عن أبي هريرة.

وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمده﴾ أي: قل: سبحان الله وبحمده أي: تنزيهه واجب وبحمده أقول، وصح عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةً مَرَّةً غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١) فهذا معنى قوله: ﴿وسبح بحمده﴾ وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان الثقيلتين في الميزان، الحديث في البخاري وغيره^(٢).

ت*: وعن جُوَيْرِيَّةَ - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتَ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتَ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(٣) رواه الجماعة إلا البخاري، زاد النسائي في آخره: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَذَلِكَ» وفي رواية له: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ» انتهى من «السلاح». وقوله سبحانه: ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾: وعيدٌ يَبَيِّنُ.

وقوله تعالى: «الرحمن»: يحتمل أن يكون: رفعه بإضمار مبتدأ، أي: هو الرحمن، ويحتمل أن يكون: بدلاً من الضمير في قوله: ﴿استوى﴾.

وقوله: ﴿فسئل به خبيراً﴾ [فيه تأويلان: أحدهما: فاسأل عنه خبيراً]^(٤) والمعنى: أسأل جبريلَ والعلماءَ وأهل الكتاب، والثاني: أن يكون المعنى كما تقول: لو لقيت فلاناً لقيت به البحرَ كرمًا، أي: لقيت منه، والمعنى: فاسأل الله عن كل أمر، وقال عِيَّاضُ فِي ١٤٥ «الشِّفَا» قال القاضي أبو بكر بن العلاء: المأمور بالسؤال غيرُ النبي ﷺ والمسؤول / الخبير هو النبي ﷺ انتهى.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٩٠/٤) كتاب الذكر والدعاء: باب التسييح أول النهار وعند النوم، حديث (٧٩/٢٧٢٦)، والترمذي (٥٥٦/٥) كتاب الدعوات: باب (١٠٤) حديث (٣٥٥٥)، والنسائي (٧٧/٣) كتاب السهو: باب نوع آخر من عدد التسييح، وابن ماجه (١٢٥١-١٢٥٢) كتاب الأدب: باب فضل التسييح، حديث (٣٨٠٨)، وأحمد (٣٢٤/٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٧)، وابن خزيمة (٧٥٣)، والبخاري في «شرح السنة» (٣/ ٨٢ بتحقيقنا).

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) سقط في ج.

قال أبو حيان^(١): والظاهر تعلق به ﴿فاسأل﴾ وبقاء الباء على بابها، و﴿خبيراً﴾ من صفاته تعالى، نحو: لَقِيتُ بِزَيْدٍ أَسَدًا، أي: أَنَّهُ الْأَسَدُ شَجَاعَةً، والمعنى: فاسألِ اللَّهَ الْخَبِيرَ بِالْأَشْيَاءِ، انتهى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۖ ﴿٦٠﴾ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۖ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ يعني أَنَّ كُفَارَ قُرَيْشٍ قَالُوا: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ، وَهُوَ مُسَيَّلَمَةُ الْكُذَّابِ، وَكَانَ مُسَيَّلَمَةُ تَسْمَى بِالرَّحْمَنِ.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ هذا اللفظ ﴿نفوراً﴾ والبروج هي التي عَلِمَتْهَا الْعَرَبُ، وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ اللَّغَوِيِّينَ وَأَهْلُ تَعْدِيلِ الْأَوْقَاتِ، وَكُلُّ بَرَجٍ مِنْهَا عَلَى مَنزِلَتَيْنِ وَثَلَاثٍ مِنْ مَنَازِلِ الْقَمَرِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ أَلْتَلَّ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۖ ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً﴾ أي: هَذَا يَخْلُفُ هَذَا، وَهَذَا يَخْلُفُ هَذَا، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ أي: يَعْتَبِرُ بِالمَصْنُوعَاتِ وَيُشْكِرُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى آلَائِهِ^(٢)، وَقَالَ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَالحَسَنُ: مَعْنَاهُ: لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ مَا فَاتَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهِ فِي أَحَدِهِمَا فَيَسْتَدْرِكُهُ فِي الَّذِي يَلِيهِ^(٣)، وَقَرَأَ حَمْزَةً^(٤) وَحَدَهُ: «يَذْكُرُ» بِسُكُونِ الذَّالِ وَضَمِّ الْكَافِ، ثُمَّ لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جَاءَ بِصِفَاتِ عِبَادِهِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ التَّذَكُّرِ وَالشُّكْرِ.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾. [خبر مبتدئ، والمعنى: وعباده حَقُّ عِبَادِهِ هُمُ الَّذِينَ يَمْشُونَ].

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٦/٤٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٦/٩، ٤٠٧) برقم (٢٦٤٥٨، ٢٦٤٥٩)، وذكره البغوي (٣/٣٧٥)، وابن عطية (٤/٢١٧)، والسيوطي (٥/١٣٩)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ذكره ابن عطية (٣/٢١٨)، وابن كثير (٣/٣٢٤) عن ابن عباس، والسيوطي (٥/١٣٩)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد عن الحسن.

(٤) ينظر: «السبعة» (٤٦٦)، و«الحجة» (٥/٣٤٨)، و«المعنوان» (١٤١)، و«إتحاف» (٢/٣١٠)، و«حجة القراءات» (٥١٣).

وقوله: ﴿يَمشُونَ﴾^(١) على الأرض عبارة عن عيشهم ومُدَّة حياتهم وَتَصَرُّفَاتِهِمْ، و﴿هَوْنًا﴾ بمعنى أَنَّ أمرهم كله هَيِّنٌ، أي: لَيْسَ حسن؛ قال مجاهد^(٢): بالحلم والوقار. وقال ابن عباس^(٣): بالطاعة والعَفَاف والتواضع، وقال الحسن^(٤): حُلَمَاء، إِنَّ جُهْلَ عليهم لم يجهلوا.

قال الثعلبي: قال الحسن^(٥): يمشون حلما علماء مثل الأنبياء، لا يؤذون الذرَّ في سكونٍ وتواضع وخشوع، وهو ضدُّ الْمُخْتَالِ الفخور الذي يختال في مشيه، اهـ. قال عياض في صفة نَبِيِّنا محمد ﷺ: يخطو تكفُّوا^(٦)، ويمشي هونًا، كأنما ينحط من صيب، انتهى من «الشفاء».

قال أبو حيان^(٧): ﴿هَوْنًا﴾: نعت لمصدر محذوف، أي: مشياً هونًا، أو حال، أي: هَيِّنِينَ، انتهى، وروى الترمذي عن ابن مسعود أَنَّ النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَخْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ، هَيِّنٍ، سَهْلٍ»^(٨)، قال أبو عيسى: هذا

(١) سقط في جـ.

(٢) أخرجه الطبري (٤٠٧/٩) برقم (٢٦٤٦١)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٤)، والسيوطي (١٤٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٨/٩) برقم (٢٦٤٦٩)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٤) والسيوطي (١٤٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٤٠٨/٩) برقم (٢٦٤٧٤)، وذكره البغوي (٣٧٥/٣)، وابن عطية (٢١٨/٤)، والسيوطي (١٤١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري (٤٠٨/٩) برقم (٢٦٤٧٦)، وذكره البغوي (٣٧٥/٣)، وابن عطية (٢١٨/٤).

(٦) أي تمايل إلى قدام. ينظر: «النهاية» (١٨٣/٤).

(٧) ينظر: «البحر المحيط» (٤٦٩/٦).

(٨) أخرجه الترمذي (٦٥٤/٤) كتاب صفة القيامة: باب (٤٥) حديث (٢٤٨٨)، وأحمد (٤١٥/١)، وأبو يعلى (٤٦٧/٨) برقم (٥٠٥٣)، وابن حبان (١٠٩٦، ١٠٩٧- موارد)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١١)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٥/١٠) برقم (١٠٥٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/٥٣٥-٥٣٦) برقم (١١٢٥١، ١١٢٥٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/٤٨٠- بتحقيقنا) كلهم من طريق هشام بن عروة عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو الأودي عن ابن مسعود مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وصححه ابن حبان.

وللحديث طريق آخر:

فقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٠٨/٢): سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه مصعب بن عبد الله =

حديث حسن، انتهى.

﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ العامل في ﴿سلاماً﴾ ﴿قالوا﴾، والمعنى: قالوا هذا اللفظ، وقال مجاهد^(١): معنى ﴿سلاماً﴾: قولاً سداداً، أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فَنُسخَ منها ما يَخُصُّ الكُفْرَةَ، وَبَقِيَ أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة، قال صاحب «الحكم الفارقية»: إذا نازعك إنسان فلا تجبه؛ فإن الكلمة الأولى أنثى وإجابتها فحلها، فإن أمسكت عنها بترتها وقطعت نسلها، وإن أجبتها ألقتها، فكم من نسل مذموم يتولد بينهما في ساعة واحدة، انتهى.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة، قال الحسن: لما [فرغ من]^(٢) وصف نهارهم، وَصَفَ في هذه ليلهم^(٣)، و﴿غراماً﴾: معناه: ملازماً ثقيلاً، و﴿مقاماً﴾: من الإقامة، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَتْ / الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ، أَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، ٤٥ ب وَمَنْ أَسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَتْ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ»^(٤)، رواه أبو داود،

= الزبيري عن أبيه عن هشام بن عروة عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ... فذكر الحديث قالوا: هذا خطأ، رواه الليث بن سعد وعبد بن سليمان عن هشام بن عروة عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمرو الأودي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ... وهذا هو الصحيح. (١) أخرجه الطبري (٤٠٩/٩)، وذكره ابن عطية (٢١٨/٤)، والسيوطي (١٤٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد.

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره ابن عطية (٢١٩/٤)، والسيوطي (١٤١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن.

(٤) أخرجه الترمذي (٦٩٩ - ٧٠٠) كتاب صفة الجنة: باب ما جاء في صفة أنهار الجنة، حديث (٢٥٧٢)، وابن ماجه (١٤٥٣/٢) كتاب الزهد: باب صفة الجنة، حديث (٤٣٤٠)، والنسائي (٨/٢٧٩) كتاب الاستعاذة: باب الاستعاذة من حر النار، وأحمد (١١٧/٣)، وأبو يعلى (٣٥٦/٦) رقم (٣٦٨٢)، وابن حبان (٢٤٣٣ - موارد)، وابن أبي شيبة (٤٢١/١٠) رقم (٩٨٥٧)، والحاكم (١/٥٣٤ - ٥٣٥)، وهناد بن السري في «الزهد» (١/١٣٣) رقم (١٧٣) كلهم من حديث أنس.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه أيضاً ابن حبان.

والنسائي، وابن ماجه، وابن جِبَّانَ في «صحيحه» بلفظ واحد، ورواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «السلام».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا...﴾ الآية: عبارة أكثر المفسرين أنَّ الذي لا يُسْرِفُ هو الْمُتَّقِ في الطاعة وإن أفرط، والمُسْرِفُ هو الْمُتَّقِ في المعصية وإن قَلَّ إنفاقه، وأنَّ الْمُقْتِرَ هو الذي يمنع حَقًّا عليه؛ وهذا قول ابن عباس^(١) وغيره، والوجه أنَّ يقال: إنَّ النفقة في المعصية أمر قد حَظَرَتِ الشريعة قِليله وكثيره، وهؤلاء الموصوفون مُتَزَاهُونَ عن ذلك، وإنَّما التأديب بهذه الآية هو في نفقة الطاعات والمباحات، فأدب الشريعة فيها ألا يفرط الإنسان حتى يُضَيِّعَ حَقًّا آخر أو عيالاً ونحو هذا، وألاً يُضَيِّقَ أيضاً ويقتِر حتى يجيع العيال ويفرط في الشَّح، والحَسَنُ في ذلك هو القوام، أي: المعتدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخير الأمور أوسطها؛ ولهذا ترك النَّبِيُّ ﷺ أبا بكر الصديق يَتَصَدَّقُ بِجَمِيعِ مَالِهِ؛ لأنَّ ذلك وَسَطٌ بنسبة جَلَدِهِ وَصَبْرِهِ في الدين، ومنع غيره من ذلك.

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين رَوَّجَه ابنته فاطمة: مَا نَفَقْتَك؟ فقال له عمر: الْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ، ثم تلا الآية^(٢)، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشترأه فأكله^(٣). و﴿قواماً﴾: خبر ﴿كان﴾ واسمها مُقَدَّرٌ، أي: الإنفاق.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢﴾.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ الآية: في نحو هذه الآية قال ابن مسعود:

(١) أخرجه الطبري (٤١١/٩) نحوه، وذكره البغوي (٣٧٦/٣) نحوه، وابن عطية (٢٢٠/٤) والسيوطي (٥/١٤٢)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٢٠/٤).

(٣) ذكره البغوي (٣٧٦/٣)، وابن عطية (٢٢٠/٤)، والسيوطي (١٤٣/٥)، وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

قُلْتُ يَوْمًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ؛ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هذه ^(١) الآية والأثم في كلام العرب: العِقَابُ، وبه فُسِّرَ ابن زيد وقتادة هذه الآية.

قال *ع^(٢): ﴿يضاعف﴾: بالجزم بدل من ﴿يلتق﴾ قال سيبويه: مضاعفة العذاب هو لقي الأثم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل، وقد تقدم بيان ذلك في «سورة النساء».

وقوله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: بأن يجعل أعمالهم بَدَل معاصيهم الأولى طاعة؛ قاله ابن عباس ^(٣) وغيره، ويحتمل أن يكون ذلك في يوم القيامة، يجعل بدل السيئات الحسنات تَكْرُمًا منه سبحانه وتعالى؛ كما جاء في «صحيح مسلم» ^(٤)، وهو تأويل ابن المُسَيَّب.

*ص: والأولى: ويحتمل أن يكون الاستثناء هنا مُنْقَطِعًا، أي: لكن مَنْ تَاب

(١) حديث: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

أخرجه البخاري (١٣/٨) كتاب التفسير: باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ حديث (٤٤٧٧)، وفي (٨/٣٥٠-٣٥١). كتاب التفسير: باب ﴿والذين يدعون مع الله إلهاً آخر﴾، حديث (٤٧٦١)، وفي (١٠/٤٤٨) كتاب الأدب: باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، حديث (٦٠٠١)، وفي (١٢/١١٦) كتاب الحدود: باب إثم الزناة، حديث (٦٨١١)، وفي (١٢/١٩٤)، كتاب الديات: باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾، حديث (٦٨٦١)، وفي (١٣/٤٩٩-٥٠٠) كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، حديث (٧٥٢٠)، وفي (١٣/٥١٢)، حديث (٧٥٣٢).

ومسلم (١/٩٠-٩١) كتاب الإيمان: باب كون الشرك أقبح الذنوب، حديث (٨٦/١٤١)، وأبو داود (١/٧٠٥)، كتاب الطلاق: باب في تعظيم الزنا، حديث (٢٣١٠)، والترمذي (٥/٣٣٦) كتاب التفسير: باب «ومن سورة الفرقان»، حديث (٣١٨٢) والنسائي (٧/٨٩) كتاب تحريم الدم: باب ذكر أعظم الذنب، حديث (٤٠١٣). وأحمد (١/٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٦٢، ٤٦٤)، والطبراني (٣/٤)، ومنحة وأبو عوانة (١/٥٦)، وأبو نعيم (٤/١٤٥)، والبيهقي (٨/١٨) كتاب الجنائيات: باب قتل الولدان، من حديث ابن مسعود.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٢١).

(٣) أخرجه الطبري (٩/٤١٨) برقم (٢٦٥٢٧) بنحوه، وذكره البغوي (٣/٣٧٧) وابن عطية (٤/٢٢١)، والسيوطي (٥/١٤٦)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) تقديم تخريجه.

وَأَمِنْ، وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، انتهى. ثم أَكَّدَ سبحانه أمر التوبة، ومدح المتاب فقال: «ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً» كأنه قال: فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً، ثم استمرت الآيات في صفة عباد الله المؤمنين بأن نَفَى / عنهم شهادة الزور، و﴿يشهدون﴾ في هذا الموضع ظاهر، معناها: يُشَاهِدُونَ ١٤٦ وَيَخْضَرُونَ، والزور: كل باطل زُورٌ، وأعظمه الشرك، وبه فسر الضحَّاك^(١)، ومنه الغناء، وبه فَسَّرَ مجاهد^(٢)، وقال عليٌّ وغيره: معناه لا يشهدون بالزور، فهي من الشهادة لا من المشاهدة، والمعنى الأول أعم. واللغو: كل سَقَطَ من فعل أو قول، وقال الثعالبي: اللغو كل ما ينبغي أن يطرح ويُتْلَى، انتهى. و﴿كراماً﴾ معناه: معرضين مستحيين، يتجافون عن ذلك، ويصبرون على الأذى فيه.

قال ع^(٣): * : وإذا مرَّ المسلم بمنكر فكَرَّمَهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ، وحدود التغير معروفة.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤) ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُفْتَوْنَ فِيهَا قِيعَةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥) ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٧٦).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يريد: ذُكِّرُوا بالقرآن أمر آخرتهم ومعادهم.

وقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما: أن يكون المعنى: لم يكن خُرُوجُهُمْ بهذه الصفة؛ بل يكونوا سُجَّدًا وَبُكْيًا، وهذا كما تقول: لم يخرج زيد إلى الحرب جزعاً، أي: إنما خرج جريئاً مُقَدِّمًا، وكأنَّ الذي يَخِرُّ أَصَمُّ أَعْمَى هو المنافق أو الشَّاكُّ، والتأويل الثاني: ذهب إليه الطبري^(٤) وهو أن: يخروا صُمًّا وَعُمْيَانًا، هي صفة للكفار، وهي عبارة عن إعراضهم.

وقال الفراء: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾، أي: لم يقيموا، وهو نحو تأويل الطبري، انتهى. وقال

(١) أخرجه الطبري (٤٢٠/٩) برقم (٢٦٥٣٦)، وذكره البغوي (٣/٣٧٨)، وابن عطية (٤/٢٢٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٢٠/٩) برقم (٢٦٥٣٨)، وذكره ابن عطية (٤/٢٢٢) والسيوطي (٥/١٤٨)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «ذم الغضب»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن مجاهد.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٢٢).

(٤) ينظر: «الطبري» (٩/٤٢٣).

ابن العربي في «أحكامه»^(١): قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُوا عَلَيْهَا صِمًّا وَعِمَانًا﴾.

قال علماؤنا: يعني الذين إذا قرأوا القرآن قرأوه بقلوبهم قراءة فهم وتثبيت، ولم يثربوه ثَرَّ الدَّقْل، فإنَّ المرور عليه بغير فهم ولا تثبيت صَمَمٌ وَعَمَى، انتهى. وقُرءُ العين: من القر وهذا هو الأشهر؛ لأنَّ دمع السرور بارد، ودمع الحزن سُخْنٌ؛ فلهذا يقال: أقرَّ الله عينك، وأسخن الله عين العدو، وقرة العين في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تعالى؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما^(٢)، وبيَّن المقداد بن الأسود الوجه من ذلك بأنه كان في أول الإسلام يهتدي الأب، والابن كافر، أو الزوج والزوجة كافرة، فكانت قرة أعينهم في إيمان أحبائهم.

﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ أي: اجعلنا يأتُم بنا المتقون، وذلك بأن يكون الداعي مُتَقِيًّا قدوة، وهذا هو قصد الداعي، قال النَّخَعِيُّ: لم يطلبوا الرياسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين، وهذا حَسَنٌ أَنْ يُطَلَّبَ وَيُسْعَى^(٣) له.

قال الثعلبي: قال ابن عباس: المعنى: واجعلنا أئمة هدى^(٤)، انتهى، وهو حسن، لأنَّهُم طلبوا أن يجعلهم أهلاً لذلك. والغرفة من منازل الجنة وهي الغرف فوق^(٥) الغرف، وهي اسم جنس؛ كما قال: [من الهزج]

وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمَرَا ءَ لَمْ نَخْلُلْ بِوَادِ يَكُم

ت: وأخرج أبو القاسم، زاهر بن طاهر بن محمد بن الشحامي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا لَيْسَ لَهَا مَعَالِيْقُ مِنْ فَوْقِهَا وَلَا عِمَادٌ مِنْ تَحْتِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَدْخُلُهَا أَهْلُهَا؟ قَالَ: يَدْخُلُونَهَا أَشْبَاهُ الطَّيْرِ، قِيلَ: هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ؟ قَالَ: هِيَ لِأَهْلِ / الْأَسْقَامِ وَالْأَوْجَاعِ وَالْبَلَوَى^(٦)». انتهى من ٤٦ ب «التذكرة». وقرأ حمزة^(٧) وغيره: «يَلْقَوْنَ» بفتح الباء وسكون اللام وتخفيف القاف.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٣٣).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢٢٢).

(٣) ذكره ابن عطية (٤/٢٢٢).

(٤) أخرجه الطبري (٩/٤٢٥) برقم (٢٦٥٦٢)، وذكره السيوطي (٥/١٤٩)، وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٥) في جد: الغرفة فوق فوق الغرف.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/١٥٠)، وعزاه إلى زاهر بن طاهر الشحامي عن أنس.

(٧) وقرأ بها الكسائي وأبو بكر.

﴿قُلْ مَا يَعْجُزُا يَكُورِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٧٧).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُزُا يَكُورِي﴾ الآية، ما نافية وتحتمل التقرير، ثم الآية تحتمل أن تكون خطاباً لجميع الناس، فكأنه قال لقريش منهم: ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه، أن لو كانت، إذ ذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال النقاش وغيره: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد، وقرأ ابن الزبير^(١) وغيره: «فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ» وهذا يؤيد أن الخطاب بما يعبأ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتهم، ولم تعبدوه فسوف يكون العذاب أو التكذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً، ويحتمل أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش [خاصة]^(٢) وقال الداوودي: وعن ابن عُيَيْنَةَ: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ معناه: لولا دعاؤكم إيَّاه لتطيعوه، انتهى، قال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): زعم بعض الأدباء أن «لولا دعاؤكم» معناه: لولا سؤالكم إياه وطلبكم منه، ورأى أنه مصدر أضيف إلى فاعل، وليس كما زعم؛ وإنما هو مصدر أضيف إلى مفعول، والمعنى: قل يا محمد للكفار: لولا دعاؤكم ببعثة الرسول إليكم وتبين الأدلة لكم فقد كذبتهم؛ فسوف يكون لزاماً؛ ذكر هذا عند قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. في آخر سورة النور، انتهى.

ت والحق أن الآية محتملة لجميع ما تقدم، ومن ادعى التخصيص فعليه بالدليل، والله أعلم.

ويعبأ: مشتق من العبء وهو الثقل الذي يُعبأ ويرتب كما يعبأ الجيش.

= وحجتهم قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، [مريم: ٥٩]. وقوله: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ [الفرقان: ٦٨].

وحجة الباين قوله: ﴿ولقاهم نضرة وسروراً﴾ [الإنسان: ١١].

ينظر: «حجة القراءات» (٥١٥)، و«السبعة» (٤٦٨)، و«الحجة» (٣٥٤/٥)، و«إعراب القراءات» (٢/١٢٨)، و«معاني القراءات» (٢/٢٢١)، و«شرح الطيبة» (٩٨/٥)، و«العنوان» (١٤١)، و«حجة القراءات» (٥١٥)، و«شرح شملة» (٥٣٠)، و«إتحاف» (٢/٣١١).

(١) وقرأ بها ابن عباس.

ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٧، و«المحتسب» (٢/١٢٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٢٣)، و«البحر المحيط» (٦/٤٧٥)، وزاد نسبتها إلى عبد الله بن مسعود.

(٢) سقط في ج.

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤١١).

قال الثعلبي: قال أبو عبيدة: يقال: ما عَبَأْتُ به شيئاً، أي: لم أَعُدَّهُ شيئاً فوجوده وعدمه سواء، انتهى.

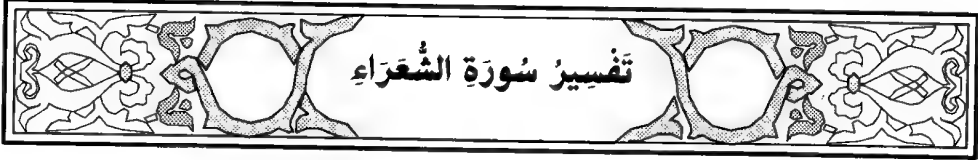
وقال العراقي: ﴿ما يعبأ﴾ أي: ما يبالي، انتهى. [وأكثر الناس على أن اللزام المشار إليه هو يوم بدر، وقالت فرقة: هو توعّد بعذاب الآخرة^(١)]، وقال ابن عباس: اللزام الموت^(٢)، وقال البخاري: ﴿فسوف يكون لزاماً^(٣)﴾ أي: هلكة، انتهى.

(١) سقط في جـ.

(٢) أخرجه الطبري (٤٢٨/٩) برقم (٢٦٥٨٤)، وذكره البغوي (٣/٣٨٠)، وابن عطية (٢٢٣/٤)، والسيوطي (١٥٠/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٥٥/٨) كتاب التفسير: باب ﴿فسوف يكون لزاماً﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد



وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ

﴿طَسَمَ﴾ ١ تِلْكَ مَآيَئِكَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ ٣ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ .

قوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾ تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * تقدم الكلام على الحروف التي في أوائل السور، والباخع: القاتل والمُهْلِكُ نَفْسَهُ بالهم، والخضوعُ للآية المنزلة إمّا لخوف هلاك كنتق الجبل على بني إسرائيل، وإمّا لأجل الوضوح وبهر العقول، بحيث يقع الإذعان لها. والأعناق الجارحة المعلومه، وذلك أن خضوع العنق والرقبة هو علامة الذلة والانقياد.

وقيل: المراد بالأعناق جماعتهم؛ يقال: جاء عُتُقُ من الناس، أي: جماعة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنْ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩ .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون * أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم؟ تقدم تفسير / هذه الجملة فانظره في محلّه، وقوله تعالى: ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد بعذاب الدنيا كبدر وغيرها، وعيد بعذاب الآخرة، والزوج: النوع والصنف، والكريم: الحسن المُتَقَنُّ قاله مجاهد^(١) وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر، ثم توعدّ تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: عزيز في انتقامه من الكفار، رحيم بأوليائه المؤمنين.

﴿وَلَا نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَسْقُونَ إِلَّا بِغُرُوبٍ﴾ (١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٧) ﴿وَيَحْبِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّي﴾ (١٨) ﴿وَأَنْتَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٩) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتِينَا بِرُسُلٍ﴾ (٢٠) ﴿فَقُلْ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢١) ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢) ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (٢٣) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَغَمَّ بِِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَى﴾ التقدير: واذكر إذ نادى ربك موسى، وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش في تكذيبهم النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ معناه: يعينني ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ يعني قَتْلُهُ الْقِبْطِيَّ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أي: لا تخف ذلك، وقول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ هو على جهة المَنِّ عليه والاحتقار، أي: رَبَّيْنَاكَ صَغِيرًا، ولم نقتلك في جملة مَنْ قَتَلْنَا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾: فمتى كان هذا الذي تَدْعِيهِ، ثم قرره على قتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ﴾ وَالْفَعْلَةُ - بفتح الفاء -: الْمَرْءُ، وقوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يريد: وقتلت القبطي وأنت في قتلك إياه من الكافرين؛ إذ هو نَفْسٌ لا يحلُّ قتلها؛ قاله الضَّحَّاكُ^(١)، أو يريد: وأنت من الكافرين بنعمتي في قتلك إياه؛ قاله ابن زيد^(٢)؛ ويحتمل أن يريد: وأنت الآن من الكافرين بنعمتي، وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيًا إلى فرعون - أَحَدَ عَشَرَ عَامًا غير أشهر.

وقوله: ﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا﴾: من كلام موسى عليه السلام والضميرُ في قوله: ﴿فَعَلْتَهَا﴾ لِقَتْلِهِ الْقِبْطِيَّ. وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: من الجاهلين بأنَّ وكزتي إياه تأتي على نفسه^(٣)، وقال أبو عبيدة: معناه: من الناسين، ونزع بقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس^(٤): ﴿وَأَنَا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير، و﴿حُكْمًا﴾ يريد: التَّوْبَةُ وحُكْمَتَهَا.

(١) ذكره ابن عطية (٢٢٧/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٤٣٦/٩) برقم (٢٦٦٠٥)، وذكره ابن عطية (٢٢٧/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٣٧/٩) برقم (٢٦٦١١)، وذكره ابن عطية (٢٢٨/٤).

(٤) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٧، و«المحرر الوجيز» (٢٢٨/٤)، و«البحر المحيط» (١١/٧)، و«الكشاف» (٣٠٥/٣).

وقوله: ﴿وجعلني من المرسلين﴾ درجة ثانية للنبوة، فرب نبي ليس برسول.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ ۖ﴾ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ (٢٨) قَالَ لَيْنَ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْا حِجَّتَكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَاتَّبَعُوهُ إِذَازَ هُوَ ثُبَّانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَرَفَعَ يَدَهُ إِذَازَ هُوَ يَبْصُرُ لِلظُّلُمِ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَازَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤).

وقوله: ﴿وتلك نعمة تمنها علي﴾ الآية: قال قتادة: هذا من موسى على جهة الإنكار على فرعون^(١) كأنه يقول: أو يصح لك أن تعد علي نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي: ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلني ولا تقتلهم^(٢)، ولا تستعبدهم، وقرأ الضحاك^(٣): «وتلك نعمة ما لك أن تمنها علي» وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وقال الطبري^(٤) والسدي: هذا الكلام من موسى عليه السلام علي جهة الإقرار بالنعمة كأنه يقول: نعم^(٥)، وتربيتك نعمة علي؛ من حيث عبّدت غيري وتركتني، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي، ولما لم يجد فرعون حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: ﴿وما ب ٤٧ رب العالمين﴾ واستفهمه استفهاماً فقال موسى / هو ﴿رب السموات والأرض...﴾

الآية، فقال فرعون^(٦) عند ذلك: ﴿ألا تسمعون﴾: على معنى الإغراء والتعجب من شناعة المقالة [إذ]^(٧) كانت عقيدة القوم؛ أن فرعون ربهم ومعبودهم، والفراغة قبله كذلك، فزاده موسى في البيان بقوله: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ فزاده موسى في بيان الصفات التي تُظهر نقص فرعون، وتبين أنه في غاية البعد عن القدرة عليها، وهي ربوبية المشرق والمغرب، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر، ولما انقطع فرعون في باب الحجة، رجع إلى الاستعلاء والتغلب فقال لموسى: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ وفي

(١) في ج: فرعون لعنه الله.

(٢) في ج: ولا تقتلهم.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٢٨/٤)، و«البحر المحيط» (١١/٧).

(٤) ينظر: «الطبري» (٤٣٨/٩).

(٥) ذكره ابن عطية (٢٢٨/٤).

(٦) في ج: فرعون لعنه الله.

(٧) سقط في ج.

توعده بالسجن ضَعْف؛ لَأَنَّهُ خَارَت طَبَاعُهُ مَعَهُ، وَكَانَ فِيهِمَا رُوي أَنَّهُ يَفْزَعُ مِنْ مُوسَى فِرْعَاوَنَ شَدِيداً حَتَّى كَانَ لَا يُمْسِكُ بَوْلَهُ، وَكَانَ عِنْدَ مُوسَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ مَا لَا يَفِرُّهُ تَوَعَّدُ فِرْعَوْنَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَى جِهَةِ اللَّطْفِ بِهِ وَالطَّمَعِ فِي إِيْمَانِهِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾: يَتَضَحَّحُّ لَكَ مَعَهُ صَدَقِي، فَلَمَّا سَمِعَ فِرْعَوْنَ ذَلِكَ طَمَعَ أَنْ يَجِدَ أَثْنَاءَهُ مَوْضِعَ مَعَارَضَةٍ فَقَالَ لَهُ: ﴿فَأَتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانَهُ وَ﴿نَزَعَ يَدَهُ﴾ مِنْ جَيْبِهِ ﴿فَإِذَا هِيَ﴾: تَتَلَأَلُ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنَ الشَّمْسِ، فَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنَ ذَلِكَ هَالَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ مَدْفَعٌ غَيْرَ أَنَّهُ فَرَعَ إِلَى رَمِيهِ بِالسَّحَرِ.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧) ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَلْقِيَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَمَّا نَبُغِ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَهَيْئَ لَنَا لِأَجْرِ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنِ الْمَقْرِبِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) ﴿أَلْقَوْا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَقَالُوا بَعْرِزَةُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥).

وقوله: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ تقدم بيانه، وكذلك قولهم: ﴿وابعث في المدن حاشرين﴾ * يأتوك بكل سحار عليم * تقدم بيانه.

وقوله تعالى: ﴿قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾ يريد بتقريبهم الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنَاتِ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨) ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِبْرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩) ﴿قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ﴾ (٥٢) ﴿فَارْتَلَّ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَأَنْتُمْ لَنَا كَالظُّلُمِ اللَّاتِيهِ﴾ (٥٥) ﴿وَإِنَّا لَجَمْعٌ خَالِدُونَ﴾ (٥٦) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٧) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا تَرَوْا الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْيَمْرُوتَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) ﴿وَأَرْسَلْنَا قُلُوبَهُمْ لَافِتِينَ وَنَبَاهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) ﴿وَأَفِينَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٥) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٦٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعِزُّهُ الرَّجِيمُ﴾ (٦٨).

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون ﴿تقدم بيان هذه الجملة، والحمد لله فانظره في محلّه؛ قال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: قال مالك: دعا موسى فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأنّ السحرة آمنوا في يوم واحد، انتهى، وقولهم: ﴿لا ضير﴾ أي: لا يضرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله ورضوانه، وقولهم: ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ يريدون: من القبط وصنيفتهم، وإلا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت، والشُرذمة: الجمع القليل المُحتَرَف، وشُرذمة كل شيء: بَقِيَّتُهُ الخسيسة.

وقوله: ﴿لَغَائِظُونَ﴾ يريد بخلافهم الأمر وبأخذهم الأموال عارية و﴿حاذرون﴾ جمع حَذَرَ، والضمير في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ عائد على القِبط، والجنات والعيون بحافتي النيل من أسوان إلى رشيد؛ قاله ابن عمر^(٢) وغيره، والمقام الكريم: قال ابن لهيعة: هو الفيوم، وقيل: هو المنابر، وقيل: مجالس الأمراء والحُكَّام، وقيل: / المساكن الحسان، ١٤٨ و﴿مشرقين﴾ معناه: عند شروق الشمس، وقيل: معناه: نحو المشرق، والطَّودُ: هو الجبل، و﴿أزلفنا﴾ معناه: قَرَّبْنَا، وقرأ ابن عباس^(٣): «وَأَزْلَفْنَا» بالقاف.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِزًّا ۖ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ ۚ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾.

﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم...﴾ الآية: هذه الآية تضمنت الإعلام بغيب، والعكوف: اللزوم.

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٣٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢٣٢).

(٣) وقرأ بها أبي، وعبد الله بن الحارث.

قال أبو الفتح: ومن قرأ بالقاف ذ «الآخرين»: فرعون، وأصحابه. أي: أهلكتنا ثم الآخرين، أي: فرعون وأصحابه.

ينظر: «المحتسب» (٢/١٢٩)، و«مختصر الشواذ» ص ١٠٨، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٣٣)، و«البحر المحيط» (٧/٢٠)، و«الدر المصون» (٥/٢٧٦).

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قالت فرقة: هو استثناء مُتَّصِلٌ، لأنَّ في الآباء الأقدمين مَنْ قد عبد الله تعالى، وقالت فرقة: هو استثناء مُتَّعِطٌ؛ لأنَّه إِنَّمَا أَرَادَ عِبَادَ الأوثان من كل قرن منهم، وأسند إبراهيم عليه السلام المَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ وَالشِّفَاءَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا حُسْنُ أَدَبٍ فِي الْعِبَارَةِ، وَالْكَلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَوْقَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ عَلَى الطَّمَعِ فِي الْمَغْفِرَةِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى شِدَّةِ خَوْفِهِ مَعَ عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا [لَهُ]»^(١) فِي اللَّهِ - نَادَاهُ مُتَّادٍ: أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمَشَاكَ، وَتَبَوَّأتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْرِلًا»^(٢)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، انْتَهَى. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَّاها»^(٣)، انْتَهَى، وَعَنْهُ ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَخْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ^(٤) أَنْ يَشْفِيكَ - إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ»^(٥) خَرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ» بِالإِسْنَادِ الصَّحِيحِ، انْتَهَى مِنْ «حَلِيةِ النُّوويِّ»، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَخْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَ رَأْسِهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ - أَنْ يَشْفِيكَ - إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ»^(٦). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَاللفظُ لَهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالحَاكِمُ وَابْنُ جِبَّانٍ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِمَعْنَاهُ، وَقَالَ الحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، يَعْنِي: الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمًا، وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ وَابْنِ جِبَّانٍ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَادَ الْمَرِيضَ، جَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ»، فَذَكَرَ مِثْلَهُ بِمَعْنَاهُ انْتَهَى مِنْ «السَّلَاحِ».

(١) سقط في ج.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٥/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في زيارة الإخوان، حديث (٢٠٠٨)، وابن ماجه (٤٦٤/١) كتاب الجنائز: باب ما جاء في ثواب من عاد مريضاً، حديث (١٤٤٣). كلاهما من طريق أبي سنان القسملبي عن عثمان بن أبي سودة عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٩/٤) كتاب البر والصلة: باب فضل عيادة المريض، حديث (٢٥٦٨/٤٢).

(٤) في ج: رب العرش الكريم.

(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٤/٢) كتاب الجنائز: باب الدعاء للمريض عند العيادة، حديث (٣١٠٦)،

والترمذي (٤١٠/٤) كتاب الطب: باب (٣٢) حديث (٢٠٨٣)، والحاكم (٣٤٢/١) من حديث ابن عباس. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. وصححه النووي في «الأذكار» (ص - ١٦٧).

(٦) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿خَطِيئَتِي﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى: أنه أراد كذباته الثلاث، قوله: هي أختي في شأن سارة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقالت فرقة: أراد بالخطيئة اسم الجنس، فدعا في كل أمره من غير تعيين. قال *ع^(١): وهذا أظهر عندي.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٢) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِأَيِّ لَيْئَةٍ كَانَتْ مِنْ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَوْنَ (٨٧) يَوْمَ لَا يُنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُنَاقِبِينَ (٩٠) وَبُرَزْتُ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْصَرِفُونَ (٩٣) فَكَبَّكُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَخُودٌ إِلَّا لَيْسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ تُسَوِّدُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَافِيٍّ حَسَبٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُوقُ (١٠٦).

وقوله: ﴿رب هب لي حكماً﴾: أي حكمةً ونبوءةً، ودعاؤه في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام، ولسان الصّدق: هو الثناء الحسن، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبين له أنه عدوّ لله.

وقوله: ﴿بقلب سليم﴾ معناه: خالص من الشرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة، وإن ٤٨ ب كانت مباحة؛ كالمال والبنين؛ قال سفيان هو الذي يَلْقَى رَبَّهُ / وليس في قلبه شيء غيره.

قال *ع^(٢): وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكنّ السليم من الشرك هو الأهم، وقال الجُنَيْدُ: بقلب [لديغ من خشية الله، والسليم: اللديغ].

*ص: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ الظاهر أنه استثناء منقطع، أي: لكن مَنْ أَتَى اللَّهَ بقلب﴾^(٣) سليم، نفعته سلامة قلبه، انتهى. ﴿وَأَزْلَفْتُ﴾ معناه: قَرُبْتُ، والغاؤون الذين بُرَزَتْ لهم الجحيم هم: المشركون، ثم أخبر سبحانه عن حال يوم القيامة من أنّ الأصنام تُكَبَّكُ في النار، أي: تُلْقَى كَبَّةً واحدة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٣٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٣٥).

(٣) سقط في ج.

وقال *ص*: ﴿فَكَبِّبُوا﴾، أي: قُلِّبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وحروفه كلها أصول عند جمهور البصريين، وذهب الزُّجَاج وابن عطية وغيرهما إلى أنه مضاعف الباء من «كَبَّ».

وقال غيرهما: وجعل التَّكْرِيرَ من اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، وذهب الكوفيون إلى: أَنَّ أَصْلَهُ «كَبَّبَ» والكاف بدلٌ من الباء^(١)، الثانية، انتهى. والغاوون: الكفرة الذين شملتهم الغواية وجنود إبليس: نَسَلُهُ وَكُل مَنْ يَتَّبِعُهُ؛ لأنَّهم جند له وأعوان، ثم وصف تعالى أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَخْتَصِمُونَ فِيهَا وَيَتْلَاوُمُونَ قَائِلِينَ لِأَصْنَامِهِمْ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: في أَنَّ نَعْبُدْكُمْ وَنَجْعَلْكُمْ سِوَاءَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ عَظَفُوا يَزُودُونَ الْمَلَامَةَ عَلَى غَيْرِهِمْ، أي: مَا أَضَلَّنَا إِلَّا كِبْرَاؤُنَا وَأَهْلُ الْجَرَمِ وَالْجِرَاءَةِ، ثُمَّ قَالُوا عَلَى جِهَةِ التَّلْهِفِ وَالتَّأْسِفِ حِينَ رَأَوْا شَفَاعَةَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ نَافِعَةً فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ عَمُومًا، وَشَفَاعَةَ الصَّدِيقِ فِي صَدِيقِهِ خُصُوصًا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ * ولا صديق حميم، والحميم: الولي والقريب الذي يَخْصُصُكَ أَمْرُهُ وَتَخْصُهُ أَمْرُكَ، وَحَامَّةٌ^(٢) الرَّجُلِ خَاصَّتُهُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَالِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُوبِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلْتَوُحَّ لَنَكُوتُنَّ مِنَ الْمُرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)

(١) قال الزمخشري: الكَبْكَبَةُ تكرير الكَبِّ وجعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى. وقال ابن عطية نحواً منه قال: وهو الصحيح لأن تكرير الفعل يَبَيِّنُ نَحْوَ صَرَ وَصَرَصَرَ. وهذا هو مذهب الزُّجَاج وفي هذا البناء ثلاثة مذاهب: أحدها: هذا.

والثاني: هو مذهب البصريين أن الحروف كلها أصول. والثالث: وهو قول الكوفيين أن الثالث مبدل من مثل الثاني فأصل كَبَّبَ كَبَّبَ بثلاث باءات ومثله لَمَلَمَ وَكَفَكَفَ هذا إذا صح المعنى بسقوط الثالث فأما إذا لم يصح المعنى بسقوطه كانت كلها أصولاً من غير خلاف نحو سَمِسِمَ وَخَمَخَمَ، وواو «كَبِّبُوا» قيل: للأَصْنَامِ إِجْرَاءُ لَهَا مَجْرَى الْعُقْلَاءِ وَقِيلَ لِعَابِدِيهَا قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ جملة حالية معترضة بين القول ومعموله الجملة الْقَسْمِيَّةُ «إِنْ كُنَّا لَفِي» ومذهب البصريين أَنَّ إِنْ مَخْفِفةٌ وَاللَّامُ فَارِقَةٌ وَمَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ أَنَّ إِنْ نَافِيَةٌ وَاللَّامُ بِمَعْنَى إِلَّا. ينظر: «الدر المصون» (٥/٢٨٠).

(٢) في ج: حماة.

فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمًا وَبَحْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِذُ ﴿١٢٤﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاقْنُصُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾.

وقول نوح عليه السلام: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: أمين على وحي الله ورسالته.

ص: ﴿قرأ الجمهور^(١)﴾ «وَأَتَّبَعَكَ» والجملة حال، أي وقد اتبعك، ويعقوب^(٢): «وَأَتَّبَاعُكَ»، وعن اليماني^(٣): «وَأَتَّبَاعُكَ» بالجر؛ عطفاً على الضمير في «لك» انتهى، و﴿الأردلون﴾: جمع الأرذل، ولا يستعمل إلا مَعْرُفًا أو مضافاً، أو بمن.

قال *ع*^(٤): ويظهر من الآية [أَنْ]^(٥) مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم لا النظر في صنائعهم، وذهب أشراف قوم نوح في استنقاصهم ضَعْفَةَ المؤمنين مَذْهَبَ كُفَّارِ قَرِيشٍ في شأنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ. وَصُهَيْبِ وَبِلَالٍ وَغَيْرِهِمْ، وقولهم: ﴿من المرجومين﴾ يحتمل أَنْ يريدوا بالحجارة أو بالقول والشتيم، وقوله: ﴿افتح﴾ معناه: احكم، والفتاح، القاضي بلغة يَمَانِيَّةٍ، و﴿الْفُلْكَ﴾: السفينة، و﴿المشحون﴾ معناه: المملوء.

﴿أَتْنُونُ يَكُلُ رِيعَ آيَةٍ نَقُوتُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ وَتَتَجِدُونَهُمْ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١١٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٠﴾ فَاقْنُصُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَتَقُوا آلَئِذٍ أَمَدُكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٢﴾ أَمَدُكُمْ بِأَعْمَارٍ وَبَيْنَ وَحَنَتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٢٣﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣١﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٢﴾ فَاقْنُصُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٣٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٤﴾.

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٣٠/٧).

(٢) وقرأ بها عبد الله، وابن عباس، وأبو حيو، والضحاك، وطلحة، وابن السميع، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري.

ينظر: «المحتسب» (١٣١/٢)، و«البحر المحيط» (٣٠/٧)، و«الدر المصون» (٢٨٠/٥).

(٣) ينظر: «الدر المصون» (٢٨١/٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٣٧/٤).

(٥) سقط في ج.

وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿أتنبون﴾ هو على جهة التوبيخ، والرَّيْعُ: المرتفع من الأرض وله في كلام العرب شواهد، وعَبَّرَ المفسرون عن الريع بعبارات، وجملة ذلك أنه المكان المشرف، وهو الذي يتنافس البشر في مبانيه، والآية: البنيان؛ قال ابن عباس: آية علم^(١).

وقال مجاهد: أبراج الحمام^(٢)، وقيل: القصور الطوال، والمصانع جمع مصنع وهو ما صُنِعَ وَأُتْقِنَ في بنيانه من قصر مَشِيد ونحوه، قال البخاري: كل بناء مصنعة، انتهى.

وقوله: ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي: كأنكم تخلدون / وكذا نقله البخاري عن ابن عباس ١٤٩ غير مسند، انتهى. والبطش: الأخذ بسرعة، والجبار: الْمُتَكَبِّرُ، ثم ذكَّره عليه السلام بأياد الله تعالى فيما منحهم، وحَذَّرهم من عذابه، فكانت مراجعتهم أن سوا بين وعظه وتركه الوعظ، وقرأ نافع^(٣) وغيره: «خُلِقَ الْأَوَّلِينَ» - بضم اللام - فالإشارة بهذا إلى دينهم، أي ما هذا الذي نحن عليه إِلَّا خُلِقَ النَّاسُ وعادتهم، وقرأ ابن كثير^(٤) وغيره: «خُلِقَ» - بسكون اللام -، فيحتمل المعنى: ما هذا الذي تزعمه إِلَّا أخلاق الأولين من الكَذِبَةِ؛ فأنت على منهاجهم، وروى علقمة عن ابن مسعود: : إِلَّا اخْتِلَاقَ الْأَوَّلِينَ.

﴿أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَلَهْنَا ءَامِينَ﴾ ١٤٦ ﴿فِي جَنَّتٍ وَعَيْبُونَ﴾ ١٤٧ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَٰضِمَةً﴾ ١٤٨ ﴿وَنَجَاتٍ مِّنَ الْجِبَالِ يُّرْسًا قَرِيرِينَ﴾ ١٤٩ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٥٠ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٥١ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥٢ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٣ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٤ ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّمَا شِئْتُمْ وَلَكُم مِّنْ يَّوْمٍ مَُّلُومٌ﴾ ١٥٥ ﴿وَلَا تَسْمُوا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٥٦ ﴿فَمَقْرُومًا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ ١٥٧ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ١٥٨ ﴿وَلَٰنَ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٥٩.

وقول صالح لقومه: ﴿أتركون فيما ها هنا﴾: تخويف لهم بمعنى: أنطمعون أن تقرؤا

(١) أخرجه الطبري (٤٦٠/٩) برقم (٢٦٦٩٧)، وذكره ابن عطية (٢٣٨/٤)، والسيوطي (١٦٩/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٤٦١/٩) برقم (٢٦٧٠٠)، والسيوطي (١٧٠/٩)، وعزاه للفريايبي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ينظر: «السبعة» ٤٧٢، و«الحجة» (٣٦٥/٥)، و«إعراب القراءات» (١٣٦/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٢٧)، و«شرح الطيبة» (١٠٠/٥)، و«العنوان» (١٤٢)، و«حجة القراءات» (٥١٨)، و«شرح شعلة» (٥٢١)، و«إتحاف» (٣١٨/٢).

(٤) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

في النعم على معاصيكم، والهضم: معناه اللَّيْنُ الرَّطْبُ. وَالطَّلْعُ الْكَفْرُ. وهو عُقُودُ التمر قبل أن يخرج من الكَمِّ في أوَّلِ نباته، فكأنَّ الإشارةَ إلى أنَّ طلْعها يتم ويرطب؛ قال ابن عباس: [إذا أُنِيعَ وبلغ فهو هضم^(١)]، وقال الزَّجَّاجُ: هو فيما قيل الذي رطبه بغير نوى، وقال الثعلبي: قال ابن عباس^(٢) هضم: لطيف ما دام في كَفْرَاهُ^(٣)، انتهى. وقرأ الجمهور^(٤): «تَنْجُثُونَ» - بكسر الحاء -، و«فrehين»: من الفراهة وهي جودة منظر الشيء وخبرته وقوته.

وقوله: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ خاطب به جمهور قومه وعنَى بالمُسْرِفِينَ: كبراءهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي: قد سُحِرْتَ.

ص: قرأ: الجمهور^(٥): «شِرْبٌ» - بكسر الشين -، أي: نصيب، وقرأ ابن أبي عبلة: - بضم الشين - فيهما، انتهى.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١١١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١١٢) فَاقْنُوا لِلَّهِ وَالطَّيْعُونَ (١١٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١١٦) قَالُوا لَنْ نَمْنَحَكَ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١١٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١١٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١١٩) فَجَنَّبَهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٢٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (١٢١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٢٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٢٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ (١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ * إذ قال لهم أخوهم لوط ﴿قال [النقاش]^(٦)﴾: إِنَّ فِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَحْفَصَةَ: «إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ وَسَقَطَ أَخُوهُمْ».

وقوله: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ الْقَالَى: الْبُغْضُ، فنجاه الله بأن أمره بالرحلة على ما تقدم في قصصهم.

(١) أخرجه الطبري (٩/٤٦٥) برقم (٢٦٧٢١)، وذكره ابن عطية (٤/٢٣٩)، والسيوطي (٤/١٧١)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه.

(٢) سقط في ج.

(٣) ذكره البغوي (٣/٣٩٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٤٠)، و«البحر المحيط» (٧/٣٣)، و«الدر المصون» (٥/٢٨٣).

(٥) ينظر: «البحر المحيط» (٧/٣٤).

(٦) سقط في ج.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِيَّاكُمْ رَسُولُ آمِينَ ﴿١٧٨﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ يَمَانَ تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿كذب أصحاب لَيْكَةِ المرسلين﴾ قرأ نافع وابن كثير^(١) وابن عامر: «أَصْحَابُ لَيْكَةِ» على وزن فَعْلَةٍ هنا، وفي [ص] وقرأ الباقون: «الْأَيْكَةِ» وهي: الدوحة المُلْتَمَةُ من الشجر على الإطلاق، وقيل من شجر معروف له غضارة تألفه الحمام والقماري ونحوها، و«لَيْكَةِ» اسم البلد في قراءة مَنْ قرأ ذلك؛ قاله بعض المفسرين، وذهب قوم إلى أنها مُسَهَّلَةٌ من الأيكة، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي «ص» بغير ألف.

وقوله تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء: ١٠٥] وكذلك ما بعده بلفظ الجمع من حيث إنَّ تكذيب نَبِيِّ واحد يستلزم تكذيب جميع الأنبياء؛ لأنَّهم كلهم يدعون الخلق إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وفي قول الأنبياء - عليهم السلام -: «أَلَا تَتَّقُونَ» عرض رفيق وتَلَطَّفٌ، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨] وَالْجِيلُ: الخليفة والقرون الماضية، وَالْكَسْفُ: الْقِطْعُ، واحدا كَسْفَةً، و﴿يوم الظلة﴾: هو يوم عذابهم، وصورته فيما رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ امتحنهم بحرٍّ شديد، وأنشأ اللَّهَ سَحَابَةً في بعض قطرهم فجاء بعضهم إلى ظِلِّهَا فوجد لها برداً وزوحاً، فتداعوا إليها / حتى تكاملوا^{٤٩ ب} فاضطربت عليهم ناراً، فأحرقتهم عن آخرهم.

وقيل غير هذا، والحق أَنَّهُ عَذَابُ جعله اللَّهَ ظلة عليهم.

﴿وَأَنَّهُمْ لَنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَأَنَّهُ لَقِيَ ذُرِّي الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

(١) ينظر: «السبعة» (٤٧٣)، و«الحجة» (٣٦٧/٥)، و«إعراب القراءات» (١٣٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢٢٩/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠١/٥)، و«العنوان» (١٤٢)، و«حجة القراءات» (٥١٩)، و«شرح شعلة» (٥٢١)، و«إتحاف» (٣١٩/٢).

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ يعني القرآن.

وقوله: ﴿بلسان عربي﴾ متعلق بـ ﴿نزل﴾، أي: سمعه النبي ﷺ من جبريل حروفاً عربية، وهذا هو القول الصحيح، وما سوى هذا فمردود.

وقوله سبحانه: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: القرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة، مثبتة عليه، مُشار إليه ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ونحوه؛ قاله ابن عباس ومجاهد^(١)، قال مُقَاتِل^(٢): هذه الآية مدنية، وَمَنْ قَالَ إِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ذهب إلى أن علماء بني إسرائيل ذكروا لقريش أن في التوراة صفة النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وأن هذا زمانه، فهذه الإشارة إلى ذلك؛ وذلك أن قريشاً بعثت إلى الأحبار يسألونهم عن أمر النبي ﷺ، ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن لو سمعوه من أعجم، أي: من حيوان غير ناطق، أو من جماد، والأعجم: كل ما لا يُفصِّح - ما كانوا يؤمنون، والأعجمون: جمع أعجم، وهو الذي لا يُفصِّح، وإن كان عربي النَّسَبِ، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات، ومنه الحديث: «جُرُحُ الْعَجَمَاءِ جُبَارٌ»^(٣) والعجمي هو الذي نسبه

(١) أخرجه الطبري (٤٧٦/٩، ٤٧٧) برقم (٢٦٧٧١) عن ابن عباس، و(٢٦٧٧٢) عن مجاهد، وذكره ابن عطية (٢٤٣/٤)، والسيوطي (١٧٧/٥)، وعزه لابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.
(٢) ذكره ابن عطية (٢٤٣/٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣/٥): كتاب المساقاة: باب من حفر بئراً في ملكه لم يضمن، حديث (٢٢٥٥)، و«مسلم» (١٣٣٤/٣): كتاب الحدود: باب جرح العجماء والمعدن والبئر جبار، حديث (٤٥/١٧١٠)، وأبو داود (١٤): كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب ما جاء في الركاز وما فيه، حديث (٣٠٨٥)، والترمذي (٤١٨/٢): كتاب الأحكام: باب ما جاء في العجماء أن جرحها جبار. حديث (١٣٩١)، والنسائي (٤٥/٥): كتاب الزكاة: باب المعدل، وابن ماجه (٨٣٩/٢): كتاب اللقطة: باب من أصاب ركازاً، حديث (٢٥٠٩)، ومالك (٢٤٩/١): كتاب الزكاة: باب زكاة الركاز، حديث (٩)، والشافعي (٢٤٨/١): كتاب الزكاة: الباب الرابع في الركاز والمعادن، حديث (٦٧١، ٦٧٢)، وأبو عبيد (٤٢٠، ٤٢١): كتاب الخمس وأحكامه وسننه: باب الخمس في المعادن والركاز، والطحاوي (ص: ٣٠٤)، حديث (٢٣٠٥)، وابن أبي شيبه (٢٢٤/٣، ٢٢٥): كتاب الزكاة: باب في الركاز يجذوه القوم، فيه زكاة، وأحمد (٢٢٨/٢)، وابن الجارود (ص: ١٣٥): كتاب الزكاة، حديث (٣٧٢)، والبيهقي (١٥٥/٤): كتاب الزكاة: باب زكاة الركاز، وعبد الرزاق (٦٦/١٠)، رقم (١٨٣٧٣)، والحميدي (٤٦٢/٢)، رقم (١٠٧٩)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٠٤/٣)، وأبو يعلى (١٠/٤٣٧)، رقم (٦٠٥٠)، والطبراني في «الصغير» (١٢٠-١٢١)، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العجماء جُبَارٌ، والبئر جبار، والمعدن جبار، وفي الركاز الخمس».

في العَجَم، وإن كان أفصح الناس، وقرأ الحسن^(١): الأعجميين.

قال أبو حاتم: أراد جمع الأعجمي المنسوب إلى العجم.

وقال الثعلبي: معنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان، فقرأه عليهم بغير لغة العرب - لما آمنوا أنفة من اتباعه، انتهى.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قال ع^(٢): ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ معناه: أدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩]؛ قاله الحسن^(٣)، وقيل الضمير للتكذيب، وقيل للقرآن ورُجِحَ بأنه المتبادر إلى الذهن، والمجرمون أراد به مجرمي كل أمة، أي: أن هذه عادة الله فيهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، فكفأ قريش كذلك و﴿هل نحن منظرُونَ﴾ أي: مؤخَّرون.

﴿أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَفِعْذَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ لقريش على استعجالهم العذاب، وقولهم للنبي ﷺ: أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ، وقولهم: أين ما تعدنا؟ ثم خاطب سبحانه نبيه - عليه السلام - بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾.

قال عكرمة: ﴿سِنِينَ﴾: يريد عمر الدنيا^(٤)، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية من

(١) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٩، و«المحتسب» (١٣٢/٢)، و«الكشاف» (٣٣٦/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٤٣/٤)، و«البحر المحيط» (٤٠/٧)، وزاد نسبتها إلى ابن مقسم. وهي في «الدر المصون» (٢٨٩/٥).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٤٤/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٤٧٨/٩) برقم (٢٦٧٨٠) بلفظ «خلقناه»، وذكره البغوي (٣٩٩/٣)، وابن عطية (٤/٢٤٤)، والسيوطي (١٧٨/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن بلفظ «جعلناه».

(٤) ذكره ابن عطية (٣٤٤/٤).

الْقُرَى إِلَّا بَعْدَ إِسْرَافٍ مِّنْ يَنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ عِزًّا ذَكَرُوا لَهُمْ وَتَبَصَّرَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ الضمير في ﴿به﴾ عائد على القرآن.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٢١٧) فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَكَوْنُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٨﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٩﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٠﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢١﴾ وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ أي: لأنَّ السماء محروسة بالشُّهْبَ الجارية إثر الشياطين، ثم وصَّى تعالى نبيه بالثبوت على التوحيد والمراد: أمَّتُهُ فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ...﴾ الآية: وفي «صحيح البخاري» وغيره عن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية خرج النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ» الحديث^(١)، وَخَصَّ بِإِنْذَارِهِ عَشِيرَتَهُ؛ لِأَنَّهُمْ مَظَنَّةُ الطَّوَاغِيَةِ، وَإِذْ يُمْكِنُهُ مِنَ الْإِغْلَاطِ عَلَيْهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُمْ، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرَ مُتَّهَمٍ عَلَى عَشِيرَتِهِ، وَالْعَشِيرَةِ: قَرَابَةِ الرَّجُلِ، وَخَفَضَ الْجَنَاحَ: اسْتِعَارَةً مَعْنَاهُ: لِيُنْ كَلِمَةً، وَبَسَطَ الْوَجْهَ، وَالْبِرَّ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَصَوْكَ﴾ عَائِدٌ عَلَى عَشِيرَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرِهِ، ثُمَّ جَاءَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي تَوْسِلُ إِلَى التَّوَكُّلِ وَهِيَ الْعِزَّةُ وَالرَّحْمَةُ.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢٢٣) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢٢٤﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٥﴾.

وقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يَرَاكَ عبارة عن الإدراك، وظاهر الآية أَنَّهُ أَرَادَ قِيَامَ الصَّلَاةِ، وَيَحْتَمِلُ سَائِرَ التَّصَرُّفَاتِ؛ وَهُوَ تَأْوِيلُ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣) وَغَيْرُهُ: يَرِيدُ أَهْلَ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠/٨) كتاب التفسير: باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حديث (٤٧٧٠) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٥/٩) برقم (٢٦٨١٤) عن مجاهد، وذكره البغوي (٤٠٢/٣) عن مجاهد، وابن عطية (٢٤٦/٤)، وابن كثير (٣٥٢/٣) عن قتادة، والسيوطي (١٨٣/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن مجاهد، ولعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٥/٩) برقم (٢٦٨١٥) بنحوه، وذكره البغوي (٤٠٢/٣)، وابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٣/٥)، وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

الصلاة، أي: صلاتك مع المصلين.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾ تَزَلُّ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَشِيرٌ ﴿٢٢٢﴾ يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم﴾ أي: قل لهم يا محمد: هل أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين﴾؟ والآفك: الكذاب، والأثيم: الكثير الإثم، ويريد الكهنة؛ لأنهم كانوا يتلقون من الشياطين الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة، حسبما جاء في الحديث^(١)، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع، والضمير في ﴿يلقون﴾ يحتمل أن يكون للشياطين، ويحتمل أن يكون للكهنة، ولما ذكر الكهنة بإفكهم وحالهم التي تقتضي نفى كلامهم عن كلام الله تعالى - عقب ذلك بذكر الشعراء وحالهم؛ لئيبه على بُعد كلامهم من كلام القرآن، إذ قال بعض الكفرة في القرآن: إنه شعر، والمراد شعراء الجاهلية، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو ويمدح؛ شهوة، ويقذف المخصنات، ويقول الزور.

وقوله: ﴿الغاوون﴾ قال ابن عباس: هم المستحسنون^(٢) لأشعارهم، المصاحبون لهم.

وقال عكرمة: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر ويغتمون إنشاده^(٣).

وقوله: ﴿في كل واد يهيمون﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من فن الكلام وباطله؛ قاله ابن عباس^(٤) وغيره، وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَشَى سَبْعَ خُطَوَاتٍ فِي شِعْرِ، كُتِبَ مِنَ الْغَاوِينَ» ذكره أسد بن موسى، وذكره النقاش.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥/١٠) كتاب الأدب: باب قول الرجل للشيء...، حديث (٦٢١٣)، ومسلم (١٧٥٠/٤) كتاب السلام: باب تحريم إتيان الكهان، حديث (٢٢٢٨ / ١٢٣) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٨/٩) برقم (٢٦٩٣٣)، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٦/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٩/٩) برقم (٢٦٨٣٧)، بلفظ «عصاة الجن»، وذكره ابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٦/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن المنذر، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، عن عكرمة بلفظ «عصاة الجن».

(٤) أخرجه الطبري (٤٩٠/٩) برقم (٢٦٨٤٢) نحوه، وبرقم (٢٦٨٤٣)، عن مجاهد، وذكره البغوي (٣/٤٠٣)، وابن عطية (٢٤٦/٤)، والسيوطي (١٨٦/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَلَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية: هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام؛ كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وكُلٌّ مِّنْ اتصف بهذه الصفة، ويُرَوَّى عن عطاء بن يَسَارٍ وغيره أَنَّ هؤلاء شَقَّ عليهم ما ذُكِرَ قَبْلُ في الشعراء، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت آية الاستثناء بالمدينة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يحتمل أن يريد في أشعارهم، وهو تأويل ابن زيد^(١)، ويحتمل أن ذلك خُلِقَ لهم وعبادة؛ قاله ابن عباس^(٢)، فكل شاعر في الإسلام يهجو ويمدح عن غير حَقٍّ فهو داخل في [هذه الآية، وكل تقِيٍّ منهم يُكْثِرُ من الزُّهْدِ، ويمسك عن كل ما يُعَابُ فهو داخل في]^(٣) الاستثناء.

ت: قد كتبنا - والحمد لله - في هذا الْمُخْتَصَرِ جملةً صالحةً في فضل الأذكار؛ عسى الله أن ينفع به مَنْ وقع بيده، ففي «جامع الترمذي» عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْعِبَادِ أَفْضَلُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، قُلْتُ: وَمِنَ الْعَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟! قَالَ: لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا - لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْهُ»^(٤) / وروى الترمذي، وابن ماجه عن أبي الدرداء، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُتْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَزْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الدَّهَبِ وَالوَرَقِ؟ وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذَكِّرْ اللَّهَ تَعَالَى»^(٥). قَالَ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ»:

(١) أخرجه الطبري (٤٩١/٩) برقم (٢٦٨٥٦)، وذكره ابن عطية (٢٤٧/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٤٧/٤).

(٣) سقط في ج.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٢٨/٥) كتاب الدعوات: باب فضل الذكر، حديث (٣٣٧٦)، وأحمد (٧٥/٣) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث دراج.

(٥) أخرجه الترمذي (٤٥٩/٥) كتاب الدعاء: باب (٦) حديث (٣٣٧٧)، وابن ماجه (١٢٤٥/٢) كتاب الأدب: باب فضل الذكر، حديث (٣٧٩٠)، وأحمد (١٩٥/٥)، والحاكم (٤٩٦/١) عن أبي الدرداء مرفوعاً.

هذا حديث صحيح الإسناد، انتهى من «حلية التَّوَيُّ». وقوله: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ إشارة إلى ما رَدَّ به حَسَّانٌ وَعَلِيٌّ وَغَيْرُهُمَا على قريش.

قلت: قيل: وَأَنْصَفُ بَيْتِ قَالَتْهُ الْعَرَبُ: قَوْلُ حَسَّانٍ لِأَبِي سُفْيَانَ أَوْ لِأَبِي جَهْلٍ: [الوافر].

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍ فَشَرُّكُمْ أَلْخَيْرُكُمْ أَلْفِدَاءُ^(١)
وَبَاقِي الْآيَةِ وَعِيدٌ لظَلَمَةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ.

= وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرجه مالك في «الموطأ» (٢١١/١) كتاب القرآن: باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى، حديث (٢٤) عن زياد بن أبي زياد عن أبي الدرداء موقوفاً.

(١) ينظر: البيت في «ديوانه» ص (٧٦)؛ و«خزانة الأدب» (٢٣٢/٩، ٢٣٦، ٢٣٧)؛ و«شرح الأشموني» (٣٨٨/٣)؛ و«لسان العرب» (٤٢٠/٣) (ندد)، (٣١٦/٦) (عرش).

واستشهد فيه بقوله: «فشرُّكم لخيركم الفداء» حيث ورد أفعال التفضيل («شَرٌّ» و«خَيْرٌ») عارياً عن معنى التفضيل. قال السَّهْلِيُّ: «في ظاهر هذا اللفظ شناعة؛ لأنَّ المعروف أن لا يُقال: «هو شَرُّهما»، إلا وفي كليهما شَرٌّ، وكذلك شَرُّ منك، ولكنَّ سيويه قال: تقول: مررتُ برجل شَرٌّ منك، إذا نقص عن أن يكون مثله. وهذا يدفع الشَّناعة عن الكلام الأوَّل ونحو منه قوله عليه السلام: «شَرُّ صفوف الرِّجالِ آخِرُهَا»، يريد نقصان حظِّهم عن حظِّ الصَّفِّ الأوَّل، كما قال سيويه. ولا يجوز أن يريد التفضيل في الشَّرِّ، والله أعلم» («الخزانة» ٢٣٧/٩).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد

تفسير «سورة النمل»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿طَسَّ يَلَكْ ءَابَتْ اَلْقُرْآنَ وَكِتَابِ مُبِينِ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اَلَّذِينَ يَقِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ اِنَّ اَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ اَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ اُولَئِكَ اَلَّذِينَ لَمْ يَسُوْءَ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿طَسَّ يَلَكْ ءَابَتْ اَلْقُرْآنَ وَكِتَابِ مُبِينِ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم القول في الحروف المقطعة، وعطف الكتاب على القرآن وهما لمسمى واحد؛ من حيث هما صفتان لمعنيين، فالقرآن: لأنه اجتمع، والكتاب: لأنه يكتب، «واقامة الصلاة»: ادامتها وأداؤها على وجهها.

وقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ اَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جعل سبحانه عقابهم على كفرهم أن حتم عليهم الكفر، وحبب إليهم الشرك وزينه في نفوسهم. والعمه: الحيرة والتردد في الضلال. ثم توعدهم تعالى بسوء العذاب؛ فمن ناله منه شيء في الدنيا بقي عليه عذاب الآخرة، ومن لم يتله عذاب الدنيا كان سوء عذابه في موته وفي ما بعده.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا سَآئِتُكَ مِنهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكَم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُحُ بِهِ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ تلقى: مضاعف لقي يلقى، ومعناه تغطي، كما قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وهذه الآية رد على كفار قريش في قولهم: إن القرآن من تلقاء محمد؛ و﴿من لدن﴾ معناه: من عنده؛ ومن جهته. ثم قص - تعالى - خبر موسى؛ حين خرج بزوجه؛ بنت شعيب عليه السلام يريد مصر، وقد تقدم في «طه» قصص الآية.

وقوله: ﴿سَآئِتُكُمْ مِنهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ...﴾ الآية، أصل الشهاب:

الكوكب المنقَض في أثر مسترق السمع؛ وكل ما يُقال له «شهاب» من المنيرات؛ فعلى التَّشْبِيهِ، والقَبْسُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسماً، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً. وقرأ الجمهور بإضافة «شهاب» إلى «قَبْسٍ»، وقرأ حمزة والكسائي^(١) وعاصم بتنوين «شِهَابٍ قَبْسٍ»: فَهَذَا عَلَى الصُّفَةِ.

ص: وقوله: ﴿جَاءَهَا﴾ ضميرُ المفعول، عائدٌ على النَّارِ، وقيل على الشَّجَرَةِ، انتهى. و﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ وَنَمِيَ خَيْرُهُ، والبركة، مختصة بالخير.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ قال ابنُ عباس: أَرَادَ النُّورَ^(٢)، وقال الحسنُ وابنُ عباس: وَأَرَادَ بـ ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة وموسى^(٣).

قال *ع*^(٤): وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَنْ﴾ للملائكة؛ لِأَنَّ ذَلِكَ النُّورَ الَّذِي حَسِبَهُ مُوسَى نَاراً؛ لَمْ يَخْلُ مِنْ مَلَائِكَةٍ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لِمُوسَى وَالْمَلَائِكَةِ الْمُطِيفِينَ بِهِ. وقرأ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ^(٥) «أَنْ بُورِكَتِ النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا».

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هو تنزيهٌ لِلَّهِ تَعَالَى مِمَّا عَسَا أَنْ يَخْطُرَ / بِبَالٍ؛ فِي مَعْنَى التَّدَايِ مِنَ الشَّجَرَةِ، أَي: هُوَ مَنْزَهُ عَنْ جَمِيعِ مَا تَتَوَهَّمُ الْأَوْهَامُ؛ ١٥١ وَعَنِ التَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِنَّهُ﴾ لِلْأَمْرِ وَالشَّانِ.

﴿وَأَنِّي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

(١) ينظر: «السبعة» (٤٧٨)، و«الحجة» (٣٧٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢٣٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠٧/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٢)، و«شرح شعلة» (٥٢٤)، و«إتحاف» (٣٢٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٦/٩) رقم (٢٦٨٦٧) بلفظ: «كان نور رب العالمين في الشجرة»، وابن كثير (٣/٣٥٦)، والسيوطي (١٩١/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وابن مردويه عنه عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (٤٩٧/٩) رقم (٢٦٨٧٦) بنحوه، وابن عطية (٢٥٠/٤)، وابن كثير (٣٥٧/٣) بنحوه.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٠/٤).

(٥) ينظر: «الكشاف» (٣٤٩/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٥٠/٤).

وقد قرأ بها ابن عباس، ومجاهد، كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٠٦/١٣). قال القرطبي: ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صح لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى.

يَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي يَتَعَّ مَأْتِيَتْ إِلَى رَعُونَ وَقَوْمَهُ إِتَمَّ كَانُوا قَوْمًا فَلَسَقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ...﴾ الآية، أمره - تعالى - بهذَّين الأمرين إلقاء العصا، وأمر الِيدِ تدرِياً له في استعمالِهما، والجان: الحيات؛ لأنها تَجِرُّ أَنْفُسَهَا؛ أي: تَسْرِهَا. وقالت فرقة: الجان: صِغَارُ الْحَيَّاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: وَلَّى قَارًا. قال مُجَاهِدٌ: ولم يرجع^(١)، وقال قَتَادَةُ: ولم يَلْتَفِتْ^(٢).

قال *ع*^(٣): ﴿وَعَقَّبَ الرَّجُلُ إِذَا وَلَّى عَنْ أَمْرٍ؛ ثُمَّ صَرَفَ بَدَنَهُ أَوْ وَجْهَهُ إِلَيْهِ. ثُمَّ نَادَاهُ سُبْحَانَهُ مُؤْنِسًا لَهُ: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلُونَ﴾.﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قال الفراء: وَجَمَاعَةٌ: الاستثناء منقطع، وهو إخبار عن غير الأنبياء، كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ - قال: لكن من ظَلَمَ من النَّاسِ ثُمَّ تَابَ؛ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ، وهذه الآية تَقْتَضِي المَغْفِرَةَ لِلتَّائِبِ، وَالْجَنِبُ الْفَتْحُ فِي الثَّوْبِ لِرَأْسِ الْإِنْسَانِ.

وقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ مُتَّصِلٍ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلْقِ﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ﴾ وفيه اقْتِضَابٌ^(٤) وحذف، والمعنى فِي جُمْلَةٍ تَسْعِ آيَاتٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ لِرَعُونَ وَقَوْمِهِ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا﴾ حُصُولُ الْكُفْرِ عِنَادًا؛ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ خِلَافٍ؛ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا وَ﴿ظُلْمًا﴾ معناه: على غيرِ اسْتِحْقَاقٍ لِلْجُحْدِ، وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ أَعْظَمُ آفَةٍ عَلَى طَالِبِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصر: ٨٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾

(١) أخرجه الطبري (٤٩٨/٩) رقم (٢٦٨٨٠)، وابن عطية (٢٥١/٤)، والسيوطي (١٩٢/٥)، وعزاه

للغريبي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٤٩٨/٩) رقم (٢٦٨٨٢)، والبغوي (٤٠٧/٣)، وابن عطية (٢٥١/٤)، والسيوطي

(١٩٢/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) ينظر: «المحرر» (٢٥١/٤).

(٤) الْقُضْبُ: القطع. ومنه قيل: اقتضبت الحديث، إنما هو انتزعتة واقتطعته.

ينظر: «لسان العرب» (٣٦٥٩).

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرَ إِسْلَيْمَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَىٰئَهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَنَازِكَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...﴾ الآية، هذا ابتداءً قَصَصٍ فيه غُيُوبٌ وَعَبْرٌ.

﴿وورث سليمان داود﴾، أي: ورث ملكه ومنزلته من النبوة؛ بعد موت أبيه، وقوله: «عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ» إخبارٌ بنعمة الله تعالى عندهما؛ في أن فهِمَهُمَا مِنْ أصواتِ الطير المعاني التي في نفوسها، وهذا نحو ما كَانَ النبي ﷺ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْحِجَارَةِ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ؛ وغير ذلك حسب ما هو في الآثار.

قال قتادة وغيره: إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي الطَّيْرِ خَاصَّةً، وَالنَّمْلَةُ طَائِرٌ؛ إِذْ قَدْ يَوْجَدُ لَهَا جَنَاحَانِ^(١).

وقالت فرقة: بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ؛ وَإِنَّمَا خَصَّ الطَّيْرَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جُنْدًا مِنْ جُنُودِ سُلَيْمَانَ؛ يَحْتَاجُهُ فِي التَّظْلِيلِ مِنَ الشَّمْسِ؛ وَفِي الْبَغْثِ فِي الْأُمُورِ. وَالنَّمْلُ حَيَوَانٌ فَطِنٌ قَوِيٌّ شَمَامٌ جَدًّا؛ يَذْخِرُ وَيَتَخَذُ الْقَرَى وَيَشْقُ الْحَبَّ بِقِطْعَتَيْنِ لِيَلَّا يُنْبِتَ، وَيَشْقُ الْكَزْبِرَةَ بِأَرْبَعِ قِطَعٍ؛ لِأَنَّهُ تَنْبِتُ إِذَا قُسِّمَتْ شَقَيْنِ، وَيَأْكُلُ فِي عَامِهِ نِصْفَ مَا جَمَعَ، وَيَسْتَبْقِي سَائِرَهُ عُدَّةً. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِهِ»^(٢): وَلَا خِلَافَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ كُلَّهَا لَهَا أَفْهَامٌ وَعُقُولٌ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ: الْحَمَامُ أَعْقَلُ الطَّيْرِ، انْتَهَى.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: يَصْلُحُ لَنَا وَنَتَمَتَّا؛ وَلَيْسَتْ عَلَى الْعُمُومِ. ثُمَّ ذَكَرَ شُكْرَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاخْتَلَفَ فِي مَقْدَارِ جُنْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتِلَافًا شَدِيدًا؛ لَا أَرَى ذِكْرَهُ؛ لَعَدَمِ صِحَّةِ التَّجْدِيدِ، غَيْرَ أَنَّ الصَّحِيحَ فِي هَذَا أَنَّ مَلَكَهُ كَانَ عَظِيمًا مَلَأَ الْأَرْضَ، وَأَتَقَادَتْ لَهُ الْمَعْمُورَةُ كُلُّهَا، وَكَانَ كُرْسِيُّهُ يَحْمِلُ أَجْنَادَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَكَانَتِ الطَّيْرُ تَطْلُهُ مِنَ الشَّمْسِ، وَبِعَعْتُهَا فِي الْأُمُورِ، وَ﴿يُوزَعُونَ﴾ معناه: يَرُدُّ أَوَّلُهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَيَكْفُونَ، قَالَ قَتَادَةُ: فَكَانَ لِكُلِّ صِنْفٍ / ^(٣) وَزَعَةً، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ حِينَ وَلِيَ ٥١ ب قِضَاءَ الْبَصْرَةِ: لَا بَدْءَ لِلْحَاكِمِ مِنْ وَزَعَةٍ^(٤)، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي قُحَافَةَ لِلْجَارِيَةِ: ذَلِكَ يَا بَنِيَّةُ

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٣/٤).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٤٩/٣).

(٣) ذكره البغوي (٤١٠/٣)، وابن عطية (٢٥٣/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٥٣/٤).

الوازع^(١)؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا فَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ^(٢)
أي: كاف، وهكذا نقل ابن العربي^(٣) عن مالك؛ فقال: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكْفُونَ.
قال ابن العربي^(٤): وقد يَكُونُ بمعنى يُلْهَمُونَ؛ من قوله «أَوْزَغْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ»
أي: أُلْهَمْنِي، انتهى من «الإحكام».

﴿فَلَسَّ صَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩) وَتَقَدَّرَ الطَّرِيقَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا
أَرَىٰ الْهَيْدُهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) لَأُعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأْذَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بَسُلْطَانٍ
ثَمِينٍ﴾ (٢١) فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ، وَحِثُّكَ مِنْ سَبِيلٍ بَلِّغَ يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي
وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَلَيْكُكُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشْتُ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤).

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمْ صَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ التبسم هو ضحك الأنبياء في غالب
أمرهم؛ لا يليق بهم سواه، وكان تبسمه سرورا بنعمة الله تعالى عليه في إسماعيه وتفهميه.
وفي قول النملة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثناء على سليمان وجنوده يتضمن تنزيههم عن تعمد
القبیح. ثم دعا سليمان عليه السلام ربّه أن يعينه ويُفَرِّغَهُ لَشُكْرِ نِعْمَتِهِ، وهذا معنى إيزاع
الشُّكْرِ، وقال الثعلبي وغيره: «أَوْزَغْنِي» معناه: أُلْهَمْنِي، وكذلك قال العراقي: ﴿أَوْزَغْنِي﴾
أُلْهَمْنِي، انتهى.

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٣/٤).

(٢) البيت للناطقة الذيباني في «ديوانه» ص (٣٢)؛ و«الأضداد» ص (١٥١)؛ و«جمهرة اللغة» ص (١٣١٥)؛
و«خزانة الأدب» (٤٥٦/٢)، (٤٠٧/٣)، (٥٥٠/٦)، (٥٥٣)؛ و«الدرر» (١٤٤/٣)؛ و«بسر صناعة
الإعراب» (٥٠٦/٢)؛ و«شرح أبيات سيبويه» (٥٣/٢)؛ و«شرح التصريح» (٤٢/٢)؛ و«شرح شواهد
المغني» (٨١٦/٢)، (٨٨٣)؛ و«الكتاب» (٣٣٠/٢)، و«لسان العرب» (٣٩٠/٨) (وزع)، (٧٠/٩)
(خشف)؛ و«المقاصد النحوية» (٤٠٦/٣)، (٣٥٧/٤)؛ وبلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (١١١/٢)؛
و«الإنصاف» (٢٩٢/١)؛ و«أوضح المسالك» (١٣٣/٣)؛ و«رصف المباني» ص (٣٤٩)؛ و«شرح
الأشوموني» (٣١٥/٢)، (٥٧٨/٣)؛ و«شرح شذور الذهب» ص (١٠٢)؛ و«شرح ابن عقيل» ص (٣٨٧)؛
و«شرح المفصل» (١٦/٣)، (٥٩١/٤)، (١٣٧/٨)؛ و«مغني اللبيب» ص (٥٧١)؛ و«المقرب» (٢٩٠/١)،
٥١٦/٢؛ و«المنصف» (٥٨/١)؛ و«معجم الهوامع» (٢١٨/١).

واستشهد فيه بقوله: «على حين»، حيث يجوز في «حين» الإعراب وهو الأصل، والبناء لأنه أضيف إلى
مبنى، وهو الفعل الماضي «عاب».

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٥٠/٣).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٥٠/٣).

وقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ...﴾ الآية، قالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بالملك والتهمم بكل جزء منها، وهذا ظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير، وقالت فرقة: بل تفقد الطير؛ لأن الشمس دخلت من موضع الهدد؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير؛ ليبين من أين دخلت الشمس، وقال عبد الله بن سلام: إنما طلب الهدد؛ لأنه احتاج إلى معرفة الماء؛ على كم هو من وجه الأرض؛ لأنه كان نزل في مفازة عديم فيها الماء، وأن الهدد كان يرى باطن الأرض وظاهرها؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة، وقيل غير هذا؛ والله أعلم بما صح من ذلك. ثم توعده عليه السلام - الهدد بالعذاب، فروي عن ابن عباس وغيره: أن تعذيبه للطير كان بنتف ريشه^(١). والسلطان: الحجة؛ حيث وقع في القرآن [العظيم]؛ قاله ابن عباس^(٢). وفعل سليمان هذا بالهدد إغلاظاً على العصيان؛ وعقاباً على إخلاله بنبوته ورتبته، والضمير في «مكث» يحتمل أن يكون لسليمان أو للهدد، وفي قراءة ابن مسعود^(٣) «فتمكث ثم جاء فقال» وفي قراءة أبي^(٤) «فتمكث ثم قال أحطت».

ت: وهاتان القراءتان تبيين أن الضمير في «مكث» للهدد؛ وهو الظاهر أيضاً في قراءة الجماعة، ومعنى «مكث»: أقام.
وقوله: «غير بعيد» يعني: في الزمن.
وقوله: «أحطت» أي: علمت.

وقرأ الجمهور^(٥) «سبأ» بالصرف على أنه اسم رجل؛ وبه جاء الحديث عن النبي ﷺ من حديث فروة بن مسيك وغيره، سئل - عليه السلام - عن سبأ فقال: «كَانَ رَجُلًا لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَيَّامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ»^(٦). ورواه الترمذي من طريق فروة بن

(١) أخرجه الطبري (٥٠٦/٩) رقم (٢٦٩١١)، وذكره ابن عطية (٢٥٥/٤)، وابن كثير (٣/٣٦٠)، والسيوطي (١٩٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، والغريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والحاكم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٧/٩) رقم (٢٦٩٢٤)، وذكره ابن عطية (٢٥٥/٤)، والسيوطي (١٩٧/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/٤).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٥/٤)، و«البحر المحيط» (٦٣/٧).

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦١/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة سبأ، حديث (٣٢٢٢) من حديث فروة بن مسيك. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وسياقي تخريجه بأوسع من هنا في سورة سبأ.

مُسْنِكَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو^(١) «سَبَأً» - بفتح الهَمْزَةِ وتَرْكِ الصَّرْفِ؛ - على أنه اسمُ بَلَدَةٍ؛ وقاله الحسن وقتادة.

وقوله: ﴿وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما تحتاجه المملكة، قال الحسن: من كل أمر الدنيا^(٢)، وهذه المرأة هي «بلقيس»، وَوَصَفَ عَرْشَهَا بِالْعِظَمِ فِي الْهَيْئَةِ وَرَبَّةِ الْمُلْكِ، ١٥٢ وأكثرَ بعضُ النَّاسِ / في قصصها بما رأيتُ اختصاره؛ لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية: أنها امرأة مَلِكَةٍ عَلَى مَدَائِنِ الْيَمَنِ، ذاتُ مُلْكٍ عَظِيمٍ، وكانت كافرة من قوم كفار.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥)
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧)
 أَهْذَبَ يَكْنِي هَذَا قَالَتْ لَهُ لَيْسَ لِي مِنْهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِذْ يَأْتِي الْكَافِرُ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْءٍ وَالْأَمْرُ لِلَّذِي قَانَطِرَى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿العظيم﴾، ظاهره: أنه من قول الهدد؛ وهو قول ابن زيد وابن إسحاق، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى اعتراضاً بينَ الْكَلَامَيْنِ، وقراءة التشديد في ﴿أَلَّا﴾ تعطي: أن الكلام للهدد؛ وهي قراءة الجمهور^(٣)، وقراءة التخفيف؛ وهي للكسائي تَمْنَعُهُ^(٤) وتقوي الآخر؛ فتأمله، وقرأ الأعمش^(٥) ﴿هَلَّا يَسْجُدُونَ﴾ وفي حرف عبد الله «أَلَّا هَلْ تَسْجُدُونَ» بالثاء، و﴿الخبء﴾: الخفي من

(١) ينظر: «السبعة» (٤٨٠)، و«الحجة» (٣٨٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢٣٦/٢)، و«شرح الطيبة» (١٠٨/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٥)، و«شرح شعلة» (٥٢٤)، و«إتحاف» (٣٢٥/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٠٩/٩) رقم (٢٦٩٣٥)، وذكره ابن عطية (٢٥٦/٤).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٦/٤)، و«البحر المحيط» (٦٥/٧).

(٤) وقرأ بها ابن عباس، وأبو جعفر، والزهري، والسلمي، والحسن، وحמיד.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٦/٤)، و«البحر المحيط» (٦٥/٧)، و«الدر المصون» (٣٠٧/٥)، و«السبعة» (٤٨٠)، و«الحجة» (٣٨٣/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٨/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٣٨)، و«شرح الطيبة» (١٠٩/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٦)، و«شرح شعلة» (٥٢٥)، و«إتحاف» (٣٢٥/٢).

(٥) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١١٠، وفيه القراءة هكذا: «هلا يسجدوا» بحذف نون الرفع. وينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٧/٤)، و«البحر المحيط» (٦٥/٧)، و«التخریجات النحویة» (٣٤٤).

الأمور؛ وهو من: خَبَأْتُ الشيء، واللفظة تُعَمُّ كل ما خَفِيَ من الأمور؛ وبه فسر ابن عباس^(١). وقرأ الجمهور: «يُخْفُونَ وَيُغْلِبُونَ» بياء الغائب؛ وهذه القراءة تُعْطِي أَنَّ الآية من كلام الهمد. وقرأ الكسائي وحفص عن^(٢) عاصم «تُخْفُونَ وَتُغْلِبُونَ» بقاء الخطاب؛ وهذه القراءة تعطي أَنَّ الآية من خطاب الله تعالى لأمة سيدنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، قال وهب بن مَثَبَه: أمره بالتوَلَّى حُسْنُ أدب لِيَتَنَحَّى حَسْبَ ما يُتَأَدَّبُ به مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتى ترى مراجعاتهم، وليكَلِ الأمر، إلى حُكْم ما في الكتابِ دونَ أن تكونَ للرسولِ ملازمةً ولا إلحاحاً^(٣). وروى وهب بن مَثَبَه في قصص هذه الآية: أن الهمدَ وصل؛ فَوَجَدَ دون هذه المَلِكَةِ حُجَبَ جدرانٍ، فَعَمَدَ إِلَى كُوَّةٍ كانت بِلَقِيْسُ صَنَعَتْهَا، لَتَدْخُلَ منها الشمسُ عند طلوعها؛ لمعنى عبادَتِهَا إِيَّاهَا؛ فدخل منها وَرَمَى بالكتابِ إليها^(٤)؛ فقرأته وَجَمَعَتْ أَهْلَ مُلْكِهَا؛ فخطبتهُم بما يأتي بعد. ﴿قالت يا أيها الملأ﴾ تعني: الأشراف: ﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾ وصَفَتِ الكتابَ بالكريم إما لأنه من عند عظيم، أو لأنه يُدِيء باسم كريم. ثم أخذت تصف لهم ما في الكتاب، ثم أخذت في حَسَنِ الأدبِ مَعَ رِجَالِهَا ومشاورتهم في أمرها؛ فراجعها قومها بما يُقَرُّ عَيْنُهَا مِنْ إعلامهم إِيَّاهَا بالقوة، والبأس. ثم سَلَّمُوا الأمر إلى نَظَرِهَا؛ وهذه محاورَةٌ حسنة من الجميع. وفي قراءة^(٥) عبد الله: «ما كُنْتُ قَاضِيَةً أَمراً» بالضاد من القضاء، ثم أخبرت بِلَقِيْسُ بِفعلِ الملوكِ بِالْقُرَى التي يَتَغَلَّبُونَ عليها، وفي كلامها خوفٌ على قومها وَخَيْطَةٌ لهم، قال الدَّوُودِيُّ: وعن ابن عباس: رضي الله عنه ﴿إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قال: إذا أخذوها عَثْوَةً، أخربوها^(٦)، انتهى.

وقوله: ﴿وكذلك يفعلون﴾ قالت فرقة: هو من قول بَلْقِيْسُ، وقال ابن عباس: هو

(١) ذكره ابن عطية (٢٥٧/٤)، وابن كثير (٣٦١/٣)، والسيوطي (١٩٩/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٨١)، و«الحجة» (٣٨٥/٥)، و«إعراب القراءات» (١٤٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢٣٩/٢)، و«شرح الطيبة» (١١١/٥)، و«العنوان» (١٤٤)، و«حجة القراءات» (٥٢٨)، و«شرح شملة» (٥٢٧)، و«إتحاف» (٣٢٦/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٥١٢/٩) رقم (٢٦٩٤٦)، وذكره ابن عطية (٢٥٧/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٥٧/٤).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٥٨/٤)، و«البحر المحيط» (٧٠/٧)، و«الكشاف» (٣٦٤/٣).

(٦) أخرجه الطبري (٥١٥/٩) رقم (٢٦٩٥٩)، وذكره ابن كثير (٣٦٢/٣)، والسيوطي (٢٠٢/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

من قول الله تعالى معرفاً لمحمد عليه السلام وأُمِّهِ بذلك^(١).

﴿وإني مرسله إليهم بهدية...﴾ الآية، روي أن بلقيس قالت لقومها: إني أُجْرِبُ هذا الرجل بهدية فيها نفائس الأموال، فَإِنْ كَانَ مَلِكًا دُنْيَوِيًّا أَرْضَاهُ الْمَالُ؛ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ يَقْبَلِ الْهَدِيَّةَ، وَلَمْ يُرْضِهِ مِنَّا إِلَّا أَنْ تَتَّبِعَهُ عَلَى دِينِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ نَوْمِنَ بِهِ، وَنَتَّبِعَهُ عَلَى دِينِهِ، فَبَعَثْتُ إِلَيْهِ بِهِدِيَّةً عَظِيمَةً.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُنْذِرْنِي بِمَا لِي فَأَمَّا آتِنِي اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِمِدَّتِكُمْ تَمَنُّونَ﴾ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِمِثْلِهِ لَاحِقًا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَخَرَجْنَاهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَأْتِيَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ أَتُكْمَلُ بِأَتْنِي بِعَرْشِي قِيلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتَاكِ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكِ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنَ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَتَّكِرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدُونَ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْدَعْنَا السُّلَيْمَانَ مِن قَبْلُهَا وَكُنَّا سُلَيْمِينَ (٤٢) .

وقوله تعالى: ﴿فلما جاء سليمان﴾ يعني: رسل بلقيس، وقول سليمان: ﴿ارجع﴾ خطاب لرسولها؛ لأن الرسول يقع على الجمع والإفراد والتأنيث. وفي قراءة ابن مسعود^(٢): «فلما جاءوا سليمان» وقرأ «ارجعوا»، ووعد سليمان لهم مقترن بدوامهم على الكفر، قال البخاري: ﴿لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم، انتهى. ثم قال سليمان ب ٥٢ لَجَمْعِهِ / ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾.

قال ابن زيد: وغرضه في استدعاء عرشها؛ أن يريها القدرة التي من عند الله وليغرب^(٣) عليها، و﴿مسلمين﴾ في هذا التأويل بمعنى: مُسْتَسْلِمِينَ، ويحتمل أن يكون بمعنى الإسلام.

وقال قتادة: كان غرض سليمان عليه السلام أخذه قبل أن يعصمهم الإسلام؛ فلا إسلام على هذا التأويل يراد به الدين^(٤).

(١) أخرجه الطبري (٥١٥/٩) رقم (٢٦٩٦٠)، وذكره ابن عطية (٢٥٨/٤)، وابن كثير (٣٦٢/٣)، والسيوطي (٢٠٢/٥)، وعزه لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «الكشاف» (٣٦٦/٣)، و«البحر المحيط» (٧١/٧)، و«المحرر الوجيز» (٢٥٩/٤)، و«الدر المصون» (٣١٣/٥).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٦٠/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٥٢١/٩) رقم (٢٦٩٨٠) بنحوه.

ت: والتأويل الأول أَلِيقُ يَمْنُصِبُ الثُّبَّةَ، فيتعين حمل الآية عليه، والله أعلم.

وروي أن عرشها كان من ذهب وفضة؛ مُرَصَّعاً بالياقوت والجوهر، وأنه كان في جوفه سبعة أبيات عليها سبعة أغلاق. والعفريت هو من الشياطين: القوي المارد.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قال مجاهد^(١) وقتادة^(٢): معناه: قبل قيامك من مجلس الحكم، وكان يجلس من الصبح إلى وقت الظهر في كل يوم، وقيل: معناه: قبل أن تستوي من جلوسك قائماً. وقول الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال ابن جبير^(٣) وقتادة^(٤): معناه: قبل أن يصل إليك مَنْ يَقَعُ طَرْفُكَ عَلَيْهِ في أبعد ما ترى. وقال مجاهد^(٥): معناه: قبل أن تحتاج إلى التغميض، أي: مدة ما يمكنك أن تمد بصرك دون تغميض؛ وذلك ارتداده.

قال *ع*^(٦): وهذان القولان يقابلان القولين قبلهما.

وقوله: ﴿لَقَوِيَ أَمِينَ﴾ معناه: قوي على حمله؛ أمين على ما فيه. ويروى أن الجن كانت تُخْبِرُ سليمانَ بمَنَاقِلِ سَيْرِ بلقيس، فلما قربت، قال: ﴿أَيْكُمْ يَأْتِينِي بَعْرُشَهَا﴾ فدعا الذي عنده علم من التوراة، - وهو الكتاب المشار إليه - باسم الله الأعظم؛ الذي كانت العادة في ذلك الزمان أن لا يدعوه أحد إلا أجيب، فشقت الأرض بذلك العرش، حتى نَبَعَ بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ عليه السلام. وقيل: بل جيء به في الهواء. وجمهور المفسرين على أن هذا الذي عنده علم من الكتاب - كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل اسمه (آصف بن برخيا)، روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان [عليه السلام]: يا نبي الله؛ أَمْدُدْ بِصْرِكَ

(١) أخرجه الطبري (٥٢٢/٩) رقم (٢٦٩٨٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٦٠/٤)، وابن كثير (٣/٣٦٣) بنحوه، والسيوطي (٢٠٤/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٥٢٢/٩) رقم (٢٦٩٩٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٦٠/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٥٢٤/٩) رقم (٢٧٠٠٣)، وذكره البغوي (٤٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٢٦٠/٤)، والسيوطي (٢٠٥/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير.

(٤) ذكره البغوي (٤٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٢٦٠/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٥٢٤/٩) رقم (٢٧٠٠٧) بنحوه، وذكره البغوي (٤٢٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٢٦٠)، والسيوطي (٢٠٥/٥) بنحوه، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٦) ينظر: «المحرر» (٢٦٠/٤).

نحو اليمَن، فمد بصره؛ فإذا بالعرش، فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده. وقال قتادة: اسمه بليخا^(١). وقول سليمان - عليه السلام -: ﴿نكروا لها عرشها﴾ يريدُ تَجَرِبَةَ مَيَزَهَا ونَظَرَهَا، وَرَوَتْ فِرْقَةً أَنَّ الْجَنُّ أَحْسَتْ مِنْ سُلَيْمَانَ أَوْ ظَنَّتْ بِهِ أَنَّهُ رُبَّمَا تَزَوَّجَهَا، فَكُرِهُوا ذَلِكَ وَعَيَّبُوهَا عِنْدَهُ، بِأَنَّهَا غَيْرُ عَاقِلَةٍ وَلَا مُمِيزَةٍ؛ وَأَنَّ رَجُلَهَا كَحَافِرٍ دَابَّةٍ، فَجُرَّبَ عَقْلُهَا وَمَيَزَهَا بِتَنكِيرِ السَّرِيرِ، وَجَرَّبَ أَمْرَ رَجُلِهَا بِأَمْرِ الصَّرْحِ، لَتَكْشِفَ عَنْ سَاقِيهَا عِنْدَهُ، وَتَنكِيرُ الْعَرْشِ: تَغْيِيرُ وَضْعِهِ وَسَتْرُ بَعْضِهِ. وَقَوْلُهَا ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ تَحَرُّزٌ فَصِيحٌ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ^(٢): شَبَّهُوا عَلَيْهَا فَشَبَّهَتْ عَلَيْهِمْ. وَلَوْ قَالُوا: ﴿أَهَذَا عَرْشُكَ؟﴾ لَقَالَتْ: نَعَمْ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ الْآيَةُ، وَهَذَا مِنْهُ؛ عَلَى جِهَةٍ تَعْدِيدِ نَعَمْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دونه﴾ أي: عن الإيمان، وهذا الكلام يحتمل أن يكون من قول سليمان، أو من قول الله، إخباراً لمحمد عليه السلام: قال محمد بن كعب القرظي / وغيره: ولما وصلت بلقيس أمر سليمان الجنّ فصنعت له صرحاً؛ وهو السطح في الصحن من غير سقف وجعلته مبنياً كالصهريج وملئ ماء وبث^(٣) فيه السمك وطبقه بالزجاج الأبيض الشفاف، وبهذا جاء صرحاً. والصرح أيضاً كل بناء عالٍ، وكل هذا من التصريح؛ وهو الإعلان البالغ. ثم وضع سليمان في وسط الصرح كرسيًا، فلما وصلته بلقيس؛ قيل لها: ادخلي إلى النبي - عليه السلام -، فلما رأت الصرح حسبت لجةً وهو مُعْظَمُ الْمَاءِ، فَفَزِعَتْ وَظَنَّتْ أَنَّهَا قُصِدَ بِهَا الْعَرَقُ، وَتَعَجَّبَتْ مِنْ كَوْنِ كَرْسِيِّهِ عَلَى الْمَاءِ، وَرَأَتْ مَا هَالَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بُدٌّ مِنْ امْتِنَالِ الْأَمْرِ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا، فَرَأَى سُلَيْمَانُ سَاقِيهَا سَلِيمَةً مِمَّا قَالَتِ الْجَنُّ غَيْرَ أَنَّهَا كَثِيرَةُ الشَّعْرِ، فَلَمَّا بَلَغَتْ هَذَا الْحَدَّ قَالَ لَهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ والممرد: المحكوك المملس؛ ومنه الأمرد، فعند ذلك قالت: ﴿ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ فَرُوِيَ أَنَّ

(١) أخرجه الطبري (٥٢٣/٩) رقم (٢٦٩٩٣) بلفظ «كان اسمه بليخا»، وذكره ابن عطية (٦١/٤)، وابن كثير

(٣٦٤/٣)، والسيوطي (٢٥٠/٥)، وعزاه لابن جرير عن قتادة.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٦١/٤).

(٣) في ج: وجعل.

سليمان عليه السلام تَزَوَّجَهَا عند ذلك، وأسكنها الشام؛ قاله الضحاك^(١). وقيل: تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة، فولدت له غلاماً سمّاه داود؛ مات في حياته. وزوي أن سليمان لما أراد زوال شجر ساقينها؛ أمر الجن بالتلطف في زواله، فصنعوا الثورة^(٢) ولم تكن قبل، وصنعوا الحمام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئَتَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَاعَتُكَ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتَ قَوْمٌ مُنْشِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شِعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَكَتْ يُبُوتُهُمْ خَاوِجَةً يَمَّا ظَلَمُوا لَكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٥٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً...﴾ الآية، تمثيل لقريش، و﴿فريقان﴾: يريد بهما من آمن بصلاح. ومن كفر به. واختصامهم هو تنازعهم. وقد ذكر تعالى ذلك في سورة الأعراف، ثم إن صالحاً - عليه السلام - ترقق بقوميه ووقفهم على خطيئهم في استعجالهم العذاب؛ قبل الرحمة. أو المعصية لله قبل الطاعة، ثم أجابوه بقولهم: ﴿أطيرنا بك﴾ أي: تشاءمنا بك. ﴿وتسعة رهط﴾ هم رجال كانوا من أوجه القوم وأعتابهم؛ وهم أصحاب قدار، والمدينة مجتمع ثمود وقريتهم.

وقوله تعالى: ﴿تقاسموا﴾.

قال الجمهور: هو فعل أمر، أشار بعضهم على بعض بأن يتخالفوا على هذا الفعل بصلاح، وحكى الطبري^(٣) أنه يجوز أن يكون تقاسموا فعلاً ماضياً في موضع الحال، كأنه قال: متقاسمين أو متحالفين بالله لنبيئته وأهله، وتؤيده^(٤) قراءة عبد الله: «ولا يصلحون تقاسموا» بإسقاط «قالوا».

(١) ذكره ابن عطية (٤/٢٦٢).

(٢) الثورة: الهناء، وفي «التهذيب»: الثورة من الحجر الذي يُخَرَّقُ وَيُسَوَّى منه الكِلْسُ ويخلق به شعر العانة. ينظر: «اللسان» ٤٥٧٣.

(٣) ينظر: «الطبري» (٩/٥٣٣).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٦٣).

قال *ع^(١): وهذه الألفاظ الدالة على قَسَم تجاوب باللام، وإن لم يتقدم قَسَم ظاهر، فاللام في «لنبيته»: جواب القَسَم. ورُوي في قصص هذه الآية أن هؤلاء التسعة؛ لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب، اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا قد عجلناه قبلنا وشفينا به نفوسنا، فجاءوا واختفوا لذلك في غار قريب من داره، فرُوي أنه انحدرت عليهم صخرة شذختهم جميعاً /، ورُوي أنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر، وقد كانوا بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح، ويعني بالأهل كل من آمن به؛ قاله الحسن^(٢).

وقوله سبحانه: «ومكرنا مكرأ وهم لا يشعرون» قال ابن العربي الحاتمي: المكر إرداف النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب، انتهى من شرحه لألفاظ الصوفية. والتدمير: الهلاك و«خاوية» معناه: فقرا، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي ﷺ عام تبوك: «لا تدخلوا بيوت المعدنين إلا أن تكونوا باكين»^(٣). الحديث في «صحيح مسلم» وغيره.

«ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» ﴿٥٤﴾ أيكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴿٥٥﴾ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يظفرون ﴿٥٦﴾ فأجبتهم وأهله إلا أمرأتهم قدرن لها من الفتيات ﴿٥٧﴾ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر التذرين ﴿٥٨﴾.

وقوله تعالى: «ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون» تقدم قصص هؤلاء القوم، و«تبصرون» معناه: بقلوبكم.

قال أبو حيان^(٤): و«شهوة» مفعول من أجله، انتهى. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط»^(٥). رواه أبو داود والترمذي والنسائي؛

(١) ينظر «المحرر» (٢٦٤/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٢٦٤/٤).

(٣) تقدم تخريجه في سورة الحجر.

(٤) ينظر: «البحر المحيط» (٨٣/٧).

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٣٠ موارد) من حديث ابن عباس مرفوعاً: بلفظ: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن =

واللفظ له؛ وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، انتهى من «السلام».

﴿قُلِ لَعَنُودُ اللَّهِ وَسَلَامُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩) ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) ﴿أَمِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ آله خير أما تشركون﴾ الآيات: هذا ابتداء تقرير وتنبيه لقريش والعرب وهو بعد يُعْمُ كُلُّ مُكَلَّفٍ من الناس جميعاً، واقتتح ذلك بالقول بحمده - سبحانه - وتمجيده وبالسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوَّة والإيمان، فهذا اللفظ عام لجميعهم من ولد آدم، وكأنَّ هذا صدرُ خُطْبَةٍ للتقرير المذكور، قالت فرقة: وفي الآية حذفُ مضافٍ في موضعين، التقدير: أتوحيدُ الله خيرٌ أم عبادة ما تشركون، فـ «ما»، على هذا: موصولةٌ بمعنى: الذي، وقالت فرقة: «ما» مصدرية، وحذفُ المضافِ إنما هو أولاً تَقْدِيرُهُ: أتوحيدُ الله خيرٌ أم شركُكُمْ.

ت: ومن كلام الشيخ العارف بالله أبي الحسن الشاذلي قَالَ - رحمه الله -: إن أردت أن لا يصدأ لك قلب؛ ولا يلحقك هم؛ ولا كرب؛ ولا يبقى عليك ذنب - فأكثر من قولك: «سبحان الله وبحمده؛ سبحان الله العظيم، لا إله إلا الله، اللهم ثبِّتْ عِلْمَهَا في قلبي، واغفر لي ذنبي، واغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَمِنْ خَلْقِ﴾ وما بعدها من التقريرات توبيخٌ لهم وتقديرٌ على ما لا مندوحة عن الإقرار به، و«الحدائق» مُجْتَمَعُ الشجرِ من الأعنابِ والتَّخِيلِ وغير ذلك، قال قوم: لا يقال حديقةٌ إلا لِمَا عليه جدارٌ قد أحرق له.

وقال قوم: يقال ذلك كان جدارٌ أو لم يكن؛ لأنَّ البَيَاضَ مُحْدِقٌ بالأشجار، والبهجةُ الجمالُ والنَّضَارَةُ.

وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي: ليس ذلك في قدرتكم،

= الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كره أعصى عن السبيل، ولعن الله من سب والديه، ولعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من عملَ عَمَلٍ قوم لوط.

و﴿يعدلون﴾ يجوز أن يراد به: يعدلون عن طريق الحق، ويجوز أن يراد به يعدلون بالله غيره، أي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً، و﴿خلالها﴾ معناه: بينها، والرواسي: الجبال، والبحران / : الماء العذب والماء الأجاج؛ على ما تقدم، والحاجز: ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها على رقيتها في بعض المواضع، ولطافتها؛ لولا قدرة الله لغلب المالح العذب.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٢) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٤) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥) ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (١٦).

وقوله سبحانه: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه...﴾ الآية، وعن حبيب بن مسلمة^(١) الفهري؛ وكان مجاب الدعوة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَجْتَمِعُ مَلَأٌ قِدْعُو بَعْضُهُمْ وَيُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ إِلَّا أَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى»^(٢)، رواه الحاكم في «المستدرک»، انتهى من «سلاح المؤمن»، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَآهِ»^(٣) رواه الترمذي؛ وهذا لفظه. قال «صاحب السلاح»: ورواه الحاكم في «المستدرک» وقال: مستقيم الإسناد، انتهى. و﴿السوء﴾ عام في كل ضرر يكشفه الله تعالى عن عباده، قال ابن عطاء الله: ما طُلبَ لك شيء مثل الاضطراب، ولا أسرع بالمواهب لك مثل الذلّة والافتقار، انتهى. و«الظلمات» عام؛ لظلمة الليل؛ ولظلمة الجهل والضلال، والرزق من

(١) في أ: مسلمة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٣٤٧)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢١-٢٢) رقم (٣٥٣٦) كلاهما من طريق أبي عبد الرحمن المقرئ: ثنا ابن لهيعة، حدثني ابن هبيرة، عن حبيب بن مسلمة الفهري به. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٠): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٥١٧-٥١٨) كتاب الدعوات: باب (٦٦) حديث (٣٤٧٩)، وابن حبان في «المجروحين» (١/٣٦٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٣٥٦) من طريق صالح المري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

السماء هو بالمطر؛ ومن الأرض بالنبات؛ هذا هو مشهور ما يحسُّه البشر، وكم للهِ بَعْدُ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ. ثم أمر تعالى نبيه - عليه السلام - أَنْ يُوقِفَهُمْ عَلَى أَنَّ الْعَيْبَ بِمَا انْفَرَدَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ؛ ولذلك سُمِّيَ غَيْباً لَغَيْبِهِ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ. رُوِيَ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ﴾ إِنَّمَا نَزَلَتْ لِأَجْلِ سُؤَالِ الْكُفَّارِ عَنِ السَّاعَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا، فجاء بلفظ يَعْلَمُ السَّاعَةَ وَغَيْرَهَا، وأخبر عن البشر أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ.

ص: ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام بمعنى: متى، وهي معمولة لـ ﴿يُبْعَثُونَ﴾، والجملة في موضع نصب بـ ﴿يَشْعُرُونَ﴾، انتهى.

وقرأ جمهور القراء: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ﴾ أصله: تَدَارَكَ. وقرأ عاصم^(١) في رواية أبي بكر: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ على وَزْنِ افْتَعَلَ، وهي بمعنى: تَفَاعَلَ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ وهذه القراءات تحتلُّ مَعْنَيْنِ: أحدهما: ادْرَكَ علمُهم، أي: تناهى، كما تقول ادْرَكَ النباتُ، والمعنى: قد تناهى علمُهم بالآخرة إلى أَنْ لَا يَعْرِفُوا لَهَا مِقْدَاراً، فَيُؤْمِنُوا وَإِنَّمَا لَهُمْ ظَنُونٌ كاذِبٌ، أو إلى أَنْ لَا يَعْرِفُوا لَهَا وَقْتاً، والمعنى الثاني: بَلْ ادْرَكَ بمعنى: يُذَكِّرُ أي أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ يُذَكِّرُ عِلْمُهُمْ وَقْتُ الْقِيَامَةِ، ويرون العذاب والحقائق التي كُذِّبُوا بِهَا، وأما في الدنيا؛ فلا، وهذا هو تأويل ابن عباس^(٢)، ونحا إليه الزجاج^(٣)، فقلوه: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ على هذا التأويل: ظَرَفَ؛ وعلى التأويل الأول: ﴿فِي﴾ بمعنى الباء. ثم وَصَفَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا، ثم أَرَدَفَ بِصِفَةٍ هِيَ أَبْلَغُ مِنَ الشَّكِّ وَهِيَ الْعَمَى بِالْجُمْلَةِ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، و﴿عَمُونَ﴾: أصله: (عميون) فَعِلُّونَ كَحَذِرُونَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

(١) ينظر: «السبعة» (٤٨٥)، و«الحجة» (٤٠٠/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦١/٢)، و«معاني القراءات» (٢٤٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١١٥/٥)، و«العنوان» (١٤٥)، و«حجة القراءات» (٥٣٥)، و«شرح شملة» (٥٣٠)، و«إتحاف» (٣٣٣/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٨/١٠) رقم (٢٧٠٦٨ - ٢٧٠٦٩ - ٢٧٠٧٠ - ٢٧٠٧١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٢٦٨)، وابن كثير (٣٧٣/٣) بنحوه، والسيوطي (٢١٤/٥) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس بنحوه.

(٣) ينظر: «معاني القرآن» (١٢٧/٤).

صَدِيقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سَتَعْمِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى نَبِيِّ إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ صُلَّتَيْنِهِمَا إِنَّ تَسْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وأبائنا أئنا لمخرجون﴾ * لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين، هذه الآية معناها واضح مما تقدّم في غيرها. ثم ذكر - تعالى - استعجال كفر قريش أمر الساعاة والعذاب بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ على معنى التّعجيز، و﴿ردف﴾ مغناه: قَرُبَ وَأَزْفَ؛ قاله ابن عباس^(١) وغيره، ولكنها عبارة عما يجيء بعد الشيء قريباً منه، والهاء في ﴿غائبة﴾ للمبالغة، أي ما من شيء في غاية الغيب والخفاء إلا في كتابٍ عند الله وفي مكنونٍ علمه، لا إله إلا هو. ثم نبّه - تعالى - على أن / هذا القرآن يُفُضُّ على بني إسرائيل أكثر الأشياء التي كان بينهم اختلاف في صفتها، جاء بها القرآن على وجهها، ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ كما أنه عمى على الكافرين المحتوم عليهم، ثم سلّى نبيّه بقوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ فشبههم مرةً بالموتى، ومرةً بالصم من حيث إن فائدة القول لهؤلاء معدومة.

وقرأ حمزة^(٢): ﴿وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى﴾ بفعل مستقبل، ومعنى قوله تعالى ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾، أي: إذا انتجَزَ وعدُ عذابهم الذي تضمّنهُ القول الأزلّي من الله في ذلك، وهذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١]، فمعنى الآية وإذا أراد الله أن يُنفِذَ في الكافرين سابقَ علمه لهم من العذاب أخرج لهم دابةً من الأرض، وروى أن ذلك حين ينقطع الخيزر، ولا يؤمر بمعروف، ولا يُنهى عن منكر، ولا يَنْقُصُ مَنِيْبٌ ولا تائبٌ،

(١) أخرجه الطبري (١٠/١٠) رقم (٢٧٠٧٧-٢٧٠٧٨) بنحوه، وابن عطية (٤/٢٦٩)، وابن كثير (٣/٣٧٣) بنحوه، والسيوطي (٥/٢١٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «السبعة» ٤٨٦، و«الحجة» (٤٠٤/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٤٦)، و«شرح الطيبة» (١١٦/٥)، و«العنوان» (١٤٦)، و«شرح شملة» (٥٣٠)، و«إنحاف» (٢/٣٣٤).

و﴿وقع﴾ عبارة عن الثبوت واللزوم، وفي الحديث: أن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراف، وهذه الدابة روي أنها تخرج من الصفا بمكة؛ قاله ابن عمر^(١) وغيره، وقيل غير هذا.

وقرأ الجمهور^(٢): ﴿تَكْلُمُهُمْ﴾ من الكلام. وقرأ ابن عباس^(٣) وغيره: ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾ - بفتح التاء وتخفيف اللام -، من الكلم وهو الجرح، وسئل ابن عباس عن هذه الآية «تكلّمهم أو تكلمهم»؟ فقال: كل ذلك، والله تفعل: تَكْلُمُهُمْ وَتَكْلِمُهُمْ، وروي أنها تمر على الناس فتسيم الكافر في جبهته وتزبره وتشتمه وربما خطمته، وتمسح على وجه المؤمن فتبيضه، ويعرف بعد ذلك الإيمان والكفر من أثرها، وفي الحديث: «تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى، فتجלו وجوه المؤمنين بالعصا؛ وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن الناس ليجمعنهم، فيقولون هذا: يا مؤمن، ويقولون هذا: يا كافر»^(٤). رواه البزار، انتهى من «الكونكب الدرّي».

وقرأ الجمهور: «إِنَّ النَّاسَ» - بكسر «إن».

وقرأ حمزة^(٥) والكسائي وعاصم: «أَنَّ» بفتحها.

وفي قراءة عبد الله^(٦): «تَكْلُمُهُمْ بَأَنَّ»، وعلى هذه القراءة؛ فيكون قوله: ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ إلى آخرها من كلام الدابة، وروي ذلك عن ابن عباس. ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى.

(١) ذكره ابن عطية (٤/٢٧٠)، ولم يعزه لأحد.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٧١)، و«البحر المحيط» (٧/٩١)، و«الدر المصون» (٥/٣٢٧).

(٣) وقرأ بها سعيد بن جبير، ومجاهد، والجحدري، وأبو زرعة، وعمر بن جرير. ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١١٢، و«المحتسب» (٢/١٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/٢٧١)، و«البحر المحيط» (٧/٩٢)، و«الدر المصون» (٥/٣٢٨).

(٤) وهم المؤلف في هذا الحديث، حيث إنه عزا هذا الحديث للبزار، وهو عند من هو أشهر من البزار، فقد أخرجه الترمذي (٥/٣٤٠) كتاب التفسير: باب ومن سورة النحل، حديث (٣١٨٧)، وابن ماجه (٢/١٣٥١-١٣٥٢) كتاب الفتن: باب دابة الأرض، حديث (٤٠٦٦) من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) ينظر: «السبعة» (٤٨٦ - ٤٨٧)، و«الحجة» (٥/٤٠٦)، و«إعراب القراءات» (٢/١٦٤)، و«معاني القراءات» (٢/٢٤٦)، و«المعاني» (١٤٦)، و«حجة القراءات» (٥٣٨)، و«إتحاف» (٢/٣٣٥).

(٦) ينظر: «الشواذ» ص ١١٢، و«المحتسب» (٢/١٤٥)، و«الكشاف» (٣/٣٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/٣٧١)، و«البحر المحيط» (٧/٩٢)، و«الدر المصون» (٥/٣٢٨).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَآءَ لَيْسِكُمْ فِيهِ وَلَئِنْ لَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ لَعَوْرٌ يَوْمَوتُمْ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنْزِعُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِرِينَ ﴿٨٧﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾: هو تذكير بيوم القيامة، والفوج: الجماعة الكثيرة، و﴿يوزعون﴾ معناه: يُكْفُون في السوق، يَخْسُ أولُهم على آخرهم^(١)؛ قاله قتادة، ومنه وَازَعَ الجيش، ثم أخبر - تعالى - عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ: ﴿أكذبتم...﴾ الآية، ثم قال: ﴿أماذا كنتم تعملون﴾ على معنى استيفاء الحُجَج، أي: إن كان لكم عملٌ أو حُجَّةٌ فهايتها. ثم أخبر عن وقوع القول عليهم، أي: نفوذ العذاب وحُثْمُ الْقَضَاءِ وأنهم لا ينطقون بحجة، وهذا في موطن من مواطن القيامة. ولما تكلم المحاسبُ على أهوال القيامة، قال: واذكر الصُّرَاطَ بِدَقَّتِهِ وهوله؛ وزَلَّتِهِ وَعَظِيم خطره؛ وجهنم تخفق بأمواجها من تحته، فيا له مِنْ مَنَظَرٍ؛ ما أَفْظَعُهُ وَأَهْوَلُهُ، فَتَوَهَّم ذَلِكَ بقلب فارغ، وعقل جامع، فإن أهوال يوم القيامة إنما خَفَّتْ عَلَى الَّذِينَ تَوَهَّمُوهَا في الدنيا بعقولهم، فَتَحْمَلُوا في الدُّنْيَا الْهُمُومَ خَوْفًا مِنْ مَقَامِ رَبِّهِمْ، فَخَفَّفَهَا مَوْلَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهُمْ، انتهى من «كتاب التوهم».

﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ وهو الْقَرْنُ في قول جمهور الأمة، وصاحب الصور هو إسرافيل - عليه السلام -، وهذه النفخة المذكورة هنا هي نفخة / الْقَرْع، وَرَوَى أَبُو هريرة^(٢) أنها ثلاث نفخات: نفخة الْقَرْع، وهو فزع حياة الدنيا وليس بِالْقَرْعِ الْأَكْبَرِ، ونفخة الصُّعْقِ، ونفخة القيام من القبور. وقالت فرقة: إنما هما نفختان: كأنهم جَعَلُوا الْقَرْعَ وَالصُّعْقَ في نفخة واحدة مستدلين بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَى...﴾ الآية [الزمر: ٦٨]. قالوا: وأخرى لا يقال إلا في الثانية. قال ع^(٣): * والاول أصح، وأخرى يقال في الثالثة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾. [النجم: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إلا من شاء الله﴾ استثناء فيمن قَضَى اللَّهُ سبحانه مِنْ ملائِكَتِهِ، وأَنْبِيَائِهِ، وشهداء عبيده أن لا ينالهم فزعُ النَّفْخِ في الصُّورِ، حَسَبَ ما ورد في ذلك من الآثار.

(١) أخرجه الطبري (١٧/١٠) رقم (٢٧١١٣)، وذكره ابن عطية (٤/٢٧١)، وابن كثير (٣/٣٧٦) بنحوه.

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٢٧٢).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٢٧٢).

قال *ع^(١): «وإذا كان الفزع الأكبر لآ ينالهم فهم حريون أن لا ينالهم هذا».

وقرأ حمزة^(٢): «وكلُّ أتوه» على صيغة الفعل الماضي، والداخر: المتدلل الخاضع، قال ابن عباس وابن زيد: الداخر: الصاغر، وقد تظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذه الآية إنما أريد به الشهداء: لأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وهم أهل للفزع؛ لأنهم بشر لكن فضّلوا بالأمن في ذلك اليوم.

*ع^(٣): واختار الحليمي هذا القول قال: - وهو مروي عن ابن عباس -: إن المستثنى هم الشهداء. وضعف ما عدها من الأقوال، قال القرطبي^(٤)، في «تذكرته»: وقد ورد في حديث أبي هريرة؛ بأنهم الشهداء، وهو حديث صحيح^(٥)، انتهى.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي الْإِنْفِقِ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنِهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً...﴾ الآية، هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب النفخ في الصور، والرؤية: هي بالعين، قال ابن عباس: جامدة^(٦): قائمة، والحسنة الإيمان، وقال ابن عباس وغيره: هي «لا إله إلا الله»^(٧) ورؤي عن علي بن الحسين أنه قال: كُنْتُ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِي فَرَفَعْتُ صَوْتِي: ب «لا إله إلا الله» فسمعت قائلاً يقول: إنها الكلمة التي قال الله فيها: «من جاء بالحسنة فله خير منها»^(٨).

(١) ينظر: «المحور» (٢٧٢/٤).

(٢) وبها قرأ حفص عن عاصم. وقرأ الباقون بالمد «أتوه» اسم فاعل، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ [مريم: ٩٥].

ينظر: «الحجة» ٤٠٦/٥، و«السبعة» (٤٨٧)، و«إعراب القراءات» (١٦٥/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٤٧)، و«شرح الطيبة» (١١٧/٥)، و«العنوان» (١٤٦)، و«حجة القراءات» (٥٣٨)، و«شرح شعلة» (٥٣١)، و«إتحاف» (٢/٣٣٥).

(٣) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢٣٣/١).

(٤) هو موقوف عن أبي هريرة.

ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٢١/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير.

(٥) أخرجه الطبري (٢١/١٠) رقم (٢٧١٢٤)، وابن عطية (٢٧٣/٤)، والسيوطي (٢٢١/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري (٢٢/١٠) رقم (٢٧١٣١)، وذكره ابن عطية (٢٧٣/٤)، والسيوطي (٢٢٣/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس.

(٧) ذكره ابن عطية؛ (٢٧٣/٤)، وابن كثير (٣٧٨/٣).

وقال ابن زيد: يُعْطَى بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرًا^(١).

قال *ع^(٢): والسيئة التي في هذه الآية هي الكُفْر والمَعَاصِي. فيمن حَتَمَ اللَّهُ عليه من أهل المشيئة بدخول النار.

﴿إِنَّمَا أَمْرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئًا وَأَمْرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرْتُ﴾ المعنى: قل يا محمد لقومك: إِنَّمَا أَمْرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، يعني: مكة، ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ معناه: تَابِعْ فِي قِرَاءَتِكَ، أي: بَيِّنْ آيَاتِهِ وَاسْرُذ.

قال *ص*: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا﴾ معطوفٌ على «أَنْ أَكُونَ».

وقرأ عبد الله^(٣): «وَأَنْ أَتْلُ» بغير واو وقوله: ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ جوابه محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أي: فَوَبَّالُ ضَلَالِهِ عَلَيْهِ، أو يكون الجواب: فَقُلْ، ويُقَدَّرُ ضَمِيرٌ عَائِدٌ مِنَ الْجَوَابِ عَلَى الشَّرْطِ؛ لَأَنَّهُ اسْمٌ غَيْرُ ظَرْفٍ، أي: مِنَ الْمُنذِرِينَ لَهُ، انتهى. وتلاوة القرآن سببُ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ تَوْعَدٌ بِعَذَابِ الدُّنْيَا كِبْدَرٍ وَنَحْوِهِ، وبِعَذَابِ الْآخِرَةِ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه وعيدٌ.

(١) أخرجه الطبري (٢٣/١٠) رقم (٢٧١٥١)، وذكره ابن عطية (٢٧٣/٤).

(٢) ينظر: «المحرر» (٢٧٤/٤).

(٣) ينظر: «الشواذ» ص ١١٢، و«الكشاف» (٣/٣٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٢٧٤/٤)، و«البحر المحيط»

(٩٦/٧)، و«الدر المصون» (٥/٣٣٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الْقَصَصِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

إِلَّا قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ بِالْجُحْفَةِ فِي وَقْتِ هَجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ قَالَه ابْنُ سَلَامٍ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ مِقَاتِلٌ: فِيهَا مِنَ الْمَدَنِيِّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكِ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَمَنْدَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ فِي أَيْمَةٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعَةُ: مَا لَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَنْدَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قَرْتُ عَيْنِي لِيَ وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

/ قوله تعالى: ﴿طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى...﴾ ٥٥ ب
الآية، معنى ﴿نتلوا﴾: نَقُصُّ وَخَصَّ تَعَالَى بِقَوْلِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَ﴿علا في الأرض﴾: أَي: عَلَوُ طُغْيَانٍ وَتَغَلَّبَ، وَ﴿في الأرض﴾: يَرِيدُ أَرْضَ مِصْرَ، وَالشَّيْعُ: الْفِرْقُ، وَالطَّائِفَةُ الْمُسْتَضَعَّةُ: هُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَ﴿يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾: خَوْفُ خَرَابٍ مُلْكِهِ عَلَى مَا أَخْبَرْتَهُ كَهَنَتُهُ، أَوْ لِأَجْلِ رُؤْيَا رَأَاهَا؛ قَالَه السُّدِّيُّ^(١). وَطَمَعُ بَجْهَلِهِ أَنْ يَرُدَّ الْقَدْرَ، وَأَيْنَ هَذَا الْمُنْتَرَعُ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعُمَرَ: «إِنْ يَكُنْهُ

(١) أخرجه الطبري (٢٧/١٠) رقم (٢٧١٦٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٢٧٦).

فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ، فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ^(١) يعني: ابن صَيَّادٍ؛ إِذْ خَافَ عَمْرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الدَّجَالُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ؛ وَتَقَدَّمَ قِصَصُهُ. وَالْأُثْمَةُ: وَلَاةُ الْأُمُورِ؛ قَالَه قَتَادَةُ^(٢).

﴿وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ يريدُ: أَرْضَ مِصْرَ وَالشَّامَ، وَقَرَأَ حَمْزَةً^(٣): «وَيَرَى فِرْعَوْنَ» - بِالْيَاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ - وَالْمَعْنَى: وَيَقْعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ فِيمَا خَافُوهُ وَحَذَرُوهُ مِنْ جِهَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَظُهُورِهِمْ، وَهَامَانَ: هُوَ وَزِيرُ فِرْعَوْنَ وَأَكْبَرُ رَجَالِهِ، وَهَذَا الْوَحْيُ إِلَى أُمِّ مُوسَى، قِيلَ: وَحْيُ الْهَامِ، وَقِيلَ: بِمَلِكٍ.

وقيل: فِي مَنَامٍ

وَجُمْلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهَا عَلِمَتْ أَنَّ هَذَا الَّذِي وَقَعَ فِي نَفْسِهَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ السَّيِّدِي وَغَيْرُهُ: أُمِرَتْ أَنْ تُزَيِّعَهُ عَقِبَ الْوِلَادَةِ، وَتَصْنَعَ بِهِ مَا فِي الْآيَةِ^(٤)؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ كَانَ عَقِبَ كُلِّ وِلَادَةٍ، وَالْيَمُّ: مَعْظَمُ الْمَاءِ، وَالْمَرَادُ: نَيْلُ مِصْرَ، وَاسْمُ أُمِّ مُوسَى يُوحَانَدُ^(٥)، وَرُؤْيِي فِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ أُمَّ مُوسَى لَفَتَهُ فِي ثِيَابِهِ وَجَعَلَتْ لَهُ تَابُوتًا صَغِيرًا، وَسَدَّتْهُ عَلَيْهِ بِقُفْلٍ، وَعَلَقَتْ مِفْتَاحَهُ عَلَيْهِ، وَأَسْلَمَتْهُ ثَقَّةً بِاللَّهِ وَانتَظَارًا لَوَعْدِهِ سُبْحَانَهُ، فَلَمَّا غَابَ عَنْهَا عَاوَدَهَا بِكُفَّهَا وَأَسْفَتْ عَلَيْهِ، وَأَقْنَطَهَا الشَّيْطَانُ فَاهْتَمَّتْ بِهِ وَكَادَتْ تَفْتَضِّحُ، وَجَعَلَتْ الْأُخْتُ تَقْصُصُهُ، أَيِ: تَطْلُبُ أَثَرَهُ، وَتَقَدَّمَ بَاقِي الْقِصَّةِ فِي «طه» وَغَيْرِهَا، وَالِاتِّقَاطُ: الْإِلْقَاءُ عَنْ^(٦) غَيْرِ قِصْدٍ، وَآلُ فِرْعَوْنَ: أَهْلُهُ وَجَمَلَتُهُ، وَاللَّامُ فِي ﴿لِيَكُونَ﴾: لَامُ الْعَاقِبَةِ.

وقال *ص*: ﴿لِيَكُونَ﴾: اللَّامُ لِلتَّلْغِيلِ الْمَجَازِيِّ، وَلَمَّا كَانَ مَالَهُ إِلَى ذَلِكَ، عَبَّرَ عَنْهُ بِلَامِ الْعَاقِبَةِ، وَبِلَامِ الصَّيْرُورَةِ، انْتَهَى.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٠/ ٥٧٦-٥٧٧) كِتَابُ الْأَدَبِ: بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ: اخْسَأْ، حَدِيثُ (٦١٧٣-٦١٧٤-٦١٧٥)، وَمُسْلِمٌ (٤/ ٢٢٤٤-٢٢٤٥) كِتَابُ الْفَتَنِ: بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صِيَادٍ، حَدِيثُ (٢٩٣٠/٩٥) مِنْ حَدِيثِ عَمْرِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠/ ٢٨) رَقْمَ (٢٧١٦٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤/ ٢٧٦)، وَالسَّيُّوطِيُّ (٥/ ٢٢٧)، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ جُرَيْرٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٣) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٤٩٢)، وَ«الْحِجَّةُ» (٥/ ٤٤١)، وَ«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢/ ١٦٨)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/ ٢٤٩)، وَ«شَرْحُ الطَّبِيَّةِ» (٥/ ١٢٠)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١٤٧)، وَ«حِجَّةُ الْقُرْآنِ» (٥٤١)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥٣٢)، وَ«إِتْحَافُ» (٢/ ٣٤٠).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٠/ ٢٩-٣٠) رَقْمَ (٢٧١٧٣)، (٢٧١٧٦) بَنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٥) فِي أ: بِوَحَاتَةٍ.

(٦) فِي أ: مِنْ.

وقرأ حمزة، والكسائي^(١) «وَحَزُنًا» - بضم الحاء وسكون الزاي -، والخطي: متعمد الخط، والمخطيء الذي لا يتعمده.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بأنه هو الذي يَفْسُدُ ملكُ فرعونَ على يده؛ قاله قتادة^(٢) وغيره.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَزَقْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ۝ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلَنَعْلَمَ أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ مَآئِنُهُ شَكَّا وَكَلَّمَكَ نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ۝﴾.

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى^(٣).

قاله ابن عباس.

قال مالك: هو ذهاب العقل، وقالت فرقة: ﴿فارغاً﴾ من الصبر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: أمر ابنها، ورؤي أن النبي ﷺ قال: كادت أم موسى أن تقول: «وَأَبْنَاهُ وَتَخْرُجُ سَائِحَةً عَلَىٰ وَجْهِهَا». والرَبْطُ على القلب: تأنيسه وتقويته، و﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي: من المصدقين بوعد الله سبحانه وما أوحى إليها به، ﴿وعن جنب﴾ أي: ناحية، فمعنى ﴿عن جنب﴾: عن بُعد لَمْ تَدُنْ مِنْهُ فَيُسْعَرَ لَهَا.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: أنها أختها، ووعد الله المشار إليه هو الذي أوحاه إليها أولاً، إمَّا بِمَلَكٍ / أَوْ بِمَنَامَةٍ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ، والقَوْلُ بِالْإِلْهَامِ ضَعِيفٌ أَنْ يَقَالَ ١٥٦ فيه وعد.

وقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ يريد به القَبْطُ، والأشدُّ: شدة البدن واستحكام أمره وقوته،

(١) ينظر: «السبعة» (٤٩٢)، و«الحجة» (٤١٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٦٨/٢)، و«معاني القراءات» (٢٤٩/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢١/٥)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٢)، و«شرح شملة» (٥٣٢)، و«إتحاف» (٣٤١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٣٤/١٠) رقم (٢٧١٩٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٧٨/٤)، والسيوطي (٥/ ٢٢٨-٢٢٩)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (٣٥/١٠) رقم (٢٧٢٠١)، وذكره ابن عطية (٢٧٨/٤)، وابن كثير (٣٨١/٣)، والسيوطي (٢٢٩/٥)، وعزاه للفرياحي، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس.

﴿استوى﴾ معناه: تَكَامَلَ عَقْلُهُ، وذلك عند الجمهور مع الأربعين. والحكم: الْحِكْمَةُ، والعلم: الْمَعْرِفَةُ بشرع إبراهيم عليه السلام.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَفَنَّهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ أَكْرَمَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبْتَلِيكَ كَمَا فَنَنْتَلِيكَ فَمَا ظَنُّكَ قَالَ لِمَنْ تَكُونُ قَالَ كَوْنُ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّكَ الْمَلَأُ يَأْتِيْرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوَرِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبْكَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾.

قال السدي: كان موسى في وقت هذه القصة على رَسْمِ التعلُّقِ بفِرْعَوْنَ، وكان يَرْكَبُ مَرَاجِبَهُ حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يُدْعَىٰ مُوسَىٰ بِنِ فِرْعَوْنَ^(١)، فركب فرعون يوماً وسارَ إلى مدينة من مدائن مِصْرَ، فركبَ مُوسَىٰ بَعْدَهُ وَلَحِقَ بِتِلْكَ الْمَدِينَةِ فِي وَقْتِ الْفَائِلَةِ، وهو حينُ الْغَفْلَةِ؛ قاله ابن عباس^(٢)، وقال أيضاً: هو بين العِشَاءِ وَالْعَتَمَةِ، وقيل غيرُ هذا^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هذا من شيعته﴾ أي من بني إسرائيل، و﴿عدوه﴾ هم الْقِبْطُ، و«الْوَكْزُ»: الضَّرْبُ بِالْيَدِ مَجْمُوعَةً، وقرأ ابن مسعود^(٤): «فَلَكَزَهُ» والمعنى: واحد؛ إلا أن اللَّكْزَ فِي اللَّحْيِ، وَالْوَكْزَ عَلَى الْقَلْبِ، و﴿قضى عليه﴾ معناه: قَتَلَهُ مُجْهَرًا، وَلَمْ يُرِدْ

(١) أخرجه الطبري (٤٢/١٠) رقم (٢٧٢٥٢)، وذكره البغوي (٤٣٨/٣)، وابن عطية (٢٨٠/٤)، والسيوطي (٢٣١/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٨٠/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٠/٤).

(٤) ينظر: «الشواذ» ص ١١٤، و«الكشاف» (٤٩٨/٣)، و«المحرر الوجيز» (٢٨٠/٤)، و«البحر المحيط» (١٠٥/٧)، و«الدر المصون» (٣٣٥/٥).

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَتَلَ الْقِبْطِيَّ، لَكِنْ وَافَقَتْ وَكَزَّتُهُ الْأَجَلُ؛ فَتَدِمَ، وَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ فِي يَدِهِ، ثُمَّ إِنَّ نَدَامَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَتْهُ عَلَى الْخُضُوعِ لِرَبِّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَنْبِهِ، فَغُفِرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعِيدُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ، حَتَّى إِنَّهُ فِي الْقِيَامَةِ يَقُولُ: «وَقَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا»؛ حَسْبَمَا صَحَّ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مُعَاهِدًا لِرَبِّهِ: رَبِّ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَبِسَبَبِ إِحْسَانِكَ وَغُفْرَانِكَ، فَأَنَا مُلْتَزِمٌ أَلَّا أَكُونَ مُعِينًا لِلْمُجْرِمِينَ؛ هَذَا أَحْسَنُ مَا تَأُولُ.

وقال الطبري^(١): إِنَّهُ قَسَمَ؛ أَقْسَمَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدَهُ.

قال *ع^(٢)*: واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خِذْمَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ وَمَعُونَتِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّهَا تَتَنَاولُ ذَلِكَ؛ نَصَّ عَلَيْهِ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِبَاحٍ وَغَيْرُهُ.

قال ابن عباس: ثُمَّ إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَرَّ وَهُوَ بِحَالَةِ التَّرْقُبِ؛ وَإِذَا ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي قَاتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ يُقَاتِلُ آخَرَ مِنَ الْقِبْطِ^(٣)، وَكَانَ قَتَلَ الْقِبْطِيَّ قَدْ خَفِيَ عَلَى النَّاسِ وَانْتَهَمَ، فَلَمَّا رَأَى الْإِسْرَائِيلِيُّ مُوسَى، اسْتَصْرَخَهُ، بِمَعْنَى صَاحَ بِهِ مُسْتَغِيثًا فَلَمَّا رَأَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَتَلَهُ لآخر؛ أعظم ذلك وقال له مُعَاتِبًا وَمُؤْتَبًا: «إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ» وَكَانَتْ إِرَادَةُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ ذَلِكَ، أَنْ يَنْصَرَ الْإِسْرَائِيلِيَّ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمَا، وَحَبَسَ الْإِسْرَائِيلِيَّ وَفَزَعَ مِنْهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ رُبَّمَا ضَرَبَهُ، وَفَزَعَ مِنْ قُوَّتِهِ الَّتِي رَأَى بِالْأَمْسِ، فَنَادَاهُ بِالْفَضِيحَةِ وَشَهَرَ أَمْرَ الْمَقْتُولِ، وَلَمَّا اشْتَهَرَ أَنَّ مُوسَى قَتَلَ الْقَتِيلَ، وَكَانَ قَوْلُ الْإِسْرَائِيلِيِّ يَغْلِبُ عَلَى النُّفُوسِ تَصْدِيقُهُ عَلَى مُوسَى، مَعَ مَا كَانَ لِمُوسَى مِنَ الْمَقْدَمَاتِ أَتَى رَأْيُ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، وَغَلَبَ عَلَى نَفْسِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِفَسَادِ الْمَمْلَكَةِ، فَأَتَقَدَّ فِيهِ مَنْ يَطْلُبُهُ وَيَأْتِي بِهِ لِلْقَتْلِ، وَاللَّهُ رَجُلًا؛ يَقَالُ إِنَّهُ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَوْ غَيْرِهِ، فَجَاءَ إِلَى مُوسَى وَبَلَّغَهُ قَبْلَهُمْ وَ﴿يَسْعَى﴾ / معناه: يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ؛ قَالَ هَب ٥٦ الزَّجَاجُ^(٤) وَغَيْرُهُ، وَهُوَ دُونَ الْجَزِيِّ، فَقَالَ: «يَا مُوسَى إِنْ الْمَلَأُ يَأْتَمِرُونَ بِكَ...» الآية.

ت قال الهروي: قوله تعالى: «يَأْتَمِرُونَ بِكَ» أي: يَؤْمَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي

(١) ينظر: «الطبري» (١٠/٤٦).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٢٨١).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/٤٧) رقم (٢٧٢٧٧)، وذكره البغوي (٣/٤٤٠)، وابن عطية (٤/٢٨١).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٨/١٣٨).

قَتْلِكَ، وقال الأزهري: الباء في قوله: ﴿يَأْتُمِرُونَ بِكَ﴾ بمعنى: «في» يقال: ائْتَمَرَ القومُ إذا شَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، انتهى. وعن أبي مجلز - واسمه لاحق بن حميد - قال: من خاف من أمير ظُلماً فقال: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وبالقرآن حكماً وإماماً، نَجَّاهُ اللَّهُ منه؛ رواه ابن أبي شيبه في «مصنفه»، انتهى من «السلح». و«تلقاء» معناه نَاحِيَّةُ مَدِينٍ، وبينَ مِصْرَ وَمَدْيَنَ مسيرة ثَمَانِيَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ مُلْكُ مَدِينٍ لغيرِ فرعونَ، ولما خَرَجَ عليه السلامَ فَارًّا بِنَفْسِهِ منفرداً حافياً؛ لا شيءَ معه ولا زادَ وغيرَ عارفٍ بالطريقِ؛ أَسْنَدَ أمرَه إِلَى اللَّهِ تعالى وقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ ومشى - عليه السلام - حتى وَرَدَ ماءَ مَدِينٍ، وَوَرُوذُهُ الْمَاءُ، معناه: بَلُوغُهُ، ومَدْيَنُ: لا يَنْصَرِفُ إِذْ هو بِلَدٍ معروفٍ، والأُمَّةُ: الجَمْعُ الكثيرُ، و«يسقون» معناه: ماشيتهم، و«من دونهم» معناه: نَاحِيَّةُ إِلَى الجَهِةِ الَّتِي جَاءَ مِنْهَا، فَوَصَلَ إِلَى المَزَاتَيْنِ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى الأُمَّةِ، و«تذودان» معناه: تَمْنَعَانِ، وَتَحْبِسَانِ عَنَّمَهُمَا عَنِ الْمَاءِ؛ خوفاً من السُّقَاةِ الأقوياء، و«أبونا شيخ كبير»، أي: لا يستطيعُ لِضَعْفِهِ أَنْ يُبَاشِرَ أَمْرَ غَنَمِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فسقى لهما﴾.

قالت فرقة: كانت آبارُهم مغطاةً بحجارةٍ كبارٍ، فَعَمَدَ إِلَى بئرٍ، وَكَانَ حَجَرُهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا جَمَاعَةٌ، فَرَفَعَهُ وَسَقَى لِلْمَرَاتَيْنِ. فَعَنَ رَفَعَ الصُّخْرَةَ وصفته إحداهما بالقوة، وقيل: وصفته بالقوة؛ لأنه رَحِمَ النَّاسَ وَعَلَبَهُمْ عَلَى الْمَاءِ حتى سَقَى لهما.

وقرأ الجمهور^(١) «يُضْذِرُ الرُّعَاءَ» - عَلَى حَذْفِ الْمَفْعُولِ - تَقْدِيرُهُ: مَوَاشِيَهُمْ، وَتَوَلَّى مُوسَى إِلَى الظِّلِّ وَتَعَرَّضَ لِسُؤَالِ مَا يَطْعَمُهُ بقوله: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ ولم يُصْرِّحْ بِسُؤَالٍ؛ هَكَذَا، رَوَى جَمِيعُ الْمُفْسِّرِينَ أَنَّهُ طَلَبَ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَا يَأْكُلُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ قَدْ بَلَغَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجُوعُ إِلَى أَنْ اخْضَرَّ لَوْنُهُ مِنْ أَكْلِ الْبَقْلِ، وَرُئِيَ خُضْرَةُ الْبَقْلِ فِي بَطْنِهِ، وَإِنَّهُ لَاكِرُمُ الْخَلْقِ يَوْمِئِذٍ عَلَى اللَّهِ، وَفِي هَذَا مُغْتَبَرٌ وَحَاكِمٌ بِهَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى^(٢) اللَّهِ تعالى، وعن معاذ بن أنس قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، فَقَالَ:

(١) وقرأ أبو عمرو وابن عامر «حتى يَضْذِرَ». وقرأ بها الحسن وأبو جعفر.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٢٨٣/٤)، و«السبعة» (٤٩٢)، و«الحجة» (٥/٤١٢)، و«إعراب القراءات» (١٦٩/٢)، و«معاني القراءات» (٢٥٠)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٣)، و«شرح شملة» (٥٣٣)، و«اتحاف» (٣٤١/٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥٧/١٠) رقم (٢٧٣٤٢) بنحوه، وذكره البغوي (٣/٤٤١-٤٤٢)، وابن عطية (٤/٢٨٤)، وابن كثير (٣/٣٨٣، ٣٨٤)، والسيوطي (٥/٢٣٧)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ - غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ لَيْسَ ثَوْبًا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ^(١) رواه أبو داود؛ واللفظ له، والترمذي وابن ماجه والحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح على شرط البخاري، وقال الترمذي: حسنٌ غريب، انتهى من «السلاح».

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ إِلَىٰ يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجَرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْنَوتُ اسْتَفْجَرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَشْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّتِي فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء...﴾ الآية: في هذا الموضع اختصاراً يدل عليه الظاهر، قدره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما فأخبرتهما بما كان من الرجل، فأمر إحدى ابنتيه أن تدعوه له، فجاءته، على ما في الآية / . وقوله: ﴿على استحياء﴾ أي: خفوة، قد سترت وجهها بكُم دزعهما؛ قاله عمر بن الخطاب^(٢) - رضي الله عنه - . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَدَأُ مِنَ الْجَفَاءِ؛ وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»^(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٠/١) كتاب اللباس: باب ما جاء في اللباس، حديث (٤٠٢٣)، والترمذي (٥/٥٠٨) كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا فرغ من الطعام، حديث (٣٤٥٨)، وابن ماجه (١٠٩٣/٢) كتاب الأطعمة: باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، حديث (٣٢٨٥)، وأحمد (٤٣٩/٣)، والحاكم (١/٥٠٧، ١٩٢/٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٦١) كلهم من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبري (٥٨/١٠) رقم (٢٧٣٥٤)، وذكره البغوي (٤٤٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٢٨٤/٤)، وابن كثير (٣٨٤/٣)، والسيوطي (٢٣٨/٥)، وعزه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٥/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في الحياء، حديث (٢٠٠٩)، وأحمد (٢/٥٠١)، وابن حبان (١٩٢٩- موارد)، والبغوي في «شرح السنة» (٥٤٠/٦، ٥٤١- بتحقيقنا) كلهم من طريق محمد بن عمرو.

حسن صحيح؛ انتهى.

والجمهور أن الداعي لموسى - عليه السلام - هو شُعَيْب عليه السلام وأن المرأتين أبتاه، ف ﴿قالت إن أبي يدعوك...﴾ الآية، فقام يتبعها فهبت ريح صمّت قميصها إلى بدنّها فتخرج موسى عليه السلام من النظر إليها؛ فقال لها: امشي خلفي وأرشدني إلى الطريق، فقهمت عنه؛ فذلك سبب وصفها له بالأمانة؛ قاله ابن عباس^(١). ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ فأنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فلما فرغ كلامهما قالت إحدى ابنتي ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ فقال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا منه؟ قالت: أما قوته ففي رفع الصخرة، وأما أمانته ففي تخرجه عن النظر إليّ؛ قاله ابن عباس^(٢) وبتادة وابن زيد وغيرهم، فقال له الأب عند ذلك: ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين...﴾ الآية، قال ابن العربي: في «أحكامه»^(٣) قوله: ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ يدل على أنه عرض لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً، لعين المعقود عليهما؛ لأن العلماء وإن اختلفوا في جواز البيع، إذا قال له: بعثك أحد عبدي هذين بتمن كذا، فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلحق بالنكاح^(٤). ورؤي أنه قال شعيب: أيتهما تريد؟ قال: الصغرى، انتهى. «وتأجر» معناه: تئيب وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامنين إلى المروءة، ولما فرغ كلام شعيب قرره موسى؛ وكرّر معناه على جهة التوثيق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج، و﴿أيما﴾ استفهام نصب بـ ﴿قضيت﴾ و﴿ما﴾ صلة للتأكيد و﴿لا عدوان﴾ لا يتأعّة عليّ، و﴿الوكيل﴾: الشاهد القائم بالأمر.

(١) أخرجه الطبري (٦١/١٠) رقم (٢٧٣٧٦)، (٢٧٣٧٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٢٨٤) وابن كثير (٣/٣٨٥) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري (٦١/١٠) رقم (٢٧٣٧٦)، وذكره ابن عطية (٤/٢٨٤-٢٨٥)، وابن كثير (٣/٣٨٥).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٦٩).

(٤) لا يدخل الخيار شرعاً إلا عقود المعاوضات اللازمة القابلة للفسخ بتراضي العاقدين، فغير المعاوضات كالصدقة والهبة بلا ثواب لا يدخلها أي نوع من أنواع الخيار؛ لأنها شرعت لدفع الضرر، وهذه العقود نفع محض، لعدم المقابل فيها، وأما اشتراط اللزوم، فلأن المعاوضات الجائزة كالشركة والوكالة لكل من العاقدين أن يفسخها متى شاء بمتقضى العقد ذاته، فليست هناك من حاجة تدعو إلى إثبات الخيار فيها، وهو لم يشرع إلا تحت ضغط الحاجة. وأما اشتراط كونها قابلة للفسخ برضا الطرفين، كالبيع، والهبة بثواب، والصلح على مال، فلأنها لو لم تكن قابلة للفسخ بتراضيهما كالنكاح، والخلع، لكان اشتراط الخيار فيها أو ثبوته في أحوال مخصوصة مخالفاً لمقتضاها، لأن الخيار يستلزم جواز الفسخ، وهي لا تقبله.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوَسَّيْ أَتَى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَن أَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّيْ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ مِنَ الرُّمِيِّ فَلَذَنِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَفْسًا فَآخَأْتُ أَن يَفْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخَى هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْفٰلِغُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدْيِ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِآيَاتِهِمَا الْآلَاءُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلٰهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي الْفَلَاحِ فَاجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَخُذُوهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَخُذُوهُ فَجَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ قال ابن عباس: قضى أكملهما عشر سنين؛ وأسندته إلى النبي ﷺ (١).

وقوله: ﴿ إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ فلما أتاه نودي... الآية، تقدّم قصصها، فانظره في محالّه، قال البخاري: والجذوة قطعة غليظة من الخشب فيها لهب، انتهى. قال العراقي: و«آنس» معناه: أبصر، انتهى.

وقوله: ﴿ من الشجرة ﴾ يقتضي: أن موسى - عليه السلام - سمع ما سمع من جهة الشجرة، وسمع وأدرك غير مكيف ولا محدد.

قال السهيلي: قيل إن هذه الشجرة عوسجة، وقيل: عُثَيْفَة، والعوسج إذا عظم قيل له: العرقد، انتهى. ﴿ ولم يعقب ﴾ معناه: لم يرجع على عقبه من تولى به.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٩/٥)، وعزاه إلى البزار، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه. وصححه الحاكم.

وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ ذهب مجاهد^(١) وابن زيد^(٢) إلى: أَنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، أَمَرُهُ بِضَمِّ عَضْدِهِ وَذِرَاعِهِ؛ وَهُوَ الْجَنَاحُ إِلَى جَنْبِهِ؛ لِيَخْفَ بِذَلِكَ ٥٧ ب قَزَعُهُ؛ وَرَهْبُهُ، وَمِنْ شَأْنِ / الْإِنْسَانِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي أَوْقَاتِ فِرْزَعِهِ؛ أَنْ يَقْوَى قَلْبُهُ، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ إِلَى أَنْ ذَلِكَ عَلَى الْمَجَازِ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِالْعَزْمِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: أَشْدُّ حَيَازِيْمَكَ؛ وَازْبِطْ جَأْشَكَ، أَي: شَمَزْ فِي أَمْرِكَ وَدَعْ عَنْكَ الرَّهْبَ.

وقوله تعالى: ﴿فذاذك برهانان من ربك﴾ قال مجاهد^(٣) والسدي^(٤): هي إشارة إلى العَصَا وَالْيَدِ.

وقرأ الجمهور: «رِذَاءٌ» - بِالْهَمْزِ -.

وقرأ نافع^(٥) وَخَذَهُ: «رِدَاءٌ» - بِنَوْنِ الدَّالِ دُونَ هَمْزٍ وَذَلِكَ عَلَى التَّخْفِيفِ مِنْ رِذَاءٍ، وَالرِّذَاءُ: الْوَزِيرُ الْمَعِينُ، وَشَدُّ الْعَضْدِ: اسْتِعَارَةٌ فِي الْمَعُونَةِ، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ.

وقوله: ﴿بآياتنا﴾: متعلقٌ بقوله ﴿الغالبون﴾ أي: تغلبون بآياتنا؛ وهي المعجزات، ثم إن فرعون استمر في طريق مخرقته^(٦) على قومه، وأمر هامان بأن يَطْبُخَ لَهُ الْأَجْرَ وَأَنْ يَبْنِي لَهُ صَرْحًا أَيْ سَطْحًا فِي أَعْلَى الْهَوَاءِ، مُؤَهِّمًا لِجَهْلَةِ قَوْمِهِ أَنْ يَطْلُعَ بَزْغَمِهِ فِي السَّمَاءِ، ثم قال: ﴿واني لأظنه من الكاذبين﴾ يعني: موسى في أنه أرسله مُرْسِلًا و﴿نبذناهم﴾ معناه: طرحناهم، و﴿اليم﴾: بَحْرُ الْقُلُزْمِ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ وَهُوَ الْأَشْهُرُ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ رَبُّ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣).

(١) أخرجه الطبري (٧٠/١٠) رقم (٢٧٤٣٢) بنحوه، وذكره البغوي (٤٤٥/٣)، وابن عطية (٢٨٧/٤)، وابن كثير (٣٨٨/٣)، والسيوطي (٢٤٣/٥) بنحوه، وعزاه للفرياي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٧٠/١٠) رقم (٢٧٤٣٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٨٧/٤)، وابن كثير (٣٨٨/٣) بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية (٢٨٧/٤)، والسيوطي (٢٤٣/٥)، وعزاه للفرياي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري (٧١/١٠) رقم (٢٧٤٣٨)، وذكره ابن عطية (٢٨٧/٤).

(٥) ينظر: «السبعة» (٤٩٤)، و«الحجة» (٤٢٠/٥)، و«إعراب القراءات» (١٧٥/٢)، و«معاني القراءات» (٢٥٢/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢٢/٥)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٥)، و«إتحاف» (٣٤٣/٢).

(٦) في: ج: متخوفته.

وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار...﴾ الآية، عبارة عن حالهم وأفعالهم، وخاتمَتهم، أي: هم بذلك كالداعين إلى النار؛ وهم فيه أئمةٌ من حيث اشتهروا، وبقي حديثهم، فهم قدوةٌ لكل كافر وعاتٍ إلى يوم القيامة، و﴿المقبوحين﴾ الذين يُقْبَحُ كُلُّ أمرِهِم، قولاً لهم وفِعْلاً بهم، قال ابن عباس: هم الذين قُبِحُوا بِسَوَادِ الوجوه ورزقة العيون^(١)، و﴿يوم﴾ ظرفٌ مقدَّمٌ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني: التوراة والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش؛ بما تقدم في غيرها من الأمم و﴿بصائر﴾ نَصَبٌ على الحال، أي: طرائق هادية.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٤٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي...﴾ الآية، أي: ما كنت يا محمد حاضراً لهذه الغيوب التي تُخْبِرُهُمْ بِهَا، وَلَكِنَّهَا صَارَتْ إِلَيْكَ بَوَحِيًّا، أي: فكان الواجب أن يسارعوا إلى الإيمان بك.

قال السهيلي: وجانبُ الغَرْبِيِّ هُوَ جَانِبُ الطُّورِ الْاَيْمَنِ، فحينَ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ نداءه لموسى قال: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن﴾ [مریم: ٥٢] وحينَ نَفَى عن محمد ﷺ أن يكون بذلك الجانب قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ والغربي: هو الأيمن، وبين اللفظين في ذكر المَقَامَيْنِ ما لا يخفى في حُسْنِ العبارة وبديع الفَصَاحَةِ والبلاغة؛ فإن محمداً عليه السلام لا يقال له: ما كنت بالجانب الأيمن؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِالْجَانِبِ الْاَيْمَنِ مُذْ كَانَ فِي ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، انتهى.

وقوله سبحانه: ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ [قال الثعلبي: أي: فنسوا عهد الله، انتهى. و﴿قضينا﴾ معناه: أنفذنا، و﴿الأمر﴾ يعني: التوراة.

وقالت فرقة: يعني به: ما أعلمه من أمر محمد ﷺ.

قال *ع^(٢)*: وهذا تأويلٌ حَسَنٌ يَلْتَمِزُ معه ما بَعْدَهُ من قوله ﴿ولكننا أنشأنا قروناً﴾.

ت: قال أبو بكر بن العربي: قوله تعالى: ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ معناه:

(١) ذكره البغوي (٣/٤٤٧)، وابن عطية (٤/٢٨٩).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٢٩٠).

أعلمناه، وهو أحد ما يرد تحت لفظ القضاء مراداً، انتهى من كتاب «تفسير الأفعال الواقعة في القرآن». و«الثاوي»: المقيم.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَيْنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِيعَ إِيْنِكَ وَكَوْنَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾.

١٥٨ وقوله تعالى: ﴿وما كنت / بجانب الطور﴾ يريد وقت إنزال التوراة إلى موسى - عليه السلام .. وقوله: ﴿إذ نادينا﴾ زوي عن أبي هريرة: أنه نودي يومئذ من السماء: «يا أمة محمد، استجب لكم قبل أن تدعوني، وغفرت لكم قبل أن تسألوني»، فحينئذ قال موسى عليه السلام: اللهم، اجعلني من أمة محمد، فالمعنى: إذ نادينا بأمرك وأخبرنا بنبوتك.

وقال الطبري^(١): معنى قوله: ﴿إذ نادينا﴾: بأن «سأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة...» الآية [الأعراف: ١٥٦].

وقوله سبحانه: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة...﴾ الآية، المصيبة: عذاب في الدنيا على كفرهم، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف يقتضيه الكلام؛ تقديره: لعاجلناهم بما يستحقونه. وقال الزجاج^(٢): تقديره: لما أرسلنا الرسل.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْتِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم الحق﴾ يريد القرآن ومحمداً عليه السلام، والمقالة التي قالتها قريش: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ كانت من تعليم اليهود لهم؛ قالوا لهم: لم لا يأتي بآية باهرة كالعصا واليد، وغير ذلك، فعكس الله عليهم قولهم، ووقفهم على أنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه، فالضمير في قوله ﴿يكفروا﴾ لليهود، وقرأ الجمهور: «ساحران» والمراد: موسى وهارون.

(١) ينظر: «الطبري» (١٠/٧٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/١٤٧).

قال ﴿ع^(١)﴾: * ويحتمل أن يريد بـ ﴿ما أوتي موسى﴾ من أمر محمد والإخبار به الذي هو في التوراة.

وقوله: ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ يؤيد هذا التأويل، وقرأ حمزة والكسائي^(٢) وعاصم: «سحران» والمراد بهما: التوراة والقرآن؛ قاله ابن عباس^(٣)، و﴿تظاهرا﴾: معناه: تعاونا.

وقوله: ﴿أهدى منهما﴾.

قال الثعلبي: يعني: أهدى من كتاب محمد وكتاب موسى؛ انتهى.

*ت: ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يكفروا﴾ لقريش كما أشار إليه الثعلبي، وكذا في ﴿قالوا﴾ لقريش عنده. و﴿ساحران﴾ يريدون موسى ومحمداً - عليهما السلام - وهو ظاهر قولهم: ﴿إنا بكل كافرون﴾؛ لأن اليهود لا يقولون ذلك في موسى في عصر نبينا محمد عليه السلام، ويؤمن هذا كله قوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك...﴾ الآية، فإن ظاهر الآية أن المراد قريش وعلى هذا كله مر الثعلبي، انتهى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبِالْحَسَنَةِ الَّتِي كَانُوا يَفْعَلُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ عَلَيْنَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ تُنْخَلَفُ مِنْ أَزْوَاجٍ أَتَمَّ أَنْ تُحِبَّ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْعَلُ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتُهُ فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا حَزَنًا أَلْوَاحٍ (٥٨) وَمَا كَانَ رَأْيُكَ مِنْ هَلَاكِ الْفُرَىٰ حَتَّىٰ بَعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلَوِّحُ عَلَيْهِمْ مَائِمَتًا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظُلُمَاتٌ (٥٩) وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنْعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠).

(١) ينظر: «المحرر» (٢٩١/٤).

(٢) ينظر: «السبعة» (٤٩٥)، و«الحجة» (٤٢٣/٥)، و«إعراب القراءات» (١٧٧/٢)، و«معاني القراءات» (٢٥٤/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢٣/٥)، و«العنوان» (١٤٧)، و«حجة القراءات» (٥٤٧)، و«شرح شملة» (٥٣٤)، و«إتحاف» (٣٤٤/٢).

(٣) أخرجه الطبري (٨٠/١٠) رقم (٢٧٤٨٤)، وذكره ابن عطية (٣٩١/٤)، وابن كثير (٣٩٢/٣)، والسيوطي (٢٤٨/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول...﴾ الآية؛ الذين وصل لهم القول: هم قريش؛ قاله مجاهد^(١) وغيره، قال الجمهور: والمعنى: وأصلنا لهم في القرآن، وتابعناه موصولاً ببعضه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء، إلى الإسلام. وذهبت فرقة إلى: أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الألفاظ، فالمعنى^(٢): ولقد وصلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نبوتك.

قال *ع^(٣): والمعنى الأول تقديره: ولقد وصلنا لهم قولاً يتضمن معاني؛ من تدبرها اهتدى. ثم ذكر - تعالى - القوم الذين آمنوا بمحمد من أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً. واختلف في تعيينهم فقال الزهري: الإشارة: إلى النجاشي^(٤).

وقيل: إلى سلمان، وابن سلام، وأسد الطبري^(٥) إلى رفاعة القرظي، قال: نزلت هذه الآية / في اليهود في عشرة أنا أحدهم، أسلمنا فأوذينا^(٦)؛ فنزلت فيها هذه الآية. والضمير في ﴿قبله﴾ يعود على القرآن. وأجرهم مرتين؛ معناه: على ملتين؛ وهذا المعنى هو الذي قال فيه ﷺ «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي...» الحديث^(٧). ويدرءون؛ معناه: يدفعون؛ وهذا وصف لمكارم الأخلاق، أي: يتغابون ومن قال لهم سوءاً لا يؤثروه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه، واللغو سقط القول، والقول يسقط لوجوه يعز حصرها، والمراد منه في الآية: ما كان سباً وأذى ونحوه؛ فأدب الإسلام الإعراض عنه. و﴿سلام﴾ في هذا الموضع قصد به المتاركة لا التحية. قال

(١) أخرجه الطبري (٨٤/١٠) رقم (٢٧٥٠١-٢٧٥٠٢)، وذكره ابن عطية (٢٩١/٤)، وابن كثير (٣/٣٩٣)، والسيوطي (٢٤٩/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) في ج: لمعنى.

(٣) ينظر: «المحرر» (٢٩١/٤).

(٤) ذكره ابن عطية (٢٩٢/٤).

(٥) ينظر: «الطبري» (٨٤/١٠).

(٦) ذكره ابن عطية (٢٩٢/٤).

(٧) أخرجه البخاري (٢٢٩/١) كتاب العلم: باب تعليم الرجل أمته (٩٧)، ومن (٢٠٥/٥) كتاب العتق: باب فضل من أدب جاريته وعلمها (٢٥٤٤)، ومن (٢٠٧/٥) باب العبد إذا أحسن عبادة ربه (٢٥٤٧)، ومن (٢١٠/٥) باب كراهية التناول على الرقيق (٢٥٥١)، ومن (١٦٩/٦) كتاب الجهاد: باب فضل من أسلم (٣٠١١)، ومن (٥٥١/٦) كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا﴾ (٣٤٤٦)، ومن (٢٩/٩) كتاب النكاح: باب اتخاذ السراي (٥٠٨٣)، ومسلم (١/١٣٤-١٣٥) كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ (٢٤١/١٥٤).

الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال، و﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ معناه: لا نطلبُهم للجدال والمراجعة والمشاتمة.

***ت*:** قال ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا حبيب بن حجر القيسي، قال: كان يقال: ما أحسن الإيمانَ يزيئه العلمُ، وما أحسن العلمَ يزيئه العملُ، وما أحسن العملَ يزيئه الرفقُ، وما أضفت شيئاً إلى شيء، مثلَ حلمٍ إلى علمٍ، انتهى. وأجمع جُلُ المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب، فَرَوَى أبو هريرة وغيره «أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ...» الحديث^(١) قد ذكرناه في سورة: «براءة»، فَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى كُفْرِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِ.

قال أبو روق: قوله تعالى: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ إشارة إلى العباس^(٢)، والضميرُ في قوله: ﴿وقالوا﴾ لقريش.

قال ابن عباس: والمُتَكَلِّمُ بذلك فيهم الحارث بن نوفل، وحكى الثعلبي أنه قال له: إنا لنعلم أن الذي تقولُ حَقٌّ وَلَكِنْ إِنْ اتَّبَعْنَاكَ تَخْطِفُنَا الْعَرَبُ. و﴿تُجْبَى﴾: معناه: تُجْمَعُ وتُجْلَبُ.

وقوله: ﴿كل شيء﴾ يريد مما به صلاحُ حالهم، ثم تَوَعَّدَ قريشاً بقوله ﴿وكم أهلكنا من قرية﴾ و﴿بطرت﴾ معناه: سَفِهَتْ وَأَشْبَرَتْ وَطَعَتْ؛ قاله ابن زيد^(٣) وغيره.

***ت*:** قال الهروي: قوله تعالى: ﴿بطرت معيشتها﴾، أي: في مَعِيشَتِهَا، والبَطْرُ: الطغيانُ عند النعمة، انتهى. ثم أحالهم على الاعتبارِ في خَرَابِ دِيَارِ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ كَحِجْرِ ثَمُودَ، وغيره. ثُمَّ خَاطَبَ تَعَالَى قريشاً مُحَقَّراً لما كانوا يَفْتَخِرُونَ به من مالٍ وبنينَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا الْفَانِي، وَأَنَّ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

***ت*:** وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره ابن عطية (٢٩٣/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٩٠/١٠) رقم (٢٧٥٣٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٣/٤).

بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً»^(١) رواه الترمذي من طريق سهل بن سعد، قال: وفي الباب عن أبي هريرة، قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، انتهى. وباقى الآية بينَ لِمَنْ أَبْصَرَ وَاهْتَدَى، جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهُمْ يَمَنًا.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(٦١) وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أفمن وعَدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه...﴾ الآية، معناها، يعمُ جميع العالم ومن المحضرين: معناه: في عذاب الله؛ قاله مجاهد^(٢) وقتادة^(٣)، ولفظة ﴿محضرين﴾ مشيرة إلى سوق [بجبر]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم﴾ الضمير المتصل بـ «ينادي» لِعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، والإشارة إلى قريش وكفار العرب.

وقوله: ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ هؤلاء / المجيبون هم كل مُغْوٍ دَاعٍ إِلَى الْكُفْرِ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْإِنْسِ؛ طَمَعُوا فِي التَّبَرِّيِّ مِنْ مُتَّبِعِيهِمْ؛ فَقَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ إِنْ مَا أَضَلَّلْنَاهُمْ كَمَا ضَلَّلْنَا نَحْنُ بِاجْتِهَادٍ لَنَا وَلَهُمْ، وَأَحْبَوُا الْكُفْرَ كَمَا أَحْبَبْنَاهُ «تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون». ثم أخبر تعالى: أنه يقال للكفرة العابدين للأصنام: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ يعني: الأصنام، ﴿فدعوهم﴾ فلم يَكُنْ في الجمادات ما يجب، ورأى الكفار العذاب.

١٥٩

(١) أخرجه الترمذي (٥٦٠/٤) كتاب الزهد: باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، حديث (٢٣٢٠)، وابن ماجه (١٣٧٦-١٣٧٧) كتاب الزهد: باب مثل الدنيا، حديث (٤١١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٣/٣) من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد به.

وقال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه الطبري (٩٢/١٠) رقم (٢٧٥٤٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٤)، وابن كثير (٣٩٦/٣) بنحوه، والسيوطي (٢٥٦/٥)، وعزاه للقرطبي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٩٢/١٠) رقم (٢٧٥٤٢)، وذكره ابن عطية (٢٩٤/٤)، وابن كثير (٣٩٦/٣)، والسيوطي (٢٥٥-٢٥٦)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٤) سقط في ج.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ذهب الزجاج^(١) وغيره إلى أن جواب «لو» محذوف. تقديره: لَمَا نَالَهُمُ الْعَذَابُ.

وقالت فرقة: لو: متعلقة بما قبلها، تقديره: فَوَدُّوا حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَعِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَوْ لَآ تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا النداء أيضاً للكفار، و﴿عميت عليهم الأنباء﴾: معناه أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمْ جِهَاتُهَا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ معناه، في قول مجاهد: لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَرْحَامِ^(٢) ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنباء، ليقين جميعهم أنه لا حُجَّةَ لَهُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾.

قال كثير من العلماء: «عسى» من الله واجبة.

قال ع^(٣): وهذا ظَنٌّ حَسَنٌ بِاللَّهِ تَعَالَى يُشْبِهُ كَرَمَهُ وَفَضْلَهُ سَبْحَانَهُ، وَاللَّازِمُ مِنْ «عَسَى»: أَنَّهَا تَرْجِيَّةٌ لَا وَاجِبَةٌ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحریم: ٥].

ت*: ومعنى الوجوب هنا: الوقوع.

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٥١/٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩٤/١٠) رقم (٢٧٥٥٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٢٩٥/٤)، وابن كثير (٣٩٧/٣) بنحوه، والسيوطي (٢٥٧/٥)، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ينظر: «المحرر» (٢٩٥/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾ الآية، قيل: سببها، قول قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ونحو ذلك من قولهم؛ فَرَدَّ اللَّهُ عليهم بهذه الآية، وجماعة المفسرين: أن «ما» نافية، أي: ليس لهم الخيرة، وذهب الطبري^(١) إلى أن «ما» مفعولة بـ «يختار» أي: ويختار الذي لهم فيه الخيرة، وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ لِلَّهِ، وَمِنْ شَقَاوَتِهِ تَرْكُهُ»^(٢) رواه الحاكم في «المستدرک»؛ وقال: صحيح الإسناد، انتهى من «السلام». وباقي الآية بين. والسرمذ من الأشياء: الدائم الذي لا ينقطع.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾.

ت: وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ...﴾، الآية معناها بين، وينبغي للعاقل ألا يجعل ليله كله نوماً؛ فَيَكُونُ ضَائِعَ الْعُمْرِ جِيفَةً بِاللَّيْلِ بَطَالاً بِالنَّهَارِ، كما قيل: [الطويل]

نَهَارُكَ بَطَالٌ وَلَيْلُكَ نَائِمٌ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ فَإِنْ أَرَدْتَ أَيُّهَا الْأَخ؛ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَعَلَيْكَ بِالْقِيَامِ فِي الْأَسْحَارِ، وقد نقل صاحب «الكوكب الدرّي» عن البزار؛ أن النبي ﷺ قال: «أَتَذَرُونَّ مَا قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ

(١) ينظر: «الطبري» (٩٥/١٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٥١٨/١)، وأحمد (١٦٨/١) من طريق محمد بن أبي حميد عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. قلت: وهو من أوامهما، فالحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٢/٢) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار... وفيه محمد بن أبي حميد، قال ابن عدي: ضعفه بين علي ما يرويه، وحديثه مقارب، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وقد ضعفه أحمد والبخاري وجماعة.

ومن طريق محمد بن أبي حميد: أخرجه الترمذي (٤٥٥/٤) كتاب القدر: باب ما جاء في الرضا بالقضاء، حديث (٢١٥١) بلفظ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ».

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويقال له أيضاً: حماد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم المدني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث.

لِسَلَامَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: يَا بُنَيَّ، لَا تَكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ، يَدْعُ الرَّجُلَ فَقِيْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١)، انتهى. وابتغاء الفضل: هو بالمشي والتصرف.

وقوله تعالى: ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ أي: عُذُولُ الأمم وأخيارها، فيشهدون على الأمم بخيرها وشرها، فيحقُّ العذاب على مَنْ شَهِدَ عليه بالكُفْرِ، وقيل له: على جهة الإعذار في المحاوراة: ﴿هاتوا برهانكم﴾، ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم: أَبَيَّتْ لك حجة.

﴿إِنَّ قَدَرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَنُوءُ بِالْمُضْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُتَجَرِّمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدَرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِيظٌ ﴿٧٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...﴾ الآية، كان قارون من قرابة موسى: ممن آمن بموسى وحفظ / التوراة وكان عند موسى عليه السلام من عباد ٥٩ ب المؤمنين، ثم إِنَّ اللَّهَ أَضْلَهُ وَبَغَى عَلَى قَوْمِهِ بِأَنْوَاعِ الْبَغْيِ؛ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِمُوسَى.

وقال الثعلبي: قال ابن المسيب: كَانَ قَارُونُ عَامِلًا لِفِرْعَوْنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ مِمَّنْ يَبْغِي عَلَيْهِمْ وَيُظْلِمُهُمْ. قال قتادة: بَغَى عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ^(٢)، انتهى.

ت: وما ذَكَرَهُ ابْنُ الْمُسَيَّبِ، هُوَ الَّذِي يَصِحُّ فِي النَّظَرِ لِمَتَأَمَّلِ الْآيَةَ، وَلَوْلَا الْإِطَالَةُ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢/١) كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام الليل، حديث (١٣٣٢)، والطبراني في «الصغير» (١/ ١٢١-١٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ١٨٣) رقم (٤٧٤٦) كلهم من طريق سنيذ بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر به. وقال الطبراني: لم يروه عن محمد بن المنكدر إلا ابنه يوسف، تفرد به سنيذ. قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٣٥): رواه ابن الجوزي عن جابر مرفوعاً، وفي إسناده يوسف بن محمد بن المنكدر متروك. قال في «اللاكي»: قال فيه أبو زرعة: صالح الحديث، وقال ابن عدي: أرجو أن لا بأس به. وقد أخرجه ابن ماجه من طريقه، وكذا الطبراني، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) أخرجه الطبري (١٠٠/١٠) رقم (٢٧٥٧٤) بنحوه، وذكره البغوي (٤٥٤/٣) بنحوه.

لَبِثْتُ وَجَهَ ذَلِكَ، وَالْمَفَاتِيحُ ظَاهِرُهَا: أَنَّهَا الَّتِي يُفْتَحُ بِهَا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهَا: الْخَزَائِنَ وَالْأَوْعِيَةَ الْكِبَارَ؛ قَالَه الضَّحَّاكُ^(١)؛ لِأَنَّ الْمِفْتَاحَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْخَزَائِنَةُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: «لَتَنْوُءَ» فَمَعْنَاهُ: تَنْهَضُ بِتَحَامِلٍ وَاشْتِدَادٍ، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ الْعُصْبَةَ تَنْوُءُ بِالْمَفَاتِيحِ الْمُثْقَلَةِ لَهَا فَقَلِبَ.

قلت*: وقال عريب الأندلسي في كتاب «الأنواء»: لَهُ نَوْءٌ كَذَا؛ مَعْنَاهُ: مِثْلُهُ وَمِنْهُ: «لَتَنْوُءَ بِالْعُصْبَةِ»، انْتَهَى، وَهُوَ حَسَنٌ إِنْ سَاعَدَهُ الثَّقَلُ. وَقَالَ الدَّأُوْدِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَتَنْوُءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ» يَقُولُ تَثْقُلُ؛ وَكَذَا قَالَ الْوَاحِدِيُّ، انْتَهَى. وَاخْتَلَفَ فِي الْعُصْبَةِ: كَمْ هُمْ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: ثَلَاثَةٌ^(٢)، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ مِنَ الْعَشِيرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣)، قَالَ الْبَخَارِيُّ^(٤): يُقَالُ: الْفَرَحَيْنِ الْمَرَحَيْنِ.

قال الغزالي في «الإحياء»: الْفَرَحُ بِالدُّنْيَا وَالتَّنَعُّمُ بِهَا سُمْ قَاتِلٌ يَسْرِى فِي الْعُرُوقِ؛ فَيُخْرِجُ مِنَ الْقَلْبِ الْخَوْفَ وَالْحَزْنَ وَذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَهْوَالَ الْقِيَامَةِ؛ وَهَذَا هُوَ مَوْتُ الْقَلْبِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَأُولَوِ الْحَزْمُ مِنْ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ جَرَّبُوا قُلُوبَهُمْ فِي حَالِ الْفَرَحِ بِمُؤَانَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّجَاةَ فِي الْحَزَنِ الدَّائِمِ، وَالتَّبَاعِدِ مِنْ أَسْبَابِ الْفَرَحِ، وَالبَطْرِ؛ فَقَطَّعُوا النَّفْسَ عَنْ مَلَذُّهَا وَعَوَّدُوهَا الصَّبْرَ عَنْ شَهَوَاتِهَا؛ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَعَلِمُوا أَنَّ حَلَالَهَا حِسَابٌ وَهُوَ نَوْعٌ عَذَابٍ، وَمَنْ نَوَّقَشَ الْحِسَابَ عَذَبٌ، فَخَلَّصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، وَتَوَصَّلُوا إِلَى الْحَرِيَّةِ وَالْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ بِالْخِلَاصِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ وَرَقِّهَا، وَالْأَنْسِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالِاشْتِغَالِ بِطَاعَتِهِ، انْتَهَى.

قال ابن الحاج في «المدخل»: قَالَ يَمَنُ بْنُ رَزَقٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: وَأَنَا أَوْسِيكَ بِأَنْ تُطِيلَ النَّظَرَ فِي مِزَاةِ الْفِكْرَةِ مَعَ كَثْرَةِ الْخَلَوَاتِ، حَتَّى يُرِيكَ شَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَقُبْحَهَا، فَيَدْعُوكَ ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى تَرْكِهَا، ثُمَّ قَالَ يَمَنُ بْنُ رَزَقٍ: وَلَا تَفْرَحَنَّ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ مَعَ قِلَّةِ الْحَزَنِ، وَاعْتَنِمِ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ الْحَزَنِ، فَإِنْ قَلِيلَ حُزْنِ الْآخِرَةِ الدَّائِمِ فِي الْقَلْبِ؛ يَنْفِي كُلَّ سُرُورِ الْفِتْنَةِ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا، وَقَلِيلَ سُرُورِ الدُّنْيَا فِي الْقَلْبِ؛ يَنْفِي عَنْكَ^(٥) جَمِيعَ حُزْنِ

(١) أخرجه الطبري (١٠١/١٠) رقم (٢٧٥٨١)، وذكره ابن عطية (٢٩٨/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٠٢/١٠) رقم (٢٧٥٨٩)، وذكره البغوي (٤٥٤/٣) نحوه. وابن جرير (٢٩٩/٤).

(٣) أخرجه الطبري (١٠٢/١٠) رقم (٢٧٥٨٥)، وذكره البغوي (٤٥٤/٣)، وابن جرير (٢٩٩/٤).

والسيوطي (٢٦٠/٥)، وعزه لعبد بن حميد عن قتادة.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» ٣٦٥/٨ كتاب التفسير باب «إِنَّكَ لَا يَهْدِي مِنْ أَحْبَبَ».

(٥) فِي جَدِّ عَنْهَا.

الْآخِرَةِ. وَالْحُزْنَ لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ إِلَّا مَعَ تَغْفِظِهِ؛ وَتَغْفِظُهُ حَيَاتُهُ، وَسُرُورُ الدُّنْيَا لِغَيْرِ الْآخِرَةِ لَا يَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ إِلَّا مَعَ غَفْلَتِهِ؛ وَغَفْلَةُ الْقَلْبِ مَوْتُهُ، وَعَلَامَةُ ثَبَاتِ الْيَقِينِ فِي الْقَلْبِ اسْتِدَامَةُ الْحُزْنِ فِيهِ. وَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: اَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ شَيْئاً أَبْلَغَ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا مِنْ ثَبَاتِ حُزْنِ الْآخِرَةِ فِي الْقَلْبِ، وَعَلَامَةُ ثَبَاتِ حُزْنِ الْآخِرَةِ فِي الْقَلْبِ أَنَّ الْعَبْدَ بِالْوَحْدَةِ، انْتَهَى.

وقولهم له: ﴿وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

قال ابن عباس والجمهور: معناه: لَا تُضَيِّعْ عُمْرَكَ فِي أَلَّا تَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا فِي دُنْيَاكَ؛ إِذِ الْآخِرَةُ إِنَّمَا يُعْمَلُ لَهَا فِي الدُّنْيَا، فَنَصِيبُ الْإِنْسَانِ عَمْرُهُ وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ فِيهَا؛ فَيَنْبَغِي / أَنْ لَا يُهْمَلَهُ. وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ أَنَّهُ قِيلَ: أَرَادُوا بِنَصِيْبِهِ الْكَفْرَ.

١٦٠

قال: *ع^(١)*: وهذا كله وغَطَّ مُتَّصِلٌ؛ وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الطويل]

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ رِذَاءً إِنْ تُلَوِّى فِيهِمَا وَخُسُوطُ^(٢)
وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٣): وفي معنى النصيب ثلاثة أقوال: الأول: لَا تَنْسَ حَقَّكَ مِنَ الدُّنْيَا، أَيْ: لَا تَغْفَلْ أَنْ تَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ، الثَّانِي: أَمْسِكْ مَا يَبْلُغُكَ؛ فَذَلِكَ حَقُّ الدُّنْيَا، وَأَنْفِقِ الْفَضْلَ فَذَلِكَ حَقُّ الْآخِرَةِ، الثَّالِثُ: لَا تَغْفَلْ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ، انْتَهَى. وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَمْرٌ بِصِلَةِ الْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ.

ص: ﴿كَمَا أَحْسَنَ﴾: - الْكَافُ لِلتَّشْبِيهِ أَوْ لِلتَّعْلِيلِ -، انْتَهَى. وَقَوْلُ قَارُونَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ: ادَّعَى أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمًا اسْتَوْجَبَ بِهِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ ذَلِكَ الْمَالِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ، فَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: أَرَادَ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ^(٤).

وقال أبو سليمان الداراني: أَرَادَ الْعِلْمَ بِالتَّجَارَةِ وَوُجُوهَ تَشْمِيرِ الْمَالِ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قال محمد بن كعب: هُوَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ بِمَعْنَى مَا قَبْلَهُ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَنْ أَهْلِكَ مِنَ الْقُرُونِ، أَيْ: أَهْلِكُوا وَلَمْ يُسْأَلْ غَيْرُهُمْ بَعْدَهُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، أَيْ: كُلُّ

(١) ينظر: «المحور الوجيز» (٢٩٩/٤).

(٢) البيت من شواهد «المحور الوجيز» (٢٩٩/٤).

(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٨٣/٣).

(٤) ذكره البغوي (٤٥٥/٣)، وابن عطية (٣٠٠/٤).

أحد إنما يُكَلِّمُ وَيُعَاتِبُ بِحَسَبِ مَا يَخْصُهُ، وقالت فرقة: هو إخبار مستأنف عَنْ حَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وجاءت آيات أُخَرُ تَقْتَضِي السُّؤَالَ، فَقَالَ النَّاسُ فِي هَذَا: إِنَّهَا مَوَاطِنٌ وَطَوَائِفُ.

وقيل غيرُ هذا، ويوم القيامة هو مَواطِنٌ. ثم أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ خُرُوجِ قَارُونَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ مِنَ الْمَلَابِيسِ وَالْمَرَائِبِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرَ النَّاسِ فِي تَحْدِيدِ زِينَةِ قَارُونَ وَتَغْيِينِهَا بِمَا لَا صِحَّةَ لَهُ؛ فَتَرَكْتُهُ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ فِي اغْتِرَارِ الْجَهْلَةِ وَالْأَعْمَارِ مِنَ النَّاسِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُقْلِبُهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْفِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُ لَمْ يَقْلِبْ الْكَافِرُونَ (٨٢).

وقوله سبحانه: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم...﴾ الآية: أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ بِاللَّهِ وَبِحَقِّ طَاعَتِهِ أَنَّهُمْ رَجَعُوا الْأَعْمَارَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا حَالَ قَارُونَ وَحَمَلُوهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى؛ مِنْ أَنَّ النُّظَرَ وَالتَّمَنِّيَ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْمُؤْمِنِ الْعَامِلِ الَّذِي يَنْتَظِرُ ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنْ حَالِ كُلِّ ذِي دُنْيَا. ثم أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الثَّرَغَةِ وَهَذِهِ الْقُوَّةِ فِي الْخَيْرِ وَالِدِينَ أَنَّهَا (١) ﴿لا يَلْقَاهَا﴾ أَي: لَا يُمَكِّنُ فِيهَا وَيُخَوِّلُهَا إِلَّا الصَّابِرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ؛ وَهَذَا هُوَ جَمَاعُ الْخَيْرِ كُلِّهِ.

وقال الطبري (٢): الضمير عائد على الكلمة؛ وهي قوله: ﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾، أَي: لَا يُقْلِبُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ؛ وَعَنْهُمْ تَصَدَّرَ، وَرُويَ فِي الْخَسْفِ بِقَارُونَ وَدَارِهِ أَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَمَضَّهُ فَعَلَ قَارُونَ بِهِ وَتَعَدَّيَهُ عَلَيْهِ؛ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَطَلَبَ النُّصْرَةَ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ الْأَرْضَ أَنْ تَطِيعَكَ فِي قَارُونَ وَأَتْبَاعِهِ، فَقَالَ مُوسَى: يَا أَرْضُ؛ خَذِيهِمْ فَأَخَذْتَهُمْ إِلَى الرِّكَبِ، فَاسْتَغَاثُوا: يَا مُوسَى؛ يَا مُوسَى؛ فَقَالَ: خَذِيهِمْ، فَأَخَذْتَهُمْ شَيْئًا فَشِئًا إِلَى أَنْ تَمَّ الْخَسْفُ بِهِمْ /، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى؛ لَوْ بِي اسْتَغَاثُوا وَإِلَيَّ تَابُوا لَرَحِمْتُهُمْ. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: رُويَ أَنَّهُ يَخْسَفُ بِهِ كُلُّ يَوْمٍ قَامَةً؛ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ (٣) الْقِيَامَةِ.

(١) في ج: أنهما.

(٢) ينظر: «الطبري» (١٠/١٠٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/١١٢) رقم (٢٧٦٤٤)، وذكره البغوي (٣/٤٥٧)، وابن عطية (٤/٣٠١)، وابن كثير (٣/٤٠١)، والسيوطي (٥/٤٥٧).

ت: وفي الترمذي؛ عن معاذ بن أنس الجهني، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ؛ حَتَّى يُخَيَّرَهُ؛ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»^(١). وروى الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان لنا قِرَامٌ سِتْرٌ فِيهِ تَمَائِيلٌ عَلَى بَابِي فَرَأَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْزِعِيهِ فَإِنَّهُ يُذَكِّرُنِي الدُّنْيَا»^(٢)، الحديث وروى الترمذي عن كعب بن عياض قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَتُهُ أُمَّتِي: الْمَالُ»^(٣)؛ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ وفيه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ لِأَيِّنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفٌ الْخَبِزِ وَالْمَاءِ»^(٤).

قال النضر بن شميل: «جِلْفُ الْخَبِزِ» يعني: ليس معه إدام. انتهى. فهذه الأحاديث وأشباهها تزهد في زينة الدنيا وغضارة^(٥) عيشها الفاني.

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٥٠) كتاب صفة القيامة باب (٣٩) حديث (٢٤٨١)، وأحمد (٣/٤٣٩)، والحاكم (٤/١٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٨٤) من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه الترمذي (٤/٦٤٣-٦٤٤) كتاب صفة القيامة: باب (٣٢) حديث (٢٤٦٨)، والنسائي (٨/٢١٣).

كتاب الزينة: باب التصاوير، وأحمد (٦/٢٢٦)، والبيهقي (٧/٢٦٧) من طريق سعد بن هشام عن عائشة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٤/٥٦٩) كتاب الزهد: باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، حديث (٢٣٣٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/٢٢٢)، وأحمد (٤/١٦٠)، والحاكم (٤/٣١٨)، وابن حبان (٢٤٧٠-موارد)، والطبراني في «الكبير» (١٩/١٧٩) رقم (٤٠٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/١٢٤) رقم (١٠٢٢) من حديث كعب بن عياض.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.

(٤) أخرجه الترمذي (٤/٥٧١-٥٧٢) كتاب الزهد: باب (٣٠) حديث (٢٣٤١) من طريق حريث بن السائب، قال: سمعت الحسن يقول: حدثني حمران بن أبان عن عثمان بن عفان به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وصححه الحاكم (٤/٣١٢) ووافقه الذهبي.

(٥) الغضارة: النعمة والسعة في العيش.

ينظر: «لسان العرب» (٣٢٦٤).

وقوله: ﴿وَيَكُنْ﴾ مذهب الخليل وسيبويه: أن «وي» حرف تنبيه منفصلة من (كان)، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال.

وقال أبو حاتم وجماعة: ويك: هي (ويْلَكَ) حذف اللام منها لكثرة الاستعمال.

وقالت فرقة: «ويكأن» بجملتها كلمة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٨٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا...﴾ الآية: هذا إخبار مستأنف من الله تعالى لنبيه - عليه السلام -، يراد به جميع العالم، ويتضمن الحض على السعي، حسب ما دلت عليه الآية، ويتضمن الانحناء على حال قارون ونظرائه، والمعنى: أن الآخرة ليست في شيء من أمر قارون؛ وأشباهه؛ وإنما هي لمن صفته كذا وكذا، والعلو المذموم: هو بالظلم والتجبر، قال النبي ﷺ: «وذلك أن تريد أن يكون شركك نعلك أفضل من شرك نعل أخيك»، والفساد يعم وجوه الشر.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنزَلْتُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ قالت فرقة: معناه فرض عليك أحكام القرآن.

وقوله تعالى: ﴿لِرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ قال الجمهور: معناه: لرادك إلى الآخرة، أي: باعثك بعد الموت، وقال ابن عباس وغيره: المعاد: الجنة^(١)، وقال ابن عباس^(٢) أيضاً؛

(١) أخرجه الطبري (١١٦/١٠) رقم (٢٧٦٦٠-٢٧٦٦١)، وذكره ابن عطية (٣٠٣/٤)، وابن كثير (٤٠٢/٣)، والسيوطي (٢٦٦/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٣) والنسائي في «التفسير» (٤٠٦).

وأخرجه الطبري (١١٧/١٠) رقم (٢٧٦٨١)، وذكره البيهقي (٤٥٨/٣)، وذكره ابن عطية (٣٠٣/٤)، وابن كثير (٤٠٢/٣)، والسيوطي (٢٦٦/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» من طرق عن ابن عباس.

ومجاهد^(١): المعاد: مكة، وفي البخاري بسنده عن ابن عباس: ﴿لرأدك إلى معاد﴾: إلى مكة، انتهى. وهذه الآية نزلت بالجحفة؛ كما تقدّم، والمعاد: الموضع الذي يعاد إليه.

وقوله تعالى: ﴿وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ هو تعديد نعم، والظهير: المعين.

وقوله تعالى: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله﴾: بأقوالهم؛ ولا تلتفت نحوهم؛ وامض لشأنك، وادع إلى ربك، وآيات الموائد كلها منسوخة.

وقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ قالت فرقة: المعنى: كل شيء هالك إلا هو سبحانه؛ قاله الطبري وجماعة منهم أبو المعالي - رحمه الله - وقال الزجاج: إلا إياه.

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١١٧ - ١١٨) رقم (٢٧٦٨٣ - ٢٧٦٨٤ - ٢٧٦٨٥)، وذكره البغوي (٣/ ٤٥٨)، وابن عطية (٤/ ٣٠٣)، وابن كثير (٣/ ٤٠٢)، والسيوطي (٥/ ٢٦٦) بنحوه، وعزاه للفريابي، وعبد بن حميد عن مجاهد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
/ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

١٦١

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

إلا الصدر منها العشر الآيات؛ فإنها مدنية نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة؛ هذا أصح ما قيل هنا والله تعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الْم﴾ تقدم الكلام على هذه الحروف.

وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ نزلت هذه الآية في قوم من المؤمنين بمكة؛ وكان كفار قريش يؤذونهم، ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدورهم تضيق لذلك؛ وربما استنكر بعضهم أن يُمكن الله الكفرة من المؤمنين. قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية، ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين، ليعلم الصادق من الكاذب^(١)، و«أَحَسِبَ» بمعنى^(٢): ظَنُّ.

و﴿الذين من قبلهم﴾ يريد بهم: المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

(١) ذكره ابن عطية (٤/٣٠٥).

(٢) في ج: معناه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أم: معادلة للهمزة؛ في قوله: ﴿أَحْسِبْ﴾ [العنكبوت: ٢] وكأنه تعالى قرر الفريقين: قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يُفْتَنُونَ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات؛ في تعذيب المؤمنين؛ وغير ذلك على ظنهم؛ أنهم يسبقون عقاب الله تعالى؛ ويعجزونه، ثم الآية بَعْدَ تَعَمُّ كُلِّ عَاصٍ، وعامل سيئة من المسلمين؛ وغيرهم، وفي الآية وعيد شديد للكفرة الفاتنين، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ تثبت للمؤمنين، وباقي الآية بَيِّنُ، والله الموفق.

وقال *ص*: قول *ع*^(١): أم: معادلة للألف في قوله: ﴿أَحْسِبْ﴾ يقتضي أنها هنا متصلة؛ وليس كذلك؛ بل «أم» هنا: منقطعة مقدرة بـ «بل»؛ للإضراب، بمعنى: الانتقال؛ لا بمعنى الإبطال، وهمزة الاستفهام؛ للتقرير والتوبيخ؛ فلا تقتضي جواباً، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. إخبار عن المؤمنين المهاجرين الذين هم في أعلى رتبة من البدار إلى الله تعالى؛ نوه بهم - عز وجل - وبحالهم؛ ليقيم نفوس المتخلفين عن الهجرة؛ وهم الذين فتنهم الكفار.

﴿ولنجزيهم أحسن﴾، أي: ثواب أحسن الذي كانوا يعملون.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُهُ وَلَٰكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ رُوي عن قتادة^(٢) وغيره: أنها نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص؛ وذلك أنه هاجر؛ فحلفت أمه أن لا تستظل بظل حتى يرجع إليها؛ ويكفر بمحمد، فليج هو في هجرته، ونزلت الآية.

وقيل: بل نزلت في عياش بن أبي ربيعة؛ وكانت قصته كهذه ثم خدعه أبو جهل؛

(١) ينظر: «المحرر» (٣٠٦/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٤/١٠) رقم (٢٧٧٠١)، وذكره ابن عطية (٣٠٧/٤)، والسيوطي (٢٧٠/٥) بنحوه، وعزه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة.

ورده إلى أمه. الحديث في كتب السيرة، وباقي الآية بين. ثم كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين؛ ليحرك النفوس إلى نيل مراتبهم.

قال الثعالبي: قوله تعالى: ﴿لندخلهم في الصالحين﴾ / أي: في زمرة.

٦١ ب

وقال محمد بن جرير^(١): في مدخل الصالحين: وهو الجنة.

وقيل: ﴿في﴾ بمعنى: «مع» و«الصالحون»: هم الأنبياء والأولياء، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ إلى قوله: ﴿المنافقين﴾، نزلت في المتخلفين عن الهجرة؛ المتقدم ذكرهم؛ قاله ابن عباس^(٢). ثم قرره تعالى على علمه بما في صدورهم، أي: لو كان يقيهم تأمناً وإسلامهم خالصاً؛ لما توقفوا ساعة ولربكوا كلَّ هول إلى هجرتهم ودار نبيهم.

وقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ هنا انتهى المدني من هذه السورة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا...﴾ الآية، روي: أن قائل هذه المقالة هو: الوليد بن المغيرة، وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش؛ لاتباع النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم...﴾ الآية، لأنه يلحق كل داع إلى ضلالة؛ كفل منها حسباً صرح به الحديث المشهور^(٣).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ هَمَّ بِإِغْوَاةِ آلِ عَادَ فَبَاسٌ لَّهُمْ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ هَؤُلَاءِ عِبَادُ اللَّهِ أُوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ عِنْدَ اللَّهِ خَائِفُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ حَقَّ عِبَادِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(١) ينظر: «الطبري» (١٠/١٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/١٢٥) رقم (٢٧٧٠٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٣٠٨) بنحوه.

(٣) تقدم تخريجه، وهو حديث: «من دعا إلى ضلالة...».

وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم...﴾ الآية، العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسولاً؛ يدعو إلى عبادة الله تعالى، و﴿الطوفان﴾: العظيم الطامي، ويقال ذلك لكل طام خرج عن العادة من ماء، أو نار، أو موت.

وقوله: ﴿وهم ظالمون﴾ يريد: بالشرك. ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وقومه، وذلك أيضاً تمثيل لقريش.

وقوله تعالى: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ قال ابن عباس^(١): هو نحت الأصنام.

وقال مجاهد^(٢): هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان؛ وغير ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَسْرَفْتُمْ بِمُعْجِزَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِرَاتِ اللَّهِ وَلَقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَبِيسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده...﴾ الآية، هذه الحالة هي على ما يظهر مع الأحياء من إحياء الأرض، والنبات؛ وإعادته؛ ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور، ثم أمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، ويحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام بأن يأمرهم على جهة الاحتجاج، بالسير في الأرض، والنظر في أقطارها، و﴿النشأة الآخرة﴾: نشأة القيام من القبور.

وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء...﴾ الآية، قال ابن

(١) أخرجه الطبري (١٢٩/١٠) رقم (٢٧٧٢٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٤)، وابن كثير (٣/٤٠٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٩/١٠) رقم (٢٧٧١٩) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١١/٤)، والسيوطي (٢٧٤/٥) بنحوه، وعزه للفريابي، وابن جرير عن مجاهد.

زيد^(١): لا يعجزه أهل الأرض في الأرض، ولا أهل السماء في السماء؛ إن عصوه. وقيل: معناه: ولا في السماء لو كنتم فيها. وقيل: المعنى: ليس للبشر حيلة إلى صعود أو نزول؛ يفلتون بها. قال قتادة: دَمَّ الله قوماً هانوا عليه؛ فقال: ﴿أولئك يئسوا من رحمتي...﴾ الآية.

قال *ع^(٢)*: وما تَقَدَّمَ من قوله: ﴿أولم يروا كيف...﴾ إلى هذه الآية المستأنفة؛ يُحْتَمَلُ أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لإبراهيم عليه السلام؛ ومحاورة لقومه؛ وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه.

وقوله تعالى: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي بأن جعلها برداً وسلاماً.

قال كعب^(٣) الأحبار - رضي الله عنه -: ولم تحرق النار إلا الحبل الذي أوثقوه به؛ وجعل سبحانه ذلك آية، وعبرة، ودليلاً على توحيدهم لمن شرح صدره؛ ويسره للإيمان. ثم ذكر تعالى أن إبراهيم - عليه السلام - قرهم على أن اتخذهم الأوثان؛ إنما كان اتباعاً من بعضهم لبعض؛ وحفظاً لمودتهم الدنيوية؛ وأنهم يوم القيامة يَجْحَدُ بعضهم بعضاً، ويتلاعنون؛ لأن توادهم كان على غير تقوى، ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَإِنَّهُمْ جَاءُوا عَلَى الْقَوْلِ لَنْفُسِهِمْ﴾ (٢٦) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧) ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) ﴿أَيْنَكُمْ لَنْتَوْتَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٠) ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ

(١) أخرجه الطبري (١٣١/١٠) رقم (٢٧٧٢٦).

(٢) ينظر: «المحرر» (٣١٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (١٣٢/١٠) رقم (٢٧٧٢٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/ ٣١٢-٣١٣)، والسيوطي (٥/ ٢٧٤) بنحوه، وعزاه لكعب.

وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَاهُ مِنْهُمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرِّيًّا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنْكَ الْغَيْبِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَأَمِّنْ لَهُ / لوط﴾ معناه: صدق، وآمن: يتعدى باللام والباء، والقائل ١٦٢ ﴿إني مهاجر﴾ هو إبراهيم عليه السلام. قاله قتادة والنخعي^(١)؛ وقالت فرقة: هو لوط - عليه السلام ..

وقوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا...﴾ الآية، الأجر الذي آتاه الله في الدنيا: العافية من النار ومن المَلِكِ الجائر. والعمل الصالح؛ أو الثناء الحسن؛ قاله مجاهد^(٢) ويدخل في عموم اللفظ غير ما دُكر.

قوله تعالى: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، أي: في عداد الصالحين الذين نالوا رضا الله عز وجل، وقول لوط عليه السلام: ﴿أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾، قالت فرقة: كان قطع الطريق بالسلب فاشياً فيهم، وقيل غير هذا، والنادي، المجلس الذي يجتمع الناس فيه. واختلف في هذا المنكر الذي يأتونه في ناديهم: فقالت فرقة: كانوا يحذفون الناس بالحصباء؛ وَيَسْتَحِفُّونَ بالغريب والخاطر عليهم؛ وروته أم هانئ عن النبي ﷺ: ﴿وَكَانَتْ خُلُقُهُمْ مُهْمَلَةً؛ لَا يَرْبِطُهُمْ دِينَ؛ وَلَا مُرُوءَةً، وقال

(١) ذكره ابن عطية (٣١٤/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٣٤/١٠) رقم (٢٧٧٣٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣١٤/٤)، وابن كثير (٣/٤١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٢/٥) كتاب التفسير: باب «ومن سورة العنكبوت»، حديث (٣١٩٠)، وأحمد (٦/٣٤١)، والطبري في «تفسيره» (١٣٦/١٠) رقم (٢٧٧٤٥)، والحاكم (٤٠٩/٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/٤١١-٤١٢) رقم (١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢) كلهم من طريق أبي صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ به..

وقال الترمذي: حديث حسن.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٧٦/٥)، وزاد نسبه إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «الصمت»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والشاشي في «مسنده»، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، وابن عساكر.

مجاهد^(١): كانوا يأتون الرجال في مجالسهم؛ وبعضهم يرى بغضاً.

وقال ابن عباس^(٢): كانوا يتصارتون ويتصافعون في مجالسهم، وقيل غير هذا، وقد تقدم قصص الآية مكرراً والرجز: العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ولقد تركنا منها﴾؛ أي: من خبرها وما بقي من آثارها، والآية: موضع العبرة، وعلامة القدرة، ومزجر النفوس عن الوقوع في سُخط الله تعالى.

﴿وَالِئِنَّ مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبْدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثِيمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَكُمُودًا وَقَدْ بَنَيْتَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَبَدَّلُوا الْبَنِينَ حَتَّىٰ بَلَغُوا نَبَأَهُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٨﴾ وَفَعَلُوا فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذْنَا الْفَيْسِكَةَ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِنَّ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مِثْلَ الَّذِينَ أَخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَهَا الْبُيُوتِ لَيَبْتَ الْعَنكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿والى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر...﴾ الآية، الرجاء في الآية: على بابه، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى: وخافوا، و﴿تعنوا﴾ معناه: تفسدوا، و﴿السييل﴾: هي طريق الإيمان، ومنهج النجاة من النار، و﴿ما كانوا سابقين﴾، أي: مفلتين أخذنا وعقابنا، وقيل: معناه: وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر، وباقي الآية بين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَنَهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

(١) أخرجه الطبري (١٣٧/١٠) رقم (٢٧٧٥٢)، وذكره البغوي (٤٦٦/٣)، وابن عطية (٣١٥/٤)، والسيوطي (٢٧٦/٥)، وعزاه للفرابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» عن مجاهد.
(٢) ذكره ابن عطية (٣١٥/٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، قيل: معناه: إن الله يعلم الذين تدعون من دونه من جميع الأشياء، وقيل: ما نافية؛ وفيه نظر، وقيل: ما استفهامية، قال جابر: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾: الْعَالَمُ: مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ وَأَنْتَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا للعبث واللعب؛ بل ليدل على سلطانه؛ وتثبيت شرائعه، ويضع الدلالة لأهلها ويعم بالمنافع؛ إلى غير ذلك مما لا يُحصى عدداً. ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالنفوذ لأمره؛ وتلاوة القرآن الذي أُوحي إليه، وإقامة الصلاة، أي: إدامتها؛ والقيام بحدودها. ثم أخبر سبحانه حكماً منه أن الصلاة تنهى صاحبها وممثلها عن الفحشاء والمنكر.

قال ع^(١): * وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع، والإخبات^(٢) وتذكر الله، وتَوَهَّم الوقوف بين يديه، وإن قلبه وإخلاصه مُطْلَعٌ عليه مَرْقُوبٌ صَلَحَتْ لذلِكَ نَفْسُهُ، وتَذَلَّلَتْ، وَخَامَرَهَا ارْتِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَاطَّرَدَ ذلِكَ فِي أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَنْتَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمَنْكَرِ، وَلَمْ يَكْذِبْ فُتْرٌ مِنْ ذلِكَ حَتَّى تَظْلَهُ صَلَاةٌ أُخْرَى؛ يَرْجِعُ بِهَا إِلَى أَفْضَلِ حَالِهِ؛ فَهَذَا مَعْنَى هَذَا الْإِخْبَارِ؛ لِأَنَّ صَلَاةَ الْمُؤْمِنِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ ارْتَعَدَ، وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، فَكُلَّمْ فِي ذلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى.

قال ع^(٣): * فهذه صلاة تنهى - ولا بد - عن الفحشاء/ والمنكر، وأما من كانت ٦٢ ب صلاته دائرة حول الإجزاء، بلا تذكر ولا خشوع، ولا فضائل؛ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس^(٤) وأبو الدرداء^(٥) وسلمان^(٦) وابن

(١) ينظر: «المحرر» (٣١٩/٤).

(٢) أخبت لله: خشع. وأخبت إلى ربه أي اطمأن إليه. والإخبات: الخشوع والتواضع.

ينظر: «لسان العرب» ١٠٨٧.

(٣) ينظر: «المحرر» (٣١٩/٤).

(٤) أخرجه الطبري (١٤٦/١٠) رقم (٢٧٧٩٠)، وذكره البغوي (٤٦٩/٣)، وابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨٠/٥)، وعزاة لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري (١٤٧/١٠) رقم (٢٧٨٠١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨١/٥)، بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير عن أبي الدرداء.

(٦) أخرجه الطبري (١٤٧/١٠) رقم (٢٧٨٠٢)، وذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣).

مسعود^(١) وأبو قرة^(٢): معناه: ولذكر الله إياكم؛ أكبر من ذكركم إياه.

وقيل: معناه: ولذكر الله أكبر؛ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر. وقال ابن زيد وغيره: معناه: ولذكر الله أكبر^(٣) من كل شيء. وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ ﴿ولذكر الله أكبر﴾. والأحاديث في فضل الذكر كثيرة؛ لا تنحصر.

وقال ابن العربي في «أحكامه»^(٤): قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: ذكر الله لكم أفضل من ذكركم له؛ أضاف المصدر إلى الفاعل.

الثاني: ذكر الله أفضل من كل شيء.

الثالث: ذكر الله في الصلاة؛ أفضل من ذكره في غيرها؛ يعني: لأنهما عبادتان.

الرابع: ذكر الله في الصلاة؛ أكبر من الصلاة؛ وهذه الثلاثة الأخيرة من إضافة المصدر إلى المفعول، وهذه كلها صحيحة، وإن للصلاة بركة عظيمة، انتهى.

قال ع^(٥): * وعندي، أن المعنى: ولذكر الله أكبر على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة؛ يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة، لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله تعالى، مراقب له، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى، كما في الحديث الصحيح: «وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٦) والحركات التي في الصلاة؛ لا تأخير لها في نهى، والذكر النافع هو مع العلم؛ وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله تعالى. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكر الله تعالى للعبد؛ هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه؛ وذلك ثمرة ذكر العبد ربّه.

(١) ذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، وابن كثير (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في «زوائد الزهد»، وابن جرير عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الطبري (١٤٧/١٠) رقم (٢٧٨٠٣)، وذكره ابن عطية (٣٢٠/٤)، والسيوطي (٢٨٠/٥)، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن جابر قال: سألت أبا قرة.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٢٠/٤).

(٤) ينظر: «أحكام القرآن» (١٤٨٧/٣).

(٥) ينظر: «المحور» (٣٢٠/٤).

(٦) تقدم تخريجه، وهو حديث: «أنا عند ظن عبدي بي».

قال الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وعبارة الشيخ ابن أبي جمرة: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ معناه: ذكره لك في الأزل أن جعلك من الذاكرين له؛ أكبر من ذكرك أنت الآن له، انتهى.

قال القُشَيْرِيُّ في «رسالته»: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه؛ وهو العمدة في هذا الطريق؛ ولا يصل أحد إلى الله سبحانه إلا بدوام الذكر، ثم الذكر على ضربين: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، فذكر اللسان: به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكرةً بلسانه، وقلبه؛ فهو الكامل في وصفه، سمعتُ أبا علي الدقاق يقول: الذكر منشورُ الولاية، فمن وُفِّقَ للذكر؛ فقد وُفِّقَ للمنشور، ومن سُلِبَ الذكر فقد عُرِلَ، والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات. وأسند القشيري عن المظفر الجصاص قال: كنت أنا ونصر الخراط ليلةً في موضع؛ فتذكرنا شيئاً من العلم؛ فقال الخراط: الذاكر لله تعالى فائدته في أول ذكره: أن يعلم أن الله ذكره؛ فبذكر الله له ذكره، قال: فخالفته، فقال: لو كان الخضرُ ها هنا لشهد لصحته، قال: فإذا نحن بشيخ يجيء بين السماء والأرض، حتى بلغ إلينا وقال: صدق؛ الذاكر لله بفضل الله، وذكره له ذكره، فعلمنا أنه الخضر عليه السلام، انتهى. وباقي الآية ضربٌ من التوعيدِ وحثٌ على المراقبة، قال الباجي في «سنن الصالحين»: / قال بعض العلماء: إن الله عز وجل يقول: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَطْلَعْتُ عَلَى قَلْبِهِ؛ قَرَأْتُ الْعَالِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِذِكْرِي؛ تَوَلَّيْتُ سَيَّاسَتَهُ، وَكُنْتُ جَلِيسَهُ وَمُحَادَثَهُ وَأَيَّسَهُ». انتهى.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا أَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْأَلْبَابُ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْتَثُّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُونَ (٤٩)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذه الآية مكية، ولم يكن يومئذ قتال، وكانت اليهود يومئذ بمكة؛ وفيما جاورها، وربما وقع بينهم وبين بعض المؤمنين جدالٌ واحتجاجٌ في أمر الدين؛ وتكذيب، فأمر الله المؤمنين ألا يجادلوهم إلا بالتي هي أحسن؛ دعاء إلى الله تعالى وملاينة، ثم استثنى من ظلم منهم المؤمنين؛ وحصلت منه أذية؛ فإن هذه الصنيفة استثنى لأهل الإسلام معارضتها؛ بالتغيير عليها،

والخروج معها عن التي هي أحسن. ثم نُسيخَ هذا بآية القتال؛ وهذا قول قتادة^(١)؛ وهو أحسن ما قيل في تأويل الآية.

ت* قال عز الدين بن عبد السلام في «اختصاره لقواعد الأحكام»^(٢): فائدة: لا يجوز الجدل والمناظرة إلا لإظهار الحق ونُضْرَتِه؛ لِيُعْرَفَ وَيُعْمَلَ بِهِ، فمن جادل لذلك؛ فقد أطاع، ومن جادل لغرض آخر، فقد عصى وخَاب، ولا خير فيمن يتحيل لِنُضْرَةِ مذهبه؛ مع ضعفه ويُعِدُّ أدلته من الصواب، انتهى.

تنبيه: رَوَى الترمذي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْحَيَاءُ وَالْعِيَّةُ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ الْفَقَاقِ»^(٣). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيعَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا» حديث^(٤)

(١) أخرجه الطبري (١٥٠/١٠) رقم (٢٧٨٢٢) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٠/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٢١) بنحوه، وابن كثير بنحوه (٤١٥/٣)، والسيوطي (٢٨٢/٥)، وعزاه لأبي داود في «ناسخه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف» عن قتادة.

(٢) قال «المقري» في «قواعده»: لا يجوز التعصب إلى المذاهب بالانتصاب للانتصار بوضع الحجاج، وتقريبها على الطرق الجدلية مع اعتقاد الخطأ، أو المرجوحية عند المجيب، كما يفعله أهل الخلاف، إلا على وجه التدريب على نصب الأدلة، والتعليم لسلوك الطريق بعد بيان ما هو الحق، فالحق أعلى من أن يُعْلَى، وأغلب من أن يُغْلَب. وقال أيضاً: ولا يجوز رد الأحاديث إلى المذاهب على وجه ينقص من بهجتها، ويذهب بالثقة بظاهرها؛ فإن ذلك إفساد لها، وغض من منزلتها، لا أصلح الله المذاهب بفسادها، ولا رفعها بخفض درجاتها، فكل كلام يؤخذ منه ويرد إلا ما صح لنا عن سيدنا رسول الله ﷺ، بل لا يجوز الرد مطلقاً؛ لأن الواجب أن ترد المذاهب إليها كما قال «الإمام الشافعي»، لا أن ترد هي إلى المذاهب ولله در علي - رضي الله عنه - أي بحر علم ضم جنباه! - إذ قال لكميل بن زياد لما قال له: أترانا نعتقد أنك على الحق، وأن طلحة، والزبير على الباطل؟! : اعرف الرجل بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

وما أحسنَ قولَ أرسطو لما خالف أستاذه أفلاطون: تَخَاصَمَ الْحَقُّ وَأَفْلَاطُونُ، وكلاهما صديق لي، والحق أصدق منه. انظر «القواعد» (٣٩٧/٢) وما بعدها بتصرف، وينظر: «القواعد الصغرى» بتحقيقنا ص ١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٥/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في العي، حديث (٢٠٢٧)، وأحمد (٥/٢٦٩)، والحاكم (٩/١)، والبغوي في «شرح السنة» (٦/٤١٠) - بتحقيقنا كلهم من طريق محمد بن مطرف أبي غسان عن حسان بن عطية عن أبي أمامة مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث أبي غسان محمد بن مطرف.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٢٠/٢) كتاب الأدب: باب ما جاء في المشتدق في الكلام، حديث (٥٠٠٥)، والترمذي (١٤١/٥) كتاب الأدب: باب ما جاء في الفصاحة والبيان، حديث (٢٨٥٣)، وأحمد (٢/١٦٥)، (١٨٧) من طريق نافع بن عمر الجمحي عن بشر بن عاصم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

غريب، انتهى؛ وهما في «مصابيح البغوي». وروى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِي بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ، أَوْ النَّاسِ - لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَذْلًا»^(١) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا﴾ الآية، قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية؛ ويفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»^(٢)، وقولوا: ﴿آمَنَّا﴾ بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهمكم واحد ونحن له مسلمون» وروى ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ؛ وَقَدْ ضَلُّوا: إِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الكتاب يريد: التوراة والإنجيل؛ كانوا في وقت نزول الكتاب عليهم يؤمنون بالقرآن. ثم أخبر عن معاصري نبينا محمد ﷺ أن منهم أيضاً مَنْ يؤمن به ولم يكونوا آمنوا بعد، ففي هذا إخبارٌ بغيث؛ يَبَيِّنُ الوجودَ بعدَ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجِدُ بآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ يُشَبِّهُ أَنْ يُزَادَ بهذا الانحناء كفار قريش. ثم بين تعالى الحجة وأوضح البرهان: أن مما يقوي أن نزول هذا القرآن من عند الله؛ أن محمداً - عليه السلام - جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمن للغيوب، وغير ذلك؟ وهو أمي؛ لا يقرأ ولا يكتب؛ ولا يتلو كتاباً / ولا يخط حروفاً؛ ولا سبيل له إلى ٦٣ ب التعلم، ولو كان ممن يقرأ أو يخط، لارتاب المبطلون، وكان لهم في ارتيابهم مُعَلِّقٌ، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة؛ فظاهرُ فسادِهِ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ﴾ يعني: القرآن، ويحتمل: أن يعودَ على أمر محمد ﷺ و﴿الظالمون﴾ و﴿المبطلون﴾ يَغْمُ لفظهما كلَّ مكذبٍ للنبي ﷺ، ولكنَّ عظم

(١) أخرجه أبو داود (٧٢٠/٢) كتاب الأدب: باب ما جاء في المتشدد في الكلام، حديث (٥٠٠٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥/١٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب قول النبي ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ»، حديث (٧٣٦٢) وفي (٥٢٥/١٣) كتاب التوحيد: باب ما يجوز من تفسير التوراة، حديث (٧٥٤٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥١/١٠) رقم (٢٧٨٢٣) من حديث أبي هريرة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٨٢/٥)، وزاد نسبه إلى النسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥١/١٠) رقم (٢٧٨٢٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٢٨٢)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق.

الإشارة بهما إلى قريش؛ لأنهم الأهم؛ قاله مجاهد^(١).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٥ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٦﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بِنَبِيِّ وَسَيَكْفِيكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٥٧﴾.

﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ الضمير في: ﴿قالوا﴾ لقريش ولبعض اليهود؛ لأنهم كانوا يعلمون قريشاً مثل هذه الحجة؛ على ما مر في غير ما موضع. ثم احتج عليهم في اقتراحهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات؛ ومعجز للجن والإنس؛ فقال سبحانه: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب... الآية﴾.

وقوله: ﴿آمنوا بالباطل﴾ يريد: الأصنام وما في معناها. ﴿وَسَتَعْبِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٧﴾ سَتَعْبِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٨﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٩﴾ يَبْعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ٦٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ يريد: كفار قريش، وباقي الآية بين مما تقدم مكرراً والله الموفق بفضلِهِ. و﴿بغتة﴾: معناه: فجأة؛ وهذا هو عذاب الدنيا؛ كيوم بدر ونحوه. ثم توعدهم سبحانه بعذاب الآخرة في قوله: ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم... الآية﴾.

وقوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون...﴾ الآيات، هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنين الكائنين بمكة على الهجرة. قال ابن جُبَيْر^(٢)، وعطاء^(٣) ومجاهد^(٤): إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر؛ تترتب فيها هذه الآية وتلزم

(١) أخرجه الطبري (١٥٢/١٠) رقم (٢٧٨٣٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٢/٤)، والسيوطي (٢٨٣/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (١٥٦/١٠) رقم (٢٧٨٤٥-٢٧٨٤٦) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٣٢٤/٤)، والسيوطي (٢٨٥/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه الطبري (١٥٦/١٠) رقم (٢٧٨٤٧) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٢٤)، والسيوطي (٢٨٥/٥)، وعزاه لابن أبي الدنيا في «العزلة»، وابن جرير عن عطاء.

(٤) أخرجه الطبري (١٥٦/١٠) رقم (٢٧٨٤٩) بنحوه، وذكره البغوي (٤٧٢/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٢٤)، والسيوطي (٢٨٥/٥)، وعزاه للفرأيي، وابن جرير عن مجاهد.

الهجرة عنها إلى بلد حق؛ وقاله (١) مالك .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أُنْزِلَ الْعِلْمَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٨﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٦١﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تحقيق لأمر الدنيا ومخاوفها، كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه؛ أنه يموت أو يجوع ونحو هذا؛ فحقر الله سبحانه شأن الدنيا، أي وأنتم لا محالة ميتون ومُخْشَرُونَ إلينا، فالبدارُ إلى طاعة الله والهجرة إليه أولى ما يُمْتَثَلُ. ذكر هشام بن عبد الله القرطبي في تاريخه المسمى بـ «بهجة النفس» قال: بينما المنصور جالس في منزله في أعلى قصره؛ إذ جاءه سهم عائر فسقط بين يديه؛ فذعر المنصور منه ذعراً شديداً، ثم أخذه فجعل يقلبه، فإذا مكتوب عليه بين الرِيشَتَيْنِ: [الوافر]

أَتَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادِي وَتَحْسَبُ أَنَّ مَا لَكَ مِنْ مَعَادٍ
سَتَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِكَ وَالْخَطَايَا وَتُسْأَلُ بَعْدَ ذَاكَ عَنِ الْعِبَادِ

ومن الجانب الآخر: [البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنُّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَاعَدْتِكَ اللَّيَالِي فَأَغْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْذُ الْكَدَرُ

وفي الآخر: [البسيط]

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْيُنِهَا فَأَضْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالِ
يَوْمًا تُرَبِّكَ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي

/ ثم قرأ على الجانب الآخر من السهم: [البسيط]

مَنْ يَضْحَكِ الدَّهْرَ لَا يَأْمَنْ تَصْرُفُهُ يَوْمًا فَلِلدَّهْرِ إِخْلَاءٌ وَإِمْرَارُ

لِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ إِذَا أَتَتْهُ مَدَّةٌ لَا بُدَّ إِقْصَارِ
انتهى.

وقرأ حمزة^(١): «لشئهم من الجنة غراً»: من أثنى يُثوي بمعنى: أقام.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ...﴾ الآية: تحريض على الهجرة؛ لأن بعض المؤمنين فكر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة، وقالوا: غربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار، ولا من يطعم، فمثل لهم بأكثر الدواب التي لا تنقوت ولا تدخر، ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فقله: ﴿لا تحمل﴾ يجوز أن يريد من الحمل، أي: لا تتقبل ولا تنظر في ادخاره.

قاله مجاهد^(٢) وغيره.

قال ع^(٣): * والادخار ليس من خلق الموقنين، وقد قال رسول الله ﷺ لا ين عمر: «كَيْفَ بِكَ إِذَا بَقِيَتْ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ؛ يُحَبِّثُونَ رِزْقَ سَنَةٍ بِضَعْفِ الْيَقِينِ»^(٤)، ويجوز أن يريد من الحماله؛ أي: لا تتكفل لنفسها.

قال الداودي: وعن علي بن الأقرم: ﴿لا تحمل رزقها﴾ أي: لا تدخر شيئاً لغد، انتهى. وفي الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرِزْقْتُمْ كَمَا تَرْزُقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»^(٥). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انتهى.

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٤)، و«الحجة» (٤٣٨/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٠/٢)، و«معاني القراءات» (٢٦١/٢)، و«شرح الطيبة» (١٢٩/٥)، و«العنوان» (١٥٠)، و«حجة القراءات» (٥٥٤)، و«شرح شعلة» (٥٣٨)، و«إتحاف» (٣٥٢/٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٥٨/١٠) رقم (٢٧٨٥٣) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٢٥/٤).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣٢٥/٤).

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه الترمذي (٥٧٣/٤) كتاب الزهد: باب في التوكل على الله، حديث (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٢/١٣٩٤)، كتاب الزهد: باب التوكل واليقين، حديث (٤١٦٤)، وأحمد (٣٠/١)، وأبو يعلى (١/٢١٢)، رقم (٢٤٧)، وابن حبان (٥٠٩/٢) رقم (٧٣٠)، وابن المبارك في «الزهد» (ص: ١٩٦ - ١٩٧) رقم (٥٥٩)، والحاكم (٣١٨/٤)، وأبو نعيم (٦٩/١٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٤٤٥)، والبخاري في «شرح السنة» (٧/٣٢٨ - بتحقيقنا) كلهم من حديث عمر بن الخطاب. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ثم خاطب تعالى في أمر الكفار وإقامة الحجة عليهم، بأنهم إن سُئِلُوا عن الأمور العظام التي هي دلائل القدرة، لم يكن لهم إلا التسليمُ بأنها لله تعالى، ﴿وَيُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يصرفون.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِئِكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَيَسْأَلُوا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْيَالًا لِبَطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ وصف الله تعالى الدنيا في هذه الآية بأنها لهو ولعب، أي: ما كان منها لغير وجه الله تعالى؛ وأما ما كان لله تعالى فهو من الآخرة، وأما أمور الدنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قِوَامُ العيش، والقوة على الطاعات؛ فإنما هي لهو ولعب، وتأمل ذلك في الملابس، والمطاعم، والأقوال، والمكتسبات، وغير ذلك، وانظر أن حالة الغني والفقير من الأمور الضرورية واحدة: كالتنفس في الهواء، وسد الجوع، وستر العورة، وتوقّي الحر والبرد؛ هذه عظم أمر العيش، و﴿الحيوان﴾ و﴿الحياة﴾ بمعنى: والمعنى: لا موت فيها، قاله مجاهد وهو حسن^(١)، ويقال: أصله: حيّان؛ فأبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثلين. ثم وقَفَهُمُ تعالى على حالهم في البحر؛ عند الخوف العظيم؛ ونسيانهم عند ذلك للأصنام، وغيرها، على ما تقدم بيّأته في غير هذا الموضع: و﴿ليكفروا﴾ نصبٌ بـ «لام كي» ثم عدّد تعالى على كَفَرَةِ قريش نعمته عليهم في الحَرَم؛ و«المثوى»: موضع الإقامة، وألفاظ هذه الآية في غاية الاقتضاب والإيجاز؛ وجمع المعاني. ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه.

وقوله: ﴿فينا﴾ معناه: في مرضاتنا وبغية ثوابنا.

قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فَرَضِ القتال^(٢).

قال ع*^(٣): فهي / قَبْلَ الجهادِ العُزْفي وإنما هو جِهَادُ عامٍ في دين الله وطلب ٦٤ ب مرضاته.

(١) أخرجه الطبري (١٥٩/١٠) رقم (٢٧٨٥٨)، وذكره ابن عطية (٤/٣٢٥).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٣٢٦).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٣٢٦).

قال الحسن بن أبي الحسن^(١): الآية في العباد. وقال إبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما علموا^(٢). وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط؛ بل هو نضْرُ الدين والردُّ على المبطلين وقمعُ الظالمين؛ وأعظمُ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدةُ النفوس في طاعةِ الله عز وجل وهو الجهاد الأكبر؛ قاله الحسن^(٣) وغيره، وفيه حديث عن النبي ﷺ «رَجَعْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(٤) و«السُّبُل» هنا يحتملُ أن تكونَ طُرُقَ الجنةِ وَمَسَالِكَهَا، ويحتملُ أن تكونَ سبيلَ الأعمال المؤدِّيَةِ إلى الجنةِ، قال يوسف بن أسباط: هي إصلاح النية في الأعمال، وحب التزَيُّد والتفهُم، وهو أن يُجَازَى العبدُ على حَسَنَةِ بازديادِ حَسَنَةٍ وبعلمِ يَنْقَدِخُ مِنْ عِلْمٍ متقدم.

قال *ص*: ﴿والذين جاهدوا﴾: مبتدأ خبره القسم المحذوف، وجوابه وهو: ﴿لنهديهم﴾، انتهى.

وقال الثعلبي: قال سهل بن عبد الله: ﴿والذين جاهدوا﴾ في إقامة السنة ﴿لنهديهم﴾ سبل الجنة؛ انتهى. واللام في قوله ﴿لمع﴾ لام تأكيد.

(١) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٤).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٢٦/٤).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٩٣/١٣) من حديث جابر.

وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٧/٣): أخرجه البيهقي في «الزهد» من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الرُّومِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ اتَّفَاقًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفَ اللَّهُ وَعْدُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَدَّدٍ وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لِبَلَايٍ رَّيْبِهِمْ لَكَفَرُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿الْم * غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ قرأ الجمهور^(١): «غلبت» - بضم الغين، - وقالوا: معنى الآية: أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيش الروم بأذرعَاتٍ؛ وهي أدنى الأرض إلى مكة؛ قاله عكرمة^(٢). فسر بذلك كفار مكة فبشر الله تعالى المؤمنين بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد الحرام؛ فقال للكفار: أسركم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى: أنهم سيغلبون في بضع سنين، فقال له أبي بن خلف وأخوه أمية بن خلف: يا أبا بكر: تعال فلتنأخَب، أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر على خمس قلائص^(٣)، والأجل ثلاث سنين، وذلك قبل أن يحرم القمار، فأخبر النبي ﷺ بذلك؛ فقال له: إن البضع إلى التسع، ولكن زدهم في

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٢٧/٤)، و«البحر المحیط» (١٥٧/٧)، و«الدر المصون» (٣٧٠/٥).

(٢) ذكره البغوي (٤٧٧/٣)، وابن كثير (٤٢٣-٤٢٤)، والسيوطي (٢٩١/٥)، وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

(٣) القلائص: جمع قُلوص، وهي الفئّة من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساء. وقيل: هي الثيّبة، وقيل: هي ابنة المخاض. وقيل: هي كل أنثى من الإبل حين تركب.

ينظر: «لسان العرب» ٣٧٢٢.

الرهن؛ واستزدهم في الأجل، ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة، والأجل تسعة أعوام، فَعَلَبَتِ الرومُ فارسَ في أَثْنَاءِ الأَجَلِ يوم بدر. ورُوِيَ أن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَّةِ، يوم بيعة الرضوان؛ وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين، وذكر الناس سرور المؤمنين بغلبة الروم؛ من أجل أنهم أهل كتاب، وفرحت قريش بغلبة الفرس؛ من أجل أنهم أهل أوثان ونحوه من عبادة النار.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾. أي: له إنفاذ الأحكام من قبل ومن بعد هذه الغلبة التي بين هؤلاء؛ ثم أخبر تعالى أن يوم غلبة الروم للفرس يفرح المؤمنون بنصر الله، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يريد: كُفَّار قريش والعرب، أي: لا يعملون ١٦٥ أن الأمور من عند الله، وأن وعده لا يُخْلَفُ، وأن ما يورده / نبئهُ حق.

قال *ع^(١): وهذا الذي ذكرناه عُمْدَةٌ ما قيل. ثم وصف تعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله وصدق وعده بأنهم إنما: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾، قال صاحب «الكلم الفارقية»: الدنيا طَبَقٌ مسموم، لا يعرف ضرره إلا أرباب الفهوم. قوة الرغبة في الدنيا علامة ضعفها في الآخرة. بحسب انصراف الرغبة إلى الشيء، يجدُّ الراغب في طلبه، وتتوفر دواعيه على تحصيله. المطلوبات تُظهر وتبين أقدار طلبائها؛ فمن شَرَفَتْ هِمَّتُهُ شَرَفَتْ رَغْبَتُهُ وعزت طلبته. يا غافل، سكر حبك لدنياك؛ وطول مُتَابَعَتِكَ لَغَاوِي هواك - أنساك عظمة مولاك؛ وَتَنَآكَ عن ذكره وأهالك؛ وَصَرَفَ وجه رغبتك عن آخرتك إلى دنياك. إن كنت من أهل الاستبصار، فآلِقي ناظرَ رغبتك عن زخارف هذه الدار؛ فإنها مجمعُ الأكدار، ومنبعُ المضار؛ وسجنُ الأبرار؛ ومجلس سرور الأشرار. الدنيا كالحيّة تجمع في أنيابها؛ سُمُومٌ نَوَائِبُهَا؛ وتفرغه في صميم قلوب أبنائها، انتهى. قال عياض في «الشفاء»: قال أبو العباس المبرّد - رحمه الله - قَسَمَ كَسَرَى أَيَّامَهُ؛ فَقَالَ: يَصْلُحُ يَوْمُ الرِّيحِ للنوم، ويومُ الغَيْمِ للصيد، ويومُ المَطَرِ للشُّرْبِ واللّهو، ويومُ الشمسِ للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾، لكن نبينا محمداً ﷺ جزأها ثلاثة أجزاء: جزءاً لله تعالى، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه. ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس؛ فكان يستعين بالخاصة على العامة؛ وَيَقُولُ: أَبْلِغُوا حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاجِي؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ، أَمَنَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، انتهى. والمؤمن المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همه، يأخذ من هذه الآية بحظ. نُورُ اللَّهِ قُلُوبَنَا بهداه.

ت*: قد تقدم ما جاء في الفكرة في «آل عمران». قال ابن عطاء الله: الفكرة سراج القلب؛ فإذا ذهبت فلا إضاءة له. وقال: ما نفع القلب شيء مثل غزلة يدخل بها ميدان فكرة، انتهى وباقي الآية بين.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ...﴾ الآية، يريد أثاروا الأرض بالمباني، والحرث، والحروب وسائر الحوادث التي أحدثوها هي كلها إثارة للأرض؛ بعضها حقيقة وبعضها بتجوز، والضمير في ﴿عمروها﴾ الأول للماضين، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسَاءُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

قرأ نافع^(١) وغيره: «عَاقِبَةُ» - بالرفع - على أنها اسم ﴿كان﴾، والخبر يجوز أن يكون ﴿السَّوْءَ﴾، ويجوز أن يكون ﴿أن كذبوا﴾، وتكون ﴿السَّوْءَ﴾ على هذا مفعولاً بـ ﴿أساءوا﴾، وإذا كان ﴿السَّوْءَ﴾ خبراً فـ ﴿أن كذبوا﴾ مفعول من أجله.

وقرأ^(٢) حمزة والكسائي وغيرهما «عَاقِبَةُ» بالنصب على أنها خبرٌ مقدَّم، واسم كان أحد ما تقدم، و﴿السَّوْءَ﴾: مصدر كالرُّجْعَى، والشُّوْرَى، والفتُّيا. قال ابن عباس: ﴿أساءوا﴾ هنا بمعنى: كفروا^(٣)، و﴿السَّوْءَ﴾ هي النار. وعبارة البخاري: وقال مجاهد ﴿السَّوْءَ﴾ أي: الإساءة جزاء المسيئين^(٤)، انتهى. والإِبْلَاسُ: الكون في شرٍّ، مع اليأس من الخير.

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٦)، و«الحجة» (٤٤٢/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٣/٢)، و«معاني القراءات» (٢٦٣/٢)، و«شرح الطيبة» (١٣١/٥)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٦)، و«شرح شملة» (٥٣٩)، و«إتحاف» (٣٥٤/٢).

(٢) ينظر: مصادر القراءة السابقة.

(٣) أخرجه الطبري (١٧١/١٠) رقم (٢٧٩٠٧)، وذكره ابن عطية (٣٣١/٤)، والسيوطي (٢٩٣/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) ذكره السيوطي (٢٩٣/٥)، وعزاه للفرابي، وابن أبي شيبة عن مجاهد.

ص: وقال الزجاج^(١): المَبْلِسُ: الساكت المنقطع / في حجته؛ اليائس من أن يَهْتَدِيَ إليها، انتهى.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾.

وقوله جلت عظمته: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ معناه: في المنازل والأحكام والجزاء. قال قتادة^(٢): فُرْقَةٌ؛ واللّه - لا اجتماع بعدها. و﴿يحبرون﴾ معناه يُتَعَمَّرُونَ؛ قاله مجاهد^(٣). والحبرة والحبور: السرور، وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿يحبرون﴾ معناه: يسمعون الأغاني؛ وهذا نوع من الحبرة.

ت: وفي الصحيح من قول أبي موسى: لو شعرت بك يا رسول الله لحبّرته لك تخبيراً؛ أو كما قال.

وقال *ص*: ﴿يحبرون﴾: قال الزجاج^(٤): التَّخْيِيرُ: التحسين، والحبر العالم، إنما هو من هذا المعنى؛ لأنه مُتَخَلِّقٌ بأحسن أخلاق المؤمنين، والحبرُ المبدأ إنما سمي به؛ لأنه يُحَسِّنُ به، انتهى. قال الأصمعي: ولا يقال: روضة حتى يكون فيها ماء؛ يشرب منه. ومعنى: ﴿في العذاب محضرون﴾ أي: مجموعون له؛ لا يغيب أحد عنه.

﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّينَ وَالْوُكُوفِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَاسِكُ الْبَلِّ وَالنَّهَارِ وَأَنْتُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٧٩/٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٧٢/١٠) رقم (٢٧٩١١)، وذكره ابن عطية (٣٣١/٤)، وابن كثير (٤٢٨/٣)، والسيوطي (٢٩٣/٥)، وعزه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري (١٧٣/١٠) رقم (٢٧٩١٣)، وذكره البغوي (٤٧٩/٣)، وابن عطية (٣٣١/٤)، وابن كثير (٤٢٨/٣)، والسيوطي (٢٩٤/٥)، وعزه للفريابي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (١٨٠/٤).

﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَحْفَاظُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فسبحان الله...﴾ الآية خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات، كأنه يقول سبحانه: إذا كان أمر هذه الفرق هكذا من النعمة والعباد، فجدد أيها المؤمن في طريق الفوز برحمة الله. وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ» أَذْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ هُنَّ حِينَ يُمَسِّي أَذْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي لَيْلَتِهِ»^(١). رواه أبو داود، انتهى من «الصلاح».

قال ابن عباس وغيره: في هذه الآية تنبيه على أربع صلوات: المغرب، والصبح، والظهر، والعصر^(٢)، قالوا: والعشاء الأخيرة هي في آية أخرى: في زلف الليل، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في محاله.

وقوله تعالى: ﴿يخرج الحي من الميت...﴾ الآية، تقدم بيانها. ثم بعد هذه الأمثلة القاضية بتجوير بعث الأجساد عقلاً؛ ساق الخبر سبحانه بأن كذلك خروجنا من قبورنا، و﴿تنتشرون﴾ معناه: تتصرفون وتفرقون، والمودة والرحمة: هما على باهما المشهور من التواد والتراحم؛ هذا هو البليغ. وقيل: غير هذا.

(١) أخرجه أبو داود (٧٤٠/٢) كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح حديث (٥٠٧٦) والطبراني في «الكبير» (٢٣٩/١٢) رقم (١٢٩٩١) كلاهما من طريق محمد بن عبد الرحمن البيلماني عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً. وعبد الرحمن البيلماني وابنه لا يحتج به.

والحديث ضعفه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٥٧/٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٧٤/١٠) رقم (٢٧٩١٩ - ٢٧٩٢٠ - ٢٧٩٢١) بنحوه، وذكره البيهقي (٣/٤٧٩)، وابن عطية (٤/٣٣٢)، والسيوطي (٥/٢٩٥)، بنحوه وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

وقرأ الجمهور: «للعالمين» - بفتح اللام - يعني: جميع العالم. وقرأ حفص^(١) عن عاصم - بكسرهما - على معنى: أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم، وباقي الآية اطلبه في مَحَالِّه؛ تجده إن شاء الله مبيناً، وهذا شأننا الإحالة في هذا المختصر؛ على ما تقدم بيانه، فاعلمه راشداً.

ت: وهذه الآيات والعبر إنما يعظم موقعها في قلوب العارفين بالله سبحانه، ومن أكثر التفكر في عجائب صنع الله تعالى حصَلَتْ له المعرفة بالله سبحانه.

قال العزالي في «الإحياء»: ويحر المعرفة لا ساحل له؛ والإحاطة بكنهه جلال الله محال، وكلما كثرت المعرفة بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأسرار مملكته وقويت - كثر النعيم في الآخرة؛ وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن - كثر الزرع وحسن.

وقال أيضاً في كتاب «شرح عجائب القلب» من «الإحياء»: وتكون سعة ملك العبد في الجنة؛ بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله - سبحانه -، وصفاته، وأفعاله، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه: تثبت، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

وهذا كثير، والدعوة من الأرض: هي البعث ليوم القيامة، قال مكي: والأحسن عند أهل النظر أن الوقف في هذه الآية يكون في آخرها، ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لأن مذهب سيوييه والخليل في «إذا» الثانية: أنها جواب / الأولى، كأنه قال: ثم إذا دعاكم خرجتم؛ وهذا أسد الأقوال. ١٦٦

وقال *ص*: ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾، «إذا»: للمفاجأة، وهل هي ظرف مكان أو ظرف زمان؟ خلاف، و﴿مَنْ الْأَرْضُ﴾ علقه الحوفي بـ «دَعَا»، وأجاز *ع^(٢)*: أن يتعلق بـ «دعوة» انتهى.

وقرأ حمزة^(٣) والكسائي: «تَخْرُجُونَ» - بفتح التاء، والباقون بضمها -، والقنوت هنا

(١) ينظر: «الحجة» (٥/٤٤٤)، و«إعراب القراءات» (٢/١٩٤)، و«معاني القراءات» (٢/٢٦٤)، و«شرح الطيبة» (٥/١٣٢)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٧)، و«شرح شملة» (٥٤٠)، و«إتحاف» (٢/٣٥٦).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٣٣٤).

(٣) وحجتها قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: الآية ٧]، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وحجة الباقيين قوله سبحانه: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: الآية ٥٢].

بمعنى الخضوع، والانقياد في طاعته سبحانه. وإعادة الخلق: هو بعثهم من القبور.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: المعنى: وهو هين^(١) عليه، وفي مصحف ابن مسعود^(٢) «وهو هين عليه»، وفي بعض المصاحف «وكل هين عليه».

وقال ابن عباس أيضاً وغيره: المعنى: وهو أيسر^(٣) عليه، قال: ولكن هذا التفضيل إنما هو بحسب معتقد البشر؛ وما يعطيهم النظر في الشاهد من أن الإعادة في كثير من الأشياء أهون علينا من البداية. ولما جاء بلفظ فيه استعارة، وتشبيه^(٤) بما يعهده الناس من أنفسهم خُلصَ جانبُ العظمة؛ بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يلحقه تكيف ولا تماثل مع شيء. ثم بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يُشركها بالله - بضربه هذا المثل -؛ وهو قوله: ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية، ومعناه: أنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيدٌ تملكونهم؛ فإنكم لا تشركونهم في أموالكم، ومهمم أموركم، ولا في شيء على جهة استواء المنزلة. وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم، أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض؛ فإذا كان هذا فيكم، فكيف تقولون: إن من عبيده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته؛ هذا تفسير ابن عباس^(٥) والجماعة.

﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ﴿مُذِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مِنَ الدِّينِ فَارِقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٢).

ينظر: «حجة القراءات» (٥٥٧)، و«السبعة» (٥٠٦)، و«الحجة» (٤٤٥/٥)، و«إعراب القراءات»، (٢/ ١٩٥)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٧)، و«إتحاف» (٣٥٦/٢).

(١) أخرجه الطبري (١٧٩/١٠) رقم (٢٧٩٣٩)، وذكره البغوي (٤٨١/٣)، وابن عطية (٣٣٥/٤)، وابن كثير (٤٣١/٣)، والسيوطي (٢٩٨/٥)، وعزه لابن الأنباري عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٣٥/٤)، و«البحر المحيط» (١٦٥/٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٧٩/١٠) رقم (٢٧٩٤٠)، وذكره ابن عطية (٣٣٥/٤)، وابن كثير (٣٤٠/٣)، والسيوطي (٢٩٧/٥) بنحوه، وعزه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) في ج: التشبيه.

(٥) أخرجه الطبري (١٨١/١٠) رقم (٢٧٩٤٩) بنحوه، وذكره البغوي، (٤٨٢/٣)، وابن عطية (٣٣٥/ ٤) - (٣٣٦)، والسيوطي (٢٩٨/٥) بنحوه، وعزه لابن جرير عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ الآية، إقامة الوجه: هي تقويم المقصد والقوة على الجِدِّ في أعمال الدين. وخص الوجه؛ لأنه جامع حواس الإنسان؛ ولشرفه. و﴿فطرت الله﴾ نَصَبٌ على المصدر.

وقيل: بفعل مضمر تقديره: اتبع أو التزم فطرة الله، واختُلِفَ في الفطرة ها هنا، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخَلْقَةُ والهَيْئَةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعَدَّةٌ مُهَيَّئَةٌ لَأَن يَمَيِّزَ بها مصنوعات الله، ويستدلُّ بها على ربِّه، ويعرف شرائعه؛ ويؤمن به، فكانه تعالى، قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فُطِرَ البشر؛ لكن تعرضهم العوارض؛ ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ...» الحديث^(١)، ثم يقول:

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣/١١) كتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين، الحديث (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٠٤٨/٤): كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٢٦٥٨/٢٥)، وأبو داود (٨٦/٥): كتاب السنة: باب في ذراري المشركين، الحديث (٤٧١٤)، والترمذي (٣٠٣/٣): كتاب القدر: باب كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٣٢٢٣)، ومالك (٢٤١/١): كتاب الجنائز: باب جامع الجنائز، الحديث (٥٢)، وأحمد (٢٣٣/٢)، والحميدي (٤٧٣/٢)، رقم (١١١٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٧)، وأبو يعلى (١٩٧/١١)، رقم (٦٣٠٦) وابن حبان (١٢٨، ١٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٨/٩)، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج الإبل جمعاء، هل تحس فيها من جدعاء، قالوا: يا رسول الله: رأيت الذي يموت وهو صغير، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين. ولفظ مسلم مصدراً بلفظ: كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه، يلکز الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها. وفي الباب عن جابر والأسود بن سريع وابن عباس وسمرة بن جندب. حديث جابر:

أخرجه أحمد (٣٥٣/٣) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٢١/٧) وقال: رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.

- حديث الأسود بن سريع:

أخرجه أحمد (٤٣٥/٣)، وابن حبان (١٦٥٨-موارد)، وأبو يعلى (٢٤٠/٢) رقم (٩٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٨٣/١) رقم (٨٢٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٦٣/٢) من حديث الأسود بن سريع بمثل حديث جابر.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١٩/٥) وقال: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»... وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

﴿فَظَرَّتْ اللَّهَ...﴾ الآية، إلى ﴿القيم﴾ فذكرُ الأبوين إنما هما مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة. وقال البخاريُّ: فِطْرَةُ اللَّهِ: هِيَ الْإِسْلَامُ^(١)، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد بها هذه الفطرة، ويحتمل أن يريد بها الإنحاء على الكفرة؛ اعترض به أثناء الكلام؛ كأنه يقول: أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإن هؤلاء الكفرة قد خلَقَ الله لهم الكُفْرَ، و﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾، أي: أنهم لا يفلحون، وقيل غيرُ هذا، وقال البخاري: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: للدين الله، وخلق الأولين: دينهم. انتهى. و﴿الْقِيَمَ﴾ بناءً مبالغةً من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة، و﴿منيين﴾ يحتمل أن يكون حالاً من قوله ﴿فطر الناس﴾ لا سيما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين، ويحتمل أن يكون حالاً من قوله ﴿أقم وجهك﴾ وجمعه: لأن الخطاب بإقامة الوجه هو للنبي ﷺ ولأمته نظيرها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ جَمْعُهُ﴾ [الطلاق: ١]. والمشركون المشار إليهم في هذه الآية: هم اليهود والنصارى؛ قاله قتادة^(٢)، وقيل غير هذا.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفٍ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنَةٌ أَوْ بَدَتْ لَهُمْ يَدُهُمْ وَإِذَا بَقِطُوا ﴿٣٦﴾ أُولَئِكَ يَقُولُ الْإِنْسَانُ الْبَاطِلُ الْكَافِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَأَنْ السَّبِيلِ ذَلِكَ حَبْرٌ لِلنَّيِّبِ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَا يَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْسِكُمْ ثُمَّ

= - حدیث ابن عباس:

أخرجه البزار في «مسنده» (٢١٦٧- كشف). وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢١) بلفظ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه».

وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه غير واحد.

- حدیث سمرة بن جندب:

أخرجه البزار (٢١٦٦- كشف) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/٧)، وقال: رواه البزار وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف. ونقل عن يحيى القطان أنه وثقه.

(١) ينظر: «البخاري» (٣٧٢/٨) كتاب التفسير: باب: ﴿لا تبدل خلق الله﴾.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٥/١٠) رقم (٢٧٩٧٣)، وذكره ابن عطية (٣٣٧/٤)، والسيوطي (٣٠٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة.

يُخَيِّبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ
 الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَرُوا وَجْهَكُمْ
 لِلَّذِينَ الْقَبِيرِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ
 عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ ءَاتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ
 أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾ الآية، ابتداءً إنحاء
 على عَبْدَةِ الْأَصْنَامِ.

قال *ع^(١): * ويلحق من هذه الألفاظ شيءٌ للمؤمنين؛ إذا جاءهم فَرَجٌ بعد شدة؛
 فعلقوا ذلك بمخلوقين، أو بِحُذْقِ آرائهم، وغير ذلك؛ لأن فيه قلة شكر لله تعالى؛ ويسمى
 تَشْرِيكًا مجازًا. والسلطان هنا البرهان من رسولٍ أو كتاب، ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ معناه فهو يُظْهِرُ حُجَّتَهُمْ، ويغلبُ مذهبَهُمْ، وينطق
 بشركهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا...﴾ الآية، وكل أحد يأخذ
 من هذه الخُلُقِ بقسط، فالمقل والمكثر، إلا من ربطت الشريعة جأشه، ونَهَجَتِ السَّنةُ
 سبيله، وتَأَدَّبَ بِآدَابِ اللَّهِ، فصبر عند الضراء؛ وشكر عند السراء، ولم يَبْطُرْ عند النِّعْمَةِ،
 ولا قنط عند الابتلاء، والقَنْطُ: اليأس الصريح. ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره؛ لم
 يَيَاسْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ - وهو أنه سبحانه يَخُصُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِسُطِّ الرِّزْقِ، ويقدر على
 مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ. فينبغي لكل عَبْدٍ أَنْ يَكُونَ رَاجِيًا مَا عِنْدَ رَبِّهِ. ثم أمر تعالى نبيه -
 عليه السلام - أَمْرًا تَدْخُلُ فِيهِ أُمَّتُهُ - على جهة النَّدْبِ - بِإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى حَقَّهُ مِنْ صِلَةِ
 الْمَالِ، وحسنِ المعاشرة ولين القول، قال الحسن^(٢): حقه المواساة في اليسر، وقول
 مَيْسُورٍ فِي الْعُسْرِ.

قال *ع^(٣): * ومعظم ما قُصِدَ أَمْرُ الْمُعَوْنَةِ بِالْمَالِ.

(١) ينظر: «المحرر» (٤/٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/١٨٧) رقم (٢٧٩٧٦)، وذكره ابن عطية (٤/٣٣٨).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٣٣٨).

وقرأ الجمهور: ﴿وما آتيتكم﴾ بمعنى: أعطيتكم، وقرأ ابن كثير^(١) بغير مد، بمعنى: وما فعلتم، وأجمعوا على المد في قوله ﴿وما آتيتكم من زكاة﴾ والربا: الزيادة.

قال ابن عباس^(٢) وغيره: هذه الآية نزلت في هبات الثواب.

قال ع^(٣): ﴿وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه؛ كالسلم وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه؛ فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى، وما أعطى الإنسان تنميةً لِمَالِهِ وتطهيراً؛ يريد بذلك وجه الله تعالى؛ فذلك هو الذي يُجَازَى به أضعافاً مضاعفةً على ما شاء الله له. وقرأ جمهور السبعة «ليربوا» بإسناد الفعل إلى الربا، وقرأ^(٤) نافع وحده «ليُزْبُوا» وباقي الآية بين. ثم ذكر تعالى - على جهة العبرة - ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي، قال مجاهد: البرُّ البلاد البعيدة من البحر، والبحرُ السواحل والمدن التي على ضِفَّة البحر^(٥)، وظهور الفساد فيهما: هو بارتفاع البركات، ووقوع الرزايا، وحدوث الفتن وتغلب العدو، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، قال ابن عباس: الفساد في البحر: انقطاع صَيْدِهِ بِذُنُوبِ بني آدم^(٦)، وقلما توجد أمة فاضلةً مُطِيعَةً مُسْتَقِيمَةً الأعمال؛ إلا يدفع الله عنها هذه الأمور، والأمر بالعكس في المعاصي، وبطر النعمة؛ ليزيقهم عاقبة بعض ما عملوا ويعفوا عن كثير. و﴿لعلهم يرجعون﴾، أي: يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة ربهم؛ ثم حذر - تعالى - من يوم القيامة تحذيراً يعمُّ العالم وإياهم المقصد بقوله ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ الآية و﴿لا مرد له﴾: معناه: لَيْسَ فِيهِ رُجُوعٌ لِعَمَلٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ / لَا يَرُدُّهُ رَأْدٌ. وهذا ظاهر بحسب اللفظ ١٦٧ و﴿يصدعون﴾: معناه: يَتَفَرَّقُونَ بعد جمعهم إلى الجنة وإلى النار. ثم ذكر تعالى من آياته أشياء وهي ما في الرِّيح من المنافع وذلك أنها بشرى بالمطر وتُلَقِّحُ بها الشجر، وغير ذلك،

(١) ينظر: «السبعة» (٥٠٧)، و«الحجة» (٤٤٦/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٦/٢)، و«معاني القراءات»

(٢/٢٦٤)، و«العنوان» (١٥١)، و«حجة القراءات» (٥٥٨)، و«إتحاف» (٣٥٧/٢).

(٢) ذكره ابن عطية (٣٣٩/٤).

(٣) ينظر: «المحرر» (٣٣٩/٤).

(٤) فالتاء هنا للمخاطبين، والواو واو الجمع. وحجته أنها كتبت في المصاحف بألف بعد واو. وحجة الباقي قوله بعده: ﴿فلا يربو عند الله﴾.

ينظر: «حجة القراءات» (٥٥٩)، و«السبعة» (٥٠٧)، و«الحجة» (٤٤٧/٥)، و«إعراب القراءات» (٢/١٩٦)، و«معاني القراءات» (٢/٢٦٥)، و«شرح الطيبة» (١٣٢/٥)، و«العنوان» (١٥١)، و«شرح شعلة»

(٥٤٠)، و«إتحاف» (٣٥٧/٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩٠ - ١٩١) رقم (٢٧٩٩٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٤٠/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٣٤٠/٤).

وتجري بها السفن في البحر. ثم آنس سبحانه نبيه عليه السلام بقوله: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات...﴾ الآية، ثم وعد تعالى محمداً عليه السلام وأمنه النصر بقوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ وحقاً خبر كان قدّمه اهتماماً.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدَّحَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ إِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَئِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَنَنْظُرُ إِلَيْكَ يَا مَنْ رَحِمْتَ اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يرسل الرياح فتثير سحاباً...﴾ الآية. الإثارة: تحريكها من سكونها، وتسييرها، وبسطه في السماء هو نشره في الآفاق، والكسف: القطع.

وقوله: ﴿من قبله﴾: تأكيد أفاد الإعلام بسرعة قلب قلوب البشر من الإبلas إلى الاستبشار، والإبلas: الكون في حال سوء مع اليأس من زوالها.

وقوله تعالى: ﴿كيف يحيي الضمير في يحيي﴾ يَحْيِي أن يكون للآثر ويَحْتَمَلُ أن يعود على الله تعالى وهو أظهر. ثم أخبر تعالى عن حال قلب بني إدم، في أنه بعد الاستبشار بالمطر، إن بعث الله ريحاً فاصفر بها النبات؛ ظلوا يكفرون قلقاً منهم وقلة تسليم لله تعالى، والضمير في ﴿راوه﴾ للنبات واللام في ﴿لئن﴾ مؤذنة بمجيء القسم وفي ﴿ظللوا﴾ لأم القسم.

وقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى...﴾ الآية: استعارة للكفار وقد تقدم بيان ذلك في «سورة النمل».

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَذِّرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبَحَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَحْفَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ قال كثير من اللغويين: ضَمُّ الضَّادِ فِي الْبَدَنِ، وَفَتْحُهَا فِي الْعَقْلِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ إِنَّمَا يَرَادُ بِهَا حَالُ الْجِسْمِ، وَالضُّعْفُ الْأَوَّلُ هُوَ: كَوْنُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَاءٍ مِهِينٍ، وَالْقُوَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ: الشَّيْبَةُ وَشِدَّةُ الْأَسْرِ، وَالضُّعْفُ الثَّانِي هُوَ الْهَرَمُ وَالشَّيْخُوخَةُ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ^(١) وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَنْتَفُوا الشَّيْبَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشَيْبُ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢). وَفِي رَوَايَةٍ «إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»^(٣) انْتَهَى.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا﴾ أَيِ: تَحْتَ التَّرَابِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وَقِيلَ: الْمَعْنَى: مَا لَبِثُوا فِي الدُّنْيَا كَانَهُمْ اسْتَقْلَوْهَا. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أَيِ: يُضْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ.

قَالَ *ص*: ﴿مَا لَبِثُوا﴾: جَوَابُ الْقِسْمِ عَلَى الْمَعْنَى، وَلَوْ حُكِيَ قَوْلُهُمْ لَكَانَ مَا لَبِثْنَا؛ انْتَهَى. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكَفَرَةَ لَا يَنْفَعُهُمْ يَوْمُئِذٍ اعْتِدَارٌ وَلَا يُعْطَوْنَ عُتْبَى، وَهِيَ الرِّضَا وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٩٨/١٠) رَقْمَ (٢٨٠٢٩)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٣٤٣/٤)، وَالسَّيُوطِيُّ (٣٠٥/٥) بِنَحْوِهِ لِابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٤/٢) كِتَابَ التَّرَجُّلِ: بَابُ فِي نَفْسِ الشَّيْبِ، حَدِيثُ (٤٢٠٢).

(٣) يَنْظُرُ: الْحَدِيثُ السَّابِقُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ نَقْمَانَ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

غَيْرُ آيَتَيْنِ قَالَ قَتَادَةُ: أولهما: ﴿ولو أن ما في الأرض﴾ إلى آخر الآيتين، وقال ابن عباس ثلاث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَمْ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
الْصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَمْ * تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين﴾: خَصَّهُ للمحسنين من حيث لهم نفعه، وإلا فهو هدى في نفسه.

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ / رَوَى: أن الآية نَزَلَتْ فِي شَأْنِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ؛ اشْتَرَى جَارِيَةً مَغْنِيَةً؛ لِتَغْنِيَ لَهُ بِهَجَاءِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقيل: إنه ابن خطل.

وقيل: نَزَلَتْ فِي النُّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا، وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي لَهْوِ حَدِيثٍ مُضَافٍ إِلَى كُفْرٍ؛ فَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ أَلْفَاظُ الْآيَةِ، وَ﴿لهو الحديث﴾ كُلُّ مَا يُلْهِي مِنْ غِنَاءٍ وَخِنَاءٍ. وَنَحْوِهِ، وَالْآيَةُ بَاقِيَةُ الْمَغْنَى فِي الْأَمَةِ غَايِرُ الدَّهْرِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا لِيَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا، وَلَا عَلَيْهِمْ هَذَا الْوَعِيدُ؛ بَلْ لِيُعْطِلُوا عِبَادَةَ، وَيَقْطَعُوا زَمَنًا بِمَكْرُوهِهِ.

قال ابن العربي^(١) في «أحكامه»: وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ:

(١) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٤٩٣).

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَنْزَهُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ عَنِ اللَّهِ وَمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ؛ أَدْخَلُوهُمْ فِي أَرْضِ الْمَسْكَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: أَسْمَعُوهُمْ ثَنَائِي وَحَمْدِي؛ وَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. انتهى.

﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْنُئِ النَّعِيمَ ۝٨ خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَنَ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١١﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ الوقُرُّ في الأذن: الثَّقُلُ الذي يَغْسُرُ معه إدراك المسموعات، و«الرواسي»: هي الجبال و«الميد»: التحرك يَمْتَدُّ وَيَسْرُدُّ، وما قرب من ذلك، والزوج: النوع والصنف. و«كريم»: مدحه بكرم جواهره، وحسن منظره، وغير ذلك. ثم وقف تعالى الكفرة على جهة التوبيخ فقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَمِيدٌ ۝١٢ وَلَوْ قَالَ لَقَمَنْ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْتَئِ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ اختلف في لقمان؛ هل هو نبي أو رجل صالح فقط، وقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا؛ وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا كَثِيرَ التَّفَكُّيرِ، حَسَنَ الْيَقِينِ، أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحَبَّهُ، فَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ وَخَيْرُهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ خَلِيفَةً؛ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ، فَقَالَ: رَبِّ إِنْ خَيْرُ نَبِيٍّ، قَبِلْتُ الْعَافِيَةَ، وَتَرَكْتُ الْبَلَاءَ، وَإِنْ عَزَمْتَ عَلَيَّ، فَسَمْعًا وَطَاعَةً، فَإِنَّكَ سَتَغْصِمَنِي، وَكَأَنَّ قَاضِيًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ تُوبِيًّا أَسْوَدَ، مَشَقَّقَ الرَّجُلَيْنِ، ذَا^(١) مَشَافِرٍ»، قاله سعيد بن المسيب^(٢) وابن عباس^(٣) وجماعة: وقال له رَجُلٌ -

(١) المَشْفَرُ والمَشْفَرُ للبعير: كالشفة للإنسان، وقد يقال للإنسان مشافر على الاستعارة. قال أبو عبيد: إنما قيل: مشافر الحبش تشبيهاً بمشافر الإبل.

ينظر: «لسان العرب» ٢٢٨٧، ٢٢٨٨.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٨/١٠) رقم (٢٨٠٨٦)، وذكره ابن عطية (٣٤٧/٤)، وابن كثير (٤٤٣/٣)، والسيوطي (٣١٠/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب.

(٣) أخرجه الطبري (٢٠٨/١٠) رقم (٢٨٠٨٥) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٤٧/٤)، وابن كثير (٤٤٣/٣)، والسيوطي (٣١١/٥) بنحوه، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن المنذر عن ابن عباس.

كان قد رعى معه الغنم -: مَا بَلَغَ بِكَ يَا لَقْمَانُ مَا أَرَى؟ قَالَ: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وتركبي ما لا يعنيني، وَحَكْمُ لُقْمَانَ كَثِيرَةٌ مَأْثُورَةٌ.

قال ابن العربي في «أحكامه»^(١): وَرَوَى عُلَمَاؤُنَا عَنْ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَطَاوَلُوا عَلَيْهِمْ مَا يُوْعَدُونَ، وَهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ سِرَاعاً يَذْهَبُونَ، وَإِنَّكَ قَدْ اسْتَدْبَرْتَ الدُّنْيَا مَذْكَبَةً، وَاسْتَقْبَلْتَ الْآخِرَةَ مَعَ أَنْفَاسِكَ، وَإِنْ دَاراً سَتْسِيرَ إِلَيْهَا؛ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ دَارٍ تَخْرُجُ مِنْهَا، انتهى.

وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ يجوز أن تكون «أَنْ» في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي: بِأَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ ويجوز أن تكون مفسرة، أي: كانت حكمته دائرة على الشكر لله، وجميع العبادات داخلة في الشكر لله عز وجل، و﴿حميد﴾ بمعنى: محمود، أي: هو مستحق ذلك بذاته وصفاته.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْهِ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٤) وَإِنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَعْرِفِي إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَبْنِيْ أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصْعِقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١).

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ هاتان الآيتان اعتراض أثناء وصية لقمان و﴿وهنا على وهن﴾ معناه ضعفاً على ضعف، كأنه قال: حملته أمه، والضعف يتزايد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمدّه.

وقال *ص*: ﴿وهنا على وهن﴾ حال من أمه أي شدة بعد شدة، أو جهداً على جهد، وقيل ﴿وهنا﴾ نطفة، ثم علقه، فيكون حالاً من الضمير المنصوب في ﴿جملته﴾. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ﴾.

قال سفيان بن عُيَيْنَةَ: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في إدبار الصلوات فقد شكرهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي...﴾ الآية رُوي أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاص وأمه حَمْنَةُ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ، على ما تقدم بيانه، وجملته هذا الباب؛ أن طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات وتستحسن في ترك الطاعات الندب.

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم. وهذه سبيل الأنبياء والصالحين.

وقوله تعالى - حاكياً عن لقمان ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ...﴾ الآية: ذكر كثير من المفسرين: إنه أراد مثقال حبة من أعمال المعاصي والطاعات، وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف منضاف إلى تبيين قدرة الله تعالى.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يَقْتَضِي حُضّاً على تغيير المنكر وإن نال ضرراً، فهو إشعار بأن المغير يؤدي أحياناً.

وقوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يحتمل أن يُريدَ مما عزمه الله وأمر به، قاله ابن جريج^(١): ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة؛ قاله جماعة. والصَّغَرُ: الميل، فمعنى الآية: ولا تُمِلْ خَدَّكَ للناس كِبَرًا عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم؛ قاله ابن عباس^(٢) وجماعة. وعبرة البخاري: ولا تُصَاغِرْ، أي: لا تعرض، والتَّصَاغُرُ: الإغراض بالوجه؛ انتهى. والمَرَحُ: النَّشَاطُ، والمشي مَرَحًا: هو في غير شغل، ولغير حاجة، وأهل هذه الخُلُقِ ملازمون للفخر والخِيَلَاءِ، فالمرح مختال في مشيه، وقد ورد من صحيح الأحاديث في جميع ذلك وعيد شديد يطول بنا سرده.

(١) أخرجه الطبري (٢١٤/١٠) رقم (٢٨١٠٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥١/٤)، والسيوطي (٣٢٠/٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري (٢١٤-٢١٥) رقم (٢٨١٠٩)، (٢٨١١٠) بنحوه، وذكره البغوي (٤٩٢/٣)، وابن عطية (٣٥١/٤)، والسيوطي (٣٢٠/٥) بنحوه، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

قال عيَّاضٌ: كان أبو إسحاق الجبنياني قلَّ ما يتركُ ثلاثَ كَلِمَاتٍ؛ وفيهن الخيرُ كُلُّهُ: اتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ، اتَّضِعْ وَلَا تَزْتَفِعْ، مَنْ وَرَعَ لَا يَتَّسِعْ، انتهى. وغَضُّ الصوتِ أَوْقَرُ للمتكلم وأبسطُ لنفسِ السامعِ وفهيمه، ثم عَارَضَ مِمثلاً بصوتِ الحَمِيرِ على جهة التشبيه، أي: تلك هي التي بَعُدَتْ عن الغَضِّ فَبَهِتَ أَنْكَرُ الأصواتِ، فكذلك ما بَعُدَ عن الغَضِّ من أصواتِ البشر؛ فهو في طريقِ تلك، وفي الحديث: «إِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الحَمِيرِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا».

وقال سفيانُ الثوري: صياح كل شيءٍ تسبيحٌ إلا صياحَ الحمير.

ت: ولفظ الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَّاحَ الدَّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا»^(١)، رواه الجماعة إلا ابن ماجه. وفي لفظ النسائي: «إِذَا سَمِعْتُمْ الدَّيَكَةَ تَصِيحُ بِاللَّيْلِ»، وعن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نَبَاحَ الْكَلَابِ وَنَهْيَ الحَمِيرِ مِنَ اللَّيْلِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ فَإِنَّهَا تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَقْلَوْا الْخُرُوجَ إِذَا جَدَّتْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْثُ فِي لَيْلِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ»^(٢). رواه أبو داود والنسائي والحاكم في «المستدرک». واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم؛ انتهى من «السلاح».

/ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

٦٨ ب

قال المُحَاسِبِيُّ - رحمه الله - الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم العقبى. والظاهر عندي التعميم. ثم وقف تعالى الكفرة على اتِّبَاعِهِمْ دين آبائهم أَيْكونُ وهم بحالٍ من يصير

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣/٦) كتاب بدء الخلق: باب ويث فيها من كل دابة، حديث (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٠٩٢/٤) كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، حديث (٢٧٢٩/٨٢)، وأبو داود (٧٤٨/٢) كتاب الأدب: باب ما جاء في الديك والبهائم، حديث (٥١٠٢)، والترمذي (٥٠٨/٥) كتاب الدعوات: باب ما يقول إذا سمع نهيق الحمار، حديث (٣٤٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٤٣، ٩٤٤)، وأحمد (٣٢١/٢)، وابن أبي شيبة (٤٢٠/١٠)، وابن حبان (٢٨٥-٢٨٦) رقم (٢٨٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٠٥)، (١٢٦/٣) بتحقيقنا كلهم من طريق الأعرج عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٤٨-٧٤٩) كتاب الأدب: باب نهيق الحمار ونباح الكلاب، حديث (٥١٠٣)، وأحمد (٣٠٦/٣)، والحاكم (٢٨٤/٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٣٤)، وأبو يعلى (٤/١٥٥) رقم (٢٢٢١)، وابن حبان (١٩٩٦-١٩٩٧)، وابن خزيمة (٢٥٥٩) من حديث جابر.

إلى عذاب السعير، فكأن القاتل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير. فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف؛ كما كان اتساق الكلام فيه؛ فتأمل.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ لَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ معناه يُخْلِصُ وَيُوجِّهُ ويستسلم به، والوجه هنا: الجارحة، استعير للمقصد؛ لأن القاصد إلى شيء فهو مستقبله بوجهه، فاستعير ذلك للمعاني، والمحسن: الذي جمع القول والعمل، وهو الذي شرحه ﷺ حين سأله جبريل - عليه السلام - عن الإحسان. والمتاع القليل هنا هو العمر في الدنيا .. وقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ظهور الحجة.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَرِتُ إِلَىٰ لَرِيِّكُمْ ۚ مِنْ مَّائِنَتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَافُتَةٌ لَّيَمْنُنَّ ۚ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصٌ وَمَا يَحْمَدُ بِنَانِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾ الآية. روي عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن اليهود قالت: يا محمد؛ كيف عَيَّنَّا بهذا القول ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراة تبييناً لكل شيء؟ فنزلت الآية^(١)، وقيل غير هذا.

قال ع^(٢): * وهذه الآية بخرُ نظر وفكرة، نَوَّرَ اللَّهُ قُلُوبَنَا بهداه.

(١) ذكره ابن عطية (٤/ ٣٥٣-٣٥٤)، وابن كثير (٣/ ٤٥١)، والسيوطي (٥/ ٣٢٢)، وعزاه لابن إسحاق،

وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المعمر» (٤/ ٣٥٤).

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً﴾ أي: لأنه كله بـ «كن فيكون»، قاله مجاهد^(١).

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يريد: القيامة.

وقوله: ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات، فالباء: للإلحاق، ويحتمل أن يريد بالريح وتسخير الله البحر ونحو هذا، فالباء بـ السبب. وذكر تعالى من صفات المؤمن الصبَّارَ والشُّكُورَ؛ لأنهما عَظُمَ أخلاقه، الصبر على الطاعات وعلى النوائب، وعن الشهوات، والشكر على الضراء والسراء. وقال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصفه الآخر، واليقين الإيمان^(٢) كله. و«عَشي» غطى أو قارب، والظُّلُّ: السحاب.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾.

قال الحسن: منهم مؤمن^(٣) يعرف حق الله في هذه النعم، والخِثَارُ القبيح^(٤) العذر، وذلك أن مَنَ الله على العباد كأنها عهود ومِنٌّ يلزم عنها أداء شكرها، والعبادة لمسيديها، فمن كفر بذلك وجحد به، فكأنه خسر وخان، قال الحسن: الخِثَارُ هو الغدار^(٥). و﴿كفور﴾: بناء مبالغة.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٦).

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ...﴾ الآية يَجْزِي مَعْنَاهُ يَقْضِي، والمعنى: لا ينفعه بشيء، وقرأ الجمهور: «الْعُرُورُ»^(٦): - بفتح

(١) أخرجه الطبري (٢٢٢/١٠) رقم (٢٨١٥١)، وذكره السيوطي (٣٢٤/٥)، وعزه لابن أبي شيبة، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٣/١٠) رقم (٢٨١٥٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٥٥/٤).

(٣) في ج: من.

(٤) ذكره ابن عطية (٣٥٥/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٢٢٤-٢٢٥) رقم (٢٨١٦٢)، وذكره ابن عطية (٣٥٦/٤).

(٦) ينظر: «البحر المحيط» (١٨٩/٧)، و«الدر المصون» (٣٩٢/٥).

الْعَيْنِ - وهو الشيطان؛ قاله مجاهد^(١) وغيره، واعلم أيها الأخ أن مَنْ فهِمَ كَلَامَ رَبِّهِ وَزَوَّقَ التَّوْفِيقَ لَمْ يَتَخَذْ بِغُرُورِ الدُّنْيَا وَزَخْرَفِهَا الْفَانِي؛ بَلْ يَصْرِفُ هِمَّتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى التَّزَوُّدِ لِآخِرَتِهِ؛ سَاعِيًا فِي مَرَضَاةِ رَبِّهِ، وَأَنْ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ يَطْلُبُهُ صَدَقَ الطَّلَبُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ. وإنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ وَأَنْ تَسْلُبَ كِرَائِمُهُ، فَالْعَاقِلُ؛ مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْنَى، قَدْ أَشْرَقَ نَوْرُهُ وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ، فَصَدَفَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ مُغْضِيًا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مَوْلِيًا، فَلَمْ يَتَخَذْهَا وَطْنًا، وَلَا جَعَلَهَا / ١٦٩ سَكْنًا؛ بَلْ أَنَهَضَ الْهَمَّةَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِينًا بِهِ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَتْ مَطِيئَةُ عَزَمِهِ لَا يَقِرُّ قَرَارُهَا. دَائِمًا تَسْيَارُهَا، إِلَى أَنْ أَخَذَتْ بِحَضْرَةِ الْقُدْسِ، وَبَسَاطِ الْأَنْسِ، أَنْتَهَى.

وَرَوَيْنَا فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لِمُؤْمِنٍ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصَّلَاةِ، أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَأَطَاعَةً فِي السِّرِّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ؛ لَا يُبَارِئُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا؛ فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ تَقَفَّضَ بِيَدِهِ فَقَالَ: عَجَلْتُ مَنِيئَتَهُ، قُلْتُ نَوَائِحُهُ؛ قُلْ تَرَاتُّهُ»، قَالَ أَبُو عِيْسَى: وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءً^(٢) مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا، يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ قَالَ: ثَلَاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَإِذَا جُعْتُ، تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»^(٣). قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، أَنْتَهَى. وَالْغُرُورُ: التَّطْمِيعُ بِمَا لَا يَحْصُلُ. وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنْ تَعْمَلَ الْمَعْصِيَةَ وَتَتَمَتَّى بِالْمَغْفِرَةِ^(٤)، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: عَنْهُ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ مِنَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ وَتِلَا الْآيَةِ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيَنْزِلُ الْغَيْثُ...» إِلَى آخِرِهَا»^(٥). قَالَ أَبُو حَيَّانَ: «بَأَيَّ أَرْضٍ»: - الْبَاءُ ظَرْفِيَّةٌ وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ - ب «تَذَرِي» . أَنْتَهَى.

(١) أخرجه الطبري (٢٢٥/١٠) رقم (٢٨١٦٩)، وذكره ابن عطية (٣٥٦/٤)، وابن كثير (٤٥٣/٣).

(٢) هو مَسِيلٌ وادِيها. ينظر: «النهاية» (١٣٤/١).

(٣) أخرجه الترمذي (٥٧٥/٤) كتاب الزهد: باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه الطبري (٢٢٦/١٠) رقم (٢٨١٧٢)، وذكره البغوي (٤٩٦/٣)، وابن عطية (٣٥٦/٤)،

والسيوطي (٣٢٥/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن جبيرة.

(٥) تقدم تخريجه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ السَّجْدَةِ»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ غَيْرُ ثَلَاثِ آيَاتٍ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ

وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ إلى تمام ثلاث آيات.

﴿الْعَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُ الْكِتَابَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَلَئِنَّا مُنذِرُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ نَزَّلَ آيَاتِهِ عَلَى الْعَرَبِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا سَفِيحٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قال جابر: ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ: ﴿الْعَمَّ﴾ السجدة، و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾. و﴿تنزيل﴾ يصح أن يرتفع بالابتداء، والخبر: ﴿لا ريب﴾، ويصح أن يرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك تنزيل، والريب: الشك، وكذلك هو في كل القرآن إلا قوله ﴿ريب المنون﴾ [الطور: ٣٠].

وقوله: ﴿أم يقولون﴾ إضراب؛ كأنه قال: بل يقولون: ثم رد على مقاتلهم وأخبر أنه الحق من عند الله.

وقوله سبحانه: ﴿ما آتاهم﴾ أي: لم يباشرهم ولا رآه هم ولا آباؤهم العرب.

وقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] يعم من بوشر من النذر ومن سمع به، فالعرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه، لأنها علمت بإبراهيم وبنيه، وبدعوتهم، ولم يأتهم نذير مباشر لهم سوى محمد ﷺ.

وقال ابن عباس ومقاتل^(١): المعنى: لم يأتهم نذير في الفترة بين عيسى ونبينا محمد ﷺ.

(١) ذكره البغوي (٣/٤٩٧)، وابن عطية (٤/٣٥٧).

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِیِّهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض...﴾ الآية، الأمر اسم جنس لجميع الأمور، والمعنى يُنْقِذُ سُبْحَانَهُ قَضَاءَهُ بِجَمِيعِ مَا يَشَاءُ، ثم يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا؛ مقداره أن لو سِيرَ فِيهِ السَّيْرَ المعروف من البشر ألف سنة، أي: نزولاً وعروجاً لأن ما بين السماء والأرض خمس مائة سنة، هذا قول ابن عباس^(١) ومجاهد^(٢) وغيرهما.

وقيل: المعنى: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض في مدة الدنيا، ثم يعرج إليه يوم القيامة، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من عَدْنَا، وهو على الكفار قَدْرُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. وقيل: غَيْرَ هَذَا، وقرأ الجمهور / : «الذي أحسن كل شيء خلقه»: - بفتح اللام - ٦٩ ب على أنه فعلٌ ماضٍ، ومعنى: «أحسن»: أَتَقَرَّ وَأَحْكَمَ فهو حَسَنٌ من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «خَلَقَهُ»^(٣) - بسكون اللام - . وذهب بعض الناس على هذه القراءة إلى أن: «أحسن» هنا معناه: أَلْهَمَ، وأن هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: الآية ٥٠]. أي: أَلْهَمَ. والإنسان هنا آدم - عليه السلام -، وَالْمَهِينُ: الضعيف، ﴿ونفخ﴾: عبارة عن إفاضة الروح في جسد آدم عليه السلام والضمير في ﴿روحه﴾ لله تعالى، وهي إضافة مُلْكٍ إِلَى مَالِكٍ وَخَلْقٍ إِلَى خَالِقٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْمَ جَنْسٍ وَ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ.

﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝١٠﴾ ﴿يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ لَمَنِعُوا عَنْهُمْ آلَهُمْ وَأُولَآئِهِمْ هُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٢﴾

- (١) أخرجه الطبري (٢٣١/١٠) رقم (٢٨١٩١)، وذكره ابن عطية (٣٥٨/٤)، والسيوطي (٣٣١/٥)، بنحوه وعزه لابن جرير عن ابن عباس.
- (٢) أخرجه الطبري (٣٣٠/١٠) رقم (٢٨١٨٧)، وذكره البغوي (٤٩٧-٤٩٨/٣) بنحوه، وابن عطية (٤/٣٥٨)، وابن كثير (٤٥٧/٣)، والسيوطي (٣٣١/٥)، وعزه لابن جرير عن مجاهد.
- (٣) ينظر: «السبعة» (٥١٦)، و«الحجة» (٤٦٠/٥)، و«معاني القراءات» (٢٧٣/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٤٠)، و«العنوان» (١٥٣)، و«شرح شعلة» (٥٤٣)، و«إتحاف» (٣٦٦/٢)، و«حجة القراءات» (٥٦٧).

رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وقالوا أءذا ضللنا في الأرض﴾ أي: تَلَفْنَا وَتَفَطَّعْتُ أَوْصَالَنَا، فذهبنا في التراب حَتَّى لَمْ نُوجَدْ؛ ﴿إِنَّا لفي خلق جديد﴾ أي: أَنُخْلَقُ بَعْدَ ذَلِكَ خَلْقًا جَدِيدًا؛ إنكاراً منهم للبعث واستبعاداً له، و﴿يتوفاكم﴾ معناه يَسْتَوِفِيكُمْ؛ رُوي عَنْ مجاهد: أن الدنيا بَيْنَ يَدَيِ مَلَكِ الْمَوْتِ كَالطُّسْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِ يَأْخُذُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَ^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ الآية تَعْجِيبٌ لِمَحْمَدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمَتِهِ مِنْ حَالِ الْكُفْرَةِ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ، وَجَوَابٌ ﴿لو﴾ محذوف؛ لِأَنَّ حَذْفَهُ أَهْوَلُ فِي النَفُوسِ، وَتَنَكُّيسُ رُءُوسِهِمْ هُوَ مِنَ الذِّلِّ وَالْيَأْسِ وَالْهَمِّ بِحُلُولِ الْعَذَابِ. وَقَوْلُهُمْ ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: مَا كُنَّا نُخْبِرُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ طَلَبُوا الرُّجْعَةَ حِينَ لَا يَنْفَعُ ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهْدَى النَّاسَ أَجْمَعِينَ؛ بَأَن يَلْطَفَ بِهِمْ لُطْفًا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَخْتَرِعَ الْإِيمَانَ فِي نَفُوسِهِمْ، هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَ﴿الجنة﴾: الشَّيَاطِينُ، وَ﴿نسيتم﴾ معناه: تَرَكْتُمْ؛ قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢) وَغَيْرُهُ.

وقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ سَمَّى الْعُقُوبَةَ بِاسْمِ الذَّنْبِ. ثُمَّ أَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ، وَوَصَفَهُمْ بِالصِّفَةِ الْحُسْنَى مِنْ سَجُودِهِمْ عِنْدَ التَّذْكِيرِ، وَتَسْبِيحِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِكْبَارِهِمْ.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمُونِ ﴿١٩﴾ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيُهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجْعَتِهِمْ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾ .

(١) أخرجه الطبري (٢٣٦/١٠) رقم (٢٨٢١٦)، وذكره البغوي (٤٩٩/٣)، وابن عطية (٣٦٠/٤)، وابن كثير (٤٥٨/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٧/١٠) رقم (٢٨٢٢١)، وذكره ابن عطية (٣٦١/٤).

وقوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ الآية، تَجَافَى الجنبُ عن موضِعِهِ إذا تَرَكَه، قال الزجاج وغيره: التَّجَافَى التَّنَحَّى إلى فوق.

قال *ع^(١): ﴿وهذا قول حسن، والجنبُ جَمْعُ جَنْبٍ، والمضاجِعُ مَوَاضِعُ الاضطجاع للنوم.

ت: وقال الهروي: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتتباعَد، والجَفَاءُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ التَّبَاعُدُ، انتهى. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: [الطويل]

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَثْلُو كِتَابَهُ إِذَا أَنْشَقَ مَعْرُوفٍ مِنَ الْقَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَسِيبُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا أَسْتَشَقَلْتُ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ
انتهى. وجمهور المفسرين: على أن المراد بهذا التجافي صلاة النوافل بالليل.

قال *ع^(٢): ﴿وعلى هذا التأويل أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح وفيه أحاديث عن النبي ﷺ يذكر عليه السلام قيام الليل؛ ثم يستشهد بالآية؛ ففي حديث معاذ «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ / ، حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾» رواه ١٧. الترمذي^(٣)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وَرَجَّحَ الزَّجَّاجُ^(٤) ما قاله الجمهور بأنهم: جُوزُوا بِإِخْفَاءٍ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ إِخْفَاءٌ أَيْضاً، وهو قيام الليل ﴿يدعون ربهم خوفاً﴾ أي: من عذابه ﴿وطمعاً﴾، أي: في ثوابه.

(١) ينظر: «المحرر» (٤/٣٦٢).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٣٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ١١-١٢) كتاب الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥) كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، حديث (٣٩٧٣)، والنسائي في «التفسير» (٤١٤)، وأحمد (٥/٢٣١)، والحاكم (٢/٧٦، ٤١٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٣٠-١٣١) رقم (٢٦٦) من طرق عن ابن مسعود.

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٧)، وزاد نسبه إلى ابن نصر في «كتاب الصلاة»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/٢٠٧).

قال *ص*: ﴿تتجافى﴾ أعربه أبو البقاء: حالاً، و﴿يدعون﴾: حال أو مُستأنَف و﴿خوفاً وطمعاً﴾: مَفْعُولَان من أجله أو مصدران في موضع الحال؛ انتهى. وفي «الترمذي» عن معاذ بن جبل قال: قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيَبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ؛ تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَطِيطَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يعملون﴾. ثم قال: أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تُكَلِّمُكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»^(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. انتهى.

وقرأ حمزة وحده^(٢): «أُخْفِي» - يسكون الياء كأنه قال: أُخْفِي أَنَا. وقرأ الجمهور «أُخْفِي» - بفتح الياء -، وفي معنى هذه الآية قال ﷺ: «قال الله - عز وجل -: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ دُخْرًا بَلَّهَ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ، وَأَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ الآية» انتهى.

قال القرطبي في «تذكرته»^(٣): «وبَلَّهَ» معناه: غَيَّرَ، وقيل: هو اسم فعل بمعنى دَغَ، وهذا الحديث خَرَّجَهُ البخاري، وغيره^(٤).

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) ينظر: «السبعة» (٥١٦)، و«الحجة» (٤٦٣/٥)، و«معاني القراءات» (٢٧٤/٢)، و«شرح الطيبة» (٥/١٤٠)، و«العنوان» (١٥٣)، و«حجة القراءات» (٥٦٩)، و«شرح شعلة» (٥٤٣)، و«إتحاف» (٢/٣٦٧).

(٣) ينظر: «التذكرة» للقرطبي (٢/٥٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥/٨) كتاب التفسير: باب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ حديث (٤٧٧٩)، ومسلم (٢١٧٤/٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث (٢٨٢٤/٢)، والترمذي (٥/٣٤٦-٣٤٧) كتاب التفسير: باب «ومن سورة السجدة»، حديث (٣١٩٧)، والطبري في «تفسيره» (١٠/٢٤٣) رقم (٢٨٢٥٣، ٢٨٢٥٤)، وأحمد (٢/٣١٣)، والحميدي (٢/٤٨٠)، وهناد في «الزهد» رقم (١، ٢) من حديث أبي هريرة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٣٩)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن الأنباري.

***ت*:** وفي رواية للبخاري: قال أبو هريرة: «أَقْرَؤُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ...﴾»^(١) الآية. انتهى.

وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوب «عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٢)، وباقي الآية بَيِّن؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ﴾ لكفار قريش، ولا خلاف أن العذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، واختلف في تعيين العذاب الأذنى؛ ف قيل هو السنون التي أجاعهم الله فيها، وقيل هو مصائب الدنيا من الأمراض؛ ونحوها، وقيل هو القتل بالسيف كَبَدْرٍ وغيرها.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ ظاهر الإجماع هنا أنه الكفر، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ: أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ، فَقَدْ أَجْرَمَ: مَنْ عَقَدَ لَوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ، وَمَنْ عَتَى وَالِدَيْهِ، وَمَنْ نَصَرَ ظَالِمًا»^(٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٢) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ يَا مَرْيَمُ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ اختلف في الضمير الذي في ﴿لِقَائِهِ﴾ على من يعود؟ فقال قتادة وغيره: يعود على موسى، والمعنى: فلا تكن يا محمد، في شك من أنك تلقى موسى، أي: في ليلة الإسراء، وهذا قول جماعة من السلف، وقالت فرقة: الضمير: عائد على الكتاب، أي: فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب.

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) أخرجه الطبري (٢٤٢/١٠) رقم (٢٨٢٤٧)، وذكره ابن عطية (٢٦٣/٤)، والسيوطي (٣٣٩/٥)، وعزاه للفريايبي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤٩/١٠) رقم (٢٨٢٩٨)، والطبراني في «الكبير» (٦١/٢٠) رقم (١١٢) كلاهما من طريق عبد العزيز بن عبيد الله عن عباد بن نسي عن جندة بن أبي أمية عن معاذ بن جبل مرفوعاً. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩٣/٧) وقال: وفيه عبد العزيز بن عبيد الله بن حمزة، وهو ضعيف.

والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٤٢/٥)، وزاد نسبه إلى ابن منيع، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وضعف السيوطي سنده.

٧٠ ب *ص*: وقيل: يعود على الكتاب / على تقدير مُضْمَرٍ، أي: من لقاء مثله، أي: آتيناك مثل ما آتينا موسى، والتأويل الأول هو الظاهر، انتهى. والمِرْيَةُ: الشُّكُّ، والضميرُ في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: يُحْتَمَلُ أَنْ يعودَ على الكتابِ أو على موسى؛ قاله قتادة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ...﴾ الآية، حُكْمُ يَعْمُ جميعَ الخلق، وذهب بعضهم إلى تخصيص الضمير بذلك ضعيف.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ فَجَعَلْنَاهُمْ رِزْقًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَهْدِ﴾ معناه يُبَيِّنُ؛ قاله ابن عباس، والفاعل بـ ﴿يَهْدِ﴾ هو الله؛ في قول فرقة، والرسول في قول فرقة، وقرأ أبو عبد الرحمن^(١): «نهد» - بالنون - وهي قراءة الحسن وقاتدة، فالفاعل الله تعالى، والضمير في «يمشون» يُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ للمخاطبين أو للمُهْلَكِينَ، و﴿الجزز﴾: الأرض العاطشة التي قد أكلت نباتها من العطش والقيظ؛ ومنه قيل للأكل جَرُوزٌ. وقال ابن عباس^(٢) وغيره: «الأرض الجزز»: أرض أبين من اليمن وهي أرض تشرب بسيول لا يَمَطَّرُ، وفي «البخاري»: وقال ابن عباس: «الجزز»: التي لم تُمَطَّرْ إِلَّا مَطَرًا لَا يُغْنِي عَنْهَا^(٣) شَيْئًا. انتهى.

ثم حكى سبحانه عن الكفرة أنهم يَسْتَفْتِحُونَ؛ ويستعجلون فَضْلَ الْقَضَاءِ بينهم وبين الرُّسُلِ على معنى الهُزْءِ والتكذيب، و﴿الفتح﴾: الْحُكْمُ، هذا قول جماعة من المفسرين، وهو أقوى الأقوال.

(١) وقد قرأ بها علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما.

ينظر: «مختصر شواذ» ابن خالويه ص ١١٩، و«المحور الوجيز» (٤/٣٦٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/٢٥٢) رقم (٢٨٣٠٥) بنحوه، وذكره البغوي بلفظ «هي أرض باليمن»، وابن عطية (٤/٣٦٦)، وابن كثير (٣/٤٦٤)، والسيوطي (٥/٣٤٤-٣٤٣)، وعزاه لابن أبي شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/٢٥٢) رقم (٢٨٣٠٩)، وذكره ابن كثير (٣/٤٦٤)، والسيوطي (٥/٣٤٣)، وعزاه للفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

قال مجاهد و﴿الفتح﴾ هنا هو حُكْم الآخرة. ثم أمر تعالى نبيه عليه السلام بالإعراض عن الكفرة وانتظار الفرج، وهذا مما نَسَخَتْه آية السَّيْف. وقوله: ﴿إنهم منتظرون﴾ أي: العذاب بمعنى هذا حُكْمُهُمْ وإن كانوا لا يَشْعُرُونَ.

تَفْسِيرُ «سُورَةِ الْأَخْزَابِ»

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ فِيمَا عَلِمْتُ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعُوا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ إِلَيْنِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ (٤) أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ (٥)﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ...﴾ الآية. قوله: ﴿اتَّقِ﴾ معناه: دُم على التقوى، ومتى أمر أحد بشيء وهو به مُتَلَبِّسٌ؛ فإنما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية. وحذره تعالى من طاعة الكافرين والمنافقين تنبيهاً على عداوتهم، وألاً يَظْمِنَنَّ إلى ما يُبْدُونَهُ من نَصَائِحِهِمْ. والباء في قوله: ﴿وكفى بالله﴾ زائدة على مذهب سيبويه، وكأنه قال وكفى الله، وغيره يَرَاهَا غَيْرَ زَائِدَةٍ متعلقة بـ «كفى» على أنه بمعنى: اكتف بالله. واختلف في السبب في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ فقال ابن عباس^(١): سببها أن بعض المنافقين قال: إن محمداً له قلبان، وقيل غير هذا.

قال *ع^(٢)*: ويظهر من الآية بِجُمْلَتِهَا أَنَّهَا نَفْيٌ لِأَشْيَاءَ كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْتَقِدُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وإعلام بحقيقة الأمر، فمنها أن العرب كانت تقول: إن الإنسان له قلبٌ يأمره، وقلب ينهيه، وكان تضادُّ الخواطر يحملها على ذلك، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظاهر منها بمنزلة الأم، وتراه طلاقاً، وكانت تعتقد الدَّعِيَّ الْمُتَبَنَّى ابناً، فَتَنَى اللَّهُ مَا اعتقدوه من ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وما جعل أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ سببها أمرُ زيد بن حارثة كانوا يَدْعُونَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، و﴿السَّبِيلُ﴾ هنا سبيلُ الشرع والإيمان. ثم أمر تعالى في هذه الآية بدعاء

(١) أخرجه الطبري (٢٥٥/١٠) رقم (٢٨٣١٨)، وذكره ابن عطية (٣٦٧-٣٦٨)، وابن كثير (٤٦٦/٣)، والسيوطي (٣٤٧/٥)، وعزاه لأحمد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والضياء عن ابن عباس.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٦٨/٤).

الأدعياء لأبائهم، أي: إلى آبائهم للصلب، فمن جهل ذلك فيه؛ كان مولى وأخاً في الدين، فقال الناس: زيد بن حارثة وسالم مولى أبي حذيفة، إلى غير ذلك و﴿أقسط﴾: معناه: أعدل.

وقوله عز وجل: ﴿وليس عليكم جناح...﴾ الآية: رَفَعَ الحرجَ عَمَّنْ وَهَمَ ونَسِيَ وأخطأ، فَجَرَى على العادة من نسبة زيد إلى محمد، وغير ذلك: مما يشبهه، وأبقى الجناح في الْمُتَعَمِّدِ، والخطأ مرفوعٌ عَنْ هذه الأمة عقابه؛ قال ﷺ: «وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١). وقال - عليه السلام -: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ وَإِنَّمَا أَخْشَى الْعَمْدَ»^(٢).

قال السُّهَيْلِيُّ: وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ وَامْتَثَلَهَا زَيْدٌ فَقَالَ: أَنَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ؛ جَبَرَ اللَّهُ وَخَشَتَهُ وَشَرَّفَهُ بِأَنْ سَمَّاهُ بِاسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وَمَنْ ذَكَرَهُ سَبَّحَانَهُ بِاسْمِهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، حَتَّى صَارَ اسْمُهُ قِرَاءًا يُتْلَى فِي الْمَحَارِبِ، فَقَدْ نَوَّهَ بِهِ غَايَةَ التَّنْوِيهِ، فَكَانَ فِي هَذَا تَأْنِيْسٌ لَهُ وَعِوَضٌ مِنَ الْفَخْرِ بِأَبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لَهُ؛ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ حِينَ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ سُورَةَ كَذَا، فَبَكَى أَبِي وَقَالَ: أَوْ ذُكِرْتُ هُنَالِكَ»^(٣)، وَكَانَ بِكَأُوهِ مِنَ الْفَرْحِ حِينَ أُخْبِرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ؛ فَكَيْفَ بَمَنْ صَارَ اسْمُهُ قِرَاءًا يُتْلَى مَخْلَدًا لَا يَبِيدُ، يَتْلُوهُ أَهْلُ الدُّنْيَا إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ كَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ زَادَهُ فِي الْآيَةِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ أَنْ قَالَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يَعْنِي بِالْإِيمَانِ؛ فَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ أُخْرَى هِيَ غَايَةُ مَتْنَهَى أُمْنِيَةِ الْإِنْسَانِ، انْتَهَى.

١٧١

﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٨/٢)، والحاكم (٥٣٤/٢)، وابن حبان (٢٤٧٩- موارد) من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي وصححه ابن حبان.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٢٤/٣)، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٨/٧) كتاب مناقب الأنصار: باب مناقب أبي بن كعب، حديث (٣٨٠٩)، وفي

(٥٩٧/٨) كتاب التفسير: باب سورة (لم يكن)، حديث (٤٩٥٩، ٤٩٦٠، ٤٩٦١)، ومسلم (٤/

١٩١٤)، كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بن كعب، حديث (٧٩٩/١٢٢) من حديث

أنس.

كَتَبَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أزال الله بهذه الآية أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها أن النبي ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دين، فذكر الله تعالى؛ أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فجمع هذا أن المؤمن يلزم أن يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه، حسب حديث عمر بن الخطاب، ويلزم أن يمثّل أوامره، أحبّ نفسه ذلك أو كرهه، وقال النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فالّي وعليّ، أنا وليّه، أفرّوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...﴾».

ت: ولفظ البخاري من رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، أفرّوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾»، قائماً مؤمن ترك مالا فليرثه عصبة من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فلينأيني فأنا مؤلاه^(١). قال ابن العربي: في «أحكامه»^(٢): فهذا الحديث هو تفسير الولاية في هذه الآية. انتهى.

قال *ع*^(٣): وقال بعض العارفين: هو ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة. قال *ع*^(٤): ويؤيد هذا قوله ﷺ: «فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها تقحم الفرائس».

قال عياض في «الشفاء»: قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أي: ما أنفذه فيهم من أمر؛ فهو ماضٍ عليهم؛ كما يمضي حكم السيد على عبده، وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس. انتهى، وشرف تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين في المبرّة وحرمّة النكاح، وفي مصحف أبي بن كعب^(٥):

(١) أخرجه البخاري (٦١/٥)، كتاب الاستقراض: باب الصلاة على من ترك ديناً (٢٣٩٩)، وأخرجه مسلم

(٣/١٢٣٧)، كتاب الفرائض: باب «من ترك مالا فلورثته» الحديث (١٥/١٦١٩).

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» (٣/١٥٠٨).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤/٣٧٠).

(٤) ينظر: «المحرر» (٤/٣٧٠).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/٣٧٠)، و«البحر المحيط» (٧/٢٠٨).

«وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» وقرأ ابن عباس^(١) «مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» ووافقه أبي* ٧١ ب على ذلك. ثم حكم تعالى: بَأَن أُولَى الْأَزْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي التَّوَارِثِ، مما كانت الشريعة قررتها من التوارث بأخوة الإسلام، وفي كتاب الله ﴿يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ الْقُرْآنُ أَوْ اللُّوْحَ الْمَحْفُوظَ.

وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أُولَى﴾ الثانية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ يريدُ الأحسانَ في الحياةِ والصَّلَةِ والوَصِيَّةِ عند الموتِ و«الكتابُ المسطورُ»: يحتَمِلُ الوجهين اللذين ذكرنا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَنْتُمْ أُولَى بِرِزْقِهِمْ وَمِنْهُ بَشَرٌ حَرْشٌ لِّبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ الْمِيثَاقَ غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُؤَدُّوا أَعْيُنَكُمْ عَلَى الْكَلِمَاتِ ﴿٨﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ المعنى واذكر إذ أخذنا من النبيين، وهذا الميثاق:

قال الزجاج^(٢) وغيره: إنه الذي أخذ عليهم وَقْتُ استخراجِ البَشَرِ من صلب آدم كالذر، بالتبليغ وبجميع ما تَضَمَّنَتْهُ النبوة. وروي نحوه عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ^(٣).

وقالت فرقة: بل أشار إلى أخذ الميثاقِ عليهم وَقْتُ بَعْثِهِمْ وإلقاءِ الرسالةِ إليهم، وذكر تعالى النبيين جملةً، ثم خَصَّصَ أُولَى الْعَزْمِ منهم تشريعاً لهم، واللام في قوله ﴿لِيسْأَلَ﴾ يحتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَامٌ كِي، أو لَامُ الصَّيْزُورَةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْأَنفُسَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوبًا ﴿١٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ...﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٨] نزلت في شأن غزوة

(١) ونسبها الزمخشري في «الكشاف» (٥٢٣/٣) إلى ابن مسعود. وينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٠/٤)، و«البحر المحيط» (٢٠٨/٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢١٦/٤).

(٣) ذكره ابن عطية (٣٧١/٤)، وابن كثير (٤٦٩/٣) بنحوه.

الخندي، وما اتَّصَلَ بها من أمر بني قُرَيْظَةَ، وذلك أن رسولَ الله ﷺ أَجْلَى بَنِي النُّضَيْرِ مِنْ مَوْضِعِهِمْ عِنْدَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَيْثُ، فَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ، وَخَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ مُسْتَنْهَضِينَ قُرَيْشًا إِلَى حَزْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَسَرُواهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَزْمَعَتْ^(١) قُرَيْشُ السَّيْرِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَهَضَ الْيَهُودُ إِلَى غَطَفَانَ، وَبَنِي أَسَدٍ، وَمَنْ أَمَكْتَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ وَتِهَامَةٍ، فَاسْتَنْفَرُواهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَتَحَرَّبُوا وَسَارُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاتَّصَلَ خَبَرُهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَحَفَرَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَحَصَّنَهَا، فَوَرَدَتِ الْأَحْزَابُ، وَحَصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ خَمْسٍ، وَقِيلَ: أَرْبَعٌ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَكَانَتْ قَرِيبَةً قَدْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَاقَدُوهُ أَلَّا يَلْحَقَهُ مِنْهُمْ ضَرَرٌ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ ذَلِكَ الْحِصَارُ، وَدَاخَلَهُمْ بَنُو النُّضَيْرِ غَدَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَقَضُوا عَهْدَهُ، وَضَاقَ الْحَالُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَنَجَّمَ النِّفَاقُ وَسَاءَتْ ظُنُونُ قَوْمٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ ذَلِكَ يُبَشِّرُ وَيَعِدُّ النَّصْرَ، فَأَلْقَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَتَخَاذَلُوا وَيَسُّوا مِنَ الظُّفْرِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا وَهِيَ الصَّبَا، وَمَلَأَتْهُ / ١٧٢ تُسَدُّ الرِّيْحَ، وَتَفْعَلُ نَحْوَ فَعْلِهَا، وَتُلْقِي الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الْكُفْرَةِ، وَهِيَ الْجَنُودُ الَّتِي لَمْ تَرَ، فَارْتَحَلَ الْكُفْرَةُ وَانْقَلَبُوا خَائِبِينَ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يريد: أهل نَجْدٍ مَعَ عَيْنَةِ بَنِي حِضْنٍ ﴿وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ﴾: يريد أهل مَكَّةَ وَسَائِرَ تِهَامَةٍ قَالَه مُجَاهِدٌ^(٢). ﴿وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معناه مَالَتْ عَنْ مَوَاضِعِهَا وَذَلِكَ فِعْلُ الْوَالِهِ الْفَرْعِ الْمُخْتَلِلِ. ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عَمَّا يَجِدُهُ الْهَلُوعُ مِنْ ثَوَرَانٍ نَفْسِهِ وَتَفَرَّقَهَا وَيَجِدُ كَأَنَّ حُشَوَتَهُ وَقَلْبَهُ يَصْعَدُ غُلُوءًا، وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؛ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قُولُوا: «اللَّهُمَّ، اسْتَرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا» فَقَالُواهَا؛ فَضَرَبَ اللَّهُ وَجُوهَ الْكُفَّارِ بِالرِّيْحِ فَهَزَمَهُمْ^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَتَتَنُوبُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا...﴾ الآية: عبارة عن خَوَاطِرِ خَطَرَتِ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يُمْكِنُ الْبُشْرَ دَفْعَهَا، وَأَمَّا الْمَنَافِقُونَ فَتَطَّقُوا، وَنَجَّمَ نِفَاقَهُمْ. ﴿وَابْتُلِيَ

(١) الزَّمْعُ: الْمَضَاءُ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزْمُ عَلَيْهِ. وَأَزْمَعَتْ الْأَمْرَ، وَبِهِ، وَعَلَيْهِ: مَضَى فِيهِ، فَهُوَ مُزْمَعٌ. ينظر: «اللسان العرب» ١٨٦٢.

(٢) أخرجه الطبري (٢٦٥/١٠) رقم (٢٨٣٦٧)، وذكره ابن عطية (٣٧٢/٤)، والسيوطي (٣٥٧/٥)، وعزاه للفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه أحمد (٣/٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٦٣/١٠) رقم (٢٨٣٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٥٥/٥)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

المؤمنون﴾ معناه: اُخْبِرُوا ﴿وَزَلْزَلُوا﴾: مَعْنَاهُ: حُرِّكُوا بعنف. ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب؛ على جهة الذمّ لهم ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ فَرُوي عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ أَنَّ مُعْتَبَرَ بْنَ قُسَيْرٍ قَالَ: يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ أَنْ نَفْتَحَ كَنُوزَ كِسْرَى وَقِصْرَ مَكَّةَ؛ وَنَحْنُ الْآنَ لَا يَقْدِرُ أَحَدُنَا أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ؛ مَا يَعِدُنَا إِلَّا غُرُورًا، وَقَالَ غَيْرُهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَحْوَ هَذَا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُ الْأَذْثَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَعْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْرَعُونَ الْبَابَ تَدْرُؤُا أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ لَئِذَا سَأَلْتُمُوهُمْ يَالْئِثْمَ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَئِنْ بَأَتِ الْأَحْزَابُ يَوْذُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَرُوا فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَلُوتَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا موضع قيام ومُمانعة، فازجِعُوا إلى منازلكم وبيوتكم، وكان هذا على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ، والفريقُ المستأذِنُ هو أَوْسُ بْنُ قَيْطِيٍّ؛ اسْتَأْذَنَ فِي ذَلِكَ عَلَى اتِّفَاقٍ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: مُنْكَشِفَةٌ لِلْعَدُوِّ فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ - تعالى - وَلَوْ دَخَلَتْ الْمَدِينَةُ ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: مِنْ نَوَاحِيهَا، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ الْحَقِيقِيُّ، ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ وَالْحَزْبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لِبادِرُوا إِلَيْهَا وَآتَوْهَا مُحْبِبِينَ فِيهَا وَلَمْ يَتَلَبَّثُوا فِي بُيُوتِهِمْ لِحَفَظِهَا إِلَّا بِسِيرًا، قِيلَ: قَدَّرَ مَا يَأْخُذُونَ سِلَاحَهُمْ.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قد كانوا عاهدوا الله إثرَ أُحُدٍ لَا يُؤَلَّفُ الْأَذْثَرُ وَفِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ تَوَعَّدُ وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ. ثُمَّ وَبَّخَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ يُعَوِّقُونَ النَّاسَ عَنْ نُصْرَةِ الرَّسُولِ وَيَمْنَعُونَهُمْ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ مِنْ ذَلِكَ وَيَسْعَوْنَ عَلَى الدِّينِ، وَأَمَّا الْقَائِلُونَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: أَرَادَ

من كان من المنافقين يقول لإخوانه في التَّسَبُّبِ وَقَرَابَتِهِ هَلُمَّ، أي: إلى المنازل والأكل والشرب، واترك القتال^(١). وَرُوي: أَنَّ جماعةً منهم فَعَلَتْ ذلك وأَصْلُ ﴿هَلُمَّ﴾: ها المم. وهذا مِثْلُ تعليل «رَدَّ» من «ازْدَدَّ» والبأسُ: القتالُ و﴿إلا قليلاً﴾ معناه إلا إتياناً قليلاً، و﴿أشحة﴾ جمع شَحِيحٍ والصَّوَابُ تَغْيِيمُ الشَّحِّ أَنْ يكون بِكُلِّ ما فيه للمؤمنين منفعة.

وقوله: ﴿فإذا جاء الخوف﴾ قيل: معناه: فإذا قوي الخوف رأيت هؤلاء المنافقين ينظرون إليك / نَظَرَ الهَلِيعِ الْمُخْتَلِطِ؛ الذي يُغَشَى عليه، فإذا ذهب ذلك الخوف العظيم وَتَنَفَّسَ الْمُخْتَنِقُ: ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ أي: خاطبوكم مخاطبةً بليغة، يقال: خطيب سَلَقٌ ومِسْلَقٌ ومِسْلَقٌ وَلِسَانٌ أيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدراً ووصف الأليسة بالحدة لقطعها المعاني ونفوذها في الأقوال، قالت فرقة: وهذا السَلَقُ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة.

وقوله: ﴿أشحة﴾ حال من الضمير في ﴿سَلَقُوكُمْ﴾.

وقوله: ﴿على الخير﴾ يدل على عموم الشح في قوله أولاً: ﴿أشحة عليكم﴾ وقيل: المراد بالخير: المال، أي: أشحة على مال الغنائم، والله أعلم. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي: أنها لم تقبل قط، والإشارة بذلك في قوله ﴿وكان ذلك﴾ إلى حبط أعمال هؤلاء المنافقين، والضمير في قوله: ﴿يحسبون الأحزاب﴾ للمنافقين، والمعنى: أنهم من الفزع والجزع بحيث رَحَلَ الأحزاب وهزمهم الله تعالى، وهؤلاء يظنون أنها من الخدع؛ وأنهم لم يذهبوا، ﴿وإن يأت الأحزاب﴾، أي: يرجعوا إليهم مرة ثانية ﴿يودوا﴾ من الخوف والجبن ﴿لو أنهم بادون﴾ أي: خارجون إلى البادية. ﴿في الإعراب﴾ وهم أهل العمود ليسلموا من القتال. ﴿يسئلون﴾ أي من وَرَدَ عليهم. ثم سأل سبحانه عنهم وحقق شأنهم بأن أخبر أنهم لو حصروا لما أغتوا ولما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً؛ لا نفع له. ثم قال تعالى - على جهة الموعظة -: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ حين صَبَرَ وجاد بنفسه، و﴿أسوة﴾ معناه قُدوة، وَرَجَاءُ اللَّهِ تابع للمعرفة به، ورجاء اليوم الآخر ثمرة العمل الصالح، وذكر الله كثيراً من خَيْرِ الأعمال فَنَبَّهَ عليه.

ت: وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»^(١). رواه ابن ماجه، واللفظ له وابن حبان في «صحيحه» ورواه الحاكم في «المستدرک» من حديث أبي الدرداء.

وروى جابر بن عبد الله؛ قال: خرج علينا النبي ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ لِلَّهِ سَرَايَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَحُلُّ وَتَقِفُ عَلَى مَجَالِسِ الذِّكْرِ فِي الْأَرْضِ، فَأَرْتَعُوا فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، قَالُوا: وَأَيْنَ رِيَاضِ الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ؛ فَأَعْدُوا وَرُوحُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ؛ وَذَكِّرُوهُ أَنْفُسَكُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنَزَلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنَزَلَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ، حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ»^(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد.

وعن معاذ بن جبل قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى؟ قَالَ: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه»، انتهى من «السَّلاح». ولولا خشية الإطالة، لَأَتَيْتُ فِي هَذَا الْبَابِ بِأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «وَقَائِقِهِ» قَالَ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عَيِينَةَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ؛ حَتَّى يَذْكُرَ اللَّهَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا، انْتَهَى. وَفِي «مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ»^(٤) «يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ / قَدْ ذَهَبُوا فَإِذَا وَجَدُوهُمْ لَمْ يَذْهَبُوا وَدُّوا أَنَّهُمْ بِأَدْوَانٍ فِي الْأَغْرَابِ».

(١) أخرجه أحمد (٥٤٠/٢)، وابن ماجه (١٢٤٦/٢)، كتاب الأدب: باب فضل الذكر، حديث (٣٧٩٢)، والحاكم (٤٩٦/١)، وابن حبان (٩٧/٣) رقم (٨١٥) من طريق أم الدرداء عن أبي هريرة. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٤/١)، وأبو يعلى (٣/٣٩٠-٣٩١) رقم (١٨٦٥) من طريق عمر بن عبد الله مولى غفرة عن أيوب بن خالد بن صفوان عن جابر به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعبه الذهبي فقال: عمر ضعيف.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨٠/١٠): رواه أبو يعلى، والبزار، والطبراني في «الأوسط»، وفيه عمر بن عبد الله مولى غفرة، وقد وثقه غير واحد، وضعفه جماعة، وبقيّة رجالهم رجال الصحيح. (٣) أخرجه ابن حبان (٩٩-١٠٠/٣) رقم (٨١٨)، وابن السني رقم (٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/١٠٧) رقم (٢١٢)، والبزار (٣٠٥٩ كشف) من حديث معاذ بن جبل. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧٧/١٠)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذه الطريق خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك ضعفه جماعة، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقيّة رجاله ثقات، ورواه البزار من غير طريقه، وإسناده حسن.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣٧٧/٤).

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ٢٥﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب...﴾ الآية. قالت فرقة: لما أمر - رسول الله ﷺ - بحفر الخندق أعلمهم بأنهم سيُخصَّرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وأعلمهم بأنهم سيُنْصَرُونَ بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب: ﴿قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ الآية، وقالت فرقة: أرادوا بوعده الله ما نزل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿قريب﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال *ع*^(١): وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا جَمِيعَ ذَلِكَ. ثُمَّ أَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى رِجَالٍ عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ قَوْفُوا، وَقَضُوا نَحْبَهُمْ، أَي: نَذَرَهُمْ، وَعَاهَدَهُمْ، «وَالنَّحْبُ» فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: النَّذْرُ وَالشَّيْءُ الَّذِي يَلْتَزِمُهُ الْإِنْسَانُ، وَقَدْ يُسَمَّى الْمَوْتُ نَحْبًا، وَبِهِ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢) وَغَيْرُهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَيُقَالُ لِلَّذِي جَاهَدَ فِي أَمْرٍ حَتَّى مَاتَ: قَضَى فِيهِ نَحْبَهُ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ: قَضَى فَلَانٌ نَحْبَهُ؛ فَمَنْ سَمِيَ الْمَفْسُورُونَ أَنَّهُ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِهِذِهِ الْآيَةِ أَنَسُ بْنُ النُّضَرِ عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ غَابَ عَنِ بَذْرِ فِسَاءِهِ ذَلِكَ، وَقَالَ لَيْثٌ شَهِدَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشْهَدًا لِيَرَيْنَ اللَّهَ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ أَحَدُ أَهْلِ بِلَاءٍ حَسَنًا حَتَّى قُتِلَ وَوُجِدَ فِيهِ نَيْفٌ عَلَى ثَمَانِينَ جُرْحًا، فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَنَسِ بْنِ النُّضَرِ وَنَظَرَاتِهِ.

وقالت فرقة: الموصوفون بقضاء النَحْبِ؛ هم جماعة من أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ وقَّوْا بِعُهُودِ الْإِسْلَامِ عَلَى التَّمَامِ، فَالْشَّهْدَاءُ مِنْهُمْ، وَالْعَشْرَةُ الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ مِنْهُمْ، إِلَى مَنْ حَصَلَ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ مِمَّنْ لَمْ يُنْصَرْ عَلَيْهِ، وَيُصَحِّحُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ أَيْضًا مَا رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ لَهُ أَغْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنَ الَّذِي قَضَى نَحْبَهُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّنَ السَّائِلُ؟ فَقَالَ: هَآنَذَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:

(١) ينظر: «المحرو» (٤/٣٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/٢٨٠) رقم (٢٨٤٢٦).

هَذَا مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ»^(١).

قال *ع^(٢): فهذا أدل دليل على أن الثَّخْبَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ الْمَوْتُ.

وقال معاوية بن أبي سفيان: إني سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ»^(٣)، وَرَوَتْ عَائِشَةُ نَحْوَهُ»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يريدُ ومنهم من ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصَّلاح، وهم بسبيل ذلك وما بذلوا ولا غَيَّرُوا، واللامُ في: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يحتمل أن تكونَ لامُ الصيرورة أو «لامُ كي»، وتعذيبُ المنافقين ثمرَةٌ إدامَتهم الإقامَةُ على النفاقِ إلى مَوْتِهِمْ، والتوبة موازيةٌ لتلك الإدامة، وثمرَةُ التوبة تركُهُمْ دونَ عذاب، فهما درجتان: إدامةٌ على نفاقٍ أو توبةٌ منه، وَعَنْهُمَا ثمرتان: تعذيبٌ أو رحمة. ثم عدَّدَ سبحانه - نعمه على المؤمنين في هَزَمِ الْأَحْزَابِ؛ فقال: ﴿وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ...﴾ الآية.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (٦٦) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٦٧).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ يريد: بني قُرَيْظَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا غَدَرُوا وَظَاهَرُوا الْأَحْزَابَ، أَرَادَ اللَّهُ الثَّقَمَةَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَحْزَابُ؛ جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفَتَّ الظُّهْرَ؛ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِالْخُرُوجِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ، وَقَالَ لَهُمْ: / «لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»^(٥)، ب ٧٣ فَخَرَجَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ، وَحَصَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ؛ فَحَكَمَ فِيهِمْ سَعْدٌ بِأَن تَقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَتُسَبَّى الذَّرِيَّةُ وَالْعِيَالُ وَالْأَمْوَالُ، وَأَن تَكُونَ الْأَرْضُ وَالشَّامُ لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَتْ لَهُ الْأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَن يَكُونَ لِلْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالٌ كَمَا لَكُمْ أَمْوَالٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمٍ

(١) تقديم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٧٨/٤).

(٣) ينظر: الحديث السابق.

(٤) ينظر: الحديث السابق.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧١/٧) كتاب المغازي: باب مرجع النبي ﷺ حديث (٤١١٩)، ومسلم (١٣٩١/٣).

كتاب الجهاد: باب المبادرة بالغزو، حديث (١٧٧٠/٦٩) من حديث ابن عمر.

الْمَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ فَأَمَرَ ﷺ بِرِجَالِهِمْ فَضَرَبَتْ أَعْنَاقَهُمْ، وَفِيهِمْ^(١) حَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّصِيرِيِّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ أَدْخَلَهُمْ فِي الْعَذْرِ، وَظَاهَرُوهُمْ: معناه: عاونوهم، و«الصياصي»: الحُصُون، واحداها صيصية وهي كل ما يَتَمَتَّعُ به، ومنه يقال لقرون البقر: الصياصي، والفريقُ المقتول: الرجال، والفريقُ المأسور: العيال والذرية.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا﴾ يريد بها: البلاد التي فتحت على المسلمين بعدُ كالعراق والشام واليمن وغيرها، فوعد الله تعالى بها عند فتح حصون بني قريظة، وأخبر أنه قد قضى بذلك. قاله عكرمة^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (٢٨) **وَإِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** (٢٩) **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مَّيْنَتَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** (٣٠) **وَمَن يَفْعَلْ مِنْكُنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ سَلِماً تَوَنَّهَا أَجْراً مَّرْتَبَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن رَزَقْنَا كَرِيماً** (٣١) **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِن تَقْبَلْنَ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً** (٣٢) **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** (٣٣) **وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** (٣٤).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية، ذَكَرَ جُلُ المفسرين أن أزواج النبي ﷺ سَأَلْنَهُ شَيْئاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَأَذَيْنَهُ بِزِيَادَةِ التَّفَقُّةِ وَالْغَيْرَةِ، فَهَجَرَهُنَّ وَأَلَى أَلَا يَقْرِبَهُنَّ شَهْراً، فنزلت هذه الآية، فبدأ بعائشة، وقال: «يا عائشة، إِنِّي ذَاكِرٌ لِّكَ أَمراً وَلَا عَلَيْنِكَ أَلَّا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوكَ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ، فَقَالَتْ لَهُ: وَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ؟» أَبُوكَ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ، قَالَتْ^(٤): وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبُوكَ لَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، ثُمَّ تَتَابَعَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مِثْلِ قَوْلِ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥/٧) كتاب المغازي: باب مرجع النبي ﷺ من غزوة الخندق، حديث (٤١٢٢)، ومسلم (١٣٨٩/٣) كتاب الجهاد: باب جواز قتال من نقض العهد، حديث (١٧٦٩/٦٥).

(٢) ذكره البغوي (٥٢٥/٣) بنحوه، وابن عطية (٣٨٠/٤)، والسيوطي (٣٦٩/٥)، وعزاه للفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٣) كذا في ج، وفي المطبوعة (استمر).

(٤) في ج: ثم قالت.

عَائِشَةَ، فَأَخْتَرَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - رَضِيَ^(١) اللَّهُ عَنْهُنَّ.

قَالَتْ فِرْقَةٌ قَوْلُهُ: ﴿بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ يَعْمُ جَمِيعَ الْمَعَاصِي وَلِزْمِهِنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ بِحَسَبِ مَكَاتِبِهِنَّ، أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ غَيْرَهُنَّ، فَضُرِعِفَ لَهُنَّ الْأَجْرُ وَالْعَذَابُ.

وقوله: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ معناه: يكونُ العذابُ عذابَيْنِ، أي: يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخرٌ مثله، و﴿بِقَنْتِ﴾: معناه: يُطِيعُ وَيَخْضَعُ بِالْعِبُودِيَّةِ؛ قاله الشعبي^(٢) وقَتَادَةُ^(٣). والرزقُ الكريمُ: الجنة. ثم خاطَبَهُنَّ اللَّهُ سبحانه بأنَّهُنَّ لَسْنَ كَأَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ عَصْرِهِنَّ؛ فَمَا بَعْدُ، بَلْ هُنَّ أَفْضَلُ بِشَرِطِ التَّقْوَى، وإنما خصصنا النساءَ لأنَّ فيمن تقدم آسية ومريم فتأملهُ؛ وقد أشار إلى هذا قتادة. ثم نَهَاهُنَّ سبحانه عما كانت الحالُ عليه في نساء العرب من مكالمَةِ الرجال بِرَخِيمِ القولِ؛ و﴿لا تخضعن﴾ معناه: لا تُلْنَنَّ.

قال ابن زيد: خَضَعُ الْقَوْلُ مَا يُدْخِلُ فِي الْقُلُوبِ الْغَزَلَ^(٤)؛ والمرضُ في هذه الآية قال قتادة: هو النفاق^(٥).

وقال عكرمة: الْفِسْقُ^(٦) والغزل، والقولُ المعروفُ هو الصوابُ الذي لا تنكره الشريعةُ ولا النفوسُ. وقرأ الجمهور: «وَقَرْنَ» - بكسر القَافِ -، وقرأ نافع وعاصم: «وَقَرْنَ» - بالفتح^(٧) -، فأما الأولى فيصح أن تكونَ من الوقار، ويصحُّ أن تكونَ من القَرَارِ، وأما قراءة الفتح فعلى لغة العرب قَرَرْتُ - بِكسْرِ الرَّاءِ -، أَقَرَّ - بفتح القاف في المكان /، وهي لغة ذكرها أبو عبيد في «الغريب» المصنف وذكرها الزَّجَّاجُ^(٨) وغيره، ١٧٤ فأمرَ اللَّهُ تعالى في هذه الآية نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بملازمةِ بيوتِهِنَّ، ونَهَاهُنَّ عن التبرجِ؛

(١) أخرجه مسلم (١١٠٤/٢) ١٨- كتاب الطلاق: ٤ - باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، حديث (١٤٧٨/٢٩) من حديث جابر.

(٢) ذكره ابن عطية (٣٨٢/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٩٢/١٠) رقم (٢٨٤٧١) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٣/١٠) رقم (٢٨٤٧٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٢٩٣/١٠) رقم (٢٨٤٧٥)، وذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٦) ذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٧) ينظر: «السبعة» (٥٢٢)، و«الحجة» (٤٧٥/٥)، و«إعراب القراءات» (١٩٩/٢)، و«معاني القراءات»

(٢٨٢/٢)، و«شرح الطيبة» (١٤٧/٥)، و«العنوان» (١٥٥)، و«حجة القراءات» (٥٧٧)، و«شرح شعلة»

(٥٤٩)، و«إتحاف» (٣٧٥/٢).

(٨) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢٢٥/٤).

والتبرج إظهار الزينة والتّصنّع بها، ومنه البروج لظهورها وانكشافها للعيون، واختلفَ الناس في ﴿الجاهلية الأولى﴾ فقال الشعبي: ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام -^(١)، وقيل: غير هذا.

قال *ع^(٢)*: والذي يظهر عندي؛ أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها فأمرن بالثقلّة عن سيرتهنّ فيها، وهي ما كان قبل الشّرع من سيرة الكفّرة، وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام، وليس المعنى. أن تمّ جاهلية آخرّة، و﴿الرجس﴾ اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى التّجاسّات والنّقايس، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت، قالت أم سلمة: نزلت هذه الآية في بيتي؛ فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فدخل معهم تحت كساء خيبري، وقال: «هؤلاء أهل بيتي، وقرأ الآية، وقال اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت أم سلمة: فقلت: وأنا يا رسول الله، فقال: أنت من أزواج النبي ﷺ وأنت إلى خير^(٣)». والجمهور على هذا، وقال ابن عباس^(٤) وغيره: أهل البيت: أزواجه خاصة، والجمهور على ما تقدم.

قال *ع^(٥)*: والذي يظهر لي: أن أهل البيت أزواجه وبناته ونحوها وزوجها أعني علياً، ولفظ الآية: يقتضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن.

قال *ص*:^{*} ﴿أهل البيت﴾: منصوب على النداء أو على المذح أو على الاختصاص وهو قليل في المخاطب، وأكثر ما يكون في المتكلم، كقوله [الرجز]:

(١) ذكره ابن عطية (٣٨٣/٤).

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٨٤/٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٩٨/١٠) رقم (٢٨٤٩٩)، والترمذي (٣٥١/٥) كتاب التفسير: باب «ومن سورة الأحزاب»، حديث (٣٢٠٥) من طريق عطاء بن أبي رباح عن عمر بن أبي سلمة عن أم سلمة به.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٦-٣٧٧)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٨/١٠) رقم (٢٨٥٠٣) عن عكرمة. وذكره البغوي (٥٢٨١٣)، وابن عطية (٣٨٤١٤)، وابن كثير في تفسيره (٤٨٣/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٧٦/٥)، وعزه لابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر: «المحرر» (٣٨٤/٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ...﴾ الآية. وفي الحديث: ^{٧٤} ب الصحيح عنه ﷺ قال: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ! قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ، / يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»^(١) رواه مسلم واللفظ له، والترمذي، وعنده: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ قَالَ: «الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ، يَضَعُ الذِّكْرَ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا»^(٢).

قال عياض: «والمُفْرَدُونَ» صَبَطْنَاهُ عَلَى مُتَقْنِي شَيْوَحْنَا - بفتح الفاء وكسر الراء -.

وقال ابن الأعرابي: فَرَدَّ الرَّجُلُ إِذَا تَفَقَّهَ وَاعْتَزَلَ النَّاسَ، وَخَلَا لِمُرَاعَاةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وقال الأزهري: هُمُ الْمُتَخَلُّونَ مِنَ النَّاسِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وقوله: الْمُسْتَهْتَرُونَ^(٣) في ذكر الله هو - بفتح التاءين المشتاين - يعني: الذين أُولِعُوا بِذِكْرِ اللَّهِ، يقال: أَسْتَهْتَرَ فَلَانٌ بِكَذَا، أَي: أُولِعَ بِهِ، انتهى من «سلاح المؤمن».

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...﴾ الآية: قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظه النفي، ومعناه الحظر والمنع والخيرة مصدر بمعنى التَّخِيرِ.

قال ابن زيد: نزلت هذه الآية بسبب أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهبت نفسها للنبي، فزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها، فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد^(٤)، وقيل غير هذا، والعصيان هنا يعم الكفر فما دون، وفي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) عبارة المجد في «قاموسه» «وهم المهترون بذكر الله تعالى، قال الشيخ نصر الهوريني في تعليقه قوله: المهترون هكذا بالزاي في النسخ المطبوعة ولعلها رواية وفي نسخة الشارح المهترون بالراء وكتب عليها كما جاء في رواية نصها قال: «والذين اهتروا في ذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة خفافاً» اهـ. قلت اهتر الرجل: فقد عقله من الكبر أو المرض أو الحزن فهو مهتر بفتح التاء، واهتر فلان مجهولاً: أولع بالقول في الشيء فهو مهتر، «واهتروا في ذكر الله»: أي خرفوا وهم يذكرون الله اهـ.

(٤) أخرجه الطبري (٣٠١/١٠) رقم (٢٨٥١٧)، وذكره ابن عطية (٣٨٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٨٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨١/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه.

حديث الترمذي؛ عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ لَهُ»^(١) انتهى.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ...﴾ الآية: ذهب جماعة من المتأولين إلى أن الآية لا كَبِيرَ عَثْبٍ فيها على النبي ﷺ؛ فَرُوي عن علي بن الحسين: أن النبي ﷺ كان قد أُوحِيَ إليه أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها له، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خُلِقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له النبي ﷺ على جهة الأدب والوصية: «اتَّقِ اللَّهَ - أَي: فِي قَوْلِكَ - وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفَارِقُهَا - وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَخْفَى ﷺ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَرُدْ أَنْ يَأْمُرَهُ بِالطَّلَاقِ لِمَا عَلِمَ مِنْ أَنَّهُ سَيَتَزَوَّجُهَا، وَخَشِيَ ﷺ أَنْ يُلْحَقَهُ قَوْلُ مِنَ النَّاسِ، فِي أَنْ يَتَزَوَّجَ زَيْنَبَ بَعْدَ زَيْدٍ، وَهُوَ مَوْلَاهُ وَقَدْ أَمَرَهُ بِطَلَاقِهَا، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَنْ خَشِيَ النَّاسَ فِي شَيْءٍ؛ قَدْ أَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ.

قال عياض: وتأويل علي بن الحسين أحسن التأويلات وأصحها، وهو قول ابن عطاء، وصححه واستحسنه، انتهى.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني بالإسلام وغير ذلك ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يعني بالعنق، وهو زيد بن حارثة، وزينب هي بنت جحش، بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ؛ ثم أعلم - تعالى - نبيه أنه زَوَّجَهَا مِنْهُ لَمَّا قَضَى زَيْدٌ وَطَرَهُ مِنْهَا؛ لِتَكُونَ سَنَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ، وَلِيُبَيِّنَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَحَرَمَةِ الْبَنُوَّةِ، وَالْوَطَرُ: الْحَاجَةُ وَالْبَغْيَةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾: فيه حذف مضافٍ تقديره: وَكَانَ حَكْمُ أَمْرِ اللَّهِ، أَوْ مُضْمَنُ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَالْأَمْرُ قَدِيمٌ لَا يوصف بأنه مفعول، ويحتمل أن يكون الأمر واحد الأمور التي شأنها أن تفعل / وعبرة الواحدي: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كائنًا ١٧٥ لا محالة، وَكَانَ قَدْ قَضَى فِي زَيْنَبَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. انتهى.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٢٨) الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له...﴾ الآية: هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة؛ أعلمهم أنه لا حرج على نبيه في نيل ما فرض الله له وأباحت له من تزويجه لزينب بغير زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء، من أن ينالوا ما أحله الله لهم، وعبرة الواحدي: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي: أحل الله له من النساء. ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾، يقول: هذه سنة قد مضت لغيرك؛ يعني كثرة أزواج داود وسليمان - عليهما السلام - ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ قضاء مقضياً. وقوله تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ من نعت قوله: ﴿في الذين خلوا من قبل﴾، انتهى.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحْنُ نَحْمَدُكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿٤٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ إلى قوله ﴿كرماً﴾ أذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم؛ لأنهم استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفي القرآن تلك البتوة، وقوله: ﴿أبا أحد من رجالكم﴾ يعني المعاصرين له وباقي الآية بين. ثم أمر سبحانه عباده بأن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل تعالى ذلك دون حد ولا تقدير؛ لسهولة على العبد، ولعظم الأجر فيه. قال ابن عباس: لم يُعَدَّ أحد في ترك ذكر الله عز وجل إلا من غلب على عقله^(١)، وقال: الذكر الكثير أن لا تنساه أبداً.

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ؛ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ»^(٢). *ت*:

(١) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٠) رقم (٢٨٥٣١)، وذكره البغوي (٥٣٤/٣)، وابن كثير في «تفسيره» (٢/٤٩٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٨٦/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٦٨/٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص ٢٨٩) رقم (٩٢٥)، وأبو يعلى (٥٢١/٢) رقم (١٣٧٦)، وابن حبان (٨٠٥)، والحاكم (٤٩٩/١) كلهم من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٩/١٠) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، وفيه دراج وقد ضعفه جماعة، وبقي رجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

وهذا الحديث خرّجه ابن جرّان في «صحيحه».

وقوله: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أراد في كل الأوقات فحدّد الزمّن بطرفيّ نهاره وليّله، والأصيل من العصر إلى الليل، وعن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأَظْلَةَ لِذِكْرِ اللَّهِ»^(١) رواه الحاكم في «المستدرک»، انتهى من «السلاح».

وقوله سبحانه: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته...﴾ الآية: صلاة الله على العبد هي رحمته له، وصلاة الملائكة هي دعاؤهم للمؤمنين. ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم.

وقوله تعالى: ﴿تحتيتهم يوم يلقونه سلام﴾ قيل: يوم القيامة تُحيّ الملائكة المؤمنين بالسلام، ومعناه: السلامة من كل مكروه، وقال قتادة: يوم دُخولهم الجنة يحيي بعضهم بعضاً بالسلام^(٢)، والأجر الكريم: جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾^(٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجاً مُنِيراً^(٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً^(٤٧) وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا^(٤٨) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَاجُهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا^(٤٩).

وقوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً...﴾ الآية، هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم.

وقوله: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي: بأمره ﴿وسراجاً منيراً﴾ استعارة للنور الذي تَضَمَّنَهُ شَرْعُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾.

(١) أخرجه الحاكم (٥١/١)، والبيهقي (٣٧٩/١)، كتاب الصلاة: باب مراعاة أداء المواقيت، من حديث ابن أبي أوفى مرفوعاً.

وقال الحاكم: إسناده صحيح. ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٦/١٠) رقم (٢٨٥٣٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٨٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٤٩٦/٣). والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٠/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

قال *ع*: قال لنا أبي - رحمه الله -: هذه الآية من أزجى آية عندي في كتاب الله - عز وجل -.

قال أبو بكر بن الخطيب: أخبرنا أبو نُعَيْم الحافظ، ثم ذكر سنده إلى ابن عباس قال: ٧٥ ب قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أنزلت عليَّ آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ / شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قال: شاهداً: على أمتك، ومبشراً: بالجنة، ونذيراً: من النار، وداعياً: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، بإذنه: بأمره، وسراجاً منيراً: بالقرآن. انتهى من «تاريخ»^(١) بغداد له، من ترجمة «محمد بن نصر».

وقوله تعالى: ﴿ودع أذاهم﴾ يحتمل أن يريد أن يأمره تعالى بترك أن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول، ويَحْتَمَلُ أن يريد: أَعْرِضْ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وما يؤذونك به، فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل؛ وهذا تأويل مجاهد^(٢)، وباقي الآية بين.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ اللَّاتِي عَمَّيْتِ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَوَاتِ عَيْكَ وَنَوَاتِ عَمَّتِكَ وَنَوَاتِ خَالِكَ وَنَوَاتِ خَلَّتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

.. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ...﴾ الآية، ذهب ابن زيد والضحاك في تفسير هذه الآية إلى: أن الله تعالى أحل لنبيه أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، وأباح له كل النساء بهذا الوجه، وإنما خَصَّصَ هؤلاء بالذكر تشريفاً لهن؛ فالآية على هذا التأويل فيها إباحة مطلقة في جميع النساء، حاشى ذوات المحارم المذكور حُكْمُهُنَّ^(٣) في غير هذه الآية. ثم قال بعد هذا «ترجي من تشاء منهن» أي: من هذه الأصناف كلها، ثم تجري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله تعالى: ﴿ولا أن تبدل

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/٣١٩).

(٢) أخرجه الطبري (٣٠٧/١٠) رقم (٢٨٥٣٨) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤/٣٩٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣٩١)، وعزاه للغريبي، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٠٩/١٠) عن ابن زيد برقم (٢٨٥٤٤)، وعن الضحاك برقم (٢٨٥٤٥)، وذكره ابن عطية (٤/٣٩١).

بهن ﴿[الأحزاب: ٥٢] فيجئ هذا الضمير مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط؛ على الخلاف في ذلك، وتأول غير ابن زيد في قوله: ﴿أحللنا لك أزواجك﴾ من في عصمته ممن تزوجها بمهر؛ وأن ملك اليمين بعد حلال له؛ وأن الله أباح له مع المذكورات بنات عمه وعماته، وخاله، وخالاته، ممن هاجر معه، والواهبات خاصة، فيجئ الأمر على هذا التأويل أضيق على النبي ﷺ، ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس: كان النبي ﷺ يتزوج في أي النساء شاء، وكان ذلك يشق على نسائه، فلما نزلت هذه الآية، وحرم عليه بها النساء؛ إلا من سمي سر نسائه بذلك^(١).

وقوله سبحانه: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي...﴾ الآية، قال السهيلي: ذكر البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كانت حولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن؛ لرسول الله ﷺ، فدل على أنهن كن غير واحدة^(٢)، انتهى: وقوله: ﴿خالصة لك﴾ أي: هبة النساء أنفسهن خاصة بك دون أمتهن.

قال *ع*^(٣): ويظهر من لفظ أبي بن كعب أن معنى قوله: «خالصة لك» يراد به جميع هذه الإباحة؛ لأن المؤمنين لم يبح لهم الزيادة على أربع^(٤). وقوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ يريد هو كون النكاح بالولي والشاهدين، والمهر، والاقتصار على أربع؛ قاله قتادة ومجاهد.

وقوله: ﴿لكي لا﴾ أي: بينا هذا البيان. ﴿لكي لا يكون عليك حرج﴾ ويظن بك أنك قد أتممت عند ربك.

﴿ترجي من تشاء منهم وتقوى إليك من تشاء ومن أبغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ ذلك أدلة أن نقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آلتتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً ﴿٥١﴾.

وقوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهم...﴾ الآية، ترجي معناه: تؤخر وتؤوي.

(١) ذكره ابن عطية (٣٩١/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٣/٥)، وعزه لابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره البخاري تعليقاً (٦٨/٩) كتاب النكاح: باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد، حديث (٥١١٣).

(٣) ينظر: «المحور» (٣٩٢/٤).

(٤) أخرجه الطبري (٣١١/١٠) رقم (٢٨٥٥٢).

وذكره ابن عطية (٣٩٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠٠/٣).

معناه: تَضُمُّ وتُقَرَّب، ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى فَسَّحَ لِنَبِيِّهِ فيما يفعله في جَهَةِ النساء، والضمير في «منهن» عائذ على مَنْ تَقَدَّمَ ذكره من الأصناف؛ حَسَبَ الْخِلَافِ المذكور في ذلك، وهذا الإرجاء والإيواء يحتمل معاني؛ منها: أن المعنى في الْقَسَمِ، أي: تُقَرَّبُ مَنْ شِئْتَ فِي الْقِسْمَةِ لَهَا مِنْ نَفْسِكَ وَتُوَخَّرُ عَنْكَ مِنْ شِئْتَ وَتُكْثَرُ لِمَنْ شِئْتَ وَتُقَلُّ لِمَنْ شِئْتَ، لا حَرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ، فإذا عَلِمَنْ هُنَّ أَنَّ هذا هو حكم الله / لك؛ رَضِيْنَ وَقَرَّتْ أَعْيُنُهُنَّ؛ وهذا تأويل مجاهد وقادة والضحاك^(١).

قال *ع^(٢): * لأن سَبَبَ هذه الآية تَغَايِرَ وَقَعَ بَيْنَ رُؤُجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ نَأْدَى بِهِ.

وقَالَ ابن عباس^(٣): المعنى في طَلَاقٍ مَنْ شَاءَ وَإِمْسَاكَ مَنْ شَاءَ.

وقال الحسن بن أبي الحسن^(٤): المعنى في تَزْوُجٍ مَنْ شَاءَ؛ وترك مَنْ شَاءَ.

قال *ع^(٥): * وعلى كُلِّ مَعْنَى فالآية معناها: التَّوَسُّعُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ والإباحة له وذهب هبة الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أن قوله «ترجي من تشاء...» الآية، ناسخ لقوله: «لا يحل لك النساء من بعد» [الأحزاب: ٥٢] الآية.

وقوله تعالى: «ومن ابتغيت ممن عزلت» يحتمل معاني: أحدها؛ أن تكون «من» للتبعض، أي: من أردت؛ وطلبتَه نفسك ممن كنت قد عزلته وأخرته؛ فلا جناح عليك في رده إلى نفسك وإيوائه إليك، ووجه ثانٍ؛ وهو أن يكون مُقَوِّياً ومؤكدًا لقوله: «ترجي من تشاء» و«تؤوي من تشاء» فيقول بعدُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ وَمَنْ عَزَلْتَ فذلك سواء؛ لا جناح عليك في رده إلى نفسك وإيوائه إليك.

وقوله: «ويرضين بما آتيتهن» أي من نفسك، ومالك، واتفقت الروايات على أنه -

(١) أخرجه الطبري (٣١٣/١٠) عن قتادة برقم (٢٨٥٦٦)، وعن الضحاك برقم (٢٨٥٦٨)، وذكره ابن عطية (٣٩٣/٤)، وابن كثير في تفسيره (٥٠١/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) ينظر: «المحرر» (٣٩٣/٤).

(٣) أخرجه الطبري (٣١٣/١٠) رقم (٢٨٥٧٠)، وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٧/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري (٣١٤/١٠) رقم (٢٨٥٧١) بنحوه. وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٣/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٧/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه بنحوه.

(٥) ينظر: «المحرر» (٣٩٣/٤).

عليه السلام - مع ما جعلَ الله له من ذلك كان يُسوِّي بينهم في القَسَمِ تَطْيِيباً لِنَفْسِهِمْ؛ وأخذاً بالفضل، وما خصه الله من الخلق العظيم - صلى الله عليه وعلى آله - غَيْرَ أَنْ سَوَدَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا لعائشة تَقَمُّناً لمسرة رسول الله ﷺ.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَضِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِلَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِلُ مِنَ الْغَوَى وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ قيل كما قدمنا: إنها حظرت عليه النساء إلا التسع وما عُطِفَ عَلَيْهِنَّ؛ على ما تقدم لابن عباس وغيره، قال ابن عباس وقتادة: جَازَاهُنَّ اللَّهُ بِذَلِكَ، لما اخترن الله ورسوله^(١)، ومن قال: بأن الإباحة كانت له مُطْلَقَةً قَالَ هنا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ معناه: لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات، ولا ينبغي أن يكن أمهات المؤمنين؛ وَرُويَ هَذَا عَنْ مجاهد^(٢) وكذلك قَدَّرَ: ولا أن تبدل اليهوديات والنصرانيات بالمسلمات؛ وهو قول أبي رزين وابن جبير^(٣) وفيه بُعْدٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ هذه الآية تضمنت قِصَّتَيْنِ: إحداهما: الأدب في أمر الطَّعَامِ والجلوس، والثانية: أمرُ الحِجَابِ.

(١) أخرجه الطبري (٣١٦/١٠) رقم (٢٨٥٨١) عن ابن عباس، وعن قتادة برقم (٢٨٥٨٢)، وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠١/٣). والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٩/٥)، وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٣١٨/١٠) (٢٨٥٨٩)، وذكره البغوي (٥٣٨/٣)، وابن عطية (٣٩٤/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣٩٩/٥)، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٩٤/٤).

قال الجمهور: سببها أن النبي ﷺ لما تزوج زَيْنَب بنت جَحْش، أَوْلَمَ عَلَيْهَا؛ وَدَعَا النَّاسَ، فَلَمَّا طَعِمُوا، قَعَدَ نَفَرٌ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، فَقُتِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَكَانُهُمْ، فَخَرَجَ؛ لِيُخْرِجُوا بِخُرُوجِهِ، وَمَرَّ عَلَى جِحْرِ نِسَائِهِ، ثُمَّ عَادَ فَوَجَدَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ، وَزَيْنَبُ فِي الْبَيْتِ مَعَهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ وَرَأَاهُمْ انصَرَفَ، فَخَرَجُوا عِنْدَ ذَلِكَ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَأُعْلِمَ أَوْ^(١) أَعْلَمْتُهُ بِأَنصِرَافِهِمْ، فَجَاءَ، فَلَمَّا وَصَلَ الْحُجْرَةَ، أَرَاخَى السُّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ وَدَخَلَ، وَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ بِسَبَبِ ذَلِكَ^(٢).

قال إسماعيل بن أبي حكيم: هذا أَذْبَ أَذْبَ اللَّهُ بِهِ الثُّقَلَاءَ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ وَجَمَاعَةٌ: سَبَبُ الْحِجَابِ: كَلَامُ عُمَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مراراً في أن يَحْجُبَ نِسَاءَهُ^(٣)، و﴿ناظرين﴾ معناه: مُنْتَظَرِينَ، و﴿إناه﴾: مصدر «أنى» الشيء يَأْنِي أنى، إِذَا قَرَعَ وَحَانَ، وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ يُقَالُ: إِنَاهُ: إِدْرَاكُهُ أَنى يَأْنِي إِنْاءَهُ، انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ معناه: لَا يَقَعُ مِنْهُ تَرْكُ الْحَقِّ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ يَقَعُ مِنَ الْبَشَرِ لِعِلَّةِ الْإِسْتِحْيَاءِ؛ نَفَى عَنْهُ تَعَالَى الْعِلَّةَ الْمَوْجِبَةَ لِذَلِكَ فِي الْبَشَرِ، وَعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهُنَّ؛ لَا يَوْمُ رَجُلٍ قَوْماً؛ ب ٧٦ فَيُخَصَّ نَفْسُهُ بِالِدُّعَاءِ دُونَهُمْ؛ فَإِنْ فَعَلَ، فَقَدْ خَانَهُمْ، وَلَا يَنْظُرُ فِي فِعْرِ بَيْتٍ /؛ قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ؛ فَإِنْ فَعَلَ، فَقَدْ خَانَ، وَلَا يُصَلِّي وَهُوَ حَاقِنٌ حَتَّى يَتَخَفَّفَ»^(٤). رواه أبو داود

(١) في ج: و.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٧/٨) كتاب التفسير: باب ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾، حديث (٤٧٩١، ٤٧٩٢، ٤٧٩٣، ٤٧٩٤)، وفي (١٣٤/٩) كتاب النكاح: باب الهدية للعرس، حديث (٥١٦٣)، وفي (٩/ ١٣٧-١٣٨) كتاب النكاح: باب الوليمة حق، حديث (٥١٦٦)، وفي (٢٤/١١) كتاب الاستئذان: باب آية الحجاب، حديث (٦٢٣٨، ٦٢٣٩)، ومسلم (١٠٥٠-١٠٥٢) كتاب النكاح: باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، حديث (٩٣، ٩٤ / ١٤٢٨)، والنسائي في «التفسير» (٤٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠ / ٣٢٣-٣٢٤) رقم (٢٨٦٠٨-٢٨٦٠٥)، والبيهقي (٧/ ٨٧) كتاب النكاح: باب سبب نزول آية الحجاب، كلهم من حديث أنس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٠١)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ٣٢٦) (٢٨٦١٩)، وذكره البغوي (٣/ ٥٤٠)، وابن عطية (٤/ ٣٩٥)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٠٥١٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٤٠٣)، وعزاه لابن جرير عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٧٠) كتاب الطهارة: باب أيصلي الرجل وهو حاقن، حديث (٩٠)، والترمذي (٢/ ١٨٩) كتاب الصلاة: باب ما جاء في كراهية أن يخص الإمام نفسه بالدعاء، حديث (٣٥٧)، وابن ماجه (٢٠٢/١) كتاب الطهارة: باب ما جاء في النهي للحاقن أن يصلي، حديث (٦١٩)، وأحمد (٥/ ٢٨٠)

واللفظ له، وابن ماجه، والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن، ورواه أبو داود أيضاً من حديث أبي هريرة^(١)، انتهى من «السلام».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا...﴾ الآية، هي آية الحجاب، والمتاع عام في جميع ما يمكن أن يُطلب من المَوَاعِينِ وسائر المرافق، وباقي الآية يبين. وقد تقدّم في سورة النور طَرْفٌ من بَيَانِهِ فَأَعْنَى عن إعادته.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ
 يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
 لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدَنُ أَنْ يَعْرِفَ فَلَ يُؤْذِنَنَّ وَأَنَّ اللَّهَ
 عَاقِبُهُمْ رَجِيمًا ٥٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآية، تَضَمَّنَتْ شَرْفَ النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى.

قالت فرقة: تقدير الآية: أن الله يُصَلِّي وملائكته يصلُّون، فالضمير في قوله «يصلُّون»: للملائكة فقط. وقالت فرقة: بل الضمير في «يصلُّون» لله والملائكة؛ وهذا قول من الله تعالى، شَرَفَ به ملائكته؛ فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: مَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فَقَدْ ضَلَّ، فَقَالَ النبي ﷺ: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَتَتْ»^(٢). وهذا القدر كافٍ هنا، وصلاة الله تعالى: رحمة منه وبركة، وصلاة الملائكة: دعاء، وصلاة المؤمنين: دعاء، وتعظيم، والصلاة على النبي ﷺ في كل حين؛ من الواجبات وجوب السُنَنِ المؤكدة التي لا يسع تركها؛ وَلَا يُغْفَلُهَا إِلَّا مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، وفي حديث ابن عباس: أنه لما نزلت هذه الآية؛ قال قوم من الصحابة: «هَذَا السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟» الحديث^(٣).

من حديث ثوبان. وله شاهد من حديث أبي هريرة:

أخرجه أبو داود (١/ ٧٠ - ٧١) كتاب الطهارة: باب أيصلي الرجل وهو حاقن، حديث (٧١).

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث (٤٨/ ٨٧٠)، وأبو داود

(١/ ٣٥٥ - ٣٥٦) كتاب الصلاة: باب الرجل يخطب على قوس حديث (١٠٩٩)، والنسائي (٦/ ٩٠)

وأحمد (٤/ ٢٥٦، ٣٧٩)، والحاكم (١/ ٢٨٩).

(٣) تقدم تخريجه.

ت*: ولفظ البخاري: عن كعب بن عُجْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقَدْ عَرَفْتَاهُ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١). انتهى؛ وفيه طرقٌ يزيدُ فيها بعضُ الرواةِ على بَعْضٍ، وفي الحديثِ عنه ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»^(٢) الحديثُ رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، واللفظ لأبي داود، ورواه الحاكم في «المستدرک» من حديث أبي مسعود الأنصاري، وقال: صحيح الإسناد، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي؛ حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»^(٣) وعنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»^(٤). رواهما أبو داود، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢/٨) كتاب التفسير: باب «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» حديث (٤٧٩٧)، ومسلم كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد حديث (٤٠٥/٦٦)، وأبو داود (٢٥٧/١) كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد حديث (٩٧٦) والترمذي (٣٥٢/٢)، كتاب الصلاة: باب ما جاء في صفة الصلاة على النبي ﷺ حديث (٤٨٣) والنسائي (٤٧/٣) كتاب السهو: باب (٥١) حديث (١٢٨٨)، وابن ماجه (١/٢٩٢-٢٩٣) كتاب إقامة الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ حديث (٩٠٤)، وأبو عوانة (٢/٢١٢-٢١٣) والدارمي (١/٣٠٩) كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ، وأحمد (٤/٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤)، وأبو داود الطيالسي (١/١٠٣-منحة) رقم (١٠٣) وعبد بن حميد في «المستخب من المسند» (ص - ١٤٤) رقم (٣٦٨) والحميدي (٢/٣١٠-٣١١) رقم (٧١١، ٧١٢)، وابن الجارود في «المتقى» رقم (٢٠٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٢/٣١)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٥٦، ٥٧، ٥٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/٧٢-٧٣) وابن حبان (٣/٣١٧) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٩٣) والطبراني في «الصغير» (١/٨٥-٨٦) وفي «الكبير» (١٩/١١٦) رقم (٢٤١، ٢٤٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٣٥٦) والبيهقي في «سننه» (٢/١٤٧-١٤٨)، كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد، وفي «شعب الإيمان» (٢/٢٠٧) رقم (١٥٤٨) والبيهقي في «شرح السنة» (٢/٢٨١-بتحقيقنا) والحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/١٨٤-١٨٥) كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة به وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١/٦٣٥) كتاب الصلاة: باب فضل الجمعة حديث (١٠٤٧) والنسائي (٣/٩١-٩٢) كتاب الجمعة: باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١/٥٢٤) كتاب الجنائز: باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ حديث (١٦٣٦)، وأحمد (٤/٨)، والدارمي (١/٣٦٩) كتاب الصلاة: باب في فضل الجمعة.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٥٢٧)، وأبو داود (١/٦٢٢) كتاب المناسك: باب زيارة القبور، حديث (٢٠٤١)، والبيهقي (٥/٢٤٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) تقدم تخريجه قريباً، وهو حديث أوس بن أوس: «إِنَّ أَفْضَلَ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ».

النبي ﷺ قال: «أولَى الناس بي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةٌ»^(١). رواه الترمذي، وابن حبان في «صحيحه»، ولفظهما سواء، وقال الترمذي: حسن غريب. انتهى من «السلام».

وقوله سبحانه: ﴿يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الجلابيب: ثوبٌ أَكْبَرُ مِنَ الْخِمَارِ، ورُوي عن ابن عباس وابن مسعود: أَنَّهُ الْخِمَارُ، واخْتَلَفَ فِي صُورَةِ إِدْنَائِهِ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢) / وغيره: ذَلِكَ أَنَّ تَلْوِيَهُ الْمَرْأَةَ حَتَّى لَا يَظْهَرَ مِنْهَا إِلَّا عَيْنٌ وَاحِدَةٌ تَبْصُرُ بِهَا، وَقَالَ ١٧٧ ابن عباس أيضاً وقتادة: ذَلِكَ أَنَّ تَلْوِيَهُ عَلَى الْجَبِينِ وَتَشْدُّهُ، ثُمَّ تَغْطِطُهُ عَلَى الْأَنْفِ، وَإِنْ ظَهَرَتْ عَيْنَاهَا؛ لَكِنَّهُ يَسْتُرُ الصَّدْرَ وَمَعْظَمَ الْوَجْهِ^(٣).

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ﴾: أي حتى لا يختلطن بالإماء، فإذا عُرِفْنَ لم يقابلن بأذى من المعارضة؛ مراقبةً لرتبة الحرائر، وليس المعنى أن تُعْرَفَ الْمَرْأَةُ حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ هِيَ؛ وَكَانَ عَمْرٌ إِذَا رَأَى أُمَّةً قَدْ تَقَنَّتْ قَتْعَهَا بِالذِّمَّةِ مَحَافِظَةً عَلَى زِيِّ الْحَرَائِرِ.

﴿لَنْ تَرِيَنَّهُ أَتْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقُولُوا تَقْبِلَا﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةَ السَّاعَةِ تَكُونُ فَرِيضًا﴾ (٦٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٤) ﴿خَلَّيْنِ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٥) ﴿يَوْمَ نُفَلِّتُ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٦) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَانَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ (٦٧) ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِيهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ (٦٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ (٦٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١).

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِيَنَّهُ أَتْمَنَافِقُونَ...﴾ الآية. اللام في قوله: ﴿لَنْ تَرِيَنَّهُ﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: هي لام القسم.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤/٢) كتاب الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، حديث (٤٨٤)، وابن حبان (١٩٢/٣)، رقم (٩١١)، من حديث ابن مسعود.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٢/١٠) عن ابن عباس برقم (٢٨٦٤٧)، وذكره البغوي (٥٤٤/٣)، وابن عطية (٤/٣٩٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٥/٨) عن ابن عباس رضي الله عنه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤١٥)، وعزاه لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس.

(٣) ذكره ابن عطية (٣٩٩/٤).

قلت: وَرَوَى الترمذي عن ابن عُمرَ قال: صَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَنْبَرَ، فَتَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَفُضْ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ؛ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ...» الحديث^(١). انتهى. ورواه أبو داود في «سننه» من طريق أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ^(٢) وتوَعَّدَ اللَّهُ سبحانه هذه الأصناف في هذه الآية.

وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المرض، هنا: هو الغَزَلُ وحب الزنا؛ قاله عكرمة^(٣). ﴿وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾: هم قوم كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة؛ ونحو هذا مما يُرْجَفُونَ بِهِ نُفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ، فيحتمل أن تكونَ هذه الْفِرْقُ دَاخِلَةً في جملة المنافقين، ويحتمل أن تكونَ متباعدةً و﴿نَغْرِينُكَ﴾ معناها: نحضك عليهم بعد تعيينهم لك. وفي «البيخاري»: وقال ابن عباس^(٤): ﴿لنغرينك﴾: لنسلطنك. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ أَيُّ: بعد الإغراء لأنك تَنْفِيهِمْ بِالْإِخَافَةِ وَالْقَتْلِ.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل: أن يريد إلا جَوَارًا قَلِيلًا، أو وقتًا قَلِيلًا، أو عددًا قَلِيلًا، كأنه قال: إلا أَقْلَاءَ، و﴿ثَقُفُوا﴾: معناه: حَصِرُوا وَقُدِرَ عَلَيْهِمْ و﴿أَخْذُوا﴾: معناه: أُسِرُوا والأَخِيذُ الأسيرُ. و﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم منافقو الأمم، وباقي الآية مُتَضِحٌ الْمَعْنَى. و﴿السَّبِيلَا﴾: مفعول ثانٍ؛ لِأَنَّ «أَضْلَ» متعدٍ بِالْهَمْزَةِ، وهي سبيلُ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى،

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨/٤) كتاب البر والصلة: باب ما جاء في تعظيم المؤمن، حديث (٢٠٣٢) من حديث ابن عمر.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وأخرجه أبو داود (٦٨٦/٢) كتاب الأدب: باب في الغيبة، حديث (٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٢) تقدم تخريجه، وينظر الحديث السابق.

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٣/١٠) (٢٨٦٥٤) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣٩٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥١٩) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٧/٥)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار عن عكرمة بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٣٣٤/١٠) (٢٨٦٦١)، وذكره ابن عطية (٤٠٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤١٨/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿الذين آذوا موسى﴾: هم قومٌ من بني إسرائيل. قال ابن عباس وأبو هريرة وجماعة: الإشارة إلى ما تضمنه حديث النبي ﷺ «من أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عُرَاةً، وكان موسى عليه السلام رجلاً سِتيراً حَيًّا، لَا يَكَاذُ يُرَى مِنْ جَسَدِهِ شَيْءٌ؛ فَقَالُوا: وَاللَّهِ، مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ أَذْرُ أَوْ بِهِ بَرَصٌ، فَذَهَبَ يَغْتَسِلُ؛ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَقَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَلَجَّ مُوسَى فِي إِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرٌ، ثَوْبِي حَجَرٌ، فَمَرَّ بِهِمْ فَتَنَظَرُوا إِلَيْهِ؛ فَقَالُوا: وَاللَّهِ، مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ». الحديث^(١) خَرَجَ الْبُخَارِيُّ وغيره، وقيل في إذايتهم غير هذا. ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ والوجية: المكْرُمُ الوجه، والقول السَّديدُ: يَعْصِي جَمِيعَ الْخِيَارِ. وقال عكرمة: أراد «لا إله إلا الله»^(٢) وباقي الآية بَيِّن.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، ذهب الجمهور: إلى أن الأمانة كل شيء يُؤْتَمَنُ الإنسانُ عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا؛ فالشرع / كله أمانة؛ ومعنى الآية: إنا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأوامر^{٧٧ ب} والنواهي ولها الثواب إن أحسنَتْ، والعقاب إن أساءت، فأبَتْ هذه المخلوقات وأشفقت، فيحتمل أن يكونَ هذا بِإِدْرَاكِ يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَرَضُ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَحَمَلَ الْإِنْسَانُ الْأَمَانَةَ، أَي: التَّزَمَ الْقِيَامَ بِحَقِّهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ ظَلُومٌ لِنَفْسِهِ جَهُولٌ بِقَدْرِ مَا دَخَلَ فِيهِ؛ وَهَذَا هُوَ تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جَبْرِ. قال ابن عباس وأصحابه: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ آدَمُ تَحَمَّلَ الْأَمَانَةَ؛ فَمَا تَمَّ لَهُ يَوْمَ حَتَّى وَقَعَ فِي أَمْرِ الشَّجَرَةِ^(٣). وقال بعضهم: ﴿الْإِنْسَانُ﴾: النَّوْعُ كُلُّهُ؛ فعلى تأويل الجمهور يكون قولهما في الآية الأخرى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ إجابةً لِأَمْرِ أَمْرٍ بِهِ وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ إِبَاطَةً وَإِشْفَاقاً مِنْ أَمْرِ عَرَضَ عَلَيْهَا وَخُيِّرَتْ فِيهِ.

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري (٣٣٨/١٠) (٢٨٦٨٠)، وذكره البغوي (٥٤٦/٣)، وذكره ابن عطية (٤٠١/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢١/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٢١/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٣٩/١٠) (٢٨٦٨٣)، وذكره ابن عطية (٤٠٢/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٢/٣) والسيوطي في «الدر المنثور» وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ﴾: اللامُ لامُ العاقِبةِ، وكذا قال أبو حيان: اللام في ﴿لِيُعَذِّبَ﴾: لِلصَّيْزُورَةِ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْ الْأَمَانَةَ لِيُعَذِّبَ، ولكنَّ آلَ أمره إلى ذلك.

ص: أبو البقاء: اللام تَتَعَلَّقُ بِـ: ﴿حَمَلُهَا﴾ وقرأ^(١) الأعمش: «ويتوب» بالرفع على الاستِثْناءِ، والله أعلم. انتهى. وباقي الآية بيِّن.

(١) قال الزمخشري: وقرأ الأعمش «ويتوب»؛ ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، ويتبدى: ويتوب الله. ومعنى قراءة العامة: ليعذب الله حامل الأمانة، ويتوب على غيره ممن لم يحملها؛ لأنه إذا تيب على الوافي، كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر. والله أعلم.

ينظر: «الكشاف» (٥٦٥/٣)، و«مختصر الشواذ» ص (١٢١)، و«البحر المحيط» (٢٤٤/٧)، و«الدر المصون» (٤٢٧/٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ «سُورَةِ سَبَا»

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

واختلفَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية. فَقِيلَ: ذَلِكَ مَكِّيٌّ، وقيل: مَدَنِيٌّ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
 ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ
 الْغَفُورُ ﴿٢﴾.

قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ الألف واللام في ﴿الحمد﴾: لاستغراق جنس المحامد، أي: الحمد على تنوعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، و﴿يلج﴾ معناه: يدخل، و﴿يعرج﴾ معناه: يصعد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مَنَاقِلُ
 ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ
 ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَجْرَهُمْ ثُمَّ تَغْفِرُ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ
 سَعَوْا بِآيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي
 أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ
 نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّ مَزِقْتُ لَنَفْسِي جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ
 بِهِ جُنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالْعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَّشَأْ نَخْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ
 السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي
 مَعَهُ وَالْقَلِيلَ وَالنَّاسُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَقَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ رُوي: أَنَّ قَاتِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ هُوَ أَبُو

سفيان بن حرب^(١)، واللام من قوله: ﴿ليجزى﴾ يصح أن تكون متعلقة بقوله: ﴿لتأينكم﴾ و﴿الذين﴾ معطوف على ﴿الذين﴾ الأولى، أي: وليجزى ليجزي الذين سَعَوْا و﴿معاجزين﴾ معناه: مُحَاوِلِينَ تَعْجِيزَ قُدْرَةِ اللَّهِ فِيهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ يَرْوُونَ الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَقًّا، وَ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ﴾ قِيلَ: هُمْ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ الْمُؤْمِنُونَ^(٢) بِهِ، ثُمَّ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْكُفَّارِ مَقَالَتَهُمُ الَّتِي قَالُوهَا عَلَى جِهَةِ التَّعْجِيزِ وَالْهَزْءِ وَاسْتِغْنَادِ الْبَغْتِ، ﴿هَلْ نَذَلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ؟﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿يَبْنِيكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ بِالْبَلَى وَتَقَطُّعِ الْأَوْصَالِ فِي الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا و﴿جديد﴾ بمعنى مُجَدِّدٍ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هُوَ أَيْضًا مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْ قَوْلِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ﴾: يُرِيدُ عَذَابَ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ عَذَابَ الدُّنْيَا أَيْضًا، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفْلَمْ يَرَوْا﴾ لَهُوَلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؛ وَقَفَّهْمُ اللَّهُ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ إِحَاطَتِهَا بِهِمْ، وَالْمَعْنَى: أَلَيْسَ يَرَوْنَ أَمَامَهُمْ وَوَرَاءَهُمْ سَمَائِي وَأَرْضِي، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ، ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى دَاوُدَ وَسَلِيمَانَ / احْتِجَاجًا عَلَى مَا مَنَحَ مُحَمَّدًا، و﴿أُوبِي﴾ مَعْنَاهُ: رَجَعِي مَعَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: يَا جِبَالَ سَبِّحِي مَعَهُ، أَيْ: يُسَبِّحُ هُوَ وَتَرْجِعُ هِيَ مَعَهُ التَّسْبِيحَ، أَيْ: تُرَدِّدُهُ بِالذِّكْرِ^(٣).

وقال مؤرج: ﴿أُوبِي﴾ سَبِّحِي بِلُغَةِ الْحَبَشَةِ، وَقَرَأَ^(٤) عَاصِمٌ: «وَالطَّيْرُ» - بِالرَّفْعِ - عَطْفًا عَلَى لَفْظِ قَوْلِهِ: «يَا جِبَالَ» وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ: «وَالطَّيْرُ» - بِالنَّصْبِ ..

- (١) ذكره ابن عطية (٤٠٥/٤).
 - (٢) أخرجه الطبري (٣٤٧/١٠) (٢٨٧١١)، وذكره البغوي (٥٤٩/٣)، وابن عطية (٤٠٦/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٦/٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة.
 - (٣) أخرجه الطبري (٣٥٠/١٠) (٢٨٧١٩)، وذكره ابن عطية (٤٠٧/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٢٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٦/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة في «المنصف»، وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.
 - (٤) يعني قرأ عاصم في غير رواية حفص. وبها قرأ الأعرج وقرأ بها يعقوب كما ذكر الأزهرى في «معاني القراءات» (٢٩٠/٢). وقرأ بقراءة الجمهور عاصم في رواية حفص، والحسن، وابن أبي إسحاق، وأبو جعفر. وبالجمله فقد قال الأزهرى (٢٨٩/٢): واتفق القراء على نصب قوله: «يَا جِبَالَ أَوْ بِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ».
- وينظر: «المحرر الوجيز» (٤٠٧/٤)، و«البحر المحيط» (٢٥٣/٧)، و«الدر المصون» (٥/٤٣٤).

قَالَ سَيَبَوِّئُهُ: عَطَفَ عَلَى مَوْضِعِ قَوْلِهِ: «يا جبال» لِأَنَّ مَوْضِعَ الْمَنَادَى الْمَفْرَدِ نَضَبٌ، وَقِيلَ: نَضَبُهَا بِإِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرِهِ: وَسَخَرْنَا الطَّيْرَ، ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ مَعْنَاهُ: جَعَلْنَاهُ لَيْنًا، وَرَوَى قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: أَنَّ الْحَدِيدَ كَانَ لَهُ كَالشَّمْعِ؛ لَا يَحْتَاجُ فِي عَمَلِهِ إِلَى نَارٍ^(١)، وَ«السَّابِغَاتُ»: الدُّرُوعُ الْكَاسِيَاتُ ذَوَاتُ الْفُضُولِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الَّذِي أَمَرَ بِهِ هُوَ فِي قَدَرِ الْحَلَقَةِ، أَيْ: لَا تَعْمَلُهَا صَغِيرَةً فَتَضْعَفَ؛ فَلَا يَقْوَى الدُّزْعُ عَلَى الدَّفَاعِ، وَلَا تَعْمَلُهَا كَبِيرَةً، فَيُنَالُ لِأَسْهَأَ مِنْ خِلَالِهَا^(٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّقْدِيرُ: الَّذِي أَمَرَ بِهِ هُوَ فِي الْمِسْمَارِ^(٣)، وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» ذَلِكَ؛ فَقَالَ: الْمَعْنَى: لَا تَدِقْ الْمِسْمَارَ فَيَتَسَلَّلَ وَلَا تُغْلِظْهُ فَيَنْقَصِمَ بِالْقَافِ، وَبِالْفَاءِ أَيْضًا رَوَاةٌ.

***: قَالَ الْهَرَوِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ «السرد» مُتَابِعَةُ حَلَقِ الدُّزْعِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى يَتَنَاسَقَ، يُقَالُ: فَلَانٌ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا، أَيْ: يُتَابِعُهُ. انْتَهَى.

﴿وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ آلَجِنْ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنَ رَيْبٍ وَمَنْ يَرْجُ مِنْهُمْ عَنْ آتِنَا نَذْرَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدَبٍ وَتَمْشِيلٍ وَجَفَانٍ كُلِّجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِبَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ ﴿١٨﴾﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِسْلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ الْمَعْنَى: وَلِسْلَيْمَانَ سَخَرْنَا الرِّيحَ، وَغُدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَاحُهاَ شَهْرٌ.

قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: إِنَّهَا كَانَتْ تَقْطَعُ بِهِ فِي الْعُدُوِّ إِلَى قُرْبِ الزَّوَالِ؛ مَسِيرَةَ شَهْرٍ،

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٥١/١٠) (٢٨٧٣٠) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٠٧/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٢٧) بَنَحُوهُ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ»، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ عَنْ قَتَادَةَ بَنَحُوهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٥١/١٠) (٢٨٧٣٤) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٠٨/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٥٢/١٠) رَقْمَ (٢٨٧٣٥) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤٠٨/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٧/٥) بَنَحُوهُ، وَعِزَّاهُ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَالْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَتَقْطَعُ فِي الرِّوَّاحِ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ، مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَكَانَ سَلِيمَانُ إِذَا أَرَادَ قَوْماً لَمْ يَشْعُرُوا حَتَّى يُظْلَمَ فِي جَوْ السَّمَاءِ^(١). وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظَرِ﴾:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ: كَانَتْ تَسِيلُ لَهُ بِالْيَمَنِ عَيْنٌ جَارِيَةٌ مِنْ نُحَاسٍ؛ يُصْنَعُ لَهُ مِنْهَا جَمِيعُ مَا أَحَبَّ، وَ﴿الْقَظَرُ﴾: النُّحَاسُ^(٢)، وَ﴿يَزْغُ﴾: مَعْنَاهُ: يَمِلُ، أَيْ: يَنْحَرِفُ عَاصِياً، وَقَالَ: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: «عَنْ إِرَادَتِنَا» لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ يَخَالِفُ إِرَادَتَهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى وَيَقَعُ مَا يَخَالِفُ الْأَمْرَ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ عَذَابُ السَّعِيرِ﴾ قِيلَ: عَذَابُ الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَ قَدْ وَكَّلَ بِهِمْ مَلَكٌ بِيَدِهِ سَوْطٌ مِنْ نَارِ السَّعِيرِ؛ فَمَنْ عَصَى ضَرَبَهُ فَأَخْرَقَهُ، وَ«الْمَحَارِبُ»: الْأَبْنِيَّةُ الْعَالِيَةُ الشَّرِيفَةُ، قَالَ قَتَادَةُ: الْقَصُورُ وَالْمَسَاجِدُ وَالتَّمَائِيلُ^(٣)، قِيلَ: كَانَتْ مِنْ زُجَاجٍ وَنُحَاسٍ تَمَائِيلُ أَشْيَاءَ لَيْسَتْ بِحَيَوَانٍ، «وَالْجَوَابِي»: جَمْعُ جَابِيَةٍ وَهِيَ الْبِرْكَةُ الَّتِي يُجْبَى إِلَيْهَا الْمَاءُ وَ«رَاسِيَاتٌ» مَعْنَاهُ: ثَابِتَاتٌ لِكِبَرِهَا، لَيْسَتْ بِمَا يُنْقَلُ أَوْ يُحْمَلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْجُنُّ، ثُمَّ أَمُرُوا مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ بِأَنْ يَغْمُلُوا بِالطَّاعَاتِ، وَ«شُكْرًا» يُحْتَمَلُ نَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ، أَوْ عَلَى جِهَةِ الْمَفْعُولِ، أَيْ: أَعْمَلُوا عَمَلًا هُوَ الشُّكْرُ كَأَنَّ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا هِيَ نَفْسُ الشُّكْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعَدَ الْمَنْبَرَ فَقَتَلَ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ أُوْتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ الْعَمَلَ شُكْرًا: الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْعُصْبُ، وَالْقُصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»^(٤)، وَهَكَذَا نَقَلَ ابْنُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٥٣/١٠) بِرَقْم (٢٨٧٤٠) بَنَحُوهُ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «فِي تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٠٨)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٤٢٧/٥) بَنَحُوهُ، وَعَزَاهُ لِعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٥٣/١٠) بِرَقْم (٢٨٧٤٥) عَنْ قَتَادَةَ، وَرَقْم (٢٨٧٤٦) عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، وَرَقْم (٢٨٧٤٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٥١)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٠٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٢٨) بَنَحُوهُ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥/٤٢٨) بَنَحُوهُ، وَعَزَاهُ لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٠/٣٥٤) رَقْم (٢٨٧٥١)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤٠٩)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٢٨)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥/٤٢٩) وَعَزَاهُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ قَتَادَةَ.

(٤) ذَكَرَهُ السِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثُورِ» (٥/٤٣٠-٤٣١)، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ الْمُنْذِرِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مَرْسُلاً، وَإِلَى ابْنِ مَرْدُوَيْهِ عَنْ حَفْصَةَ مَرْفُوعاً.

وَالْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً.

وَابْنُ النُّجَّارِ فِي «تَارِيخِهِ» عَنْ أَبِي ذَرٍّ.

وَذَكَرَهُ الْهِنْدِيُّ فِي «كَنْزِ الْعَمَالِ» (٤٣٢٢٤)، وَعَزَاهُ لِلْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

الْعَرَبِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ فِي «أَحْكَامِهِ» وَعِبَارَةُ الدَّأُوْدِيِّ: وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾، وَقَالَ: ثَلَاثُ مَنْ أُوْتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوْتِيَ مِثْلُ مَا أُوْتِيَ آلُ دَاوُدَ: الْعَدْلُ فِي الْقَضَبِ وَالرُّضَا، وَالْقَضْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى/ فِي السُّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ^(١) ٧٨ ب قَالَ الْقُرْطُبِيُّ^(٢) الشُّكْرُ تَقْوَى اللَّهِ وَالْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ. انتهى.

قَالَ ثَابِتٌ: رُوِيَ أَنَّ دَاوُدَ كَانَ قَدْ جَزَأَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَى أَهْلِهِ؛ فَلَمَّ تَكُنْ تَأْتِي سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ إِلَّا وَإِنْسَانٌ مِنْ آلِ دَاوُدَ قَائِمٌ يُصَلِّي؛ يَتَنَاقَبُونَ دَائِمًا^(٣)، وَكَانَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيهَا رُوِيَ - يَأْكُلُ الشَّعِيرَ وَيُطْعِمُ أَهْلَهُ الْخُشَكَارَ، وَيُطْعِمُ الْمَسَاكِينَ الدَّرَمَكَ^(٤)، وَرُوِيَ أَنَّهُ مَا شَبِعَ قَطُّ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ: أَخَافُ إِنْ شَبِعْتُ أَنْ أَنْسَى الْجِيَاعَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ يُحْتَمَلُ: أَنْ تَكُونَ مَخَاطَبَةً لِآلِ دَاوُدَ، وَيَحْتَمَلُ: أَنْ تَكُونَ مَخَاطَبَةً لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى كُلِّ وَجْهِ؛ فَفِيهَا تَخْرِيطٌ وَتَنْبِيْهُ، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي «الْحِكْمِ»: مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعَقَالِهَا.

وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَلِمِ الْفَارِقِيَةِ»: لَا تَغْفَلَ عَنْ شُكْرِ الصَّنَائِعِ؛ وَسُرْعَةَ اسْتِزْجَاعِ الْوَدَائِعِ، وَقَالَ أَيْضًا: يَا مَيِّتًا تُشِيرُ مِنْ قَبْرِ الْعَدَمِ، بِحُكْمِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، لَا تَنْسَ سَوَالِفَ الْعُهُودِ وَالذَّمَمِ، اذْكُرْ عَهْدَ الْإِيجَادِ، وَذِمَّةَ الْإِحْسَانِ وَالْإِزْفَادِ، وَحَالَ الْإِضْدَارِ وَالْإِيرَادِ، وَفَاتِحَةَ الْمَبْدِ وَخَاتِمَةَ الْمَعَادِ، وَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: يَا دَائِمَ الْعَفْلَةِ عَنْ عَظَمَةِ رَبِّهِ، أَيْنَ النَّظَرُ فِي عَجَائِبِ صُنْعِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي غَرَائِبِ حِكْمَتِهِ، أَيْنَ شُكْرُ مَا أَقَاضَ عَلَيْكَ مِنْ مَلَائِسِ إِحْسَانِهِ وَنِعَمِهِ، يَا ذَا الْفِطْنَةِ، اغْتَنِمِ نِعْمَةَ الْمُهَلَّةِ، وَفُرْصَةَ الْمُكْنَةِ، وَخِلْسَةَ السَّلَامَةِ، قَبْلَ حُلُولِ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ. انتهى.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ

(١) ينظر: الحديث السابق.

(٢) ينظر: «القرطبي» (١٧٧/٤).

(٣) ذكره البخاري في «تفسيره» (٥٥٢/٣)، وابن عطية في «تفسيره» (٤١٠/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/

٥٢٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٠/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي

حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ثابت البناني.

(٤) الدرهمك: هو الدقيق الحواري.

ينظر: «النهاية» (١١٤/٢).

تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَيْسُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فلما قضينا عليه الموت...﴾ الآية. رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(١) وَابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلَامَ طَوِيلٍ، حَاصِلُهُ: أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَحْسَنَ بِقُرْبِ أَجَلِهِ؛ اجْتَهَدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَجَدَ فِي الْعِبَادَةِ؛ وَجَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ أَمِيرُ بَقِيضِ رُوحِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا مُدَّةٌ يَسِيرَةٌ.

قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَقَالَ سُلَيْمَانُ عِنْدَ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ، عَمَّ عَلَى الْجِنِّ مَوْتِي؛ حَتَّى يَغْلَمَ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَكَانَتْ الْجِنُّ تُخْبِرُ الْإِنْسَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ أَشْيَاءَ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا فِي غَدٍ، وَلَمَّا أَعْلَمَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِقُرْبِ الْأَجَلِ؛ أَمَرَ حَبِيبُذَ الْجِنِّ، فَصَنَعَتْ لَهُ قُبَّةً مِنْ زُجَاجٍ تَشْفِي؛ وَدَخَلَ فِيهَا يَتَعَبَّدُ؛ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا بَابًا، وَتَوَكَّأَ عَلَى عَصَاهُ عَلَى وَضْعِ يَتَمَاسِكُ مَعَهُ وَإِنْ مَاتَ، ثُمَّ تَوَفَّيَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَلَمَّا مَضَى لِمَوْتِهِ سَنَةً، خَرَّ عَنْ عَصَاهُ، وَالْعَصَا قَدْ أَكَلَتْهَا الْأَرْضُ؛ وَهِيَ الدُّودَةُ الَّتِي تَأْكُلُ الْعُودَ؛ فَرَأَتْ الْجِنُّ أَنْخِرَازَهُ فَتَوَهَّشَتْ مَوْتَهُ؛ «وَالْمِنْسَاءُ»: الْعَصَا، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿تَبَيَّنَ الْجِنُّ﴾ بِإِسْنَادِ الْفَعْلِ إِلَيْهَا، أَيِ: بَانَ أَمْرُهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: افْتَضَحَتْ الْجِنُّ، أَيِ: لِلْإِنْسِ، هَذَا تَأْوِيلٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿تَبَيَّنَ الْجِنُّ﴾ بِمَعْنَى: عَلِمَتْ الْجِنُّ وَتَحَقَّقَتْ، وَيُرِيدُ بِالْجِنِّ: جُمْهُورَهُمْ، وَالخِدْمَةَ مِنْهُمْ، وَيُرِيدُ بِالضَّمِيرِ فِي «كَانُوا»: رُؤَسَاءَهُمْ وَكِبَارَهُمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ عِلْمَ الْغَيْبِ لِاتِّبَاعِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

١٧٩

/ وَقَرَأَ يَغْقُوبُ: «تَبَيَّنَ الْجِنُّ» عَلَى بِنَاءِ الْفَعْلِ لِلْمَفْعُولِ، أَيِ: تَبَيَّنَتْهَا النَّاسُ، وَ«الْعَذَابُ الْمُهِينُ»: مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخِدْمَةِ وَالتَّسْخِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانَتْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ لَمَّا خَفِيَ عَلَيْهَا مَوْتُ سُلَيْمَانَ؛ وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهَا بِدَوَامِهَا فِي الْخِدْمَةِ الصَّغْبَةِ، وَهُوَ مَيِّتٌ فِي «الْمُهِينِ» الْمَذِلِّ، مِنَ الْهَوَانِ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ: أَنَّ الشَّيَاطِينَ قَالَتْ لِلْأَرْضِ: لَوْ كُنْتَ تَأْكُلِينَ الطَّعَامَ لَأَتَيْنَاكِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَكِنَّا سَنَنْقُلُ إِلَيْكَ الْمَاءَ وَالطِّينَ؛ فَهَمْ يَنْقُلُونَ إِلَيْهَا ذَلِكَ حَيْثُ كَانَتْ شُكْرًا لَهَا، أَنْتَهَى.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٨/١٠) رقم (٢٨٧٧٧)، ورقم (٢٨٧٧٨) بنحوه، وذكره البغوي في «تفسيره» (٥٥٢/٣)، وابن عطية في «تفسيره» (٤١١/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٢٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٣٢/٥)، وعزاه للبخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن السني في «الطب النبوي»، وابن مردويه عن ابن عباس.

بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ رَبِّ عَفْوَ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْوٍ وَأَثَلٍ وَشَوٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ (١٧).

وقوله تَعَالَى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية...﴾ الآية، هذا مثل لقريش يقوم أنعم الله عليهم فلم يشكروا؛ فأنقم منهم، أي: فأنتم أيها القوم مثلهم، و﴿سبأ﴾ هنا يراد به القبيل، واختلِف: لم سمي القبيل بذلك؟ فقالت فِرَقة: هو اسم امرأة.

وقيل: اسم موضع سمي به القبيل، وقال الجمهور: هو اسم رجل، هو أبو القبيل كله، وفيه حديث فِرَقة بن مسنيك المتقدم في «سورة النمل»؛ خرجه الترمذي^(١)، و﴿آية﴾: معناه: عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، و﴿جنتان﴾: مبتدأ وخبره: ﴿عن يمين وشمال﴾، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي جنتان، وقيل: ﴿جنتان﴾ بدل من ﴿آية﴾ وضعف، وروى في قصصهم أنه كان في ناحية اليمن وادٍ عظيم بين جبلين، وكانت جنتا الوادي فواكه وزروعاً، وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين؛ جسر عظيم من حجارة من الجبل إلى الجبل، فاختبس الماء فيه، وصار بحيرة عظيمة، وأخذ الماء من جنتيها فمشى مرتفعاً يسقي جئات كثيرة جنتي الوادي، قيل: بنته بلقيس، وقيل بنتا حمير أبو القبائل اليمنية كلها، وكانوا بهذه الحال في أزعد عيش، وكانت لهم بعد ذلك فرى ظاهرة متصلة من اليمن إلى الشام، وكانوا أرباب تلك البلاد في ذلك الزمان.

ت: وَقَوْلُ *ع*(٢): «وَكَانَ قَدْ بُنِيَ فِي رَأْسِ الْوَادِي عِنْدَ أَوَّلِ الْجَبَلَيْنِ صَوَابُهُ: وَكَانَ قَدْ بُنِيَ فِي أَسْفَلِ الْوَادِي عِنْدَ آخِرِ الْجَبَلَيْنِ، و﴿كلوا﴾: فيه حذف معناه: قيل لهم: كلوا، و﴿طيبة﴾ معناه: كريمة الثربة حسنة الهواء، وروى أن هذه المقالة؛ من الأمر بالأكل والشكر والتوقيف على طيب البلدة وغفران الرب مع الإيمان به؛ هي من قول الأنبياء لهم، وبعث إليهم فيما روي ثلاثة عشر نبياً فكفروا بهم وأعرضوا؛ فبعث الله على ذلك السد جزداً أعشى؛ توالد فيه؛ وخرقه شيئاً بعد شيء؛ فأنخرق السد وقاص الماء على أموالهم وجناتهم فعرقها؛ وأهلك كثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار، واختلِف في ﴿العرم﴾. فقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: هو كل ما بُني أو سُئِمَ لِيَمْسِكَ^(٣) الماء، وقال ابن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤/٤١٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٣٦٢) رقم (٢٨٧٨٩) عن المغيرة بن حكيم، ورقم (٢٨٧٩٠) عن أبي ميسرة، كلاهما بنحوه، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤/٤١٤) عنهما.

عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿الْعَرَمُ﴾: اسْمُ وَادِي ذَلِكَ الْمَاءِ بِعَيْنَيْهِ الَّذِي كَانَ السَّدُّ بَيْنِي ^(١) لَهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً: ﴿الْعَرَمُ﴾ الشَّدِيدُ ^(٢).

قَالَ *ع* ^(٣): فَكَأَنَّهُ صِفَةُ لِلْسَّيْلِ مِنَ الْعَرَامَةِ، وَالْإِضَافَةُ إِلَى الصِّفَةِ مُبَالَغَةٌ؛ وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَقِيلَ: ﴿الْعَرَمُ﴾: صِفَةُ لِلْمَطَرِ الشَّدِيدِ الَّذِي كَانَ عَنْهُ ذَلِكَ السَّيْلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ فِيهِ تَجَوُّزٌ وَأَسْتِعَارَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْبَدَلَ - مِنْ الْخَمْطِ وَالْأَثْلِ - لَمْ يَكُنْ جَنَّتًا؛ لِكُنْ هَذَا كَمَا تَقُولُ لِمَنْ جَرَّدَ ثَوْبًا جَيْدًا وَضَرَبَ ظَهْرَهُ: هَذَا الضَّرْبُ ثَوْبٌ صَالِحٌ لَكَ؛ وَنَحْوُ هَذَا، وَ«الْخَمْطُ»: شَجَرُ الْأَرَاكِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ^(٤)، وَقِيلَ: «الْخَمْطُ»: كُلُّ شَجَرٍ لَهُ شَوْكٌ وَتَمَرَّتُهُ كَرِيهَةٌ الطَّعْمِ بِمَرَارَةٍ أَوْ حُمُوضَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، وَمِنْهُ تَخَمَّطَ اللَّبَنُ إِذَا تَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَ«الْأَثْلُ»: ضَرْبٌ مِنَ الطَّرْفَاءِ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَ«السَّدْرُ»: مَعْرُوفٌ وَهُوَ لَهُ نَبَقٌ شَبَهَ الْعُنَابِ لِكُنْهُ دُونَهُ فِي الطَّعْمِ بِكَثِيرٍ، وَلِلْخَمْطِ ثَمَرٌ غَثٌ هُوَ الْبَرِيرُ، وَلِلْأَثْلِ ثَمَرٌ قَلِيلٌ الْعَنَاءُ غَيْرُ حَسَنِ الطَّعْمِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ ^(٥) وَابْنُ كَثِيرٍ: «أَكُلُ»: - بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْكَافِ -، وَالْبَاقُونَ: - بِضَمِّهِمَا - وَهُمَا بِمَعْنَى الْجَنَى وَالثَّمَرَةِ، وَمِنْهُ: ﴿تَوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥]. أَي: جَنَاهَا، وَقَرَأَ ^(٦) أَبُو عَمْرٍو: «أَكُلِ خَمْطٍ» بِإِضَافَةِ «أَكُلُ» إِلَى «خَمْطٍ».

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٢/١٠) رَقْم (٢٨٧٩٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَقْم (٢٨٧٩٣) عَنْ قَتَادَةَ، وَرَقْم (٢٨٧٩٤) عَنْ الضَّحَّاكِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٤/٤)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثْنُورِ» (٤٣٧/٥). وَعَزَاهُ لَابْنِ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وَلَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ الضَّحَّاكِ.

وَلَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٣/١٠) رَقْم (٢٨٧٩٥)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٤/٤).

(٣) يَنْظُرُ: «الْمَحْرُورُ» (٤١٤/٤).

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٦٤/١٠)، رَقْم (٢٨٨٠١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَقْم (٢٨٨٠٢) عَنْ الْحَسَنِ، (٢٨٨٠٣) عَنْ مُجَاهِدٍ، (٢٨٨٠٥) عَنْ قَتَادَةَ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٥٤/٣)، وَابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤١٤/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٣٣/٣) وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثْنُورِ» (٥/٤٣٧).

وَعَزَاهُ لِلْفَرَايِبِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السَّدِيِّ، وَلَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ.
(٥) يَنْظُرُ: «السَّبْعَةُ» (٥٢٨)، وَ«الْحِجَّةُ» (١٤/٦)، وَ«إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» (٢١٧/٢)، وَ«مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٢/٢٩٢)، وَ«الْعُنْوَانُ» (١٥٦)، وَ«إِتْحَافُ» (٣٨٥/٢).

(٦) يَنْظُرُ: مَصَادِرُ الْقِرَاءَةِ السَّابِقَةِ، وَ«حِجَّةُ الْقُرْآنِ» (٥٨٧)، وَ«شَرْحُ الطَّيْبَةِ» (١٥٥/٥)، وَ«شَرْحُ شُعْلَةٍ» (٥٥٣).

وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما أخراه عنهم.

وقوله: «وهل يجازي»، أي: يناقش ويُقَارَضُ بمثل فعله قَدْرًا بِقَدْرٍ، لَأَنَّ جَزَاءَ الْمُؤْمِنِ إِنَّمَا هُوَ بِتَفْضِيلٍ وَتَضْعِيفِ ثَوَابٍ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يَزَادُ وَلَا يَنْقُصُ فَهُوَ الْكَافِرُ، وَقَرَأَ^(١) حمزة والكسائي: «وهل تُجَازِي» - بالنون وكسر الزاي «الكفور» - بالنصب ..

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى...﴾ الآية، هذه الآية وما بعدها وَصَفَ حالهم قَبْلَ مَجِيءِ السَّيْلِ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ مَا كَانَ مَنَحَهُمْ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ وَالتَّعَمَّةِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ؛ كَأَنَّ قَدْ أَضْلَحَ لَهُمُ الْبِلَادَ الْمُتَّصِلَةَ؛ وَعَمَّرَهَا وَجَعَلَهُمْ أَزْبَابَهَا؛ وَقَدَّرَ السَّيْرَ بِأَنَّ قُرْبَ الْقُرَى بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ؛ حَتَّى كَانَ الْمَسَافِرُ مِنْ مَأْرَبٍ إِلَى الشَّامِ يَبِيتُ فِي قَرْيَةٍ وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ زَادٍ، وَ﴿القرى﴾: الْمُدُنُ، وَالْقُرَى الَّتِي بُورِكَ فِيهَا: هِيَ بِلَادُ الشَّامِ بِإِجْمَاعِ الْمَفْسِّرِينَ، وَالْقُرَى الظَّاهِرَةُ: هِيَ الَّتِي بَيْنَ الشَّامِ وَمَأْرَبٍ وَهِيَ أَسْمُ بِلَدِهِمْ.

قال ابن عباس^(٢) وغيره: هِيَ قُرَى عَرَبِيَّةٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ. وَأَخْتَلَفَ فِي مَعْنَى ﴿ظاهرة﴾ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: مُسْتَعْلِيَّةٌ مُزْتَفِعَةٌ فِي الْأَكَامِ وَهِيَ أَشْرَفُ الْقُرَى، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: يَظْهَرُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ؛ فَهِيَ أَبْدَأُ فِي قَبْضَةِ عَيْنِ الْمُسَافِرِ؛ لَا يَخْلُو عَنْ رُؤْيَةِ شَيْءٍ مِنْهَا.

قَالَ *ع^(٣): * والذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ مَعْنَى ﴿ظاهرة﴾ خَارِجَةٌ عَنِ الْمُدُنِ فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقُرَى الصَّغَارِ الَّتِي هِيَ فِي ظَوَاهِرِ الْمُدُنِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَ﴿آمنين﴾، أَي: مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَأَفَاتِ السَّفَرِ، ثُمَّ حَكَى - سُبْحَانَهُ - عَنْهُمْ مَقَالَةً قَالُوا عَلَى جِهَةِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ؛ وَهِيَ طَلَبُ الْبُعْدِ بَيْنَ الْأَسْفَارِ كَأَنَّهُمْ مَلُّوا النَّعْمَةَ فِي الْقُرْبِ وَطَلَبُوا اسْتِئْذَالَ الَّذِي

(١) قرأ الأخوان وحفص «تُجَازِي» بنون العظمة وكسر الزاي أي نحن «إِلَّا الْكُفُورُ» مفعول به. والباقون بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول «إِلَّا الْكُفُورُ» رَفَعَ عَلَى مَا لَمْ يُسَمِّ فاعله، وَمُسْلِمٌ بْنُ جَنْدَبٍ «يُجَازِي» مبنياً للمفعول «إِلَّا الْكُفُورُ» رَفَعَا وَقَرَأَ «يُجَازِي» مبنياً للفاعل وهو الله تعالى. «الْكُفُورُ» نَصَباً عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ. ينظر: «حجة القراءات» ص ٥٨٧، و«الدر المصون» (٥/٤٤١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٧/١٠) رقم (٢٨٨١٨) عن ابن عباس، ورقم (٢٨٨٢٠) عن الضحاك، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤١٥/٤) عنهما، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٣٣).

(٣) ينظر: «المحرر» (٤١٦/٤).

هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَفَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ؛ وَمِنْهُ الْمَثَلُ السَّائِرُ «تَفَرَّقُوا أَيَادِي سَبَا وَأَيْدِي سَبَا» يُقَالُ الْمَثَلُ بِالْوَجْهَيْنِ؛ وَهَذَا هُوَ تَمْزِيْقُهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ؛ فَتَيَامَنُ مِنْهُمْ سِتَّةُ قَبَائِلَ، وَتَسَاءَمَتْ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ حَسَبًا فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ وَأُمَّتَهُ عَلَى جِهَةِ التَّنْبِيهِ؛ بَأَنَّ هَذَا الْقَصَصَ فِيهِ آيَاتٌ وَعِبَرٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مُتَّصِفٍ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَقًّا إِذَا فُرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ...﴾ الآية، قَرَأَ نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبْنُ عَامِرٍ: «وَلَقَدْ صَدَقَ» بِتَخْفِيفِ الدَّالِّ، وَقَرَأَ حَمَزُهُ وَالْكَسَائِيُّ^(١): «صَدَقَ» بِتَشْدِيدِهَا؛ فَالظَّنُّ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مَفْعُولٌ «بِصَدَقَ» وَمَعْنَى / الْآيَةِ: أَنَّ إِبْلِيسَ ظَنَّ فِيهِمْ ظَنًّا حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وَغَيْرَ ذَلِكَ فَصَدَقَ ظَنَّهُ فِيهِمْ؛ وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُوَ اتَّبَاعٌ فِي كُفْرٍ لَأَنَّهُ فِي قِصَّةِ قَوْمٍ كُفَّارٍ.

وقوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَ«مِنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَي: مِنْ حُجَّةٍ، قَالَ الْحَسَنُ: وَاللَّهُ مَا كَانَ لَهُ سَيْفٌ وَلَا سَوْطٌ وَلَكِنَّهُ اسْتَمَالَهُمْ فَمَالُوا بِتَرْزِيئِهِ^(٢).

(١) وَقَرَأَ عَاصِمٌ بِتَقْلِيلِهَا - كَمَا قَرَأَ الْأَخْوَانُ.

ينظر: «السبعة» (٥٢٧)، و«الحجة» (٢٠/٦)، و«إعراب القراءات» (٢/٢١٩)، و«معاني القراءات» (٢/٢٩٤)، و«شرح الطيبة» (١٥٦/٥)، و«العنوان» (١٥٦)، و«حجة القراءات» (٥٨٨)، و«شرح شُعَلَةَ» (٥٥٤)، و«إتحاف» (٢/٣٨٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣٧١/١٠) رَقْمَ (٢٨٨٣٥) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٤/٤١٧) بِلَفْظِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/٥٣٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ الْمَثْنُورِ» (٥/٤٤٠) كِلَاهِمَا بِنَحْوِهِ.

وعزاه السِّيُوطِيُّ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ، وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد: الأصنام والملائكة؛ وذلك أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ؛ وَهَذِهِ آيَةٌ تَعْجِيزٌ وَإِقَامَةٌ حُجَّةٍ؛ وَيُرْوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ عِنْدَ الْجُوعِ الَّذِي أَصَابَ قُرَيْشًا، ثُمَّ جَاءَ بِصِفَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ إِلَهَةً أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مُلْكَ اخْتِرَاجِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؛ وَأَنَّهُمْ لَا شِرْكَ لَهُمْ فِيهِمَا، وَهَذَانِ نَوْعَا الْمُلْكِ: إِمَّا اسْتِنْدَادٌ وَإِمَّا مُشَارَكَةٌ؛ فَتَقَى عَنْهُمْ جَمِيعَ ذَلِكَ وَتَقَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى مُعِينٌ فِي شَيْءٍ، وَ«الظَّهِيرُ»: الْمُعِينُ، ثُمَّ قَرَّرَ فِي الْآيَةِ بَعْدَ أَنَّ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ؛ لَا تَصِحُّ مِنْهُمْ شَفَاعَةٌ لَهُمْ إِذْ هَؤُلَاءِ كَفَرُوا وَلَا يَأْذُنُ اللَّهُ فِي الشَّفَاعَةِ فِي كَافِرٍ، وَقَرَأَ حَمْزُهُ وَالْكَسَائِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو «أُذِنَ» - بِضَمِّ الْهَمْزَةِ - (١).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية، الضَّمِيرُ فِي ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَهَةً.

قال ع* (٢): وَتَطَاهَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - أَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ - إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَلَائِكَةِ؛ إِذَا سَمِعَتْ الْوَحْيَ إِلَى جِبْرِيلَ، أَوِ الْأَمْرَ يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ، سَمِعَتْ كَجَرِّ سِلْسِلَةِ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفْوَانِ، فَتَفَزَعُ عِنْدَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا وَهَيْبَةً لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقِيلَ: خَوْفًا أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ؛ فَإِذَا فَرَعَ ذَلِكَ، فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، أَيِ: أُطِيرَ الْفَزَعُ عَنْهَا وَكُشِفَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَلِجِبْرِيلَ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُ الْمَسْئُولُونَ: قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

ت* (٣): وَلَفْظُ الْحَدِيثِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ أَمْرًا فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» (٣) انتهى.

(١) وحجة الباقي في فتح الهمزة قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٣٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذُنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.
ينظر: «حجة القراءات» (٥٨٩)، و«السبعة» (٥٢٩ - ٥٣٠)، و«الحجة» (٢١/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٢٠/٢)، و«معاني القراءات» (٢٩٥/٢)، و«شرح الطيبة» (١٥٧/٥)، و«العنوان» (١٥٧)، و«شرح شعله» (٥٥٤)، و«إتحاف» (٣٨٦/٢).

(٢) ينظر: «المحرر» (٤١٨/٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٨/٨) كتاب التفسير: باب ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ حديث (٤٨٠٠)، والترمذي (٣٦٢/٥) كتاب التفسير: باب ومن سورة سبأ، حديث (٣٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٦٩ - ٧٠) المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية، حديث (١٩٤)، والطبري في «تفسيره» (٣٧٣/١٠) رقم (٢٨٨٤٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وَقَرَأَ الْجُنُهُورُ «فُزِعَ» - بِضَمِّ الْفَاءِ - وَمَعْنَاهُ أُطِيرَ الْفَزَعُ عَنْهُمْ وَقَوْلُهُمْ: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» تَمْجِيدٌ وَتَحْمِيدٌ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى جَهَةِ الْاِخْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى الرَّازِقِ لَهُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَنْ هُوَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَفْتَضِبَ الْاِخْتِجَاجَ بِأَنْ يَأْتِيَ بِجَوَابِ السُّؤَالِ؛ إِذْ هُمْ فِي بَهْتَةٍ وَوَجَمَةٍ مِنَ السُّؤَالِ؛ وَإِذْ لَا جَوَابَ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: هُوَ اللَّهُ، وَهَذِهِ السَّبِيلُ فِي كُلِّ سُؤَالٍ جَوَابُهُ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ؛ لِأَنَّ الْمُخْتَجَّ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَضِبَ وَيَتَجَاوَزَ إِلَى حُجَّةٍ أُخْرَى يُورِدُهَا، وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وقوله تعالى: «وإنا أو إياكم» تَلَطَّفَ فِي الدَّعْوَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ وَالْمَعْنَى: كَمَا تَقُولُ لِمَنْ خَالَفَكَ فِي مَسْأَلَةٍ: أَحَدُنَا مُخْطِئٌ تَثَبُّتْ وَتَنَبَّهْ؛ وَالْمَفْهُومُ مِنْ كَلَامِكَ أَنَّ مُخَالَفَكَ هُوَ الْمَخْطِئُ فَكَذَلِكَ هَذَا، مَعْنَاهُ: وَإِنَّا لَعَلَى هَدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ؛ وَإِنَّكُمْ لَعَلَى هَدًى أَوْ ٨٠ ب فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ؛ فَتَبَهُوا، وَالْمَقْصِدُ أَنَّ الضَّلَالَ فِي حَيْزِهِمْ؛ / وَحَذَفَ أَحَدُ الْخَبَرَيْنِ لِدَلَالَةِ الْبَاقِي عَلَيْهِ.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَفْتِحُونَ ﴿٣٠﴾.

وَقَوْلُهُ: «قُلْ لَا تَسْأَلُونَ» الْآيَةُ مُهَادَنَةٌ وَمُتَارَكَةٌ مَسْخُوحَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا» إِخْبَارٌ بِالْبَعْثِ وَ«يَفْتَحُ» مَعْنَاهُ: يَحْكُمُ؛ وَالْفَتَّاحُ: الْقَاضِي، وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي لَعْنَةِ الْيَمَنِ وَ«أَرُونِي»: هِيَ رُؤْيَةُ قَلْبٍ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، أَي: أَرُونِي بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ.

وَقَوْلُهُ: «كَلَّا» رَدٌّ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِشْرَاقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ...» الْآيَةُ: إِغْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ وَهِيَ إِحْدَى خَصَائِصِهِ الَّتِي خُصَّ بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٤٢)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. والبيهقي في «الأسماء والصفات».

قال أبو عبيدة: الوعد والوعيد والميعاد: بمعنى؛ وخولف في هذا، والذي عليه الناس أن الوعد إذا أطلق ففي الخير؛ والوعيد في المكروه؛ والميعاد يقع لهذا ولهذا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْضُوعُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْخُنْ صَدَدْتُمْ عَنْ آمَنَتِي بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ هذه المقالة قالها بعض قريش وهي أنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بالذي بين يديه من التوراة والإنجيل والزبور، فكأنهم كذبوا بجميع كتب الله - عز وجل - وإنما فعلوا هذا لما وقع الاحتجاج عليهم بما في التوراة من أمر محمد - عليه السلام -.

قال الواحدي: قوله تعالى: ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾، أي: في التلاوم، انتهى. وباقى الآية بين. وقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، المعنى: بل كفرننا بمكركم بنا في الليل والنهار؛ وأضاف المكر إلى الليل والنهار من حيث هو فيهما، ولتدل هذه الإضافة على الذؤوب والدوام، والضمير في ﴿أسروا﴾ عام لجميعهم من المستضعفين والمستكبرين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَفْضَلُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ هذه الآية تسلية للنبي ﷺ عن فعل قريش وقولها، أي: هذو يا محمد سيرة الأمم، فلا يهمنك أمر قومك، والقرية: المدينة، والمترف: الغني المنعم، القليل تعب النفس والبدن، فعادتهم المبادرة بالتكذيب.

وقوله: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً...﴾ الآية: يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فِي ﴿قالوا﴾ عَلَى الْمُتَرَفِينَ؛ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِقَرْيَشَ، وَيَكُونُ كَلَامُ الْمُتَرَفِينَ قَدْ تَمَّ قَبْلَهُ، وَفِي «صحيح مسلم» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى

قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١). انتهى.

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْمَالَ الرَّائِدَ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ قُلَّ أَنْ يَسْلَمَ صَاحِبُهُ مِنَ الْآفَاتِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

وَقَدْ جَاءَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» وَغَيْرِهِ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَكْثَرُونَ مَالًا هُمْ الْأَقْلَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا»^(٢). - وَأَشَارَ ابْنُ شِهَابٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» اهـ. وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «رَقَائِقِهِ» قَالَ: أَخْبَرَنَا حَيَوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ عَنْ عَقِيلِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: / «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: لَنْ يَنْجُو مِنِّي الْعَبْدُ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ أَزِينَ مَالَهُ فِي عَيْنَيْهِ فَيَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ؛ وَإِمَّا أَنْ أَسْهَلَ لَهُ سَبِيلَهُ فَيَنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ؛ وَإِمَّا أَنْ أُحْبِبَّهُ فَيَكْسِبَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ»^(٣)؛ انتهى. «وَالزَّلْفَى»: مُضْدَرُ بَمَغْنَى الْقُرْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «جزاء»^(٤) الضعف، بِالْإِضَافَةِ وَ«الضعف»: هُنَا اسْمُ جِنْسٍ، أَي: بِالتَّضْعِيفِ، إِذْ بَعْضُهُمْ يُجَارَى إِلَى عَشْرَةٍ، وَبَعْضُهُمْ أَكْثَرُ صَاعِدًا إِلَى سِتِّ مِائَةٍ بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ وَمَشِيئَةِ اللَّهِ فِيهَا.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٢٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٢٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكُلَا إِيَّاكَ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَآيَاتُنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَ حَبَشَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي قَالُوا مَا هَذَا

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٧/٤) كتاب البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم، حديث (٢٥٦٤/٣٤)، وابن ماجه (١٣٨٨/٢) كتاب الزهد: باب القناعة، حديث (٤١٤٣)، وأحمد (٥٣٩/٢)، وفي «الزهد» (ص ٥٩)، وابن حبان (٣٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٨/٤)، (١٢٤/٧)، والبيهقي في «شرح السنة» (٧/٣٥٤ بتحقيقنا) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٣/١١) كتاب الإيمان والنذور: باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، حديث (٦٦٣٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ١٩٢-١٩٣) رقم (٥٤٧)، والطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (٢٤٨/١٠)، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤٢٢/٤)، و«البحر المحيط» (٢٧٣/٧)، و«الدر المصون» (٥/٤٥٠).

إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدِّقَ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا فُكٌّ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٦﴾ .

وقوله تعالى: ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ تقدم تفسيره و﴿محضرون﴾ من الإخضار والإعداد، ثم كرر القول بسط الرزق لا على المعنى الأول؛ بل هذا هنا على جهة الوعظ، والتزويد في الدنيا، والحض على الثقة في الطاعات، ثم وعد بالخلف في ذلك. إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وفي «البخاري» أن ملكاً ينادي كل يوم: اللهم، أعط منفقاً خلفاً، ويقول ملك آخر: اللهم، أعط ممسكاً تلفاً^(١). وروى الترمذي عن أبي كبشة الأنصاري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدنكم حديثاً فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، أو كلمة نحوها»^(٢) الحديث، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، انتهى. وقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم...﴾ الآية: تقدم تفسير نظيرها مكرراً، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها؛ ثم قال تعالى: ﴿فاليوم﴾ أي: يقال لمن عبد ومن عبد: «اليوم لا يملك بغضكم لينقض نفعا ولا ضرا».

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾ وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خُفٍّ وَقُرْآنِي لَكُمْ أَنْ تُفَكِّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وما آتيناها من كتب يدرسونها...﴾ الآية المعنى: أن هؤلاء الكفرة يقولون بآرائهم في كتاب الله، فيقول بغضهم: سحر، وبغضهم: افتراء؛ وذلك منهم تسوؤ لا يستندون فيه إلى أثارة علم؛ فإنما ما آتيناها من كتب يدرسونها؛ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير يباشرهم ويشافهم فيمكنهم أن يسندوا دعواهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناها﴾ الضمير في: ﴿بلغوا﴾ يعود على قرئش، وفي آتيناها على الأمم الذين من قبلهم، والمعنى: من القوة والنعم والظهور في

(١) أخرجه البخاري (٣/٣٥٧) كتاب الزكاة: باب قول الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى...﴾ حديث (١٤٤٢)، ومسلم (٢/٧٠٠) كتاب الزكاة: باب في المنفق، حديث (١٠١٠/٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٥٦٢-٥٦٣) كتاب الزهد: باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث (٢٣٢٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الدُّنْيَا؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ^(١): وَالْمِغْشَارُ: الْعُشْرُ وَلَمْ يَأْتِ هَذَا الْبِنَاءُ إِلَّا فِي الْعَشْرَةِ وَالْأَرْبَعَةِ، فَقَالُوا: مِزْبَاعٌ وَمِغْشَارٌ؛ وَالْثَكِيرُ مَصْدَرٌ كَالْإِنْكَارِ فِي الْمَعْنَى، وَكَالْعَذِيرِ فِي الْوَزْنِ، وَ«كَيْفَ»: تَعْظِيمٌ لِلْأَمْرِ وَلَيْسَتْ اسْتِفْهَامًا مُجَرَّدًا؛ وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لِقُرَيْشٍ، أَيْ: أَنَّهُمْ مُتَعَرِّضُونَ لِتَكْبِيرِ مِثْلِهِ، ثُمَّ أَمَرَ - تَعَالَى - نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَالنَّظَرُ فِي حَقِيقَةِ ثُبُوتِهِ هُوَ، وَيَعْظُمُهُمْ بِأَمْرِ مُقَرَّبٍ لِلْأَفْهَامِ، فَقَوْلُهُ: «بِوَاحِدَةٍ» مَعْنَاهُ: بِقَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ إِيْجَازًا لَكُمْ وَتَقْرِيْبًا عَلَيْكُمْ وَهُوَ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ، أَيْ: لِأَجْلِ اللَّهِ أَوْ لِيُوجِبَ اللَّهُ مَثْنَى أَيْ: اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مُتَنَاطِرَيْنِ وَفَرَادَى، أَيْ: وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا، هَلْ بِصَاحِبِكُمْ جَنَّةٌ، أَوْ هُوَ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَالْوَقْفُ عِنْدَ أَبِي حَاتِمٍ «تَتَفَكَّرُوا» / فَيَجِيءُ: «مَا بِصَاحِبِكُمْ» نَفْيًا مُسْتَأْنَفًا، وَهُوَ عِنْدَ سَيِّوِيهِ جَوَابٌ مَا تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَسَمِ؛ وَقِيلَ فِي الْآيَةِ غَيْرُ هَذَا مِمَّا هُوَ بَعِيدٌ مِنَ الْفَاطَهَةِ فَتَعَيَّنَ تَرْكُهُ.

«قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (٤٧) قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَماً الْيُوسُفَ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠).

وقوله تعالى: «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم» معنى الآية بين واضح لا يفتقر إلى بيان.

وقوله: «يقذف بالحق» يريد بالوحي وآيات القرآن واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكميه.

وقوله سبحانه: «قل جاء الحق» يريد الشرع بجملته، «وما يبدئ الباطل وما يعيد» قالت فزقة: الباطل غير الحق من الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداء والإعادة ونفاهما عنه، كأنه قال: وما يصنع الباطل شيئاً.

وقوله: «فبما يوحى» يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ مَصْدَرِيَّةً.

«وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨٤/١٠) رقم (٢٨٨٧٧) عن ابن عباس بنحوه، ورقم (٢٨٨٧٩) عن قتادة، (٢٨٨٨٠) عن ابن زيد، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٤٢٤/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/٥٤٢) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٥٠/٥).

وعزه لابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، ولابن المنذر عن ابن جريج، ولعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

التَّائُوْشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُوْنَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُوْنَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوْا فِيْ شَكٍّ مُّزِيْبٍ ﴿٥٤﴾ .

وقوله - تعالى -: ﴿ولو ترى إذ فرعوا...﴾ الآية. قَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: ذَلِكَ فِي الْكُفَّارِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ فِي الْقِيَامَةِ^(١).

قال ع^(٢): ﴿وَهُوَ أَرْجَحُ الْأَقْوَالِ هُنَا، وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ فَهُوَ التَّعَجُّبُ مِنْ خَالِهِمْ إِذَا فَرَعُوا مِنْ أَخَذِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَلَمْ يَتِمَّكُنْ لَهُمْ أَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ﴾ وأخذوا من مكان قريب، أي: أَنْ الْأَخَذَ يَجِيئُهُمْ مِنْ قُرْبٍ فِي طُمَأْنِينَتِهِمْ وَبَعْقِيَّهَا، بَيْنَمَا الْكَافِرُ يُؤْمَلُ وَيَتَرَجَّى إِذْ غَشِيَهُ الْأَخْذُ، وَمَنْ غَشِيَهُ أَحْذَ مِنْ قُرْبٍ؛ فَلَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا رَوْيَةَ، و﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ - تعالى -، وَقِيلَ: عَلَى مُحَمَّدٍ وَشَرِّعِهِ وَالْقُرَّانِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَعَامَّةُ الْقُرَّاءِ: «التَّائُوْشُ» دُونَ هَمْزٍ وَمَعْنَاهُ التَّائُوْلُ، مِنْ قَوْلِهِمْ نَاشَ يَنْوُشُ إِذَا تَنَاوَلَ، وَعِبَارَةُ الْوَاحِدِيِّ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّائُوْشُ﴾ أي: كَيْفَ يَتَنَاوَلُونَ التَّوْبَةَ وَقَدْ بَعُدَتْ عَنْهُمْ. انتهى.

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحَمَزَةُ^(٣) وَالْكَسَائِيُّ: «التَّائُوْشُ» بِالْهَمْزِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُهُ كَالْقِرَاءَةِ الْأُولَى، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الطَّلَبِ؛ تَقُولُ: ائْتَانِشْتُ الْخَيْرَ إِذَا طَلَبْتَهُ مِنْ بَعْدٍ.

ت*: ﴿وَقَالَ الْبَحَارِيُّ: التَّائُوْشُ الرُّدُّ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا، انتهى.

﴿ويَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يَرْجُمُونَ بِظُنُونِهِمْ وَيَرْمُونَ بِهَا الرُّسُولَ وَكِتَابَ اللَّهِ، وَذَلِكَ غَيْبٌ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ سِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ^(٤)، وَقَالَ قَتَادَةُ: قَذَفُهُمْ بِالْغَيْبِ هُوَ قَوْلُهُمْ: لَا بَعَثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ^(٥).

(١) أخرجه الطبري (٣٨٨/١٠) رقم (٢٨٨٩٤)، وذكره ابن عطية (٤٢٦/٤)، وابن كثير (٥٤٤/٣)، والسيوطي (٤٥١/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤٢٦/٤).

(٣) ينظر: «السبعة» (٥٣٠)، و«الحجة» (٢٣/٦)، و«إعراب القراءات» (٢٢١/٢)، و«معاني القراءات» (٢/٢٩٧)، و«شرح الطيبة» (١٥٨/٥)، و«العنوان» (١٥٧)، و«حجة القراءات» (٥٩٠)، و«شرح شعلة» (٥٥٥)، و«إتحاف» (٣٨٩/٢).

(٤) أخرجه الطبري (٣٩٠/١٠) رقم (٢٨٩١٠)، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٤)، وابن كثير (٥٤٥/٣)، والسيوطي (٤٥٤/٥)، وعزاه لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري (٣٩١/١٠) رقم (٢٨٩١١)، وذكره ابن عطية (٤٢٧/٤)، وابن كثير (٥٤٥/٣)، والسيوطي (٤٥٤/٥)، وعزاه لابن أبي حاتم عن قتادة.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾.

قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْإِنَابَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ^(١)، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اسْتَهْوَوْهُ فِي وَقْتٍ لَا تَنْفَعُ فِيهِ التَّوْبَةُ. وَقَالَ أَيْضاً قَتَادَةُ^(٢)؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا^(٣).

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَالْأَشْيَاعُ الْفِرَقُ الْمُتَشَابِهَةُ، فَأَشْيَاعٌ هَؤُلَاءِ هُمْ الْكَفَرَةُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.

ص: قَالَ أَبُو حَيَّانٍ^(٤): وَ﴿مَرِيبٌ﴾ اسْمٌ فَاعِلٍ مِنْ أَرَابَ، أَي: أَتَى بِرَبِيبَةٍ وَأَرْبَتُهُ أَوْفَعَتْهُ فِي رَبِيبَةٍ، وَنَسَبَةُ الْإِرَابَةِ إِلَى الشُّكِّ مَجَازٌ.

قَالَ *ع*^(٥): وَالشُّكُّ الْمَرِيبُ أَفْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الشُّكِّ وَأَشَدُّهُ إِظْلَامًا، انْتَهَى.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩١/١٠) رَقْمَ (٢٨٩١٣، ٢٨٩١٤، ٨٩١٥) وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٤٥/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٤٥٤/٥)، وَعِزَّاهُ لَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩١/١٠) رَقْمَ (٢٨٩١٧) بِنَحْوِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩١/١٠) رَقْمَ (٢٨٩١٦)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٧/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ (٥٤٥/٣)، وَالسَّيُوطِيُّ (٤٥٤/٥)، وَعِزَّاهُ لِلْفَرَّايِسِيِّ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ نَحْوَهُ.

(٤) يَنْظُرُ: «الْبَحْرُ الْمَحِيطُ» (٢٨١/٧).

(٥) يَنْظُرُ: «الْمَحْرَرُ» (٤٢٧/٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنًى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ آذِكُرًا يَعْتَدُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَذَا مِنْ خَلْقِ عِبَرٍ اللَّهُ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَكُونُوا ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولاً﴾ / الملائكة رسلاً أولاً ١٨٢
أجنحة... ﴿الآية «رسلاً» مفعلة: بالوحي وغير ذلك من أوامره سبحانه، كجبريل وميكائيل وعزرائيل رسل، والملائكة المتعاقبون رسل وغير ذلك، و«مثنى وثلاث ورباع» ألفاظ مفعولة عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة، عدلت في حالة التثنية فتعرفت بالعدل فهي لا تنصرف للعدل والتعريف، وقيل: للعدل والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار لأن مثنى بمنزلة قولك: اثنين اثنين.

قال قتادة: إن أنواع الملائكة هم هكذا منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة، ويشد منها ما له أكثر من ذلك، وروى^(١): أن لجبريل - عليه السلام - ست مائة جناح منها اثنان يتلغان من المشرق إلى المغرب.

وقوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب عند الخبر بالملائكة أولي الأجنحة، أي: ليس هذا بيدع في قدرة الله تعالى، فإنه يزيد في الخلق ما يشاء؟ وروى عن الحسن وأبن شهاب أنهما قالاً: المزيّد هو حسن الصوت^(٢)،

(١) أخرجه الطبري (٣٩٣/١٠) برقم (٢٨٩٢٣)، وذكره البغوي (٥٦٤/٣)، وابن عطية (٤٢٩/٤)، والسيوطي (٤٥٨/٥)، وعزه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٢) ذكره البغوي (٥٦٤/٣)، وابن عطية (٤٢٩/٤)، وابن كثير (٥٤٦/٣)، والسيوطي (٤٥٩/٥)، وعزه لعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الزهري.

قَالَ الْهَيْثَمُ الْفَارِسِيُّ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ فَقَالَ لِي: أَنْتَ الْهَيْثَمُ الَّذِي تُزَيِّنُ الْقُرْآنَ بِصَوْتِكَ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا.

وَقِيلَ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الزِّيَادَةِ غَيْرَ هَذَا وَذَلِكَ عَلَى جِهَةِ الْمِثَالِ لَا أَنَّ الْمَقْصِدَ هِيَ فَقَطْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾ «مَا» شَرْطٌ وَ«يَفْتَحُ» مَجْزُومٌ بِالشَّرْطِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ خَيْرٍ يُعْطِيهِ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فِيهِ حَذْفٌ مُضَافٍ، أَي: مِنْ بَعْدِ إِمْسَاكِهِ وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ سَمَّيْتُ الصُّوفِيَّةَ مَا تُعْطَاهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَطَاعِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ «الْفُتُوحَاتِ».

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِضُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَكُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْيَاهَا النَّاسُ﴾ خِطَابٌ لِغُرَيْشٍ وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ لِكُلِّ كَافِرٍ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَا تَغْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

ت: هَذِهِ الْآيَةُ مَعْنَاهَا بَيِّنٌ، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ: يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُقَلِّلَ الدُّخُولَ فِي أَسْبَابِ الدُّنْيَا فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ قَلِيلَ الدُّنْيَا يُلْهِي عَنْ كَثِيرِ الْآخِرَةِ» وَقَالَ ﷺ: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلَّا وَبِجَنَّتِيهَا مَلَكَانِ يَتَادِيَانِ: يَأْيَاهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»^(١). انْتَهَى مِنَ «لَطَائِفِ الْمَعْنَى». وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ: «الغُرُورُ» - يَفْتَحِ الْعَيْنَ - وَهُوَ الشَّيْطَانُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الْآيَةُ: يَقْوِي قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ «فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا». أَي: بِالْمُبَايَنَةِ وَالْمَقَاطَعَةِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ.

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَانَ (٢٤٧٦-موارد)، وَأَحْمَدُ (١٩٧/٥)، وَفِي «الزَّهْدِ» (ص ١٩)، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ فِي «الْمُتَخَبَّرِ» رَقْم (٢٠٧)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٢/ ٢٣٣-٢٣٤). وَالْقَضَاعِي فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (٢/ ٢٥) رَقْم (٨١٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْمَجْمَعِ» (١٢٢/٣) وَقَالَ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٣٩٥/١٠) (٢٨٩٢٧)، وَذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ (٤٢٩/٤)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٥٤٧).

﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهُ يُضِلِّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّعُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُسَوِّرُ ﴿١٠﴾﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ تَوْقِيفٌ وَجَوَابُهُ مَحْذُوفٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدَّرَ كَمَنْ اهْتَدَى وَنَحْوَ هَذَا مِنَ التَّقْدِيرِ وَأَحْسَنُ التَّقْدِيرِ مَا دَلَّ اللَّفْظُ بَعْدَ عَلَيْهِ^(١)؛ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ - يَفْتَحُ التَّاءَ وَالْهَاءَ - : ﴿نَفْسُكَ﴾ - بِالرَّفْعِ - ، وَقَرَأَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(٢) «تَذْهَبْ» - بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ الْهَاءِ - «نَفْسُكَ» - بِالنَّصْبِ - وَزُوِيَتْ عَنْ نَافِعٍ^(٣) ، وَالْحَسْرَةُ هُمْ النَّفْسُ عَلَىٰ قَوَاتٍ أَمْرٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنْ كُفْرِ قَوْمِهِ، وَوَجِبَ التَّسْلِيمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِضْلَالٍ مِنْ شَاءَ وَهِدَايَةٍ مِنْ شَاءَ.

وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ هَذِهِ آيَةٌ اخْتِجَاجٌ عَلَى الْكُفْرَةِ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ مِنَ الْقُبُورِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ بِمُغَالَبَةِ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ: أَي: لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ وَلَا تَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَنَحَا إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَقَالَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ^(٤).

قال *ع^(٥): ﴿وَهَذَا تَمَسُّكٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١].

وَيُحْتَمَلُ / أَنْ يُرِيدَ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ وَطَرِيقَهَا الْقَوِيمَ وَيُحِبُّ تَبَلُّهَا عَلَى وَجْهِهَا فَلِلَّهِ ٨٢ ب

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨٨)، و«الدر المصون» (٥/ ٤٦٠).

(٢) ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٢٤، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨٨)، وزاد نسبتها إلى أبي حية، وشيبة، وحמיד، والأعمش، وابن محيصن. وهي في «الدر» (٥/ ٤٦٠).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٣٠)، و«البحر المحيط» (٧/ ٢٨٨).

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ٣٩٨) (٢٨٩٣٥) وذكره ابن عطية (٤/ ٤٢٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٤٩)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/ ٤٦١)، وعزاه للفرجاني، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه.

(٥) ينظر: «المحرر» (٤/ ٤٣١).

العِزَّة، أي: به، وَعَنْ أَوَامِرِهِ، لَا تَنَالُ عِزَّتَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَنَحَا إِلَيْهِ ^(١) قَتَادَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي: التوحيد، والتحميد، وذكر الله ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قيل: المعنى؛ يرفعه الله، وهذا أرجح الأقوال.

وقال ابن عباس ^(٢) وغيره: إن العمل الصالح هو الرفع للكلم، وهذا التأويل إنما يستقيم بأن يتأول على معنى أنه يزيد في رفعه وحسن موقعه.

ت: وعن ابن مسعود؛ قال: «إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه: «إن العبد إذا قال: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر وتبارك الله» قَبَضَ عليهن ملك؛ فضمهن تحت جناحه؛ وصعد بهن لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجاء بهن وجه الرحمن سبحانه. ثم تلا عبد الله بن مسعود: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ^(٣). رواه الحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد: انتهى من «السلام». و«يمكنون السيئات» أي: المكرات السيئات. و«يبور» معناه: يفسد ويبقى لا نفع فيه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَسُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَهُ تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَحِيمٌ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا

(١) أخرجه الطبري (٣٩٨/١٠) (٢٨٩٣٦)، وذكره البغوي (٥٦٦/٣)، وذكره ابن عطية (٤٢٩/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٣٩٩/١٠) (٢٨٩٤٠)، وذكره البغوي (٥٦٦/٣)، وابن عطية (٤٣١/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٢/٥)، وعزاه لابن المبارك، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٣٩٨/١٠) (٢٨٩٣٧)، وذكره البغوي (٥٦٦/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٥٤٩/٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٦٢/٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن مسعود رضي الله عنه.

يَسْمَعُوا دُعَاءَهُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَهُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ الآية. قيل: معنى الأزواج هنا: الأنواع، وقيل: أراد تزويج الرجال النساء، والضمير في ﴿عمره﴾ قال ابن عباس وغيره، ما مقتضاه: أنه عائد على ﴿معمر﴾ الذي هو اسم جنس^(١)؛ والمراد غير الذي يعمر، وقال ابن جبير وغيره: بل المراد شخص واحد وعليه يعود الضمير، أي: ما يعمر إنسان ولا ينقص من عمره بأن يحصي ما مضى منه إذا مرَّ حَوْلُ كتب ما مضى منه، فإذا مرَّ حول آخر كتب ذلك، ثم حول، ثم حول؛ فهذا هو النقص.

قال ابن جبير: فما مضى من عمره؛ فهو النقص وما يستقبل؛ فهو الذي يعمره^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ تقدم تفسير نظير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ الآية: الأجل المسمى هو قيام الساعة، وقيل: آماذ الليل، وآماذ النهار، والقَطْمِير: القشرة الرقيقة التي على نوى التمرة. وقال الضحاك وغيره: القَطْمِير القِمْع الذي في رأس التمرة^(٣)، والأول أشهر وأصوب. ثم بين تعالى بطلان الأصنام بثلاثة أشياء: أولها: أنها لا تسمع إن دُعِيَتْ، والثاني: أنها لا تجيب إن لو سمعت، وإنما جاء بهذه؛ لأن القائل متعسف أن يقول: عساها تسمع، والثالث: أنها تَبَرُّأ يوم القيامة من الكفرة.

وقوله تعالى: ﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾ قال المفسرون: الخبير هنا هو الله سبحانه فهو

(١) أخرجه الطبري (٤٠٠/١٠) (٢٨٩٤٩)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥٥٠/٣)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٦٣/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه الطبري (٤٠١/١٠) (٢٨٩٥٢)، وذكره البغوي (٥٦٦/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٥/٤٦٤)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في «العظمة» عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه الطبري (٤٠٣/١٠) (٢٨٩٦٦)، عن جوير عن بعض أصحابه. وذكره ابن عطية (٤٣٤/٤)، والسيوطي في «الدر المثور» (٤٦٦/٥)، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر عن الضحاك.

الخبير الصادق الخبر، ونبأ بهذا؛ فلا شك في وقوعه.

﴿يَأْتِيَا النَّاسَ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) **﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأْيِهَا النَّاسَ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية: آية وعظ وتذكير، والإنسان فقير إلى الله - تعالى - في دقائق الأمور وجلالها؛ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرَفَةٌ عَيْنٍ؛ وهو به مستغن عن كل أحد، ﴿والله هو الغني / الحميد﴾ أي: المحمود بالإطلاق. ١٨٣

وقوله: ﴿بعزيز﴾ أي: بمُتَنَبِّحٍ و﴿تزر﴾ تَحْمِلُ، وهذه الآية في الذنوب، وأُنْثَتْ وازرة﴾ لأنه ذهب بها مذهب النفس وعلى ذلك أُجريت ﴿مُثْقَلَةٌ﴾، واسم ﴿كان﴾ مضمراً تقديره: ولو كان الداعي. ثم أخبر تعالى نبيه أنه إنما ينذر أهل الخَشْيَةِ. ثم حض على التزكي بأن رجى عليه غاية الترجية. ثم توعده بعد ذلك بقوله: ﴿والى الله المصير﴾.

قال *ع^(١): * وكلُّ عبارة فهي مقصورة عن تفسير هذه الآية، وكذلك كتاب الله كله، ولكن يظهر الأمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع؛ بحسبِ تَقْصِيرِنَا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَارُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مِّثْقَلًا الْأَوْثَانِ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيمٌ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَشْجَارِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ الآية: مُضْمَنُ هذه الآية الطعن على الكفرة وتمثيلهم بالعمي والظلمات؛ وتمثيل المؤمنين بإزائهم بالبصراء والأنوار. و﴿الحرور﴾: شدة الحر.

قال الفراء وغيره: إن السموم يختص بالنهار ﴿والحرور﴾ يقال في حرّ الليل وحرّ النهار. وتَأَوَّلَ قومُ الظلّ في هذه الآية الجنة والحرور جهنم، وشبه المؤمنين بالأحياء، والكفرة بالأموات؛ من حيث لا يفهمون الذكر ولا يُقبلون عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ تمثيل بما يُحسُّه البشر ويَعْهده جميعاً من أن الميت الشخص الذي في القبر لا يسمع، وأما الأرواح فلا نقول إنها في القبر، بل تَتَضَمَّنُ الأحاديث أن أرواح المؤمنين؛ في شجر عند العرش، وفي قناديل وغير ذلك، وأن أرواح الكفرة في سجين، ويجوز في بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور؛ فربما سمعت، وكذلك أهل قَلِيبٍ بَدْرٍ إنما سمعت أرواحهم؛ فلا تعارض بين الآية وحديث القليب.

وقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ معناه: أن دعوة الله تعالى قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم مَنْ لَمْ تُبَايِزْهُ النَّذَارَةُ؛ فهو ممن بلغته؛ لأن آدم بُعِثَ إلى بَيْتِهِ، ثم لم تنقطع النذارة إلى زمن محمد ﷺ، و﴿البيّنات﴾ و﴿الزّبر﴾ و﴿الكتاب المنير﴾: شيء واحد؛ لكنه أكد أوصاف بعضها ببعض.

وقوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد...﴾ الآية: جمع «جُدَّة» وهي: الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طويلاً، وحكى أبو عبيدة في بعض كتبه: أنه يقال: جُدَّدَ في جمع «جديد»، ولا معنى لمدخل الجديد في هذه الآية، وقال الثعلبي: وقيل الجُدَّدُ القِطْعُ؛ جُدَّدَتِ الشيء؛ إذا قطعته، انتهى.

وقوله: ﴿وغرابيب سود﴾ لفظان لمعنى واحد، وقَدَّمَ الوصفَ الأبلغ، وكان حقّه أن يتأخّر، وكذلك هو في المعنى؛ لكنّ كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا النحو، والمعنى: ومنها، أي: من الجبال؛ سودّ غرابيب، ورُوي عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَنْبَغُزُ الشَّيْخَ الْغُرَيْبَ»^(١)؛ يعني: الذي يَخْضُبُ بالسَّوَادِ. ﴿ومن الناس والدواب والأنعام﴾، أي: خَلَقَ مُخْتَلِفَ ألوانه.

وقوله تعالى: ﴿كذلك﴾ يحتمل أن يكون من الكلام الأول فيجيء الوقف عليه حسناً، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين. ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني؛ خَرَجَ مخرج السبب كأنه قال: كما جاءت القدرة في هذا كله كذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده

(١) ذكره السيوطي في «الجامع الكبير» (٥١٧٨)، وعزاه للدليمي في «مسند الفردوس» عن أبي هريرة.

٨٣ ب العلماء، أي: المحصلون لهذه العبر، الناظرون فيها، / وفي الحديث عن النبي ﷺ: (١) «أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»؛ وقال ﷺ «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ» (٢).

وقال الرِّبِّيع بن أنس: مَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ (٣)، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: كَفَى بِالزَّهْدِ عِلْمًا (٤)، ويقال: إِنْ فَاتِحَةُ الزُّبُورِ: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ خَشْيَةُ اللَّهِ» وقال ابن مسعود (٥): كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وبِالْإِغْتِرَارِ بِهِ جَهْلًا.

وقال مجاهد والشعبي (٦): إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ. و﴿إِنَّمَا﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْضِيضٌ لِلْعُلَمَاءِ؛ لَا لِلْحَصَرِ. قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ فِي «الْحِكْمِ»: الْعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شِعَاعُهُ، وَيُكْشَفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قَنَاعُهُ، خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ؛ وَالْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ؛ وَإِلَّا؛ فَعَلَيْكَ.

وقال في «التنوير»: أَعْلَمَ أَنَّ الْعِلْمَ؛ حَيْثُ مَا تَكَرَّرَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ أَوْ فِي السَّنَةِ؛ فَإِنَّمَا الْمَرَادُ بِهِ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي تُقَارِنُهُ الْخَشْيَةُ وَتُكْتَفِئُهُ الْمَخَافَةُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فَيَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْخَشْيَةَ تُلَازِمُ الْعِلْمَ، وَفُهُمَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ الْخَشْيَةِ. انْتَهَى.

قال ابن عَبَاد في «شرح الحكم»: وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ النَّافِعَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهِ فِيمَا سَلَفَ وَخَلَفَ؛ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يُوْدِي صَاحِبَهُ إِلَى الْخَوْفِ، وَالْخَشْيَةِ، وَمِلَازِمَةِ التَّوَاضُّعِ، وَالدُّلَّةِ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْإِيمَانِ، إِلَى مَا يَتَّبَعُ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الدُّنْيَا، وَالزَّهَادَةِ فِيهَا، وَإِيثَارِ الْآخِرَةِ عَلَيْهَا، وَلِزُومِ الْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْعَلِيَّةِ وَالْمَنَاجِي السَّنِيَّةِ. انْتَهَى. وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا مُحَصَّلَةٌ فِي كِتَابِ الْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ، وَنَفَعْنَا بِبَرَكَاتِهِمْ.

- (١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/١٥٢): غريب، وذكره الثعالبي هكذا.
- (٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١١٦) عن عقبة بن عامر، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/٤٧٠ - ٤٧١) رقم (٧٤٤) من حديث ابن مسعود، وضعفه البيهقي.
- (٣) ذكره ابن عطية (٤/٤٣٧).
- (٤) ذكره ابن عطية (٤/٤٣٧).
- (٥) ذكره ابن عطية (٤/٤٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٧٠)، وعزاه لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وعبد بن حميد، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه.
- (٦) ذكره البغوي (٣/٥٧٠)، وابن عطية (٤/٤٣٧)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/٤٧٠)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن مجاهد.

قال صاحب: «الكلم الفارقة والحكم الحقيقية»: العلم النافع ما زهّدك في دنياك، ورغّبك في آخرك، وزاد في خوفك وتّقواك، وبعثك على طاعة مولاك، وصفاك من كدر هواك. وقال - رحمه الله -: العلوم النافعة ما كانت لِلْهِمَمِ رافعة، وللأهواء قامعة، وللشكوك صارفة دافعة. انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبْوَءَ ۖ وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ (٢٩) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ (٣٠)﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ...﴾ الآية، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: هذه آية^(١) القراء.

قال *ع^(٢): وهذا على أن ﴿يتلون﴾ بمعنى: يقرؤون، وإن جعلناه بمعنى: يتبعون، صح معنى الآية؛ وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، وكتاب الله هو القرآن، وإقامة الصلاة، أي: بجميع شروطها، والنفقة هي في الصدقات ووجوه البر و﴿لن تبور﴾ معناه: لن تكسَد. و﴿يزيدهم من فضله﴾ قالت فرقة: هو تَضْعِيفُ الحَسَنَاتِ، وقالت فرقة: هو إما النظر إلى وجه الله عز وجل، وإما أن يجعلهم شافعين في غيرهم؛ كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

*ت: وَقَدْ خَرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الثَّوْرِيِّ عَنِ شَقِيقٍ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِيُؤْتِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ قَالَ: أَجُورَهُمْ: يَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ، وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ: الشَّفَاعَةُ لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ مِمَّنْ صَنَعَ إِلَيْهِ الْمَعْرُوفَ فِي الدُّنْيَا. وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَهَ فِي «سُنَنِهِ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ /، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُصَفُّ النَّاسُ ١٨٤ صُفُوفًا». وَقَالَ ابْنُ نُعَيْمٍ: أَهْلُ الْجَنَّةِ - فَيَمُرُّ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ، أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْنْتَنِي، فَسَقَيْتَكَ شَرْبَةً؟ قَالَ: فَيَشْفَعُ لَهُ. وَيَمُرُّ

(١) أخرجه الطبري (٤١٠/١٠) (٢٨٩٨٨)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٤)، وابن كثير في «تفسيره» (٣/

٥٥٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧١/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير،

ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «المحرر» (٤٣٨/٤).

الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ: أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ نَاوَلْتُكَ طَهُورًا؟ فَيَشْفَعُ لَهُ، قَالَ ابْنُ ثُمَيْرٍ: «وَيَقُولُ: يَا فَلَانُ؛ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي لِحَاجَةٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَهَبْتُ لَكَ؟ فَيَشْفَعُ لَهُ»^(١). وخرجه الطحاوي وابن وضاح بمعناه، انتهى من «التذكرة».

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا لَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا...﴾ الآية: ﴿أَوْرَثْنَا﴾ معناه: أعطيناه فرقة بعد موت فرقة، و﴿الكتاب﴾ هنا يريد به: معاني الكتاب، وعلمه، وأحكامه، وعقائده، فكان الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن؛ وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة قبله؛ فكانه ورث أمة محمد الكتاب الذي كان في الأمم قبلها. قال ابن عطاء الله في «التنوير»: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله تعالى -: أكرم المؤمنين؛ وإن كانوا عصاة فاسقين، وأمرهم بالمعروف، وأنهم عن المنكر، وأهجرهم رحمة بهم؛ لا تعزراً عليهم، فلو كشف عن نور المؤمن العاصي، لطبق السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع، ويكفيك في تعظيم المؤمنين - وإن كانوا عن الله غافلين - قول رب العالمين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ فانظر كيف أثبت لهم الاصطفاء مع وجود ظلمهم، واعلم أنه لا بد في مملكته من عباد هم نصيب الحلم، ومحل ظهور الرحمة والمغفرة، ووقوع الشفاعة، انتهى. و﴿الذين اصطفينا﴾ يريد بهم أمة محمد ﷺ. قاله ابن عباس وغيره^(٢). و﴿اصطفينا﴾ معناه: اخترنا وفضلنا، والعباد عاُمٌ في جميع العالم، واختلِفَ في عود الضمير من قوله: ﴿فمنهم﴾ فقال ابن عباس وغيره؛ ما مقتضاه: إن الضمير عائِدٌ على

(١) أخرجه ابن ماجه (١٢١٥/٢) كتاب الأدب: باب فضل صدقة الماء، حديث (٣٦٨٥) من طريق يزيد الرقاشي عن أنس.

وقال البوصيري في «الزوائد»: في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) (٢٨٩٩٣)، وذكره البغوي (٥٧٠/٣)، وذكره ابن عطية (٤٣٨/٤)، وذكره ابن كثير (٥٥٥/٣)، وذكره السيوطي في «الدور المشهور» (٤٧٢/٥)، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس بنحوه.

﴿الذين اصطفينا﴾ وإن الأصناف الثلاثة هي كلها في أمة نبينا محمد ﷺ^(١)، فالظالم لنفسه: العاصي المسرف، والمقتصد: متقي الكبائر، وهُم جمهور الأمة، والسابق: المتقي على الإطلاق، وقالت هذه الفرقة: الأصناف الثلاثة في الجنة، وقاله أبو سعيد الخدري^(٢)، والضمير في ﴿يدخلونها﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة - رضي الله عنها - وكعب - رضي الله عنه -: دخلوها كلهم ورب الكعبة^(٣)، وقال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم^(٤) ناج.

وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث: يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث: يحاسبون حساباً يسيراً؛ ثم يدخلون الجنة، وثلث: يجيئون بذنوب عظام؛ فيقول الله - عز وجل -: ما هؤلاء؟ - وهو أعلم بهم - فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا؛ فيقول - عز وجل - أدخلوهم في سعة رحمتي^(٥). وروى أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة» وقرأ عمر هذه الآية، ثم قال / : قال ٨٤ رسول الله ﷺ سابقاً سابق، ومقتصدناً ناج، وظالمناً مغفور له^(٦)؛ وقال عكرمة والحسن وقتادة^(٧)؛ ما مقتضاه: أن الضمير في ﴿منهم﴾ عائد على العباد، فالظالم لنفسه: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: التقي على الإطلاق^(٨). وقالوا هذه الآية نظير قوله

(١) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) (٢٨٩٩٣) بنحوه، وذكره البغوي (٥٧١/٣) وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره ابن كثير (٥٥٥/٣).

(٢) أخرجه الطبري (٤١٤/١٠)، رقم (٢٩٠١٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره ابن كثير (٣/٥٥٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٥)، وعزاه للطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) رقم (٢٨٩٩٨، ٢٨٩٩٦) عن كعب، وذكره البغوي (٥٧١/٣) عن عائشة، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٢/٥، ٤٧٣)، وعزاه للطيالسي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن عقبة بن صهبان عن عائشة، وعزاه أيضاً لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، والبيهقي عن كعب الأحبار بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري (٤١٢/١٠) رقم (٢٩٠٠٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤).

(٥) أخرجه الطبري (٤١١/١٠) رقم (٢٨٩٩٤٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٤٣٩/٤)، وذكره ابن كثير (٣/٥٥٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٣/٥)، وعزاه لابن جرير عن ابن مسعود بنحوه.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٦/٥)، وعزاه إلى الطبراني، والبيهقي في «البعث».

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٧/٥)، وعزاه إلى سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث».

(٨) أخرجه الطبري (٤١٢/١٠، ٤١٣) رقم (٢٩٠٠٧، ٢٩٠٠٨) عن الحسن وقتادة، وذكره البغوي (٣/٥٧١)، وابن عطية (٤٣٩/٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤٧٤/٥)، وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة، وله والبيهقي عن الحسن بنحوه.

تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] الآية.

والضمير في ﴿يدخلونها﴾ على هذا التأويل خاص بالمُقْتَصِدِ والسابق، وباقي الآية بين، و﴿الحزن﴾ في هذه الآية عام في جميع أنواع الأحزان، وقولهم: ﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ وصفوه سبحانه بأنه يغفر الذنوب، ويجازي على القليل من الأعمال بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره، لا رب سواه، و﴿دار المقامة﴾: الجنة، و﴿المقامة﴾: الإقامة و﴿النَّصَبُ﴾: تعب البدن و﴿اللغوب﴾: تعب النفس اللازم عن تعب البدن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا حَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَبِدَّ لِلظَّالِمِينَ بَعْضُ مَا يَصْنَعُونَ (٤٠) إِنَّ اللَّهَ بِمِيسِلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْزَلَ وَلَٰكِنْ تَأْلَٰوْاْ إِن مَّا سَكُومًا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعِيدٍ إِنَّهُمْ كَانُوا حَالِمًْا عَفْوًّا (٤١)﴾.

وقوله سبحانه: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ هذه الآية تؤيد التأويل الأول من أن الثلاثة الأصناف هي كلها في الجنة، لأن ذَكَرَ الكافرين أَفْرَدَها هنا. وقوله: ﴿لا يقضى عليهم﴾ أي لا يُجْهَزُ عليهم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون هذه المقالة فيقال لهم على جهة التوبيخ: ﴿أو لم نعمركم﴾ الآية. واختُلِفَ في المدة التي هي حَدٌّ للتذكر، فقال الحسن بن أبي الحسن: البلوغ، يريد أنه أول حال التذكر^(١). وقال ابن عباس أربعون سنة؛ وهذا قول حسن^(٢)؛ ورويت فيه آثار. وروِيَ أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب؛ مسح الشيطان على وجهه، وقال: بأبي وجه لا يفلح، وقيل: الستين وفيه حديث.

ت: وفي «البخاري»: من بلغ ستين سنة فقد أعْذَرَ اللَّهُ إليه؛ لقوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ يعني: الشيب. ثم أَسْنَدَ عن أبي هريرة عن

(١) ذكره ابن عطية (٤/٤٤١).

(٢) ذكره ابن عطية (٤/٤٤١)، وابن كثير (٣/٥٥٨) بنحوه.

النبي ﷺ قال: «أَعَذَّرَ اللَّهُ أَمْرًا آخَرَ أَجَلُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً»^(١). انتهى. و﴿النذير﴾ في قول الجمهور: الأنبياء. قال الطبري^(٢): وقيل: النذير: الشيب، وهذا أيضاً قول حسن.

وقوله: ﴿فعلية كفره﴾ أي وبأل كفره و﴿المقت﴾: احتقارك الإنسان من أجل مَعْصِيَتِهِ، والخَسَارُ: مُصَدَّرٌ خَسِرَ يَخْسِرُ، و﴿أرأيتم﴾، تنزل عند سيبويه منزلة أخبروني، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين، والرؤية في قوله ﴿أروني﴾ رؤية بصر.

ت: قال ابن هشام: قوله ﴿من الأرض﴾، «من»: مرادفة «في». ثم قال: والظاهر أنها لبيان الجنس، مثلها: ﴿ما ننسخ من آية...﴾ [البقرة: ١٠٦] الآية. انتهى. ثم أضرب سبحانه عنهم بقوله: ﴿بل إن يعد﴾ أي: بل إنما يعدون أنفسهم غروراً.

وقوله: ﴿أن تزولا﴾ أي: لثلاثاً تزولا، ومعنى الزوال هنا: التنقل من مكانها، والسُّقُوطُ من علوها. وعن ابن مسعود أن السماء لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولئن زالتا﴾ قيل: أراد يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي: من بعد تركه الإمساك.

قال *ص*: ﴿إن أمسكهما﴾: إن: نافية بمعنى، ما، وأمسك: جواب القسم المقدّر قبل اللام الموطئة في ﴿لئن﴾، وهو بمعنى: يمسك؛ لدخول إن الشرطية؛ كقوله تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥] أي: ما يتبعون / ١٨٥ وكقوله: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً﴾ الآية إلى قوله: ﴿لظلوا من بعده﴾ [الروم: ٥١] أي: لَيَظْلُونَ، وحذف جواب إن في هذه المواضع لدلالة جواب القسم عليه.

وقوله: ﴿من أحد﴾ ﴿من﴾: زائدة لتأكيد الاستغراق انتهى.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُم مِّن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَوَاحِدُكَ اللَّهُ أَلَّنَ الْإِنْسَانُ بِمَا كَسَبُوا مَا

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣/١١) كتاب الرقاق: باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر، حديث (٦٤١٩).

(٢) ينظر: «الطبري» (٤١٩/١٠).

(٣) ذكره ابن عطية (٤٤٢/٤).

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُخْرِجُهُمْ لَكَ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ﴾ يعني: قريشاً ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ الآية: وذلك أنه روي: أن كُفَّارَ قريش كانت قبل الإسلام تنكر على اليهود والنصارى، وتأخذ عليهم في تكذيب بعضهم بعضاً وتقول: لو جاءنا نحن رَسُولٌ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْ هَؤُلَاءِ، و﴿إحدى الأمم﴾: يُريدون: اليهود والنصارى، ﴿فلما جاءهم نذير﴾ وهو: محمد ﷺ ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ وقرأ ابن مسعود^(١): و«مكراً سيئاً»، و﴿يحيق﴾: معناه: يحيط ويحل وينزل، ولا يستعمل إلا في المكروه و﴿ينظرون﴾ معناه: ينتظرون والسنة: الطريقة والعادة. وقوله: ﴿فلن تجد لِسْتِ اللَّهِ تبديلاً﴾ أي: لتعذيبه الكفرة المكذبين، وفي هذا وعيدٌ بَيِّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ لَمَّا توعدهم سبحانه بسنة الأولين وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لما رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره؛ كديارِ ثمود ونحوها، و«يعجزه»: معناه: يفوته ويفلته.

وقوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية: قوله: ﴿من دابة﴾: مبالغة، والمراد: بنو آدم؛ لأنهم المُجَاوِزُونَ، وقيل: المراد الإنس والجن، وقيل: المراد: كُلُّ مَا دَبَّ مِنَ الْحَيَوَانِ وَأَكْثَرُهُ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْفَعَةِ ابْنِ آدَمَ، وبسببه، والضمير في: ﴿ظهرها﴾ عائدٌ على الأرض، والأجل المسمى: القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله كان بعباده بصيراً﴾: وعيدٌ، وفيه للمتقين وعدٌ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله على ما أنعم به.

(١) قال أبو الفتح: يشهد لتكثيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه: «استكباراً في الأرض». وقراءة العامة أقوى معنى؛ وذلك أن «المكر» فيها معرفة لإضافته إلى المعرفة، أعني السَّيِّءِ، فكانه قال: والمكر السَّيِّءُ الذي هو عال مستكره مستنكر في النفوس.
ينظر: «المحتسب» (٢/٢٠٢)، و«الكشاف» (٣/٦١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/٤٤٣)، و«البحر المحيط» (٧/٣٠٥)، و«الدر المصون» (٥/٤٧٣).

محتوى الجزء الرابع من تفسير «الشعالي»

اسم السورة	رقم الصفحة
مريم	٥
طه	٤٣
الأنبياء	٧٩
الحج	١٠٦
المؤمنون	١٤١
النور	١٦٧
الفرقان	٢٠٢
الشعراء	٢٢٤
النمل	٢٤٢
القصص	٢٦٣
العنكبوت	٢٨٨
الروم	٣٠٥
لقمان	٣١٨
السجدة	٣٢٦
الأحزاب	٣٣٤
سبا	٣٦٣
فاطر	٣٨١